

البیو کامو

# الإنسان الملتصق

ترجمة  
فهاد رضا



الإنسان في العصور





البشير كامو

جائزة نوبل،

# الإنسان الملتصق

ترجمة

فهاد رضا

عاز لى الأدب والمثقة من السربون

منهورات عوحدات

بيروت - بارس

مشورات عويدات - بيروت  
جميع حقوق الطبعة العربية في الماء وفي اللدان العربية  
خاصة محفوظة لدار مشورات عويدات - بيروت ، بموجب  
اتفاق خاص مع دار عالمي مار Gallimard - باريس

الى جان غرينيه

نذرت قلبي علانيةً للأرض العظيمة المعبدة ،  
وغالباً ما عاهدتها في ظلمة الليل المقدس ، على  
أن أحبها ، مع ما تحمل من عبء القدر ، حباً  
وفياً ودونما وجل حتى الموت ، وعلى أن لا  
لا أقابل أي لغز من ألغازها بالازدراء .

هكذا ارتبطت بها برباط يميت .

هولدرلين

موت أمبيدوفليس

# المقدمة

## العبث والقتل

ثمة جرائم 'ترتكب بدافع الهوى' (١) ، وأخرى استناداً الى محاكمات عقلية .  
إن مجموعة القوانين الجزائية تميز بينهما تمييزاً ملائماً إلى حد كافٍ ، إستناداً  
إلى مبدأ سبّاقِ التصور والتصميم . وإننا لفي زمانِ سبّاقِ التصوّر والتصميم ،  
في زمانِ الجريمة الكاملة . فلم يعد مجرمونا هؤلاء الاطفال العزل يتذرعون  
بالحب . لأنهم ، بالعكس ، راشدون ؛ ولا سبيل إلى دحض ذريعتهم : الفلسفة  
التي 'تستخدم لكل شيء' ، حتى لتحويل القتل إلى قضاة .

إن هينكليف ، في مرتفعات ويدرنبغ (٢) ، مستعد لقتل البرية كلها كي يملك  
حييته كافي ، ولكن لن يخطر بباله أن يقول إن هذا القتل معقول ، أو أنه  
يُبرّر بذهب . إنه يرتكب الجريمة ، وعند هذا الحد يقف كل معتقده .  
ويفترض هذا العمل قوة الحب ، والمزاج الملائم . وبما أن قوة الحب نادرة

(١) مقدمة الكتاب مطبوعة ، والأفضل أن تقرأ ثانية بعد الانتهاء من الكتاب لأنها تشير  
بشكل مقتضب وغريدي لما هو معمل ومشروح في فصول الكتاب المختلفة - العرب -  
(٢) قصة .

الوجود ، لذلك يبقى القتل عملاً استثنائياً ، ويحتفظ بإذن بطابعه التحطيمي . ولكن اعتباراً من اللحظة التي تسارع فيها ، بسبب انعدام المزاج الملائم ، إلى التسليح بأحدى النظريات ، ومُؤدِّ شرع الجريمة بالتدفع بالحكمات المنطقية ، فإنها تتشعب تشعب العمليات العقلية ، وتكتسب كل أشكال القياس المنطقي . لقد كانت متوحدة منفردة كالصرخة ، فإذا بها 'تصبح عامة شاملة كالعلم . بالأمر كانت في قصص الانهزام ، وما هي ذي قد أصبحت صاحبة الأمر والنهي .

لن نستطيع غيظاً لذلك هنا . فهدف الدراسة ، وتكرار القول ، هو قبول واقع الحال ، ونعني الجريمة المنطقية ، وأن نقصص مبرراتها : إنني أبذل جُهدي هذا في سبيل قهرهم زماني . لعلنا نعتبر أن عصراً شرّاً أو استعبد أو قتل سبعين مليون نسمة خلال خمسين عاماً ، يستدعي فقط وقبل كل شيء أن يحاكم . إلا أنه يجب أن نفهم ديبه . ففي العهود الأولية الساذجة حين كان الطاغية يمسح مدناً بأكملها لإعلاء مجده ، وحين كانت العبد الموثق بعربة المنصر يسير معروضاً في شوارع المدن المختلفة بأعياد النصر ، وحين كانت 'يرمى بالعدو إلى الحيوانات المفترسة أمام جموع الشعب المحقد ، نقول : لئلا جرائم مثل هذه الساذجة ، كان في وسع الوجدان أن يكون ثابتاً وفي وسع الحكم أن يكون جلياً . أما أن 'نقام معسكرات العبيد تحت راية الحرية ، وأن 'نبرّر المجازر بحجة الانسان أو بالميل الى انسانية متفوقة ، فهذا لعمرى ما يُعني ، بوجه ما ، قوة التمييز والحكم . حيناً تترنن الجريمة بثوب البراءة ، وذلك بحكم طريقة مقالوبة غريبة يتميز بها عصرنا ، يومئذ يُطلب الى البراءة أن تقدم مبرراتها . إن مطمح هذه الدراسة قبول وتفحص هذا التحدي الغريب .

إن ببت القصيد أن نعرف هل البراءة ، اعتباراً من قيامها بعمل ، لا يسعها أن تمتنع عن القتل . فنحن لا نستطيع ان نقوم بعمل إلا ضمن إطار زماننا ، وبين الأناس المحيطين بنا . ولن نعرف شيئاً ما دمنا لا نعلم هل لنا الحق في أن نقتل هذا الانسان الآخر الموجود أمامنا ، أو في أن نوافق على مقتله . وبما أن

كل عمل في يومنا هذا يؤدي الى القتل ، المباشر أو غير المباشر ، لذلك لا نستطيع القيام بعمل قبل أن نعلم هل ينبغي لنا ، ولماذا ينبغي لنا ، أن نقتل .

ليس المهم بعدُ أن نرجع إلى أصل الأشياء ، بل أن نعرف . والعالم على ما هو عليه - كيف تنصرف فيه . ففي زمان الإنكار ربما كان من السهل أن تتساءل حول مشكلة الانتحار . أما في زمن النظريات العقائدية فيجب السير بموجب الأصول مع القتل . فإذا كان للقتل أسبابه ، فنحن وزماننا على هدى من أمرنا . وإذا لم يكن له أسبابه ، فنحن في دوامة الجنون ، وليس لنا من مخرج سوى أن نجد قية ، أو أن تنصرف عن هذه الطريق . مهما يكن من أمر ، فعلى أن نجيب بوضوح عن السؤال المطروح علينا ، في خضم العصر وصيحات احتجاجه ، لأننا محور الموضوع . فنذ ثلاثين عاماً ، قبل عقد النية على القتل ، أنكرنا وأنكرنا كثيراً حتى أنكرنا ذاتنا بالانتحار . الله يغش ، والجائع يغشون معه ، وأنا نفسي أغش ، بناء على ذلك ، أنا أموت : لقد كان الانتحار محور الموضوع . أما النظريات العقائدية في الوقت الحاضر فلم تعد تنكر سوى الآخرين ، الفاشين الوحيدون . بناءً على ذلك يقتل الآخرون . وهكذا ، في مطلع كل فجر ، ثمة قتلة مزدانون بالأوسمة يتسللون الى زنزاة : لقد صار القتل محور الموضوع .

أن التحليلين قائمان معاً . وهما يشداننا بالأحرى لدرجة أننا لم نعد تتمكن من اختيار مشكلاتنا . انهما يصطفياننا الواحد تلو الآخر . فلنقبل إذن أن نكون موضع اصطفاة . إن هدف هذه الدراسة أن تتابع ، أمام القتل والتبرد ، تأملًا بدأ حول الانتحار ومفهوم العبث .



على أن هذا التأمل لا يقدم لنا في الوقت الحاضر سوى مفهوم واحد ، مفهوم العبث . وهذا المفهوم ، بدوره ، لا يحمل إلينا سوى تناقض فيما يتعلق بالقتل . إن الشعور بالعبث ، حينما نزعج باديء ذي بدء أننا نستخلص منه قاعدة

سلوك ، يجعل القتل على الأقل عملاً ليس له ما يؤيده أو ما ينافيه ، وبالتالي عملاً ممكناً . فإذا كنا لا نؤمن بشيء ، وإذا لم يكن هناك معنى لأي شيء ، وإذا كنا لا نستطيع تأكيد أية قيمة ، أصبح كل شيء ممكناً ، ولا أهمية لأي شيء . لا يعود هناك إذن ما يؤيد وما ينافي ، ولا يكون القاتل على خطأ أو على صواب . في وسعنا حينئذ أن نؤجج الحارق ، كما في وسعنا أن نتذّر أنفسنا للعناية بالمجذومين . وتكون الرذيلة والفضيلة مجرد صدفة ، أو مجرد نزوة .

يمكننا أن نقرر حينئذ أن لا نقوم بعمل ، ومعنى هذا على الأقل قبول مقتل الآخرين ، وأن نرتي - إن لزم - بعد البشر عن الكمال . ويمكننا أيضاً أن نستبدل العمل بالخلقة المفجعة ، وفي هذه الحالة لا تعود الحياة الإنسانية سوى مدار لعب .

ويمكننا أخيراً أن نعتزم القيام بعمل لا يكون بلا داع . وفي هذه الحالة الأخيرة ، نظراً لعدم وجود قيمة عليا موجبة للعمل ، سنتجه في منحنى الفعلية المباشرة . بما أنه ليس من شيء صحيح أو باطل ، حسن أو سيء ، لذلك ستكون القاعدة أن يظهر من أعمالنا أننا أكثر فعالية ، أي : أكثر قوة . حينئذ لا يعود الناس متقسبين إلى فئة عادلة وفئة باغية ، بل إلى سادة وعبيد . وعليه ، كيفما انجبنّا ، نرى أن للقتل مقامه المفضل في صميم الإنكار والعدمية . فإذا ادعينا تبني الموقف العبي ، فمن واجبنا أن تنهياً للقتل ، مقدمين المنطق على وسواس نعتوبها وهمية . لا جرم أن الأمر يتطلب بعض الاستعدادات ، ولكنه ، في الحاصل ، يتطلب أقل مما تصور ، إذا حكمنا على ذلك استناداً إلى التجربة . ومع ذلك ، من الممكن دائماً ، كما يرى عادة ، أن ندفع غيرنا إلى القتل . كلّ شيء يسوّى أدن باسم المنطق ، إذا وجد المنطق حقاً فائدته فيه .

والكن ليس في وسع المنطق أن يجد مصلحته في موقف يريه على التوالي



ان القتل ممكن وغير ممكن . ذلك ان التحليل العبيثي ، بعد ما جعل عملية القتل على الاقل ، عملية ليس لها ما يؤيدها أو ما ينافيها ، ينتهي الى إدانة هذه العملية في أهم نتيجة من نتائجها . إن النتيجة الأخيرة الناجمة عن المحاكمة العبيثية هي ، في الحقيقة ، نبذ الانتحار ، واستبقاء هذه المقابلة اليائسة بين التساؤل الإنساني وصمت العالم <sup>(١)</sup> . والانتحار معناه نهاية هذه المقابلة ، والمحاكمة العبيثية ترى انها لا تستطيع الموافقة على ذلك إلا بإنكار مقدماتها الخاصة . وتُصبح مثل هذه النتيجة ، في رأيها ، هروباً أو خلاصاً . ولكن من الواضح ان هذه المحاكمة في الوقت ذاته ، تقبل الحياة على انها الخير الوحيد الضروري ، لأنها بالضبط تسمح بهذه المقابلة ، ولولاها لكان الرهان العبيثي بلا دعامة . فلنكفي يقول إن الحياة عبث ، يلزم للشعور ان يكون شعوراً حياً . فكيف اذن ، دون ان نراجع امام الميل الى الراحة ، نحفظ لأنفسنا فقط بالتسرع بتل هذه المحاكمة ؟ والحقيقة ، ما أن يُعترف بهذا الخير كخير ، حتى يشل الجميع . اننا لا نستطيع ان نضفي على القتل تماسكاً اذا انكرنا هذا التماسك على الانتحار . إن الذهن المشبع بفكرة العبث يقرّ ، دون شك ، بالقتل قضاء وقدرآ ، ولكن لا يسمعه ان يقبل بالقتل المبني على المحاكمة العقلية . فالقتل والانتحار هما ، إزاء المقابلة ، شيء واحد ، يجب أن تقبلها معاً أو أن نطرحها معاً .

ذلك أن العدمية المطلقة ، العدمية التي تقبل بتسوية الانتحار ، تُسرع بمزيد من السهولة أيضاً الى القتل المنطقي . فإذا كان زماننا يسلم دونما صعوبة بأن للقتل مبرراته ، فذلك بسبب عدم الاكترات بالحياة الذي تتميز به العدمية . لقد كانت هناك ، دون ريب ، فترات بلغ فيها حب الحياة حداً جعله ينفجر هو أيضاً في أعمال إجرامية مقرطة . ولكن هذه المبالغات كانت كحرق متعة رهيبة ، ولم تكن هذا النظام الرتيب ، أقامه منطق "بائس يتساوى في ناظره كل شيء" . ولقد سار هذا المنطق بغير الانتحار التي تغذى بها عصرنا ، حتى نتيجتها

.....  
(١) راجع أسطورة سبريت .

القصوى ، ونعني القتل المبرر . وفي الوقت نفسه ، بلغ ذروته في عمليات الانتحار الجماعي . إن اسطع برهان ، قدمته رؤيا الدمار الكلي المتتالية عام ١٩٤٥ ؛ فإفناء الذات لم يكن شيئاً يُذكر بالنسبة الى المجانين الذين كانوا يُعدّون لأنفسهم ميتة تأليهية في الاوكلر . كان الامر الاساسي بالنسبة اليهم أن لا ينفوا أنفسهم فقط ، بل أن يمحروا معهم العالم كله . بصورة ما ، يُعتبر الانسان الذي يقتل نفسه على انفراد ، محتفظاً بقيمة ما ، لأنه في الظاهر لا يُقر لنفسه بحقوق على حياة الآخرين . والدليل على ذلك انه لا يستعمل ابداً ، في سبيل السيطرة على الآخرين ، هذه القوة الرهيبة وهذه الحرية الواسعة اللتين تأتياه عن تصميمه على الموت . إن كل انتحار منفرد ، حيناً لا يكون دافعه الفيل ، هو في بعض نواحيه صادر عن شرف النفس أو عن الازدراء . بيد أننا نزدري بإسم شيء ما . فإذا كان العالم فاقده الأهمية بالنسبة الى المنتحر ، فذلك لأن هذا الأخير يملك فكرة عما هو مهم أو يمكن أن يكون مهماً بالنسبة اليه . فنحن نعتقد اننا نهدم كل شيء ، ونحمل معنا كل شيء ، ولكن عن هذا الموت بالذات تتبع قيمة ربما تستحق أن نحيا من أجلها . لذلك ، لا يُستنفذ الإنكار المطلق بالانتحار . ولا يمكن أن يُستنفذ إلا بإفناء انفسنا وإفناء الآخرين إفناء تاماً . وليس في وسعنا ان نحياه ، على الاقل ، إلا باتجاهنا نحو هذا الحد الرابع . إن الانتحار والقتل هما هنا وجهان من مرتبة واحدة ، مرتبة عقل تعبس يؤثر التمجيد الاسود الذي تتلاشى فيه الارض والسماء ، على الألم الناجم عن الوضع المحدود .

وبنفس الصورة ، اذا انكرنا على الانتحار اسبابه ، فلا يمكننا ان نقر للقتل بالأسباب . إذ لا يمكننا ان نكون نصف عديمين . إن المحاكمة العبيثة لا تستطيع في الوقت نفسه ان تصور حياة الشخص المتكلم ، وان تقبل بالتضحية بالآخرين . فنحن أن نقر باستحالة الإنكار المطلق – والعيش بصورة ما ، لإقرار هذه الاستحالة – فان اول شيء لا يمكن إنكاره هو حياة الآخرين . وعليه ،

إن المفهوم الذي اومئنا بأن القتل ليس له ما يؤيده أو ما ينافيه ، هو نفسه الذي يجرده بعدئذ من مبرراته . وعليه ، نعود الى الوضع غير الشرعي الذي حاولنا الخروج منه . والواقع أن محاكمة كهذه تؤكد لنا في وقت واحد أننا نستطيع ولا نستطيع أن نقتل . انها 'تختلفنا' في جو من التناقض ، دون أن يكون هناك ما من شأنه ان 'يحرم القتل أو يجعله ، مهددين مهددين ، نجرفنا حقبة مصابة بحمى العدمية ، وفي العزلة مع ذلك ، بأيدينا السلاح... وماخوذاً بخناقنا .



ولكن هذا التناقض الجوهرى يظهر ولا بد مع مجموعة من التناقضات الأخرى حالما ندعي البقاء في العبث ، مهملين طابعه الحقيقي كالتقاليد 'معاش ، كنقطة انطلاق ، كشيء على صعيد الوجود<sup>(١)</sup> للشك المتهاجي عند ديكارت . العبث هو في حد ذاته تناقض .

إنه تناقض في مضمونه ، لأنه يزيح الأحكام القيمية ، مع الرغبة في المحافظة على الحياة ؛ في حين ان العيش في حد ذاته حكم قيمي . التفتُّس 'حكم . من الخطأ ، ولا شك ، ان نقول إن الحياة اصطفاء دائم . ولكن من الصحيح ايضاً اننا لا نستطيع تصور حياة محرومة من كل اصطفاء . فالموقف العبثي ، من خلال وجهة النظر البسيطة هذه ، موقف لا يمكن تصوره ، بالفعل . ولا يمكن تصوره ايضاً في تعبيره . كل فلسفة من فلسفات اللامعنى تقوم على تناقض بمجرد ما 'يعبر عنها . انها ، بذلك ، تعطي للفوضى أقل حد ممكن من التماسك ، وتدخل الترابط الى ما ليس فيه ترابط ، على حد زعمها . إن مجرد الكلام يصلح الأمر . والموقف الوحيد المتناسك القائم على اللامعنى هو الصمت ؛ هذا اذا

(١) راجع مسألة الانتقال من الشك الى اليقين ، واثبات وجود الأنا عند ديكارت . ص ٦٥ .  
- تيارات الفكر العلمى ، تأليف اندويه كريسون ، ترجمة سعاد رضا ، منشورات عويدات .

كان الصمت ، بدوره ، لا يعني شيئاً . العبثية التامة تحاول أن تكون خرساء .  
فاذا ما تكلمت ، فذلك لأنها معجبة بذاتها ، أو لأنها - كما سنرى - تعتبر  
نفسها موقفة . هذا الاعجاب بالذات ، هذا الاعتبار للذات ، يميز تماماً الالتياس  
العميق الذي يكتنف الموقف العبثي . وبصورة ما ، إن العبث الذي يدعي  
التعبير عن الانسان في انفراده يجعله يحيا أمام مرآة . وحينئذ يتعرض التمزق  
الأصلي لأن يصبح مريخاً . إن الجرح الذي 'يحكك' بكثير من الاهتمام ، يولد  
اللذة في النهاية .

على أن كبار مغامري العبث لم يعوزونا . ولكن عظمتهم تقاس ، أخيراً ،  
في انهم رفضوا تساهلات العبث ، ولم يحتفظوا إلا بمتطلباته . انهم يدمون في  
سبيل ما هو أكثر ، لا ما هو أقل .

قال نيتشه : « الذين يريدون قلب الأمور رأساً على عقب ، لا أن يخلقوا  
أنفسهم بأنفسهم ، أولئك هم اعدائي » .

أما نيتشه فيقلب الأمور ، ولكن كي يحاول أن يخلق . وهو يشيد بالنزاهة  
مسلطاً سيطرته على المتعصبين ، « ذوي منطية الخنزير » . إن المحاكاة العبثية ،  
كما تنفصل من الاعجاب بالذات ، تجرد الزهد . انها ترفض التشتت وترمي في  
إملاق اعتباطي ، في إزماع على الصمت ، في التنكس الغريب الخاص بالتمرد .  
إن الشاعر رانبو الذي يتغنى بـ « الحريمة الحلوة التي تتوح في وحل الشارع » ،  
يجرع الى مدينة « هـ رار » ليشكو من أمر واحد فقط : انه يعيش بلا أسرة  
في هذه المدينة . كانت الحياة بالنسبة اليه « تمثيلية هزلية يقوم الجميع بأدوارها » .  
ولكن لما دنت ساعة الموت ، إذ به يشكو أمره الى أخته قائلاً : « سأوارى  
تحت التراب ، أما أنت فستيرين في ضياء الشمس ! » .



العبث متناقض لإذن ، اذا ما اعتبر كفاعدة حياة . فما الغرابة اذا لم يقدم  
لنا القيم التي تقرر ، بالنسبة لنا ، شرعية القتل ؟ من المستحيل ، على كل ، أن

نبنى موقفاً على انفعالٍ نفسيٍّ مميز. إن الشعور العبيّ واحدٌ من مشاعرٍ أخرى. فلئن هرب بطابعه كثيراً من الأفكار والأفعال في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، فهذا بثبت قوته وشرعيته فقط . ولكن حدة شعور ما ، لا يترتب عليها أن يكون هذا الشعور عاماً شاملاً . إن الخطأ الذي وقعت فيه حقبةٌ بأسرها ، هو أنها وضعت - أو افترضت أنها موضوعة - قواعد سلوكٍ اعتباراً من انفعالٍ نفسيٍّ يائس ، حركته الخاصة ، بما هو انفعالٌ نفسيٍّ ، أن يجاوز ذاته . إن الآلام الكبرى ، كالأفراح الكبرى ، قد تكون موجودة في بداية عاكمة ما . إنها عواملٌ وسيطة ، ولكننا لا نستطيع أن نجد لها ثابته وان نستقيها طوال هذه المحاكات . فإذا كان شرعياً اذن أن نأخذ الحساسية العبيّة بعين الاعتبار ، وإن نُشخص داء ما كما نجد في ذاتنا وفي الآخرين ، فمن المستحيل أن نرى في هذه الحساسية ، وفيما تفترض من عدمية ، سوى نقطة انطلاق ، سوى نقدٍ معاش ، سوى مثلٍ للشك المنهجي على صعيد الوجود . بعدئذ يجب أن نخطم المرأة وانكسارها الثابتة ، وإن ندخل في الحركة الجارفة التي بواسطتها يجاوز العبيّ ذاته .

عندما تحطم المرأة ، لا يبقى لدينا ما من شأنه أن يفيدنا في الإجابة على الأسئلة التي يطرحها العصر . إن العبيّ ، كالشك المنهجي ، نبذ كل شيء وضرب عنه صفحاً ، وخلقنا في مأزقٍ حرج . ولكنه ، كالشك المنهجي أيضاً ، يستطيع إذا ما عاد الى ذاته أن يوجه تحريات جديدة . وحينئذ تستمر المحاكمة بنفس الصورة . فإنا أصرخ قائلاً إنني لا أؤمن بشيء ، وأن كل شيء عبيّ ، ولكنني لا أستطيع الشك في صرختي ، وينبغي لي على أقل تقدير أن أؤمن باحتجاجي . إن البديهة الوحيدة التي ألقاها في صميم التجربة العبيّة ، هي التردد . انني ، وأنا المحروم من كل علم ، والمكروه على أن أقتل أو على أن أوافق على القتل ، لا أجد تحت تصرفي سوى هذه البديهة التي تتميز أيضاً بما أنا فيه من غموض . إن التردد ينشأ عن مشهد انعدام المنطق ، أمام وضع جائر

مستقل . ولكن توبه الأمل يطالب بالنظام وسط القوضى ، وبالوحدة في صميم الزائل المتلاشي . انه يصرخ ، يطالب بإلحاح ، يريد أن تتوقف المهرلة وأن يستقر أخيراً ما كان يُسَطَّر حتى الآن ، وبلا انقطاع ، على صفحة البحر . انه يريد أن 'يجول' ؛ ولكن التحويل معناه القيام بعمل ، والقيام بعمل معناه ، غداً ، القتل ؛ في حين انه لا يعلم هل القتل مشروع . انه ، بالضبط ، يولد الافعال التي يُطلب اليه تدويرها . على الترد لإذن أن يستمد مبرراته من ذاته ، لأنه لا يستطيع ان يستخلصها من أي شيء آخر . عليه أن يرضى بفحص ذاته ليعرف كيف يتصرف .

هناك قرنان من الترد الماورائي أو التاريخي ، يعرضان لتفكيرنا . ولا يستطيع سوى مؤرخ ان يطبع الى عرض المذاهب والحركات التي تتالت فيها ، عرضاً مفصلاً ؛ على الأقل ، لا بدّ انه من الممكن ان نجد فيها خطاً يوجه خطانا . إن الصفحات التالية لا تقترح سوى بعض العلامات الفارقة التاريخية ، وفرضية مفترية . هذه الفرضية ليست الوحيدة الممكنة ؛ وهي ، على كل ، عاجزة عن توضيح كل شيء . ولكنها تقسّر اتجاه زماننا تفسيراً جزئياً ، وتكاد تقسّر إفراطه تفسيراً كلياً . إن التاريخ العجيب الذي نأتي على ذكره في هذا الكتاب هو تاريخ الغطرسة الأوروبية .

وما كان في وسع الترد ، على كل ، أن يكشف لنا أسبابه إلا في ختام تحقيق يتناول موافقه ومطاعه وانتصاراته . فعمل في أعماله قاعدة السلوك التي لم يتمكن العبد من مدنا بها ، وإشارة على الأقل حول حق أو واجب القتل ، ولعل فيها أخيراً الأمل في خلق ما . الانسان هو الكائن الوحيد الذي يرفض أن يكون ما هو . والمسألة هي ان نعرف هل هذا الرفض لا يستطيع السير به إلا إلى إفناء الآخرين وإفناء ذاته ، وهل على كل فرد أن ينتهي بتبرير القتل الشامل ، أو انه بالعكس ، وعلى الأقل ، دون أن يطمح الى براءة متعملة ، يستطيع أن يكتشف مبدأ بتحريم معقول .

# الفصل الأول

الإنسان المتمرد

فكرة وجود حد ،  
فكرة وجود حتى ما (١)

ما الإنسان المتمرد ؟ انه انسان يقول : لا . ولئن رفض ، فانه لا يتغلى .  
فهو أيضاً انسان يقول : نعم ، منذ أول بادرة تصدر عنه . إن العبد الذي  
ألف تلقى الأوامر طيلة حياته يرى فجأة ان الأمر الجديد الصادر اليه غير  
مقبول . فما هو فعوى هذه « اللا » ؟

انها تعني مثلاً « أن الأمور استمرت اكثر مما يجب » و « أنها مقبولة حتى  
هذا الحد ، ومرفوضة فيما بعده » و « انك غاليت في تصرفك » ، وتعني أيضاً  
أن « هناك حداً يجب ان لا تتخطاه » . وخلاصة القول إن هذه « اللا » تؤكد  
وجود حد . إننا نجد نفس فكرة الحد في إحساس المتمرد بأن الانسان الآخر  
« يبالغ » ، وأنه يسطق حقه ويمجاوز الحد الذي اعتباراً منه يحاسبه ويحده حتى  
آخر . فحركة التمرد تستند إذن ، في نفس الوقت ، الى رفض قاطع لتعدي لا  
يطاق ، والى يقين مبهم بوجود حق صالح ، وبصورة أصح ، الى اعتقاد المتمرد  
ان « له الحق في أن ... » . فلا بدّ للتمرد من أن يكون مقترناً بشعور  
المرء بأنه على حق ، بصورة ما ، وفي مجال ما . وهذا المعنى يقول العبد المتمرد  
« نعم » و « لا » في نفس الوقت . إنه يؤكد وجود الحد ، ويؤكد في الوقت  
نفسه كل ما يتصوره ويريد أن يصونه فيما وراء الحد . ويبين بعناد أن في ذاته  
شيئاً ما « يستحق أن ... » ، شيئاً ما يتطلب أن يؤخذ بعين الاعتبار . انه ،  
بصورة ما ، يجابه الأمر القائم الصادر اليه بنوع من الحق في أن لا يضطهد الى  
أبعد من الحق المقبول .

(١) العناوين الصيرة من وضع الحرب . (الناشر)



## التمرد ووجود قيمة

إلى جانب النفور من المتعدي الغاشم ، هناك أيضاً في كل فرد مشايعة تامة وفورية من الانسان للسم معين من ذاته . إن الانسان يُدخل إذن بصورة ضمنية حكماً قيمياً يؤكد وسط المخاطر مهما كان واهي الأساس . حتى هذا الحد ، كان مغلداً الى الصمت على الأقل ، مستسلماً لهذا اليأس الذي يقبل فيه بوضع ما حتى لو اعتُبر جائزاً . إن الإخلاق الى الصمت معناه الانجاء للآخرين بأننا لا نحكم على شيء ، ولا نرغب في شيء ؛ وفي بعض الحالات معناه في الحقيقة أننا لا نرغب في شيء . إن اليأس ، كالموت ، يحكم على كل شيء ويرغب في كل شيء بشكل عام ، ولا يحكم على أي شيء ولا يرغب في أي شيء بشكل خاص . وإن الصمت ليعبر عنه تعبيراً جيداً ، ولكنه ما أن ينطق ، فإنه يرغب ويحكم حتى لو قال : « لا » . إن المتمرد ، بالمعنى الاستغاثي ، يبدل موقفه فجأة . لقد كان يسير تحت سطوة السيد ، فإذا به يقف موقف المجابهة . إنه يتقابل بين ما هو مفضل وغير مفضل . صحيح أن كل قيمة لا تولد التمرد ، ولكن كل حركة تمرد تستدعي ضمناً وجود قيمة . فهل نحن على الأقل بصدد قيمة ؟

## الشعور المفاجيء بقيمة مبهمة

ثمة وعي - مهما تكن درجة إبهامه - ينشأ عن حركة التمرد : الإدراك فجأة بأن في الانسان شيئاً يمكن للإنسان أن يتوحد معه ذاتياً ، ولو لوقت قصير . حتى الآن ، لم يكن 'يخس' بهذا التوحد إحساساً فعلياً . لقد تحمل العبد كل التعسفات السابقة لحركة التمرد . بل كثيراً ما تقبل ، دون تمرد ، أوامر أفسى من الأمر الذي يبرر الآن رفضه . لقد كان يولد بالصبر ، وربما كان يدفن هذه الأوامر المتعسفة في أنماق ذاته ، ولكنه - نظراً لصمته - كان مشغولاً بمصلحته المباشرة أكثر من أن يكون شاعراً بحقه بعد . ومع نقاد الصبر وانعدامه تبدأ ، العكس ، حركة ' قد تمتد فتشمل كل ما كانت

مقبولاً في السابق . هذه الوثبة تكاد تكون دائماً ذات مفعول رجعي . فالعبد عندما يرفض الأمر المهيمن الصادر عن سيده، يرفض في الوقت نفسه حالة العبودية بالذات . إن حركة التمرد تسير به إلى أبعد مما كان عليه في رفضه البحت . بل انه يتخطى الحد الذي عنه لحصه ، مطالباً الآن بأن يُعامل على قدم المساواة مع سيده . فالشيء الذي كان في البدء مقاومة عنيدة من الانسان ، أصبح الآن الانسان كله متوحداً في هذه المقاومة ومحتصراً فيها . حينئذ يضع هذا القسم من ذاته والذي كان يريد دفع الآخرين على احترامه ، نقول : يضع هذا القسم فوق كل ما تبقى ، ويعلم انه يفضل على كل شيء ، حتى على حياته . ويُصبح هذا الجزء بالنسبة اليه بمثابة الخير الأسمى . لقد كان وضعه من قبل وضع التسوية المجحفة ، فاذا به يرتقي دفعة واحدة ( « بما أن الأمر هكذا ... » ) في وضع جديد : « كل شيء او لا شيء » .

إن الشعور<sup>(١)</sup> يولد مع التمرد .

الاستعداد للفوت في سبيل  
هذا الكلام المهم

ولكننا نرى أن هذا الشعور هو ، في نفس الوقت ، شعور بـ « كل » ، لا يزال على درجة كافية من الغموض ، وشعور بـ « لا شيء » ، يُبشر بإمكانية تضحية الانسان في سبيل هذا الكل . فالتمرد يريد أن يكون كل شيء ، يريد أن يتوحد توحداً ذاتياً كلياً مع هذا الخير الذي شعر به فجأة ، وأن يُجَيِّساً ويُعترف به في شخصه . إنه يريد أن يكون هذا الكل ، أو أن يكون لا شيء : أي أن تحرمه القوة المتحركة به حرماناً نهائياً . وهو ، في النهاية ، يرضى بالحرمان والسقوط الاخير ، ونعني الموت ؛ اذا كان لا بد من حرمانه من هذا التكريس الخاص الذي يسميه ، مثلاً ، حرية . إنه يؤثر أن يموت عزيزاً رافع الرأس على أن يعيش عبثاً المروان .

(١) معنى وعي .

مجاوزه الذات الى قيمة

مشتركة بين الناس

تمثل « القيمة » ، في نظر المؤلفين الصالحين ، وفي اغلب الاحيان ، انتقالاً من الواقع الى الحق ، من المرغوب فيه الى المشتى (وذلك عن طريق المرغوب فيه اعتيادياً ، بوجه العموم ) . إن الانتقال الى الحق واضح في التمرد ، كما رأينا . وكذلك الانتقال من « كان يجب أن يتحقق ذلك » الى « أريد أن يتحقق ذلك » . وربما بشكل أكثر هذا المفهوم : مفهوم تجاوز الفرد في خير أصبح مشتركاً . إن بروز « كل شيء أو لا شيء » يبين أن التمرد ، خلافاً للرأي السائد ، وعلى الرغم من أنه ينشأ في صميم فردية الإنسان ، يثير التساؤل حول مفهوم الفرد بالذات . والحقيقة ان الفرد اذا قبل بالموت ، ومات في الوقت الموافق في حركة تمرده ، فانه يدلل بذلك على انه يضحي بذاته في سبيل خير يعتبر انه يجاوز مصيره الخاص . واذا فضل الموت على إنكار هذا الحق الذي يذود عنه ، فلأنه يضع الحق فوق ذاته . إنه يتصرف إذن باسم قيمة ، لا تزال مبهمة ، ولكنه يحس على الأقل بأنها قيمة مشتركة بينه وبين الناس جميعاً . وعليه ، نرى ان التأكيد الذي ينطوي عليه كل فعل تمرد يمتد الى ما هو أبعد من الفرد ، وذلك بمقدار ما ينتشله من عزله المفترضة ويمده بداع الى العمل . ولكن يجدر بنا ان نلاحظ ان هذه القيمة السابقة في وجودها لكل عمل ، تناقض الفلسفات التاريخية الصرفة التي تذهب الى ان القيمة 'تكتسب' -- هذا اذا كانت 'تكتسب' -- في نهاية العمل . إن تحليل التمرد يقودنا على الأقل الى تصور وجود طبيعة بشرية ، كما كان يعتقد الإغريق ، وخلافاً لفرضيات الفكر المعاصر . فلماذا يثور الانسان لو لم يكن هناك في ذاته شيء دائم يستدعي الصيانة ؟ إن العبد يجب في الحقيقة لنصرة الجميع ، في الوقت نفسه ، وذلك حينما يعتقد ان هذا الأمر الصادر اليه 'ينكر شيئاً لا يخصه وحده فحسب' ، بل هو محل مشترك يجد فيه الناس جميعاً ، حتى ذاك الذي

يشتم هذا العبد ويضطهده ، رابطة جائرة<sup>(١)</sup> .

ملاحظات

هناك ملاحظتان تدعمان هذه المحاكمة :

١ - نلاحظ أولاً أن حركة التمرد ليست ، في جوهرها ، حركة أفانية . قد يكون لديها ، ولا شك ، مقاصد أفانية . ولكننا نتمرد ضد الكذب مثلاً ، نتمرد ضد الاضطهاد . أضف الى ذلك ، ان التمرد ، اعتباراً من هذه المقاصد وفي توبه الصيبي ، لا يصون شيئاً ؛ لأنه يغامر بكل شيء . لا جرم انه يطالب بالاحترام من أجل ذاته ، ولكن بمقدار ما يتوحد ذاتياً مع جماعة طبيعية .

٢ - فلنلاحظ بعدئذ ان التمرد لا ينشأ فقط وبالضرورة لدى المضطهد ، بل قد ينشأ ايضاً لدى مشاهدة الاضطهاد الذي يتعرض له شخص آخر . هناك اذن ، في هذه الحالة ، توحد ذاتي مع الشخص الآخر . ويجب أن نبين بأن المسألة ليست مسألة توحد ذاتي بنفساني ، مسألة وسيلة بحس الفرد بواسطتها في مخيلته أن الاهانة موجهة اليه . قد يحدث لنا ، بالعكس ، ان لا نتحمل رؤية إهانات تكال للآخرين ، مع العلم بأننا سبق لنا فتحملنا نحن انفسنا دون ان نتمرد . إن الانتحارات الاحتجاجية في السجون ، وهي الانتحارات التي كان الارهابيون الروس يلجأون اليها عندما كان رفاقهم 'يجلّدون بالسياط' ، أكبر دليل على هذه الحركة العطية . وليست المسألة ايضاً مسألة الاحساس بوحدة المصالح . فنحن قد نجد في الحقيقة ان الظلم اللاحق بأناس نعتبرهم من اخصامنا ، ظلماً مثيئاً . هناك فقط توحد ذاتي في المصائر وتحزّب . فالفرد وحده لا يشكل إذن هذه القيمة التي يريد الدفاع عنها . لا بدّ ، على الأقل ، من جميع البشر لتشكيلها . في التمرد ، يجاوز الانسان ذاته في الآخرين ، ومن وجهة النظر

(١) إن الرابطة التي تجمع بين الضحايا هي نفس الرابطة التي تجمع بين الصحبة والجلاد . ولكن الجلاد لا يعرف ذلك .

هذه ، 'يعتبر التضامن البشري تضامناً ماورائياً . بيد اننا لا نقصد في الوقت الحاضر سوى هذا النوع من التضامن الذي ينشأ في حالة الرسوف في الأغلال .



#### مقارنة التمرد والذل

يمكننا ايضاً ان نوضح الوجه الايجابي للقيمة التي يفترضها كل تمرد ، وذلك بمقارنتها بمفهوم سلمي بحث مفهوم الغل كما عرفه شيلر . الحقيقة ان حركة التمرد هي اكثر من عملية مطالبة ، بالمعنى القوي للكلمة . لقد عرف شيلر الغل تعريفاً ممتازاً ، كتسم ذاتي ، كإفراز مشؤوم لعجز مستديم ، يجري ضمن حيز مغلق . أما التمرد فيصدع الكائن ويساعده على مجاوزة ذاته . انه يحرر أمواجاً كانت ساكنة فصارت عاتية . وإن شيلر نفسه يركز على الوجه السلمي للغل ، ملاحظاً المقام الكبير الذي يحتله في نقية النساء المتذورات للشهوة والتملك . أما في أصل التمرد فتمة مبدأ قدرة وافرة وفعالية زاخرة . إن شيلر على حق ايضاً في أن يقول إن التمني يهر الغل بطابع قوي . ولكننا نتمنى ما لا نملك ، في حين ان المتمرد يدافع عن كيانه . إنه لا يطالب فقط بما لا يملك أو بما حرم منه ، بل يرمي ايضاً الى دفع الآخرين الى الاعتراف بشيء ما ، سبق ان اعترف به هو نفسه ، في جميع الحالات تقريباً ، على انه أهم من الأشياء التي قد يتبناها . فالتمرد لبس بواقعي . وفي اعتقاد شيلر ايضاً أن الغل يصبح وصولية أو حقداً ، تبعاً لنشوته في نفس قوية أو ضعيفة . ولكننا ، في كلتا الحالتين ، نريد ان نكون غير ما نحن عليه . الغل هو دائماً غل ضد الذات . أما المتمرد ففي أول حركة تصدر عنه يرفض مس كيانه . انه يناضل من أجل سلامة جزء من كينوته ، ولا يسعى أولاً الى التوسع بل الى تأكيد الذات .

يبدو أخيراً ان الغل يتلذذ سلفاً بآلام يتخى أن يحس بها من هو موضوع حقه . وإن نيتشه وشيلر على حق في أن يربا دليلاً على هذه الحساسية في المقطع الذي ينهى فيه توتوليان قرءاه ان أكبر مصدر لسعادة الأبرار في الفردوس هو منظر الأباطرة الرومان يحترقون في سعي جهنم . هذه السعادة هي أيضاً سعادة أهل الفضيحة والأمانة الذين كانوا يحضرون عمليات الاعدام . أما التمرد فيكتفي ، في مبدئه ، برفض الذل دون أن يطلبه للانسان الآخر . بل انه يرتضي لنفسه بالألم ، على أن تحترم سلامته ويُصان كماله .

عند شيلر

لذلك لا نفهم لماذا يوجد شيلر توحيداً ذاتياً مطلقاً بين روح التمرد والغل . وان نقده للغل في مذهبه خير الانسانية العام ( الذي يصفه على أنه الشكل غير المسيحي لمحبة البشر ) ربما انطبق على بعض الاشكال المبهمة من المذهب المثالي الانساني أو على فنون الارهاب . ولكنه باطل فيما يتعلق بتمرد الانسان على وضعه ، هذه الحركة التي تدفع الفرد الى أن يحب مدافعاً عن كرامة مشتركة بين البشر جميعاً . إن شيلر يريد أن يثبت ان مذهب خير الانسانية العام يكون مقروناً بكره الناس . فنحن نحب الانسانية بوجه العموم ، كي لا نضطر الى حب المخلوقات بوجه الخصوص . هذا صحيح في بعض الحالات ، واثنا لنفهم شيلر فهماً أفضل حيناً نرى ان المذهب المذكور يتمثل بالنسبة اليه في الفيلسوفين بنطام وروسو . بيد أن حب الانسان للانسان قد ينشأ عن شيء آخر غير حساب المنافع<sup>(١)</sup> ، أو ثقة بالطبيعة البشرية<sup>(٢)</sup> ، هي - على كل - ثقة نظرية .

(١) إشارة الى نظرية الفيلسوف بنطام - المرب -

(٢) إشارة الى نظرية الصلاح الطبيعي عند روسو - المرب -

منطق جديد

إزاء النفعيين ، وإزاء مؤدّب إميل<sup>(١)</sup> ، هناك هذا المنطق الذي جسّده دوستوفيسكي في إيفان كارامازوف ، والذي ينتقل من حركة التمرد إلى العصيان الماورائي<sup>(٢)</sup> ، إن شير الذي يعرف ذلك ، يلخص هذه النظرة كما يلي : « ما أقل المحبة في العالم حتى بددها على كائن آخر غير الكائن الانساني » . حتى لو كانت هذه الفكرة صحيحة ، فإن اليأس القاتل الذي تقترضه يستحق شيئاً آخر غير الازدراء . والواقع أنها لا تقدّر الطابع الممزق الذي يتصف به تمرد كارامازوف . أما مأساة إيفان فتنشأ عن فيض من حب لا موضوع له . بما أن هذا الحب أصبح دون استعمال ، بسبب نكران الإله ، لذلك يُعقد العزم على تحويله الى الكائن البشري باسم مشاركة خيرة سمحاء .

إعجاية التمرد

على كلٍّ ، في حركة التمرد كما نظرنا إليها حتى الآن ، لم نصطب مثلاً أعلى تجريبياً ، عن فقر في العاطفة وبهدف مطالبة عقيدة . وإنما طالبنا بأن يؤخذ بعين الاعتبار هذا الجزء الذي لا يمكن إرجاعه الى التصور الذهني عند الانسان ، هذا الجزء الدافئ الذي لا يفيد لشيء غير الكينونة . فهل يعني ذلك أنه لا يوجد أي تمرد مشحون بالغل ؟ كلا ، وهذا ما نعرفه معرفة كافية في عصر الأحقاد . ويمكن علينا أن نأخذ هذا المفهوم بعناهُ الاوسع بحافة أن لا نبقي أمينين له ، وهذا الخصوص يجاوز التمرد الغل من جميع الجوانب . ففي مرتفعات ويزرنج ، عندما يفضل هيتكليف حبه على الله ، ويطلب الجحيم كي يلتقي بمن يحب ، فليس شابه المهان هو الذي يتكلم فقط ، بل تتكلم

( ١ ) اسم الفن التلخيص في كتاب رومو التربوي المسمى إميل - المرب -

( ٢ ) سمرى تمرد إيفان كارامازوف مدرّساً بشكل موسّع في الصفحات المقبلة تحت عنوان : رفض الخلاص - المرب -

أيضاً التجربة الملتبته ، تجربة حياة بأكملها . نفس الحركة تدفع لإكالات على أن يقول ، في نوبة مذهشة من نوبات هرطقته ، إنه يفضل الجحيم مع يسوع على الجنة من غير يسوع . إنها اندفاعة الحب ذاتها . فصد شيار ، لا يسعنا إذن أن نفيض في التشديد على التأكيد المحرم الذي يسري في حركة التردد ، والذي يميزه عن الغل . أن التردد الذي يبدو سليماً في الظاهر لأنه لا يخلق شيئاً ، هو في الحقيقة إيجابي جداً لأنه يكشف القسم الذي يستحق أن ندافع عنه دائماً ، في الانسان .



#### التمرد والمجتمعات

ولكن هذا التمرد والقيمة التي يحملها ، أليسا سنيئين ؟ الحقيقة أن الأسباب الدافعة إلى التمرد تتبدل ، فيما يبدو ، بتبدل العصور والحضارات . بما لا ريب فيه أن المتبوء المندومي ، أو المحارب في مملكة الأنكا ، أو البدائي الموجود في افريقيا الوسطى ، أو أحد أفراد الجماعات المسيحية الأولى ، لم يكن لديهم نفس الفكرة عن التمرد ، بل يمكننا أن نثبت إثباتاً شديد الرجحان أن مفهوم التمرد لا معنى له في هذه الحالات المعينة . ولكن إذا أمكن للعبد الاغريقي ، والقيّن المملوك ، والجندي المرتزق في عصر النهضة ، والبورجوازي الباريسي في عهد الوصاية ، والمثقف الرومي في مطلع القرن العشرين ، والعامل المعاصر ، نقول إذا أمكن هؤلاء جميعاً أن يختلفوا في أسباب التمرد ، فانهم يتفقون دون أي ريب على شرعيته . وبعبارة أخرى ، يبدو أن مشكلة التمرد لا تكتسب معنى دقيقاً إلا داخل التفكير الغربي . ويمكننا أن نكون أكثر وضوحاً أيضاً إذا لاحظنا مع شيار أن روح التمرد صعبة الظهور في المجتمعات التي يسودها التفاوت الواسع ( نظام الطبقات المندوسية ) أو ، على العكس ، في المجتمعات التي تسودها المساواة المطلقة ( بعض المجتمعات البدائية ) . ليست روح التمرد ممكنة ، في المجتمع ، إلا ضمن الأرهاط التي تغطي فيها مساواة



نظرية فوارق واقعية كبرى . لذلك لا تكتسب مشكلة التمرد معنى إلا داخل المجتمع الغربي . وحينئذ قد تسول لنا نفسنا أن نؤكد بأن هذه المشكلة متعلقة بنمو الفردانية ، لو لم نحدثنا الملاحظات السابقة من الخلوص الى هذا الاستنتاج.

#### التمرد والوعي وعالم القديسات

على صعيد البداية ، كل ما يمكننا استخلاصه من ملحوظة شيلر ، في الحقيقة ، ان هناك في مجتمعاتنا بسبب نظرية الحرية السياسية ازدياداً لمفهوم الانسان لدى الانسان ، وان هناك بسبب تطبيق هذه الحرية بالذات ظمناً مقابلاً . فالحرية الواقعية لم تتزايد بنسبة تزايد وعي الانسان للحرية . عن هذه الملاحظة لا يمكننا ان نستنتج سوى ما يلي : إن التمرد ملك الانسان الطلع الشاعر بحقوقه . ولكن لا شيء نجولنا بأن نقول إن المسألة مسألة حقوق الفرد فقط . إذ يبدو ، بالعكس ، وبفضل التضامن الذي أشرنا اليه سابقاً ، ان المسألة مسألة شعور بالذات متزايد الاتساع ، ينشأ لدى الجنس البشري خلال مغامراته . والواقع ان الفرد في مملكة الأنكا أو المنبوذ الهندي لا يطرح على نفسه مشكلة التمرد ، لأن المشكلة 'حلت' بالسبة اليه في التقاليد ، وقبل ان يتسنى له طرحها على نفسه ، والجواب موجود في القديسات . واذا كنا لا نجد في عالم القديسات مشكلة التمرد ، فذلك لأننا في الحقيقة لا نجد فيه أي التباس ، فلقد أعطيت جميع الأجوبة دفعة واحدة . هكذا استبدلت الماورائيات بالأسطورة . ولم يعد هناك تساؤلات ، بل أجوبة وتفسيرات خالدة ، يمكن لها إذ ذاك أن تكون ماورائية ، ولكن الانسان قبل ان يدخل عالم القديسات ، وكما يدخله أيضاً ، أو حالما يخرج منه ، وكما يخرج منه ايضاً ، ... هو تساؤل وتمرد . الانسان المتمرد هو الانسان الموجود قبل عالم القديسات أو بعده ، والمنهمك في المطالبة بوضع انساني تكون فيه جميع الأجوبة انسانية ، أي مصاغة بشكل منطقي . اعتباراً من هذه اللحظة يكون كل تساؤل ، كل كلام ، تمرداً . أما في عالم القديسات يكون كل كلام حمداً وشكراً . ويصبح ممكناً بالتالي ان

نبين انه لا يمكن ان يوجد بالنسبة الى الفكر البشري سوى عالين : عالم  
القدسيات ( أو عالم العون <sup>(١)</sup> على حد التعبير المسيحي ) ، وعالم الترد . إن  
اختفاء احدهما معناه ظهور الآخر ، وإن أمكن لهذا الظهور أن يجري بأشكال  
معيّرة . هنا أيضاً نجد « كل شيء » ، أو « لا شيء » <sup>(٢)</sup> . إن ما تبتنع به مشكلة  
الترد من صفة حالية مردّه فقط الى ان مجتمعات بأمرها أرادت أن تبتعد عن  
عالم القدسيات . فنحن نحيا في تاريخ نُزعت عنه القدسية . لا جرم أن الانسان  
لا يُلغّص في العصيان . بيد ان تاريخ اليوم ، بمواقفه الإنكارية ، يضطروا الى  
القول إن الترد أحد أبعاد الانسان الأساسية . انه حقيقتنا التاريخية . علينا  
إذن ان نجد فيه قيمة ، اللهم إلا اذا هربنا من الواقع . فهل في وسعنا أن نجد  
قاعدة سلوك ، بعيداً عن عالم القدسيات وعن قيمه المطلقة ؟ هذا هو السؤال  
الذي يطرحه الترد .



### الترد والتضامن

استطعنا سابقاً أن نلاحظ القيمة المهمة التي تنشأ عند هذا الحد الذي يستقر  
فيه الترد . علينا الآن أن نتساءل هل هذه القيمة موجودة في الاشكال الحالية  
للفكر والعمل المتبردين ، وإن نبين محتواها اذا كانت موجودة فيها . ولكن  
فلنلاحظ قبل متابعة الكلام ان أساس هذه القيمة هو الترد نفسه . إن تضامن  
البشر يقوم على حركة الترد ، وهذه الحركة ، بدورها ، لا نجد ما يبررها إلا  
في هذه المشاركة . لذلك من حقنا أن نقول إن كل فرد يسمح لنفسه بإنكار أو  
بتهديم هذا التضامن ، يفقد في الوقت نفسه اسم الترد ، ويلتقي في الحقيقة مع  
إذعان قتال . كما ان هذا التضامن ، خارج عالم القدسيات ، لا يكتسب حياة

- ( ١ ) مما لا ريب فيه ان هناك تمرداً ماورائياً في المسيحية ، ولكن بإمامة المسيح والتبشير بملكوت  
الرب المزمع على انه وعد بمجاة أزلية ، هي الاجوبة التي تحمل هذا الترد عديم الجدوى .
- ( ٢ ) راجع ما جاء سابقاً ( ص ٢٤ ) تحت عنوان : الشعور المناجى بقيمة مبهم ( الحرب ) .

إلا في مستوى التمرد . وحينئذ نعلن مأساة الفكر الحققة . فالإنسان ، كما يوجد ، عليه ان يتنرد ، ولكن على تمرده ان يحترم الحد الذي يكتشفه في ذاته ، هذا الحد الذي عنده بشرع البشر بالوجود بتلاقيهم مع بعضهم بعضاً . فلا يمكن إذن للفكر المتمرد ان يستغني عن ذاكرة : انه توتر دائم . وإذا ما تبعناه في صنيعه وأفعاله ، فعلينا أن نبين ، كل مرة ، هل بقي أميناً لنبله الأولي ، أم أنه بدافع التعب والجنون نسيه في نشوة الطغيان أو العبودية .

#### التمرد والمشاركة

ولكن هاكم ، في غضون ذلك ، أول تقدم 'يدخله روح التمرد في تفكير كان في البدء مقتنعاً بالعبيية وبالعدم الظاهري الذي يغلف العالم . فالألم يكون فردياً في التجربة العبيية . ولكن اعتباراً من حركة التمرد يشعر بأنه ألم جماعي ، ويصبح مصيراً مشتركاً بين الجميع . إن أول خطوة بخطوها فكر تتملكه الغرابة هي أن يسلم بأنه يسهم في هذه الصفة مع البشر جميعاً ، وان الحقيقة الانسانية ، في مجموعها ، تعاني من هذا البعد عن الذات والعالم . والداء الذي كاث بيتلي انساناً واحداً يصبح وباء جماعياً . وفي تجربتنا اليومية الخاصة ، يقوم التمرد بنفس الدور الذي تقوم به الكوجتة<sup>١١</sup> على صعيد الفكر : انه البديية الأولى . ولكن هذه الحقيقة البديية الاولى تنتشل الفرد من عزله . إنها محل مشترك يرسي القيمة الاولى على البشر جميعاً :

أنا أقرد ، إذن نحن موجودون .

(١) أنا الفكر إذن أنا موجود .



## الفصلُ الثاني

### التمرد الماورائي

العبد المتمرد ، والمتمرد الماورائي

التمرد الماورائي هو الحركة التي بواسطتها يثور إنسان ما ضد وضعه ، وضد الخلق كله . انه ماورائي لأنه ينكر غايات الانسان والخلق .

العبد يحتاج ضد الوضع المخصص له ضمن حالته (١) ، أما المتمرد الماورائي فيحتاج ضد الوضع المخصص له كإنسان .

العبد العاصي يؤكد ان فيه شيئاً ما لا يرضى بالطريقة التي يعامله بها سيده ، أما المتمرد الماورائي فيعلن بأن الخلق قد حرّمه .

ليست المسألة بالنسبة الى كليهما مسألة إنكار ليس غير . ففي كلتا الحالتين ، في الحقيقة ، نجد حكماً قهراً يلزمه يرفض المتمرد الموافقة على وضعه الخاص .

تمرد العبد تطلع الى نظام

فلنلاحظ ان العبد المتمرد على سيده لا يتم بأن 'ينكر هذا السيد كإنسان ، بل كسيد . إنه 'ينكر أن يكون لسيده الحق في ان ينكره ، هو ، العبد ، بوصفه تطلباً وحاجة . ويسقط السيد من مرتبته بمقدار عدم استجابته لحاجة يوليها الإهمال . فإذا كان البشر لا يستطيعون الركون الى قيمة مشتركة يقرها الجميع في كل فرد ، فحينئذ يصح الانسان مستقلاً بالنسبة الى أخيه الانسان . إن العاصي يطالب بأن 'يعترف له بهذه القيمة في ذاته اعترافاً واضحاً ، لأنه يتصور أو يعلم ان القوضى والاجرام سيهان العالم ، إذا لم يؤخذ بهذا المبدأ . وتظهر حركة التمرد لديه كطالبة بالوضوح والوحدة (٢) .

إن أبسط شكل من اشكال العصيان يعبر ، بحكم مفارقة عجيبة ، عن التطلع الى نظام .

(١) أي من حالة البودية (العرب) .

(٢) بمعنى النجم (العرب) .

## موقف المتمرد الماورائي

ينطبق هذا الوصف تماماً على المتمرد الماورائي . فهو يقف على أنقاض عالم عظم مطالباً بوحده . إنه يجابه مبدأ الظلم الموجود في العالم يبدأ العدالة الكامن في ذاته . إنه لا يريد إذن ، في البدء ، إلا أن يحل هذا التناقض ، وأن يقيم سلطان العدالة الموحد ، إذا استطاع ، أو سلطان الظلم ، إذا أخرج . وفي غضون الفترة الفاصلة ، يفضح التناقض .

إن المتمرد الماورائي ، إذ يحتج بواسطة الموت على ما يميز به الوضع من نقصان ، وبواسطة الشر على ما يميز به من توزيع ، يقول : إن التمرد الماورائي باحتجائه المذكور هو مطالبة " ميسوتة " ، مطالبة " معلقة " ضد آلام الحياة والموت . فإذا كانت عقوبة الموت المعينة الشاملة تعرف الوضع البشري ، فإن التمرد ، بوجه ما ، معاصر لها . والمتمرد يرفض وضعه الفاني ، وفي الوقت نفسه يرفض الاعتراف بالقوة التي تجعله يعيش في هذا الوضع . ليس المتمرد الماورائي إذن ملجأ بوجه التأكيد ، كما قد نعتقد ، ولكنه مجدّد حتماً . إنما يجدّد أولاً باسم النظام ، معلناً أن الله أبو الموت ، وأنه العار الأكبر .

سلطان السيد

وحضوع العبد سييان

فلنعد الى العبد المتمرد كي نوضح هذه النقطة . فهذا العبد كان يثبت ، في احتجاجه ، وجود السيد الذي يتمرد ضده . ولكنه ، في الوقت نفسه ، كان يدل على أنه يلحق بتبعيته سلطة هذا الأخير ، ويؤكد سلطته الخاصة : ونعني قدرته على أن يضع تحت البحث دائماً وأبداً هذه السلطة المتفوقة التي كانت تحكم به حتى الآن . وبهذا الخصوص ، يُعتبر السيد والعبد حقاً في نفس الوضع : فسلطان الاول الموقت نسبي كخضوع الآخر . ان كلا القوتين تؤكدا ذاتهما بالتناوب ، ساعة العصيان ، ربنا تتجاهلان لتحطم إحداهما الاخرى ، وحينئذ تختفي إحدى هاتين القوتين اختفاء موقئاً .

## التمرد والكائن العلوي

كذلك ، اذا ثار التمرد الماورائي ضد قوة يؤكد وجودها في الوقت نفسه ، فانه لا يثبت هذا الوجود الا ساعة إنكاره . وحينئذ يجر هذا الكائن العلوي في نفس المصير الانساني الدليل ، لأن سلطته الزائلة توازي وضعنا الزائل . إنه 'يخضع هذا الكائن العلوي لقوة الرفض الانساني ، ويجنيه امام هذا الجزء الذي لا ينجي لدى الانسان ، ويدبجه عنوة' في وجود عبثي بالنسبة للناس ، ويتزعه أخيراً من مقامه العلوي ليدخله في التاريخ ، أبعد ما يكون عن استقرار سرمدى لا يستطيع ان يجده إلا في موافقة البشر الإجتماعية . هكذا يؤكد التمرد أن ، على متواه ، كل وجود سامٍ هو وجود متناقض على الاقل .

## التمرد والاستسلام للانكار الاثام أو الخضوع الكلي

لا يمكن إذن لتاريخ التمرد الماورائي أن يختلط مع تاريخ الإلحاد . بل إنه ، من زاوية معينة ، يختلط مع تاريخ الشعور الديني المعاصر . فالتمرد يتحدى أكثر مما ينكر . انه ، في البدء على الاقل ، لا يحذف الله ، بل يكلمه فقط كلام الند للند . ولكن المسألة ليست مسألة حوار مجاملة ، بل مسألة مجادلة تحذوها الرغبة في التغلب . إن العبد يبدأ بالمطالبة بالعدالة ، ثم ينتهي به الأمر الى المطالبة بالسلطة . فهو ، بدوره ، يحتاج الى التحكم . إن الانتفاضة على الوضع تنتظم في حملة عارمة ضد السماء ، لتمرد منها بملك سجين يُعلن خلعه أولاً ، و'يحكم عليه بالموت بعدئذ' <sup>(١)</sup> . هكذا ينتهي العصيان البشري في ثورة ماورائية . إنه يسير من التظاهر الى التنفيذ ، من الدائدي <sup>(٢)</sup> الى الثوري .

(١) اشارة الى قتل الملك المستند الى الحق الالهي وستوضح هذه النقطة في الفصول الآتية .

(المغرب)

(٢) الدائدي هو من اهل التظاهر وستوضح ذلك في الفصول الآتية (المغرب) .



وما ان 'يخلع الرب عن العرش ، حتى يتبين للعاصي ان هذه المداة وهذا النظام وهذه الوحدة التي كان ينشدها عبثاً في وضعه ، أصبح من واجبه أن يوجد لها بكتلتا يديه ، ان يخلقها بنفسه ، وأن يبور بذلك عملية الخلق الرباني . وحينئذ يبدأ مجهود يائس لبناء مملكة البشر ، حتى لو اقتضى ذلك ارتكاب الجرائم . وهذا لا يتم دون نتائج رهيبة ، لا نعرف منها الآن سوى بعضها . ولكن هذه النتائج لا ترجع ابدأ الى التمرد ذاته ، أو انها على الاقل لا تظهر إلا بقدر ما ينسب المتمرد اصله ، وعلى التوتر العنيف الذي يقيه مشدوداً بين القبول والرفض ، ويستسلم اخيراً للانكار التام أو الخضوع الكلي . ان العصيان الماورائي يقدم لنا في أول حركة من حركاته نفس المحتوى الايجابي الذي يقدمه عصيان العبد . وستكون مهمتنا ان نفحص مصير محتوى التمرد في الاعمال التي تنتسب اليه ، وان نبين الى اين تؤدي خيانة المتمرد لأصله ، أو اماتته له .

## أبناء قاييل

التمرد في القديم :

روميثيوس

التمرد الماورائي، بحصر المعنى ، لم يظهر في التاريخ الفكري بشكل متناك إلا في نهاية القرن الثامن عشر . فابتدأت آنذاك الأزمنة الحديثة على ضحيج الأسوار المتهاوية . ولكن اعتباراً من هاتيك الآونة ، تتالت نتائج بصورة مستمرة ، ولا نبالغ اذا اعتقدنا انها كيّفت تاريخ عصرنا . فهل يعني ذلك ان التمرد الماورائي كان فاقد المعنى قبل هذا التاريخ ؟ الحقيقة ان غاذجه تعود الى غابر الازمان ، لأن عصرنا يروق له الادعاء بأنه عصر "روميثيوسي" . ولكن هل هو حقاً بروميثيوسي ؟

إن الأساطير الدينية الأولية تصور لنا بروميثيوس مربوطاً الى عامود قائم في أقاصي الارض ، شهيداً أزلياً ، محروماً الى الأبد من مغفرة يرفض التماسها . وإن أسخيل<sup>(١)</sup> Eechyle ليضخم من صورة البطل ، فيجعل منه ثاقب البصيرة ( « ما من شقاء يحل بي الا تكهنت بوقوعه » ) ، ويجعله يجاهر ببغضه لجميع الآلهة ، وإذ يرمي به في « بحر عاصف من اليأس القاتل » ، يقدمه للبروق والصواعق : « آه ! اشهدوا ما أعاني من ظلم » .

(١) نسبة الى بروميثيوس إله النار .

(٢) أبو المأساة الاغريقية ، مؤلف : روميثيوس المفيد ، والثلاثية - الحرب -

## الاعريق وانموذج التمرد

لا يمكننا اذن أن نقول إن الاقدمين جهلوا التمرد الماورائي . فقد رمحوا ، قبل إبليس بكثير<sup>(١)</sup> ، صورة مؤلة ونيئة عن التمرد ، واعطونا أعظم أسطورة عن العقل المتمرد . إن العبقريّة اليونانية التي لا ينضب معينها ، والتي أفسحت المجال وسيعاً لأساطير التواضع والاذعان ، قد عرفت مع ذلك أن تعطي أنموذجاً عن العصيان . ولا مراء في أن بعض الحصال البروميشوسية ما تزال موجودة في التاريخ المتمرد الذي نعيش :

- الصراع ضد الموت : « لقد أنقذت البشر من هاجس الموت » .
- الطموح الأعمى : « لقد أودعت فيهم الآمال العمياء » .
- محبة البشر : « عدوّ الإله زوس ... لأنني أحببت البشر حباً جاً » .

## التمرد الاعريقي وروح الاعتدال

ولكن لا يمكننا أن ننسى أن «بروميشوس حامل النار» ، الحد الاخير في الثلاثة الأسخيلية<sup>(٢)</sup> ، بشر بسلطان التمرد الذي قال التفيران . ان اليونان لا يكبدون شيئاً . وفي أقصى ما يبلغون من جرأة ، يظنون وفيين لهذا الاعتدال الذي سموا به الى مرتبة التأليه . ان متمودهم لا يثور ضد الخلق كله ، بل ضد الإله زوس فقط ، وهو ليس سوى إله من آلهة عدة ، بالاضافة الى انه محدود الأجل والمدة . وبروميشوس نفسه هو نصف إله . المسألة اذن مسألة تصفية حسابات خاصة ، مسألة نزاع على الخير لا صراع عام بدور بين الخير والشر .

## سبب روح الاعتدال عند الاعريق

ذلك ان الاقدمين وإن كانوا يؤمنون بالقدر ، كانوا يؤمنون أولاً بالطبيعة

(١) لقد تمرد إبليس على ربه - العرب -

(٢) الثلاثة هي ثلاث تراجديات كان يتقدم بها المتنافسون في المباريات الدرامية ، وتعتبر ثلاثة أسخيل أفضلها - العرب -

التي هم جزءٌ منها . التمرد على الطبيعة معناه إذن التمرد على الدات ، معناه مناطقة الجدران . فالتمرد المنطقي الوحيد هو إذن الانتحار . ان القدر الاغريقي نفسه هو قوةٌ عمياءٌ يُخضع لها مثلاً يُخضع للقوى الطبيعية . ومنتهى الجنون بنظر الاغريقي ان يُجهد البحر بمقربة<sup>(١)</sup> ، انه جنون يليق بالبرارة . ليس من شك في ان الاغريقي يصف الافراط ، لأنه موجود ، انما يعطيه محله ، وبذلك يعين له حداً . ان تمهدي آشيل<sup>(٢)</sup> بعد موت صديقه باتروكليس ، واستئزال الأبطال المساويين اللعنات على قدرهم لا يستدعيان الادانة العامة الشاملة . كما أن أوديب Edipe يعلم انه غير بريء . انه مذنب على كره منه ، انه أيضاً جزءٌ من القدر ، وهو يشكو أمره ، ولكنه لا يتفوه بأقوال لا يمكن تلافئها . وأنتيفون<sup>(٣)</sup> نفسها تمرد ، ولكنه باسم التقاليد ، ولكي يجد أخرها الراحة في القبر وترواعي الطقوس . المسألة إذن مسألة فرد رجعي . ان الفكر اليوناني ، هذا الفكر ذا الوجهين ، يكاد يتبع دائماً أبأس الألمان بكلمة أوديب الخالدة ، بكلمته يُقر وهو الاعمى البائس أن كل شيء خير . القبول يتوازن إذن مع الرفض . وحتى عندما يصور لنا أفلاطون مسبقاً بكاليكليس Callicles الأنودح النيشوي العامي ، وحتى عندما ينتف هذا الأخير قائلاً : « ألا فليات اسات يتحلى بالخلق المطلوب ... انه سيتحرر من الإسامر ، وسيدوس بقدميه مراسيمنا وشعوذاتنا وسحرنا ، وسيدوس أيضاً هذه القوانين التي تعتبر جميعاً ، دونما استثناء ، قوانين مخالفة للطبيعة . لقد تمرد عبدنا وتكشّف عن سيد » نقول : حتى آنذاك فانه يتفوه بكلمة الطبيعة اذا ما رفض القانون .

خصائص المكر اليوناني

ذلك ان التمرد الماورائي يفترض نظرة مبسطة عن الخلق<sup>(٤)</sup> ، ما كان

- ١) أي أن مقارعة القدر غير مجدية ، وهي أشبه ما تكون بجهد البحر بمقربة - الحرب .  
 ٢) أشهر بطل في الايلاذة . يح أن لا يخلطه مع أسكيل - الحرب .  
 ٣) ابنة أوديب .  
 ٤) كثيراً ما تستعمل هنا كلمة خلق بمعنى : كون ، عالم - الحرب .

بالامكان وجودهما عند اليونان . فلم يكن هناك في اعتقادهم آلهة من جهة ، وبشر من جهة أخرى ، بل درجات تقود من أولئك الى هؤلاء . كان تصور البراءة المعارضة للذنب ، وتصور تاريخ يتلخص كله في الصراع بين الخير والشر ، شيئاً غريباً عليهم . في عالمهم أخطاء أكثر مما فيه جرائم ، والجريمة النهائية الوحيدة هي مجاوزة الحد . أما في العالم التاريخي المحض الذي يوشك أن يكون عالمنا ، فلم يعد هناك أخطاء ، بل جرائم وفي طبيعتها ملازمة الحد<sup>(١)</sup> . بناء على ذلك ، يمكننا ان نفهم المزيج الغريب من الوحشية والتسامح ، والذي يجده في الأسطورة الاغريقية . فاليونان لم يجعلوا قط من الفكر معسكراً محضاً معزولاً ، وهذا ما يجعلنا دونهم مستوى . على كل ، لا يمكن تصور التمرد الا على انه تمرد ضد شخص ما . ان نظرية الإله الشخصي ، الإله الخالق وبالتالي المسؤول عن الأشياء جميعاً ، هي وحدها التي تكسب الاحتجاج الانساني معناه . وعليه ، يمكننا أن نقول ، دونما تناقض ، ان تاريخ التمرد هو في العالم الغربي غير منفصل عن تاريخ المسيحية . ولا بد في الحقيقة من انتظار المراحل الاخيرة من الفكر القديم كي نرى التمرد وقد شرع يجد لغته لدى نفر من مفكري المرحلة الانتقالية<sup>(٢)</sup> ، وبعث لا يجارى لدى ابيقورس ولوكريس .

نبذة جديدة :

ايقورس ، لوكريس

في حزن ابيقورس الخفيف نبذة جديدة . وليس من شك في انه ناشئ عن قلق ليس بغريب عن الفكر الإغريقي . ولكن النبذة المؤثرة التي اكتسبها هذا القلق ذات دلالة . « يمكننا أن نؤمن انفسنا ضد الأشياء جميعاً ، أما فيما يتعلق بالموت فنظل كسكان قلعة مهدمة الأسوار » .

(١) يقصد أن ملازمة الحد تعتبر جريمة نظر عالمنا الحالي - العرب -

(٢) المرحلة السابقة لولادة المسيح بقليل - العرب -

ويوضح لوكريس قائلاً : « جوهر هذا العالم الى الموت والدمار » . فلماذا نؤجل المتعة الى ما بعد ؟ « من انتظار الى انتظار ، تُنفني حياتنا ، ونفوت جميعاً وقد أجهدنا العناء » . علينا إذن ان نتمتع . ولكن يا لها من متعة ! إنها تكمن في إحكام سد أسوار القلعة ، وتأمين الخبز والماء في الظلال الصامتة .

عزل الموت عن الكائن

بما أن الموت يهددنا ، لذلك علينا ان نثبت ان الموت ليس شيئاً . إن ابيقورس يزيل الموت عن الكائن ، شأنه في ذلك شأن ابيكتيت ومارك أوريل . « ليس الموت شيئاً بالنسبة لنا ؛ لأن ما ينحل ، يصبح عاجزاً عن الحس ؛ وما لا يحس أبداً ، ليس شيئاً بالنسبة لنا » .

الموت عودة الى العنصر

هل هو العدم ؟ كلا . لأن كل شيء في هذا العالم مادة ، ولا يعني الموت سوى العودة الى العنصر . الكائن هو الحجرة <sup>(١)</sup> . واللذة الخاصة التي يتحدث عنها ابيقورس تكمن خاصة في انعدام الألم . إنها سعادة الحجرة .

حق الامل

للخلاص من المصير المحتوم ، يقتل ابيقورس الحساسية ، وذلك بحركة رائعة نجدها عند كبار الكلاسيكيين الفرنسيين . ويقتل في البدء أول صيحة تند عن الحساسية ، ونعني الامل .

مصدر شقاء البشر

وما يقوله هذا الفيلسوف الاغريقي عن الآلهة لا يُفهم على وجه آخر . كل شقاء يحل بالبشر مصدره الامل الذي ينتزعهم من صمت القلعة ، ويرمي بهم على الاسوار في انتظار الخلاص . هذه الحركات المنافية للصواب ليس لها سوى نتيجة واحدة : انها تنكأ جراحات ضممت بعناية . لهذا السبب لا ينكر

(١) لأن الحجرة لا تعرف الألم ، ولا الامل (الموت) .

أبيقورس الآلهة ، بل يبعدها ، ولكن بصورة تسبب الدوار لدرجة أن المخرج الوحيد للنفس أن تحبس نفسها ثانية بين الجدران<sup>(١)</sup> . « الكائن السعيد الخالد لا مشكلة له ، ولا يخلق مشكلة لأحد . »

موقف الآلهة عند لو كريس

ويزيد لو كريس قائلاً : « لا ريب في أن الآلهة ، وبحكم طبيعتهم بالذات ، يتمتعون بالخلود في أعمق سكونية ، متجنبين أمورنا ، منصرفين عنها كل الانصراف » فلننس الآلهة إذن ، ولا تفكر فيها أبداً ، وحينئذ « لن تكدر الصفوة هواجس النهار ولا رؤى الليل » .

تمرد أبيقورس تمرد دلامي

وفي زمن لاحق ، نجد فكرة التمرد الازلية هذه ، ولكن مع تفاريق هامة . إن التصور الديني الوحيد الذي يتخيله المتمردون هو : إله لا ينبغي ولا يعاقب ، إله أصم . ولكن في حين يلعن الشاعر فيني صمت الآلهة ، يعتقد أبيقورس ما يلي : بما أنه ليس من الموت بدءاً ، لذلك فإن صمت الانسان يهد لهذا المصير المحتوم خيراً بما تفعل الأقوال الربانية . إن هذا المفكر الغريب يبذل قصارى جهده ليقم الجدران حول الانسان ، وليعيد بناء أسوار القلعة ، وليخلق - دوننا شفقة - صرخة الامل الانساني التي لا تقمع . وحين يتم الانطواء الاستراتيجي ، حينئذ فقط ، وكلالة وسط البشر ، يتغنى أبيقورس بالنصر ، في نشيد بشير غامماً الى صفة تمرد الدفاعية . « لقد أحبطت مكائذك ايها القدر ! وأقفلت جميع السبل التي تسير بك إليّ . لن نمكنك ولن نمكن أية قوة أخرى شريرة من التغلب علينا . وحيناً تدق ساعة الرحيل المحتوم ، سينفجر احتسارنا لأولئك الذين يتسكون دون جدوى بأهداب الحياة ، في هذه التوتيلة البهيمية : آه ! كانت حياتنا موفورة الكرامة ! » .

(١) أي يحبس بلا أمل (الموت) .

العامة ، المصير ، الصدفة ،

التعدد المجهول

إن لو كريس ، دون غيره من أبناء زمانه ، سار بهذا المنطق أبعد بكثير ، وجعله يصب في المطالبة الحديثة . وهو لم يصف شيئاً ، في الأساس ، الى ابيقورس . ورفض ، هو ايضاً ، كل مبدأ تفسيري لا يقع تحت الحس . ليس الجوهر الفرد سوى الملجأ الاخير يتابع فيه الكائن ، وقد عاد الى عناصره الاولى ، نوعاً من الخلود الاصم الاعمى ، نوعاً من الموت الخالد ، يمثل بالنسبة الى لو كريس كما بالنسبة الى ابيقورس ، السعادة الوحيدة الممكنة . ولكن كان لا بد له مع ذلك من ان يسلم بأن الجواهر الفردة لا تتشابك وحدها ؛ وبدلاً من أن يقول بقانون علوي ، وبالقدر الذي يريد أن ينكره ، سلم بوجود حركة طارئة ( الكليامين ) ، تتلاقى بموجبها الجواهر الفردة وتتعلق . فلنلاحظ ان مشكلة الازمنة الحديثة الكبرى قد طرحت مذكاً ، حيث اكتشف العقل ان انتشار الانسان من المصير المحتوم معناه تركه لعامل الصدفة . لهذا السبب سعى الى ان يعطي الانسان مصيراً تاريخياً هذه المرة . على ان لو كريس لم يبلغ هذه النقطة . إن بغضه للمصير المحتوم والموت يرضى بهذه الارض النشوى حيث تشكل الجواهر الفردة الكائن بالصدفة ، وحيث يتبدد الكائن ، صدفة ، في جواهر فردة ، ولكن مفرداته تدل مع ذلك على حساسية جديدة . فالقلمة العياء أصبحت معكراً محصناً متغزلاً . إن « أسوار العالم » هي احد التعابير الاساسية في بلاغة لو كريس المجازية . وليس من شك في ان المهمة الكبرى في هذا المعسكر هي اسكات الامل وختق الرجاء . ولكن زهد ابيقورس المنهاسجي تحول الى نك مضطرب تتوجه اللعنات احياناً . إن القوى ، بنظر لو كريس ، هي دون شك « القدرة على النظر الى كل شيء بروح لا يعكر صفوها شيء » . ولكن هذه الروح ترتجف مع ذلك من الظلم اللاحق بالانسان . وتحت ضغط السخط ، ثمة مفاهيم جديدة في الإجرام والبراءة



والذنب والعقاب تسري خلال قصيدته الكبرى<sup>(١)</sup> حول ماهية الأشياء ؛ فيعبري الحديث فيها عن « جريمة الدين الاولى » وعن إيفيجيني<sup>(٢)</sup> وبراءتها الذبيحة ، وعن هذا السهم الرباني الذي « غالباً ما يمر بجانب المذنبين » ، ويقضي على حياة الأبرياء بعقاب ظالم . ولئن هزىء لوكريس بالخوف من عقاب الآخرة ، فما ذلك أبداً في حركة ثمرد دفاعي ، كما عند أبيقورس ، وإنما بناءً على محاكمة هجومية : لماذا يعاقب فاعل الشر ما دمنا نرى بشكل كاف ومنذ الآن أن فاعل الخير لا يكافأ ؟

### إنسان لوكريس

إن أبيقورس نفسه يتحول ، في ملحمة لوكريس ، إلى متبرد رائع ، إلى متبرد لا علاقة له بأبيقورس الأصلي . « على حين كانت الانسانية ، بنظر الجميع ، تنحني على الأرض حياة الذل والهوان ، مثقلة الكاهل بديانة تطل بوجهها من أعالي السماء ، مهددة البشر بمظهرها المرعب ، إذا باغريقي ، بأنسان ، يتجوراً قبل غيره من البشر على رفع عينيه الفانيتين في وجه هذه الديانة ، وعلى الوقوف ضدها... هكذا جندل الدين بدوره ، وديس بالأقدام ، أما نحن معشر البشر فتسامى بنا النصر حتى السموات » . هنا نشعر بالفارق الذي قد يوجد بين هذا التجديف الجديد واللعنة القديمة . كان في وسع الأبطال الإغريق أن يتبنوا بأن يصبحوا آلهة ، إنما في آن واحد مع الآلهة الموجودة سابقاً . كانت المسألة آنذاك مسألة ارتقاء في المرتبة . أما إنسان لوكريس فيشرع بثورة . إنه اذ ينكر الآلهة المجرمين وغير الجديرين ، يحتل مكانهم هو نفسه . إنه يخرج من المعسكر المنزول ويبدأ المعجبات الاولى ضد الآلهة باسم الألم الانساني . في العالم القديم ، كان القتل هو العامل الغامض الذي لا يمكن التكفير عنه . أما عند لوكريس فلم يعد قتل الانسان سوى رد على القتل الإلهي . ولئن انتهت قصيدة لوكريس

(١) عنوان قصيدته : في ماهية الأشياء ( المرب ) .

(٢) ابنة آعمنون .

بصورة عجيبة عن معابد إلهية مملوءة بركام الجثث المملوكة المنتهية ، فلم يكن ذلك مجرد صدفة .



التمرد المجوسي ومفهوم الإله الشخصي

لا يمكن فهم هذه اللغة الجديدة دون الاعتماد على مفهوم إله شخصي شرع بالتكون ببطء في عقل معاصري أيقورس ولوكريس . ولا يستطيع التمرد أن يطلب تفسيرات إلا من إله شخصي<sup>(١)</sup> . فما أن يسيطر ، حتى يجب التمرد في تصميم عنيف ، ويعلن الرفض النهائي . في قابيل ، يلتقي أول تمرد مع أول جريمة . أما تاريخ التمرد ، كما نجاه حالياً ، فهو تاريخ أبناء قابيل أكثر مما هو تاريخ تلامذة بروميشوس . وعلى هذا الأساس ، يكون إله العهد القديم L'Ancien Testament خاصة هو الذي يعبرء الطاقة المتمردة . وبالعكس ، يجب الخضوع لإله إبراهيم واسحق ويعقوب حينما نكون قد أكملنا ، كباسكال<sup>(٢)</sup> ، طريق العقل المتمرد . النفس التي تفوق غيرها في الشك تصبر الى أعظم جانسنية<sup>(٣)</sup> .

تدخل المسيح ، الألم بلا أمل

على هذا الأساس ، يمكن اعتبار العهد الجديد Le Nouveau Testament كمحاولة للرد سلفاً على كل القتل في العالم ، وذلك بتلطيف صرعة الإله ، وإقامة وسيط بينه وبين الانسان . وعليه ، أتى المسيح ليعمل مشكلتين أساسيتين : وجود الشر ووجود الموت ، وهما بالضبط مشكلتا المتمردين . لقد قام حله أولاً على أخذ هاتين المشكلتين على عاتقه . فالإله - الانسان<sup>(٤)</sup> يتألم ايضاً متحملاً آلامه بصبر . لذلك لا يمكننا أبداً أن نعزو الشر والموت اليه ، لأنه

(١) إله الديانات المايوية (الحرب) .

(٢) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات . تأليف اندريه كريون ، ترجمة نهاد رضا .

سلسلة « زمني علماً » رقم ٢٤ - منشورات عويدات .

(٣) مذهب جانسينيوس وكان باسكال من التمحسين له (الحرب) .

(٤) المسيح .

هو نفسه يتمزق ويموت . ولا تصكسب ليلة التعذيب على جبل الجلجثة La Nuit du Golgotha مثل هذه الأهمية في تاريخ البشر إلا لأن الإله بعد ما تخلى علناً عن امتيازاته التقليدية عاش، في ظلمات هذه الليلة ، حتى النهاية عذاب الموت مع اليأس . بناء على ذلك ، نفهم قول المسيح : إلهي إلهي ! لماذا تركتني ، وشكته الرهيب ساعة احتضاره . لو كان الاحتضار مدعوماً بالامل الدائم لكأن خفيفاً . فلا بدّ للاله من التعرض لليأس حتى يكون إنساناً .

حرف التمرد ، نوع صفة  
الظلم عن الألم

إن الغنوصية ، وهي ثمرة تعاون لمغربي مسيحي، حاولت خلال قرنين ، في ردة فعلها ضد التفكير اليهودي ، أن تعزز هذه الحركة . ونحن نعرف الوسطاء العديدين الذين تصورهم فالنتينوس<sup>(١)</sup> مثلاً . ولكن الإيونات في هذا المذهب الخليط تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الحقائق الوسيطة في المذهب الهيليني . انها تستهدف انقاص عبثية مواجهة انفرادية مباشرة بين الإنسان والثقي والإله الحقود . انه خاصة دور الإله الثاني القاسي المحب للحرب ، عند مارسيون<sup>(٢)</sup> . هذا الإله الوسيط خلق العالم المحدود والموت . علينا إذن ان نكرهه ، وعلينا في الوقت نفسه أن ننكر خلقه ، عن طريق التنسك ، حتى نخطم هذا الخلق بواسطة العفة . انها إذن مسألة تنسك متشامخ ومتمرد . إن مارسيون يحرف التمرد نحو إله أدنى كفي يشيد بالإله الأعلى إسطادة افضل . ولكن المذهب الغنوصي ، بأصله الاغريقي ، بقي عقيدة توفيقية هدفت الى تهديم التراث اليهودي الموجود في المسيحية . وأرادت أيضاً أن تتجنب سلفاً مذهب القديس اوغسطينوس بمقدار ما يقدم هذا المذهب حججاً لكل تمرد . إن الشهداء ، في اعتقاد باسيليوس<sup>(٣)</sup> مثلاً ، أخطأوا ، والمسيح ايضاً قد أخطأ ،

(١) من الفلاسفة النوصيين (المرء) .

(٢) من الفلاسفة النوصيين .

(٣) من الفلاسفة النوصيين .

لأنهم يتألمون . انها فكرة غريبة ، ولكنها تستهدف نزع صفة الظلم عن الألم .  
 فحمل العون الرباني الاعتباري القادر على كل شيء ، أراد القنوصيون ان يحلوا  
 نظرية الاشتراك في معرفة الاسرار، هذه النظرية التي تترك للانسان كل فرصة .  
 إن جمهرة الفرق ، لدى غنوصي الجيل الثاني ، تعبر عن هذا الجهد المتعدد  
 العنيد الذي بذله الفكر الاغريقي كي يجعل العالم المسيحي أسهل مدخلاً ،  
 وليحرّم من الأسباب قرداً كانت الهيكلية تعتبره كأسوأ الشرور . ولكن  
 الكنيسة خطأت هذا المسعى ، وإذ فعلت ذلك زادت عدد المتمردين .

الاله المفلود ، وذرية هابيل

بمقدار ما كتب النصر المتزايد لذرية قابيل ، على امتداد العصور ، يمكن  
 القول إن إله العهد القديم لاقى نجاحاً غير متوقع . إن المجدفين ، بحكم مفارقة  
 عمية ، أصبحوا الإله الحسود الذي أرادت المسيحية طرده من مسرح التاريخ .  
 وكان أحد مواقفهم الجريئة بحق ، إلحاقهم المسيح نفسه بمسكرهم ، منهن  
 تاريخه على رأس الصليب وعند الصرخة المرة التي سبقت احتضاره . وعليه ،  
 استبقيت صورة إله حقود ، وهو إله أحسن مطابقة للخلق كما كان يتصوره  
 المتمردون . وإلى مجيء دوستوفسكي ونيته ، لم يتوجه التمرد إلا إلى إله قاس  
 يتبع هواه ، إلى إله يفضل دوغاً سبب مقنع تضحية هابيل بدلاً من قابيل ،  
 مسبباً بذلك أول جريمة قتل . إن دوستوفسكي بالتصور ونيته بالفعل وسعاً  
 ساحة الفكر المتمرد توسيعاً مفرطاً ، وطالب إله المحبة نفسه بتقديم تبريرات .  
 لقد اعتبر نيته الإله ميتاً في قلوب معاصريه ، لذلك هاجم ، ككليف ستونر  
 وهنري إله ، هذا الوم الذي بقي موجوداً ، تحت صورة الاخلاق ، في ذهن  
 عصره . ولكن الفكر الملمد مثلاً ، حتى مجيء هذين المفكرين ، اكتفى بانكار  
 قصة المسيح ( « هذه الرواية التافهة في اعتقاد الماركيز ساد Sade » ) والبقاء  
 على الايمان التقليدي بإله مرعب ، في مواقفه الانكارية بالذات .

التمرد وشمول الألم

وبالعكس ، كانت الاناجيل الترحمان بين السماء والارض ، طالما كان الغرب

مسيحياً . وكانت صورة أعظم ألم 'تقدم' كلما صدرت صرخة تمرد منعزلة . بما أن المسيح تعذب هذا العذاب الشديد ، وبحض اختياره ، لذلك لم يعد هناك ألم ظالم ، وكل ألم أصبح ضرورياً . ووجه ما ، ان حدس المسيحية المر وتشاؤمها الشرعي فيما يتعلق بالقلب البشري ، هو أن الظلم الشامل 'يرضي' الانسان بقدر ما يرضيه العدل الكامل . ولم يكن ثمة شيء يستطيع تسويغ تعذيب الابرياء الطويل العام ، سوى التضحية بإله بريء . ولم يكن ثمة شيء يستطيع تخفيف احتضار البشر ، سوى ما حل بالإله نفسه من عذاب بائس . فاذا كان كل شيء دونما استثناء ، من الارض الى السماء ، فريسة الألم ، فثمة سعادة غريبة تغدو ممكنة حينئذ .

نصر الألم على البشر

ولكن ما أن ألغت المسيحية نفسها ، لدى خروجها من مرحلتها المظلمة ، معرضة لتقد العقل ، وبمقدار ما أنكرت ألوهية المسيح ، أصبح الالم ثانية من نصيب البشر وحدهم . فالمسيح المحروم ، المسيح المظلوم ، ليس سوى بريء جديد نكّل به علانية بمثل إله ابراهيم<sup>(١)</sup> . هكذا انفتحت ثانية الهوة التي تفصل السيد عن العبيد ، وصار التمرد يصرخ دائماً في وجه الإله الحدود المتخفي . لقد هتّد المفكرون والفنانون الفاسقون لهذا الانقصال الجديد ، بمهاجمتهم ألوهية المسيح وما جاء به من أخلاق ، متخذين الاحتياطات المألوفة . ان عالم الرسام كالدو يعبر جيداً عن عالم الصعاليك المهوسين الذين بدأ ضحكهم بشكل متور أولاً ، وتصاعد حتى بلغ السماء أخيراً ، بواسطة « دون جوان » مولير . وخلال القرنين اللذين مهدا للانقلابات الثورية والمدنية للقرنيتين في آن واحد ، والتي حدثت في نهاية القرن الثامن عشر ، كان كل مجهود الفكر الفاسق قائماً على جعل المسيح بريئاً ، أو أبله ، وذلك لإحلاقه بدنيا البشر ، بما هم عليه من 'نبل' أو هزة لأذع .

## الانكار المطلق

إن أول هجوم متمسك ، في التاريخ ، هو هجوم المركيز ساد Sade الذي جمع في عدة هجومية واحدة براهين الفكر الملحد حتى الأب ميليه وفولتير . وغني عن البيان ان إنكاره هو أيضاً أشد إنكار . ان ساد لا يستخلص من التمرد سوى الرفض المطلق . والحقيقة ان سبعة وعشرين عاماً تقضى في السجن ليس من شأنها أن توجد عقلاً نزيهاً الى التوفيق . ان مثل هذا الحبس الطويل يخلق شخصاً ذليلاً أو قاتلاً مجرمًا ، ويرلد أحياناً كلا الاثنين في نفس الشخص . فادا كانت النفس تتحلّى بالقوة الكافية كي تبني ، في غياب السجن ، اخلاقاً لا تكون أخلاق خضوع ، فالمسألة في أغلب الاحيان تكون مسألة اخلاق سيطرة . كل اخلاق انفراديه تفترض القوة . وعلى هذا الاساس ، بمقدار ما لقي المركيز ساد من مجتمعه معاملة قاسية ، ودّ عليه بصورة قاسية ، وفي هذا يُعتبر المركيز ساد أنفودجاً . أما ساد الكاتب فيأتي في المرتبة الثانية ، رغم بعض الصرخات الموفقة ، ورغم ثناء معاصرينا الطائش ، انه اليوم محط اعجاب سادج ، انما لاسباب لا تمت الى الادب بصلة .

إننا نجد فيه الفيلسوف المكبل بالاغلال ، وأول عقائدي للتمرد المطلق . والحقيقة انه كان يستطيع أن يكون ذلك العقائدي . ففي غياب السجن ، يغدو الحلم بلا حدود ، ولا توقّف 'الحقيقة' الواقعة شيئاً . ان العقل المكبل يفقد على صعيد الوضوح والتمييز ، ما يربح على صعيد القوة والجيشان . لم

يعرف المركيز ساد سوى منطق واحد ، منطق العواطف . فهو لم يبن فلسفة ، ولكنه جدد في إثر حلم فظيع بمسوخ ، راود بحيلة انسان مضطهد . ولكن اتفق ان هذا الحلم كان حلماً نبوياً . فالمطالبة بالحرية مطالبة محومة ، أوصلت المركيز ساد الى مملكة العبودية . وشوقه العارم الى حياة صارت في حكم المحرمة عليه ، قد شفى غلته ، وهو يسير من فورة الى فورة ، في حلم تدميري شامل . وفي هذا عل الاقل ، يُعتبر المركيز ساد من معاصرينا . فلنتبعه إذن في سلسلة مواقفه الانكارية المتتالية :

## ١ - الأديب ساد Sade

ساد والاحقاد

هل كان المركيز ساد ملحداً ؟ لقد ادعى ذلك - ونحن نصدقه - قبل دخوله السجن ، في كتابه «محاورة بين راهب ومحتضر» . ولكننا نتردد بعدئذ أمام عنقه في خرق القديسات . ان سان فون ، وهو من أكثر ابطاله قساوة ، لا ينكر الله إنكاراً تاماً ، بل يكتفي بشرح نظرية غنوصية حول الإله - الوسيط الخبيث ، وبأن يستخلص منها النتائج الملائمة . يقال ان سان فون لبس المركيز ساد ، وهذا صحيح دون شك . فالروائي لبس أحد شخوصه ، انما هناك احتمال في أن يكون جميع شخوصه معاً . ولكن جميع ملحدي ساد يقرون مبدئياً بعدم وجود الله ، للسبب الواضح التالي : ان وجوده سيفترض انه يتصف باللامبالاة أو الحب أو القسوة . ان أهم كتاب وضعه المركيز ساد ينتهي بالبرهنة على السخف والحد الإلهيين . فجوستين البريئة تركض في العاصفة والجحرم نوارسوي يقسم بأنه سيهتدي الى الايمان اذا لم يحسب غضب السماء بسوء ، ولكن غضب السماء أصاب جوستين ، فانتصر نوارسوي ، واستمرت جريمة الانسان كرد على الجريمة الإلهية . وعليه ، هه وههان ملحد يُعتبر رداً على «رهان باسكال»<sup>(١)</sup>.

(١) «راجع باسكال ، سلسلة «زدي علا» رقم ٢٤ - منشورات عويدات ، ص ٥٦ ، الفصل الرابع : الرهان والايمان - الغرب -

نمرد مردوح

على الأقل ، ان المفهوم الذي كوّنه المركيز ساد عن الإله ، هو انه إله محرم يسحق الانسان وينكره . ولأن يكون القتل صفة إلهية فهذا ما نراه بشكل كاف ، في اعتقاد المركيز ساد ، في تاريخ الديانات . فلماذا إذن يكون الانسان فاضلاً ؟ إن أول حركة تصدر عن السجين هي أن يقفز الى النتيجة القصوى ، فاذا كان الله يقتل الانسان وينكره ، فلا شيء يستطيع أن يمنعنا من إنكار أقراننا ومن قتلهم . هذا التحدي الحائق لا يشبه أبداً الإنكار المادى الذي نجده ايضاً في محاوره ١٧٨٢ . ليس بالشخص المادى السعيد هذا الذي يهتف قائلاً : « لا شيء لي ، لا شيء مني » ويخلص الى القول : « لا ، لا ، لا ، الفضيلة والريضة ، كل شيء يختلط في النعش » إن مفهوم الإله هو الشيء الوحيد الذي لا يسعه ان يغفره للانسان . ان كلمة العفوان هي كلمة غريبة لدى استاذ التعذيب هذا . ولكنه لا يستطيع ان يغفر لنفسه فكرة تدحضها دحضاً تاماً نظريته البائسة الى العالم وحالته كسجين . ثم نمرد مزدوج سيوجه بعد الآن محاكمة المركيز ساد : نمرد على العالم ونمرد على الذات . وبما ان هذين التمردين متناقضان في كل مكان ما عدا في قلب مضطهد ، محطّم ، لذلك تظل محاكمته دائماً غامضة أو مشروعة ، وذلك حسباً ندوسها على ضوء المنطق أو بدافع الرأفة .

الانكار بإسم العريضة

إنه اذن سينكر الانسان وأخلاقه لأن الله ينكرهما . ولكنه سينكر الله في الوقت نفسه ، وهو الذي كان يقوم مقام الضامن والشريك حتى الآن . بإسم ماذا ؟ بإسم أقوى غريزة لدى هذا الشخص الذي جعله كره البشر يحيا بين جدران سجن : بإسم الغريزة الجنسية . فما هي اذن هذه الغريزة ؟ انها من جهة ، صرخة الطبيعة بالذات (١) ؛ ومن جهة أخرى ، الاندفاع العيماء التي

(١) يقتدر محرمو المركيز ساد عن جرائمهم بأهم يملكون شهوات عارمة لا يستطيعون مقاومتها .



تطلب امتلاك الكائنات امتلاكاً تاماً ، حتى لو أدى ذلك الى إفنائها . ان  
المركز ساد سنكر الإله بإسم الطبيعة - مع العلم بأن جعبة زمانه العقائدية  
تمده بأقوال مأخوذة من الفلسفة الآلية - وسيجعل من الطبيعة قوة مدمرة .  
الطبيعة ، بنظره ، هي الجنس ، وهكذا يقوده منطقها الى عالم بلا قانون ،  
حيث لا سيد إلا طاقة الشهوة العارمة . هنا مملكته المحيومة ، حيث يجد اجمل  
صرخاته ؛ « ما قيمة جميع مخلوقات الارض ازاء شهوة واحدة من شهرتنا ! » .  
إن المحاكمات الطويلة التي يبرهن فيها أبطال المركز ساد على أن الطبيعة تحتاج  
الى الجريمة ، وتحتاج الى التهديم كي تخلق ، ومن واجبنا بالتالي ان نساعد على  
أن تخلق ما ان نفني ذاتنا ، نقول : إن هذه المحاكمات لا تستهدف سوى دعم  
حرية ساد السجين المطلقة ، وهو المغلوب على امره ظلاماً للدرجة تدفعه الى الرغبة  
في الانتحار الذي ينسف كل شيء . وفي ذلك ، يخالف المركز ساد اهل زمانه :  
إن الحرية التي يطالب بها ، ليست حرية المبادئ ، بل حرية القرائن .

ساد والجمهورية العالمية

ليس من شك في ان المركز ساد حلم بجمهورية عالمية ، عرض علينا مخططها  
على لسان حكيم مصلح اسمه زاميه ، انه يبين لنا هذه الصورة أن احد اتجاهات  
التمرد هو تحرير العالم كله ، وذلك بمقدار ما يزداد رفضاً للحدود إذ تأخذ  
حركته في التسارع . ولكن كل شيء فيه يناقض هذا الحلم الورع . انه ليس  
صديق الجنس البشري ، ويكره محبي البشر . اما المساواة التي يتحدث عنها  
احياناً فهي مفهوم حسابي : تعادل الاشياء ، ويعني البشر . المساواة الحقيقية  
بين الضحايا . « من يسر بشوته حتى نهاية الشوط فسيحتاج الى السيطرة على كل  
شيء . وتحقيقها الفعلي يكون في العكس . إن شعار جمهورية المركز ساد هو  
الفسق لا الحرية . كتب هذا الديموقراطي الغريب قائلاً : « ليس للعدالة وجود  
حقيقي ، انها ألوهية جميع الاهواء » .

تائج إزاحة ملك الحق الإلهي

لا شيء أكثر دلالة بهذا الصدد من الأهمية الشهيرة التي يتلوها دولماسيه في

كتاب المركز ماد المسمى : فلسفة المتمدن ، هذه الأهمية التي تحمل عنواناً غريباً : « أيها الفرنسيون ابدلوا قليلاً من الجهد ايضاً ، ان كنتم تريدون ان تصبحوا جمهوريين »<sup>(١)</sup> . إن بيير كلوسوفسكي<sup>(٢)</sup> على حق إذ ينوه قائلاً إن هذه الأهمية تثبت لرجال الثورة أن جمهوريتهم تقوم على قتل مَلِك الحق الإلهي<sup>(٣)</sup> ، وانهم إذ أعدموا الإله بالمقصلة في ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣<sup>(٤)</sup> ، حرّموا على أنفسهم الى الابد الغناء الجريمة وبسط الرقابة على الغرائز الفاسدة . لقد كانت الملكية تحافظ على نفسها ، وتحافظ في الوقت ذاته على مفهوم الله الذي يدعم القوانين . أما الجمهورية فتقوم بمفردها ، ويجب ان تكون الاخلاق فيها دون اوامر ووصايا . اننا نتك مع ذلك في ان يكون المركز ساد ، كما يدعي كلوسوفسكي ، قد غلّكه شعور عميق بوجود خرق للقدسيات ، وان هذا النفور الذي يكاد يكون دينياً قاده الى ما يعلن عنه من نتائج . انه بالاحرى امسك بالنتائج أولاً ، ولاحظ بعدئذ الحجة الكفيلة بتبرير الانحلال الخلقي الذي كان يريد ان يطالب به حكومة زمانه . إن منطق الأهواء قلب نظام المحاكمة التقليدي ، ووضع النتيجة قبل المقدمة . حسبنا كي تقتنع بذلك ان تقدر التابع الرائع من المغالطات التي يبرر بواسطتها المركز ساد ، في هذا النص ، النيسة والسرقة والقتل ، ويطالب بأن يُسمح بها في المدينة الجديدة .

الحرية ، الجريمة ، الجريمة القاونية

ولكن ، حينئذ فقط ، تصبح فكرته أكثر عمقاً . انه ، وببصر غير مألوف في عصره ، يرفض التحالف المغرور الذي يجمع بين الحرية والفضيلة . فالحرية ، ولا سيما اذا كانت حلم السجين ، لا تستطيع تحمل الحدود . انها الجبرية ، أو انها ليست أبداً بالحرية . بالنسبة الى هذه النقطة ، لم يتبدل موقف

(١) يجد شرحاً لهذه الجملة بعد قليل (المغرب)

(٢) Sade , mon prochain. Editions du Seuil

(٣) إشارة الى اعدام لويس السادس عشر وستجد شرحاً مفصلاً في الاقسام المقبلة ( المغرب )

(٤) تاريخ اعدام الملك لويس السادس عشر (المغرب)

لركيز ساد إطلافاً . فهذا الرجل الذي لم يشر إلا بالمتناقضات ، لا يستعيد  
اسكه ، وناسكه التام المطلق ، إلا فيما يتعلق بحكم الاعدام . ان المركيز  
ساد لم يتمكن قط ، وهو الذي يهوى الاعدامات المتقننة ، ووضَعَ نظريات  
لحرية الجنسية ، نقول : انه لم يتمكن من تحمل الجريمة القانونية . «إن اعتقالي،  
المقصلة تحت ناظري ، سبب لي من الأذى اكثر بمائة مرة مما كان قد تسببه لي  
كل السجون المسكن تصورها » . في هذا الهول ، تجرأ على ان يكون معتدلاً  
ثلاثية خلال عهد الارهاب ، وعلى ان يتدخل بنبل لصالح حماته ، مع انها  
كانت السبب في ادخاله الى سجن الباسنيل . وبعد بضع سنين لحُصّ نوديه  
وضوح ، ربما على غير علم منه ، الموقف الذي دافع عنه المركيز ساد دفاعاً  
تنبأ : « لأن تقتل انساناً وانت في ذروة الهوى فهذا أمر مفهوم ؛ أما أن  
ندفع شخصاً آخر الى قتله بناء على تأمل جدي هادئ »<sup>(١)</sup> ، وبمحبة اداء مهمة  
مشرفة ، فهذا أمر غير مفهوم » . نجد هنا بداية فكرة المركيز ساد ايضاً :  
على القاتل ان يقتدي جريمته بدمه . وهكذا نرى ان ساد اكثر اخلاقية من  
معاصرنا<sup>(٢)</sup> .

حرية ساد المفزعة

ولكن كرهه لعقوبة الاعدام<sup>(٣)</sup> ليس أولاً سوى كرهه لأناس يؤمنون  
بفضيلتهم أو بطهر قضيتهم إيماناً كافياً بحيث يتجرأون على ازالة العقوبة وبشكل  
نهائي ، في حين انهم هم انفسهم مجرمون . لا يمكننا في الوقت نفسه ان نصطفي  
ارتكاب الجريمة لأنفسنا والعقاب للآخرين . علينا ان نفتح ابواب السجون ، أو  
ان نقيم الدليل على فضيلتنا ، وهذا أمر مستحيل . ما ان نرضى بالقتل ولو مرة  
واحدة، فعلياً ان نرضى به بشكل عام، إن المجرم الذي يتصرف وفقاً للطبيعة،

(١) فلنتذكر الجملة الاولى من مقدمة الكتاب (المرب)

(٢) معهم هذه الجملة الاخيرة على ضوء ما جاء في بعض انعام المقدمة وعلى ضوء ما ستراه في

الانعام القادمة (المرب)

(٣) الجريمة القانونية (المرب)

لا يسعه ، دوناً خيانة ، ان يقف الى جانب القانون . « ابدلوا قليلاً من الجهد ايضاً ، ان كنتم تريدون ان تصبحوا جمهوريين ، معناها : « اقبلوا بحرية ارتكاب الجريمة ، الحرية الوحيدة المعقولة . وادخلوا في المعصية مثلاً 'يدخل في النعمة' . ان الخضوع التام للشر يؤدي حينئذ الى زهد رهيب يفرز جمهورية الأنوار والصلاح القطري<sup>(١)</sup> . فهذه الجمهورية التي احرقت فتنتها الاولى ، بحكم مصادفة ذات دلالة ، مخطوطة « أيام سدوم المائة والعشرون » لم يكن في وسعها ان تسو عن استنكار هذه الحرية المارقة ، وان تزعج في غياهب السجون بمزيد فاضح . وبذلك أفلحت له الفرصة الرهيبة للضي في منطق المتورد الى حد أبعد .

القوة ناموس العالم

ربما كانت الجمهورية العالمية حلاً بالنسبة الى المراكز ماد ، ولكنها لم تكن قط نزعاً . كان موقفه الحقيقي على الصعيد السياسي هو الموقف الكلي . ففي كتابه : جمعية أصدقاء الجريمة ، تؤيد الحكومة وقوانينها علانية ، ومع ذلك توطن النفس على خرق هذه القوانين . وعليه ، نرى حماة بيوت الدعارة يصوتون للنائب المحافظ . إن مشروع المراكز ساد يفترض حياد السلطة العطوف . وليس في وسع جمهورية الجريمة ان تكون ، موقفاً على الأقل ، جمهورية عالمية ؛ إذ لا بد لها من التظاهر بطاعة القانون . ومع ذلك ، في عالم لا تسوده إلا قاعدة الجريمة ، وتحت سماء الجريمة ، وبإسـم طبيعة مجرمة ، لا يخضع المراكز ساد في الحقيقة الا لقانون الشهوة الدائم . ولكن ان نشتهي دون حد ، معناه ايضاً ان نشتهي دون حد . ان اباحة الافناء تفترض امكان افئنا ايضاً . لا بد اذن من الكفاح والسيطرة . فقانون هذا العالم ليس الا قانون القوة ، وعمره كما ارادة القوة .

(١) جمهورية التوبة الفرنسية التي تأثرت بنظريات روسو (المغرب) .

حلقة الاقوياء وطبقة العبيد

إن صديق الجريمة<sup>(١)</sup> لا يحترم في الحقيقة سوى نوعين من القوة : القوة القائمة على عَرَضِ المنشأ والولادة ويجدها في مجتمعه ، والقوة التي يرقى إليها المضطهد حيناً يتمكن ، بسبب كثرة فبوعره ، من مساواة الاقطاب الخليعين الذين يجعل منهم المركز ساد ابطاله الاعتياديين . هذه المجموعة الصغيرة من الاقوياء ، هؤلاء المظالمون على الاسرار ، يعلمون ان لهم جميع الحقوق . من يخسره الشك ولو لحظة واحدة في هذا الامتياز الرهيب يطرد فوراً من المجموعة ويصبح في عداد الضحايا . حينئذ نصل الى نوع من البلانكية<sup>(٢)</sup> الاخلاقية تتقلد فيها بعزم حلقة صغيرة من الرجال والنساء مكانها فوق طبقة من العبيد ، وذلك لأنها تملك معرفة غريبة . أما المشكلة الوحيدة بالنسبة الى هذه الحلقة فتكمن في تنظيم نفسها كي تمارس ممارسة تامة حقوقاً لها امتداد الشهوة الرهيب .

إلحاق قانون القوة

لا نستطيع هذه الفئة المحدودة ان تفرض نفسها على العالم كله ما دام هذا العالم لا يقبل بقانون الجريمة . بل ان المركز ساد لم يعتد قط ان امته سترضى ببذل الجهود الاضافي الذي سيجعلها « جمهورية »<sup>(٣)</sup> . ولكن اذا لم تكن الجريمة والشهوة قانون العالم كله ، واذا لم يسودا ، على الاقل ، في بقعة معينة من الارض فانها لا يعودان يشكلان مبدأ وحدة ، بل سبب تنازع . انها لا يعودان يشكلان القانون ، وهكدا يعود الانسان الى التشتت والى عامل الصدفة . يجب ان نخلق اذن عالماً يكون تماماً على قدر القانون الجديد . إن ضرورة الوحدة التي خيب الخلق املها ، تشفي غلتها بكل وسيلة في عالم ضيق

(١) شرح للكتاب المذكور اعلاه : جميع اصلاء الجريمة

(٢) نسبة الى اسم علم .

(٣) إشارة الى الجبله التي شرحت في المقطع الواقع تحت عنوان حرية ساد المنزعة (العرب)

الأرجاء . فقانون القوة لا يملك ابداً الصبر اللازم لبوغ مملكة العالم . ولا يدّ له من ان يحدد على جناح السرعة المجال الذي يمارس فيه تأثيره ، حتى لو اقتضت الحاجة لمحاكاة هذا المجال الضيق بالاسلاك الشائكة وبمراكز المراقبة والاستكشاف .

بمجال قانون القوة

إن قانون القوة عند المركز ساد ' ينشئ اماكن مغلقة وقصوراً محاطة بسبعة أسوار ، يستحيل الهروب منها ؛ وفي هذه الأماكن يسير مجتبع الشهوة والجريمة ، دون عقبات ، بمقتضى نظام مقيم . وتكون نتيجة التمرّد الذي لا يجاريه في جموحه تمرّد ، والمطالبة الشامة بالحرية ، استعباد السواد الاعظم . ان تحرير الانسان يتم ، بنظر المركز ساد ، في اوكار الخلاعة هذه ، حيث يتولى شبه مكتب سيامي للرذيلة تنظيم حياة وموت رجال ونساء دخلوا الى الابد في جحيم الضرورة . ويؤخر كتابه بأوصاف هذه الاماكن المميزة التي يردّد فيها الخليعون الاقطاعيون ، كل مرة ، مثبتين للضحايا المجتمعين عجزهم التام وعبوديتهم المطلقة قَوْلَ الدوق دي بلانجي لرُعاة أيام سدوم المائنة والعشرون : « لقد صرتم في عداد الموتى وانتم في هذا العالم » .

المكان المغلق والنظام الداخلي

كان المركز ساد مقيماً كذلك في برج الحرية ، ولكن في سجن الباستيل . لقد اندفن معه التمرّد المطلق في قلعة فذرة لا يستطيع ان يخرج منها احد ، لا المضطهد ولا المضطهد . وكى يدعم حريته ، كان مضطراً الى تنظيم الضرورة المطلقة . فالحرية المطلقة للرغبة تعني انكار الآخرين والغاء الشفقة . يجب ان نغتنق العاطفة ، « وَهْنُ الْفَكْر » . وهذا ما يتلافاه المكان المغلق ونظامه الداخلي . ان النظام الذي يقوم بدور رئيسي في قصور المركز ساد الغربية ، يكرس عالم الريبة . انه يساعد على التكهن بكل شيء كي لا يُفسد حنان غير منتظر أو شفقة غير متوقعة مخططات الإرادة المطلقة . وهي ولا شك ارادة

غريبة تسمون على الامر : « استيقظوا كل يوم في العاشرة صباحاً ... » !  
ولكن يجب ان نحول دون التمدد المتعة الى تعلق ، علينا ان نعلمها ونجعلها  
قاسية العود . يجب ايضاً ان لا تتراعى وسائل المتعة <sup>(١)</sup> ابداً كأشخاص . فاذا  
كان الانسان « نوعاً من نبات مادي غاماً » فلا يمكن معاملته إلا كأداة ،  
كأداة تجربة . في جمهورية المركز ساد المحاطة بالاسلاك الشائكة ، لا يوجد  
سوى آلات وآلاتين . ان النظام ، طريقة استعمال هذه الآلات ، يحدد  
مكان كل شيء . ولهذه الاديرة الشائكة قواعدها المأخوذة عن قواعد الجمعيات  
الدينية بطريقة ذات دلالة . هكذا يُقبل الخليع على الاعتراف العلني بالخطايا .  
ولكن الملباس يتبدل : « اذا كان طاهر السلوك فهو من المؤمنين ، ... »

#### تسجيل الجرائم حايا

لقد بنى المركز ساد اذن مجتمعات متالية ، كما جرت عليه العادة في عصره .  
ولكنه ، خلافاً لآهل زمانه ، ضم مساوي الانسان الطبيعية في مجموعة  
وحدة ، وبنى بدقة فائقة مدينة التسلط والكراهية ، كسباق في هذا المجال ،  
حتى انه قاس ما اكسب من حرية بالأرقام . فلخص فلسفته في تسجيل الجرائم  
تسجيلاً حسابياً مardاً : « المقتولون قبل اول آذار : ١٠ ، منذ اول آذار :  
٢٠ ، الراحلون : ١٦ ، المجموع : ٤٦ » . انه سباق دون شك ، ولكنه  
ما زال متراضعاً كما نرى <sup>(٢)</sup> .

#### ترابط المتعة والبناء

لو ان كل شيء وقف عند هذا الحد ، لما استحق المركز ساد إلا الاهتمام  
الخاص بالباقيين المنسيين . ولكن ما ان يُرفع الجسر المتحرك فلا بد من  
العيش داخل القصر <sup>(٣)</sup> . بهما يكن النظام الداخلي دقيقاً فانه لا يتسكن من

(١) الضحايا (الحرب)

(٢) إشارة الى الجرائم المصاهرة ومتمكرات الابداء حيث تمل كثير من الاشخاص  
(الحرب)

(٣) الجبال يصبح مقلداً بعد رفع الجسر المتحرك (الحرب)

التكهن بكل شيء . انه يستطيع ان يلقي لا ان يخلق . فساد هذه المجتمعات المعذبة لن يجدوا فيها المسرة التي يشتهون . وغالباً ما يأتي المركيز ساد على ذكر « عادة الإجرام العذبة » . ومع ذلك ، لا شيء هنا يشبه العذوبة ، بل هنا بالأحرى غضب ' انسان يرسف في الاغلال . المسألة في الحقيقة هي مسألة الحصول على متعة ، وان المتعة القصوى تتطابق مع اقصى درجات الدمار . ان لحظة الحرية التي يتجه نحوها كل تنظيم القصور هي: تملكك من تقتل ، والتزاوج مع الألم . ولكن ما ان تقتل الجريمة الجنسية أداة الذلة ، حتى تحذف الذلة التي لا توجد إلا في لحظة القضاء على الضحية . فلا بد لنا حينئذ من ان 'نخضع ضحية أخرى ، وأن نقتلها أيضاً ، وأن ننقل بعدئذ الى أخرى ، وبعدها الى جميع الضحايا اللامتناهية الممكنة . فنحصل بالتالي على هذا الركام الكئيب من المشاهد الجنسية والاجرامية التي يترك منظرها المسر ، في روايات المركيز ساد ، بصورة مناقضة ، ذكرى غفيرة قيحة لدى القارئ .

#### البلش بجميع الضحايا

ما هي مهمة المتعة في هذا العالم السادي؟ ما هي مهمة البهجة الزاهرة الكبرى للأجسام الراضية المشتركة في الجريمة ؟ المسألة مسألة بحث مستحيل للهرب من اليأس ، ينتهي مع ذلك يأس ، مسألة هروب من العبودية الى العبودية ، ومن السجن الى السجن . فاذا كانت الطبيعة صحيحة وحدها ، واذا كانت الشهوة والتدمير وحدها مشروعين في الطبيعة ، فيحينئذ من تدمير الى تدمير يجب أن نخفي نحو الإفناء الشامل ، لأن مملكة الانسان بالذات لا تعود كافية لإرواء الظمأ الى الدماء . علينا ان نصبح ، على حد تعبير المركيز ساد ، جزائري الطبيعة . ولكن حتى هذا لا يتحقق بسهولة . فعندما 'تثقل الحسابات ، وحينما يكون قد بَطش بكل الضحايا ، يبقى الجزائريون وجهاً لوجه في القصر المنزول . ثمة شيء لا يزال ينقصهم . ان الاجسام المعذبة ترجع بمناسرها الى الطبيعة حيث تنبث الحياة ثانية . القتل نفسه لما ينته بعد . و لئلا القتل لا ينتزع إلا



الحياة الاولى للفرد الذي تحمل به ضربتنا . علينا ايضاً ان نتسكن من انتزاع حياته الثانية ... .

محاولة الاعتداء على الكون

وها هوذا المركب ساد يفكر في الاعتداء على الخلق<sup>(١)</sup> . « إني أمقت الطبيعة... أود لو أفسد عليها مخططاتها ، لو أعاكس سيرها ، لو أوقف دوران الكواكب ، لو أنشر البلبلة في الأفلاك السابجة في الفضاء ، لو أحطم ما يفيدنا وأهمي ما يؤذيها ، وبكلمة موجزة : أتمنى أن أهنأ في أعمالها ، ولكنني لا أستطيع النجاح في هذه المهمة . عبقاً تصور المركب ساد آلياتاً يتمكن من سحق الكون ؛ انه يعلم ان الحياة ستسهر في ذرات الكواكب . الاعتداء على الخلق عملية مستحيلة ، ولا يمكننا تحطيم كل شيء ، لأن هناك بقية ستعجز عن الدمار . « لا أستطيع النجاح في هذه المهمة . فهذا الكون الخالق الجامد يستكين فجأة الى حزن مبهم شديد ، بواسطته يؤثر فينا ساد من حيث لا نريد . لعلنا نستطيع مهاجمة الشمس ، وأن نحرّم منها الكون أو أن نستخدمها لإحراق العالم ، هذه الاعمال ستكون حقاً في عداد الجرائم ، ولكنها لن تكون الجريمة التي ما بعدها من جريمة .. يجب إذن ان نستمر في السير .

وها هم الجزارون يتناظرون بعين التوعد ...

القتل يند ال سادة

إنهم الآن وحدهم ، بسوسهم قانون واحد : قانون القوة . بما أنهم ارتضوا به عندما كانوا سادة ، لذلك لم يعد في وسعهم رفضه اذا انقلب ضدّهم . كل قوة تنزع الى ان تكون فريدة وحيدة . لا بدّ إذن من القتل ايضاً . وهكذا ، بدورهم ، يمزق السادة بعضهم بعضاً . لقد استشف ساد هذه النتيجة ولكنه لم يتراجع . ثمة ثبات عجيب على الرذيلة بلقي خيطاً من نور على أغواط التمرّد هذه . انه لن يحاول الالتحاق بدنيا الحنان وعالم التسوية . ولن يُخفّض الجسر

(١) بحس الطبيعة ، الكون - العرب -

المتحرك<sup>(١)</sup> ، انه سيرضى بالفناء الشخصي. ان قوة الرفض الجامعة تلتقي في حدها الاقصى مع قبول غير مشروط لا يخالو من عظيمة . ويقبل السيد بأث يصبح بدوره عبداً ، بل لعله يتنقى ذلك . « المقصلة أيضاً ستكون في نظري بمثابة عرش الملائكة » .

بقاء الفريد

إن أعظم تدمير يتطابق لذن مع أعظم تأكيد. وينقض السادة على بعضهم بعضاً ، ويصبح هذا الصرح المشيد على شرف الدعارة « مزروعاً بمبحث أشخاص داعرين حلت بهم الضربة وهم في أوج عبقريتهم »<sup>(٢)</sup> . أما الأتوى ، الذي سيقى حياً ، فيكون الوحيد ، سيكون الفريد ، الذي قام المركيز ساد بتبييده ، هو نفسه في آخر الأمر .  
ها هو ذا أخيراً على سدة الملك ، سيداً وإلهماً .

تبدد الحلم

ولكن في لحظة أوج انتصاره ، يتبدد الحلم . فيعود الفريد نحو السجين الذي ابتدعه بجهلته العارمة ، ويتأزج معه . انه وحيد في الحقيقة ، سجين في باستيل مخضب بالدماء ، 'بني بأكله حول متعة ما زالت بعد' عطشى ، ولكنها صارت كتعة بلا أداة لذة . إنه لم ينتصر إلا في الحلم . أما هذه العشرات من المؤلفات المحشوة بالفظاعات والفلسفة فتُلخص زهداً بائساً ، وسيراً مهوساً من الرفض التام الى القبول المطلق ، ويلخص في النهاية رضى بالموت 'بحول قتل الكل والجميع الى انتحار جماعي' .

عندما يسو منطلق

التدرد حقيقة أصله

لقد 'نفذ حكم الاعداء في قتال المركيز ساد ، وهو كذلك لم يقتل' إلا في الخيلة . هكذا انتهى بروميسوس في أوثانوس . انه سيقضي حياته ، سجيناً

(١) أي أنه لن يتصل عن المكان الخلق ، مجال قانون القوة - العرب -

(٢) Maurice Blanchot , Lautréamont et Sade , Editions de Minuit. (٢)

دائماً ، ولكن في مأوى هذه المرة ، وهو يمثل مسرحيات على منصة مرتجلة ، وسط جماعة من المهرسين . ان نظام العالم لم يؤمن له المسرة ، فقدم له الحلم والابداع معادلاً لما يستحق المزة . وبما لا شك فيه ان الكاتب لا يحرم نفسه شيئاً . فالنسبة اليه على الاقل ، بنهار الحدود ، ويمتد للرجبة ان تخفي الى آخر الشوط . وفي هذا ، يعتبر المركزيز - ااد الاديب الكامل . فقد بنى صورة خيالية ليرهم نفسه انه موجود . وجعل الجريئة التي 'تباغ عن طريق الكتابة' فوق كل شيء . ان فضله الذي لا 'يتمدد' يكمن في انه صور من أول وهلة - في بصرية الغيظ المتراكم البائسة - النتائج القصوى التي يصل اليها المنطق المتبرد ، حيناً يدس على الأول حقيقة أصله . هذه النتائج هي الكلية المغلقة ، والجريئة الشاملة ، وأريستوقراطية السفاهة ، ولإرادة الدمار الكلي . ولسوف نجد هذه النتائج بعد ساد بسنوات عديدة . ولكنه ، بعد ما تذوق هذه النتائج ، يبدو وكأنه اختفى في ورطاته الخاصة ، وأنه لم يجد لنفسه مخرجاً إلا في الادب .

مدلول اتاج ساد

والغريب ان ساد هو الذي وجه التمرد على دروب الفن ، حيث سارت به الرومانسية بعدئذ شوطاً آخر الى أمام . ودار من الكتاب الذين قال عنهم « ان فسادهم بلغ من الخطورة والاشاعة مبلغاً بحيث انهم لا يشهدون ، وهم يطعنون مذهبهم الحديث » ، سوى أن يدوا مجموع جرائمهم الى ما بعد حياتهم ؛ انهم لم يعودوا قادرين على ارتكاب الجرائم ، ولجئنا كتاباتهم العينية ستدفع الى ارتكاب الجرائم ، وهذه الفكرة الاطيفة التي يحملونها معهم الى القبر تعزيمهم عن اطرارهم بحكم الموت الى التخلي عما هو موجود . ان - انتاجه المتبرد بدل بالتالي على معقلته الى البقاء . وحتى لو كان الخلود الذي يطمح هو مخلود قابلي ، فإنه يتمسك على الاقل ، وشهد على الرغم منه من أجل أصدق ما في التمرد الماورائي .

سب لجاح ساد حالياً

إن ذريته بالذات هي التي تضرنا الى تكريمه (١) . وَرَوَّيْتَهُ لِبِسُوا جَمِيعاً  
من الكتاب . وبما لا شك فيه انه تألم ، ومات كي يلهب محبة أهل الاحياء  
الجميلة ، ورواد المعاهي الادبية . ولكن ليس هذا كل ما في الامر . إن النجاح  
الذي يلاقه المركيز ساد في عصرنا ، يفسره حلم مشترك بينه وبين الحساسية  
المعاصرة : المطالبة بالحرية التامة ، تجرُّد من الانسانية مجريه العقل دوناً تأثر ،  
تحويل الانسان الى أداة تجربة ، النظام الذي يوضح العلاقات بين إرادة القوة  
والانسان - الأداة ، المجال المغلق لهذه التجربة الفظيعة ، (٢) . . . هي دروس  
سيجدها فلاسفة القوة حيناً سيعملون على تنظيم عصر العبيد (٣) .

مجمع ساد ومجمع عمر

قبل عصرنا قرنين ، وعلى نطاق ضيق ، أشاد المركيز ساد بالمجتمعات المستبدة  
باسم الحرية المفرطة ، وهي حرية لا يطالب بها التمرد في الحقيقة . ان التاريخ  
والأساة المعاصرين يبدآن حقاً معه . ولكنه اعتقد ان مجتمعات يقوم على حرية  
الحرية لا بد له من ان ينسجم مع حرية الآداب ، كان للعبودية حداً . وقد  
اكتفى عصرنا بأن يخلط حلمه بجمهورية عالمية وفنه الإذلالي خلطاً غريباً .  
أخيراً ، ان ما كان المركيز ساد يقاتله أكثر من أي شيء آخر ، ونعني القتل  
القانوني (٤) ، وقد اخذ على عاتقه الاكتشافات التي اراد المركيز ساد أن يضعها  
في خدمة القتل العرزي . أما الجريمة التي اراد لها المركيز ساد أن تكون ثمرة  
استثنائية لذيذة فاجعة عن وذيلة منفصلة من عقالمنا ، فلم تعد اليوم سوى عادة  
كثيرة الفضيحة اباحت بوليسية . انها مفاجآت الادب (٥) .

( ١ ) تضرنا الى تكريمه لأنه لم يقتل إلا في المية ، أما هي فقتلت بالعمل - الحرب -

( ٢ ) مرونا بهذه المصطلحات في الصفحات السابقة - الحرب -

( ٣ ) إشارة الى العصر الحالي ، وستنوسم المؤلف في شرح ذلك في الانعام القادمة - الحرب -

( : ) الحكم بالاعدام ( الحرب )

( ٥ ) إشارة الى ما في الادب من استباق وبدوه ( الحرب )

## ٢ - تمرد أهل التظاهر

### تمرد الرومانسية

ولكن الوقت ما زال للأدباء . ان الرومانسية مع تمرداها الإبلسي لن تفيد وأيم الحق سوى شطحات الخيلة . انها ، كالركيز ساد ، انفصلت عن التمرد القديم بما منعت من تفضيل الشر والفرد . والتمرد في هذا الطور ، إذ ركز على قوة تحدية ورفضه ، نسي مضمونه الإيجابي . بما ان الله ينسب اليه كل م هو خير في الانسان ، لذلك يجب ان نسخر من هذا الخير ، وان نصطفي الشر . لقد أدى كره الموت والظلم اذن ، على الأقل ، الى الدفاع عن الشر والقتل ، إن لم يكن الى ممارستها .

### وقف التمرد الروماني

إن الصراع بين الشيطان والموت في قصيدة الشاعر ملتون المسماة «الفردوس المفقود» ، قصيدة الرومانسين المفضلة ، يرمز الى هذه المسألة ؛ وما يزيد ذلك عمقا ان الموت هو ، مع الخليقة ، ابن الشيطان . فالتمرد ، كي يجارب الشر ، ولأنه يعتبر نفسه بريئاً ، يتغلى عن الخير ويولد الشر ثانية . ان البطل الروماني يدمج الخير والشر دمجاً عميقاً ، بل دينياً ان جاز القول (١) . وهو يقول بالقضاء والقدر لأن القدر يمزج الخير والشر ، دون ان يتمكن الانسان من الدفاع عن نفسه . ان القدر يزيح الاحكام القيسية ، ويستبدلها بـ « كتب علينا ذلك » ، الأمر الذي يسمح بمذرة الكل ، ما عدا الخالق ، المسؤول الوحيد عن هذا الواقع المشين . والبطل الروماني « يقول بالقضاء والقدر » أيضاً ، لأنه « تتلمذ تعاطف قوة وعبقرية » تعاطفت فيه قوة الشر . كل قوة ،

(١) انما موسوعة اساسية عند وليم بلاك مثلاً .

كل مبالغة، تحمي حينئذ وراء « القول بالقضاء والقدر ». ولأن يكون الفنان، والشاعر خاصة ، شيطانياً ، فلقد شرح الرومانسيون هذه الفكرة القديمة جداً شرحاً مثيراً . بل أن هناك في هذا العصر استعهاراً يقوم به الشيطان ويستهدف لإخلاق كل شيء به ، حتى عباقرة الفكر التقليدي . وقد لاحظ بلاك قائلاً : « ان ما جعل ميلتون يكتب بتضابق عندما كان يتحدث عن الملائكة وعن الإله ، وبجراحة عندما كان يتحدث عن الشياطين والجحيم ، هو أنه كان شاعراً بكل معنى الكلمة ، ومن حزب الشيطان ، على غير علم منه » . الشاعر ، المعقري ، الانسان ذاته ، في اسمى صورته ، يصرخ حينئذ مع الشيطان : « وداعاً ايها الرجاء ، ولكن مع الرجاء ، وداعاً ايها الحرف ، وداعاً ايها الندامة ... ايها الشر 'كن خيري » .

انها صيحة البراءة المهانة .

اختلاط الخير والشر

ان البطل الرومانسي يعتبر نفسه اذن مكرهاً على ارتكاب الشر ، شوقاً منه الى خير مستحيل . والشيطان يتمرد على خالقه ، لأن هذا الخالق استخدم القوة لإخضاعه وقهره . يقول شيطان ميلتون : « صار للعالم انداد في العقل ، فسا عليهم بالقوة » . لقد أدين العنف الرباني اذانة صريحة ، لذلك سيتبع المتمرد عن هذا الإله المعتدي الفظيع<sup>(١)</sup> ، « الافضل هو الابتعاد عنه أكثر ما يمكن » ، ومسيطر سلطانه على جميع القوى المناوئة للنظام الإلهي . ارت امير الشر<sup>(٢)</sup> لم يصطف طريقه إلا لأن الخير مفهومٌ يعرفه الله ويستخدمه لمقاصد جائرة . وحتى البراءة تثير حفيظة المعاصي بتقدير ما تقترض عمن تخدوع . ان « روح

(١) « ان شيطان ميلتون متوكل كثيراً على إلهه من الناحية الاخلاقية . مثلاً يعتبر ذلك الذي يثبت بالزعم من السراء والعراء ... اسمى من الذي يطبق على أعدائه اشد اسم انواع الاتهام ، وهو واثق من نصره المؤكد » هيرمان ميلفيل .

(٢) الشيطان (المرب)

الشر السوداء التي تنيرها البراءة « ستولد اذن ظلاماً بشرياً مقابلًا للظلم الرباني . بما ان الشر موجود في اصل الخلق ، لذلك سيقابله عنف مقصود . ان الافراط في اليأس سيزيد ايضاً من اسباب اليأس كي يسير بالتمرد نحو هذه الحالة من الحُزْوَ المقيت ، التي تتبع عنة الظلم الطويلة ، وحيث ينعدم التمييز بين الخير والشر انعداماً نهائياً . ان شيطان الشاعر فييني

... لم يعد يميز المنكر والمعروف

بل لم يعد يبتهج بما سبب من مصائب

وهذا ما يعرف العدمية ويبيح القتل.

شيطان الرومانسين ،

الرومانية والجرية

أصبح القتل في الحقيقة لطيفاً محبوباً . وحسبنا ان تقارن اهلبيس مصوري القرون الوسطى بشيطان الكتّاب الرومانسين . فتى « غض الإهاب » حزين وفاتن « (الشاعر فييني) ، يحل محل الحيوان الأقرن . « جميل جمالاً يجهل الارض » (ليومتوف) ، منفرد وقوي ، مؤلم ومحتقر ، يضطهد بلا مبالاة ، ولكن عذره هو الألم . يقول شيطان ميلتون : « من يجرؤ على ان يغبط ذلك الذي حكم عليه مقامه الاعلى بأعظم قسط من الآلام اللامتناهية » مثل هذا الظلم الكبير ومثل هذا الألم المتواصل ، يسمحان بكل المبالغات . ان المتمرد يمنح نفسه اذن بعض الامتيازات . وليس من شك في ان القتل لا يوصى به لذاته ، وايكمنه مرسوم داخل قيسمة الفورة ، وهي قيمة سامية بالنسبة الى الرومانسي . الفورة هي عكس السأم : فـ « لورانزاسيو »<sup>(١)</sup> يحلم بـ « هان الإسلندي » . ان الحساسيات الذليلة تستدعي فوران الهيبة البدائي . والبطل البيروني<sup>(٢)</sup> ، العاجز عن الحب ، أو القادر فقط على حب مستحيل ، يتألم سأمًا .

(١) البطل في مسرحية الفريد دي موسيه المعروفة بهذا الاسم (المعرب)

(٢) لبنة الى الشاعر الانكليزي الثورود بيرون.

انه وحيد ، مضى ، 'مرهق' بوضعه . فاذا اراد ان يشعر بأنه يحيا ، وجب أن يكون ذلك في تمجيد وهيب لعمل قصير الامد ومفئد<sup>(١)</sup> . أن نحب ما لن نراه ابدأ مرتين ، معناه أن نحب في اللهب والصراخ كي نفنى بعدئذ ، فلا نعود نحيا إلا في هذه اللحظة وبها ، من أجل

هذا الرصال الحي ، هذا اللقاء الحافظ  
لقلبٍ معذبٍ التحم بالعواصف (ليرمانتوف)

ان التهديد الميت الذي يحوم فوق وضعنا يجعل كل شيء مجذباً . الصرخة وحدها نجعلنا نحيا . الحسية تقوم مقام الحقيقة . وعند هذا الحد ، تصبح رؤيا الدمار الكلي قيمة يحتلظ فيها كل شيء : الحب والموت ، الوجدان والإثم . في عالم شذو عن مداره ، لا يعود هناك من حياة إلا حياة المهاوي ، حيث - على حد اعتقاد الفريد ليوناقان - يتدحرج البشر « مرتجفين سخطاً ، متمسكين بجرائمهم حباً » ، يلعنوا فيها الخالق . الكرة الجنونية ، وفي النهاية الجريئة الجيلة ، تستنفدان في لحظة واحدة معنى حياة باكها . ان الرومانسية ، دون أن تبشر بالجريمة بالمعنى الحقيقي ، تسعى الى تصوير حركة مطالبة عميقة ، في صور اصطلاحية : الخارج على القانون ، الشقي الصالح ، اللص الكريم . لقد كتب النصر للنساء الموسيقية الدامية وللرواية السوداء . وان شخصاً مثل بيريكسيكور مجرور ، بشن نجس ، هذه الشهوات النفسية الرهيبة التي يرونها غيره في معسكرات الإبادة<sup>(٢)</sup> . ليس من شك في ان هذه الاعمال هي ايضاً تحدى موجه الى مجتمع العصر . ولكن الرومانسية ، في منبها الحي ، تتحدى القانون الاخلاقي والرماني في البدء . ادلك ، أولاً وبصورة مطلقة ، نجد أفرد صورة لها في الداندي<sup>(٣)</sup> لا في الثوري .

(١) للتذكير تراعى ائمة والعناء عند المركب ساد (المغرب)

(٢) اشارة ايضاً الى العصر الحالي (المغرب)

(٣) الداندي هو من اهل التظاهر (المغرب)



## التمرد الروماني والموقف

نقول : منطقياً ، لأن هذا العناد في الروح الشيطانية لا يمكن ان يبرره إلا تأكيد الظلم تأكيداً يتكرر في استمرار ، وتوطيده بصورة ما . ولا يبدو الألم مقبولاً في هذه المرحلة إلا اذا كان بلا دواء . ان التمرد يصطفي ماورائيات الأسوأ ، وتجلى في أدب التجديف الذي لم يخرج منه بعد ، « كنت اشعر بقوة ، وكنت اشعر بالأغلال » ( بيتروس بوريل ) . ولكن هذه الأغلال محبة . يجب ، بدونها ، ان تثبت أو ان نحارس القوة التي لسنا ، مع ذلك ، واثقين من امتلاكها . وهكذا يصبح المرء موظفاً في الجزائر ، وها هو ذا بروميشوس ، مع بيتروس بوريل بالذات ، يريد ان يغاق الملامي وان يصلح اخلاق المستوطنين . ولكن هذا لا يمنع ان على كل شاعر ، ككيا يقبل ، ان يكون ماعوناً<sup>(١)</sup> . ان شاول لاساي ، وهو نفسه الذي كان يعترم وضع رواية فلسفية : روبسيير ويسوع المسيح ، لا يتام ابداً دون ان يتفوه ببعض التجديفات الشديدة ، ككي يستر ويمنع نفسه من السقوط . فالتمرد يتصنع الأسى ، وينتزع آيات الاعجاب . اما الرومانسية قدشن عبادة الشخصية اكثر مما قدشن عبادة الفرد ، وحينئذ تصبح منطقية . ان التمرد الروماني ، إذ لم يعد يرتجى القاعدة<sup>(٢)</sup> أو الوحدة من الله<sup>(٣)</sup> ، وإذ أمر على ان يلتف حول ذاته ضد قدر معاد ، وإذ فقد الصبر في أن يبقى كل ما في وسعه البقاء في عالم نذر للموت والفناء ، نقول : ان هذا التمرد يلتبس حينئذ حلاً في الموقف . فالموقف يجمع في وحدة جمالية الانسان الذي يتحكم به القدر ويحيطه العنف الرباني . ان الكائن الذي كُتِب عليه الموت يتألق على الاقل قبل ان يتلاشى . وهذا التألق هو مبرزه ومسوغه . الموقف نقطة ثابتة ، النقطة الوحيدة التي

(١) « زال الادب الفرنسي متأثراً بذلك . يقول مارو : « لم يعد هناك شعراء لئمة » .  
لقد صار عدوم الله ، ولكن الآخرين هم مشوا النية .

(٢) قاعدة سلوك (المحرب)

(٣) سنرى بعد قليل ان التمرد الروماني يخلق وحدته الخاصة بوسائل جمالية (المحرب)

يمكننا أن نجابه بها وجه إله البنضاء الذي أصبح وجهاً متحجراً . والمتمرد الساكن يتحمل نظرة الله ، دون أن يعتريه وهن . يقول ميلتون : « لن يبدل شيء هذه الروح الثابتة ، هذا الازدراء المتعالي الناشئ عن الوجدان المهان » . كل شيء يتحرك ويمضي نحو الدم ، ولكن المهان يكابر ويعاند ، ويصون عزة نفسه على الأقل . ثمّة رومانسي شاذ اكتشفه ويمون كينو ، يزعم أن غاية كل حياة عقلية أن تصبح إلماً . والحقيقة أن هذا الروماني سابق لأوانه بعض الشيء ، لأن الغاية آنذاك لم تكن سوى مضاهاة الإله والبقاء عند مستواه . فلم يكونوا يهدمونه آنذاك ، بل كانوا يجهد متواصل يرفضون الخضوع له البتة . الداندية نوعٌ منط من الزهد .

الداندي والمرأة

الداندي يخلق وحدته الخاصة بوسائل جمالية ، ولكنها جماليات الغرابة والإنكار . « العيش والموت أمام المرأة »<sup>(١)</sup> . كان هذا هو شعار الداندي ، بنظر الشاعر بودلير . انها ، في الحقيقة ، جماليات متسلكة . إن الداندي معارضٌ بحكم دوره . فهو لا يستمر الا في التحدي . كانت الخلق يتلقى تماسكه حتى الآن من الخلق . ولكن ما أن كرتس انفصاه عن الخلق ، إذا به يقع فريسة للحظات العابرة والايام الزائلة والحساسية المشتتة . لا بد له إذئذ من امتلاك زمام نفسه . انه يستجمع ذاته ويقيم لنفسه وحدة بقوة الرفض بالذات . بما أنه مشتت كشخص محروم من القاعدة ، لذلك سيصبح متأسكاً كشخصية . ولكن الشخصية تقتض وجود جمهور . ان الداندي لا يستطيع ان يؤكد ذاته الا إذا عارض ، ولا يستطيع ان يتأكد من وجوده إلا إذا رآه في وجه الآخرين . الآخرون هم المرأة . صحيح ان هذه المرأة سرعان ما تتكرر لأن قدرة الانسان على الانتباه محدودة ، لذلك يجب تنبيهها في استمرار ، ويجب حثها بالاثارة . فالداندي مضطر إذن دائماً الى ادهاش الآخرين . كلفائه في الغرابة ،

(١) المرأة : الآخريين - العرب -

وكلاله في المرايدة . انه وهو الكائن المنفصل ، الموجود على الهامش دائماً ،  
 'يجبر الآخرين على خلقه ، وذلك بإنكاره قينهم . انه يمثل حياته تمثيلاً ، لأنه  
 لا يستطيع ان يحياها . انه يمثلها حتى الموت ، إلا حينما يكون وحيداً بلا مرآة .  
 لأن يكون الداندي وحيداً ، معناه ان لا يكون أي شيء . ولم يتحدث  
 الكتاب الرومانسيون عن العزلة بمنزلة هذه الروعة ، إلا لأنها كانت ألهم الحقيقي ،  
 الألم الذي لا يمكن تحمله . ان غردم يد جذوره الى مستوى عميق ؛ ولكن  
 من كليفلاند الأب يريغو الى الدادويين<sup>(١)</sup> مروراً بجهانين ١٨٣٠ ، وبودليير  
 ومنحطلي<sup>(٢)</sup> ١٨٨٠ ، ثمة قرن ونيف من التمرد يروي غليله بثمان بخص في  
 جرأت الشذوذ والغرابة . ولقد عرف الجميع كيف يتحدثون عن الألم ، فذلك  
 لأنهم إذ يشعرون أن لا يتخطوه أبداً إلا بواسطة تقليدات وتحريفات باطلة ،  
 شعروا غريزياً بأن هذا الألم يبقى حجتهم الوحيدة ونبلهم الحقيقي .

ترد شارل بودليير

لذلك ، لم يتحدث هوغو ، عضو المجلس الأعلى الفرنسي ، تراث الرومانسية ،  
 بل تحمله بودليير و لاسنير شاعرا الجريمة . يقول بودليير . « كل شيء ينضج  
 بالجريمة في هذا العالم : الجريمة والحائط ووجه الانسان » . فلتأخذ إذن هذه  
 الجريمة التي هي قانون العالم شكلاً متميزاً على الأقل . إن الشاعر لاسنير ، أول  
 النبلاء المجرمين من الناحية التاريخية ، أكسب على ذلك بشكل فعلي . أما بودليير  
 فكان أقل علماً ، ولكنه كان عبقرياً . لقد ابتدع حديقة الشر<sup>(٣)</sup> ، حيث لا  
 تمثل الجريمة سوى نوع أندر من الانواع الأخرى . وأصبح الرعب نفسه حساً  
 مرهفاً وشيثاً غنياً . « ساكون سعيداً بأن أصبح ضحية ؛ ليس ذلك فحسب ،  
 بل سارحب أيضاً . . . » بأن أصبحون جلاداً كي أحس بالثورة بطريقتين . حتى

(١) فلة من الكتاب .

(٢) فلة من الكتاب .

(٣) علم ان شارل بودليير ألف : أزهار الشر - المر - .

خضوع بودلير تقروح منه رائحة الجريمة . ولئن اصطلى دي ميستر<sup>(١)</sup> مرشداً فكرياً ، فذلك بمقدار ما يضي هذا الكاتب المحافظ حتى نهاية الشوط ، ويركز عقيدته حول الموت وحول الجلاء . ويتظاهر بودلير بأنه يعتقد أن « القديس الحقيقي هو ذلك الذي بين الشعب ويقتله من أجل الشعب » . ان طلبه سيستجاب . فقد بدأ جنس القديسين الحقيقيين بالانتشار على هذه الارض كي يثبت نتائج التمرد الغربية هذه . ولكن بودلير ، رغم جعبته الشيطانية ، ورغم ميله الى المركز ساد ، ورغم تعديلاته ، ظل لاهوتياً لدرجة تمنعه من أن يكون متبرداً حقيقياً . ان مأساته الحلقة التي جعلته أعظم شعراء زمانه ، كانت في مجال آخر . ولا يمكننا أن نتعرض هنا لذكر بودلير إلا بمقدار ما كان أعمق مفكري الداندية ، وبمقدار ما اعطى صيغاً نهائية لإحدى نتائج التمرد الرومانسي .

#### التمرد والرومانسية والداندية

إن الرومانسية تدل في الحقيقة على ان التمرد مرتبط بالداندية . ذلك أن أحد اتجاهاته هو التظاهر . والداندية في أشكالها التقليدية تقرر بنزوع الى اخلاق . فهي ليست سوى شرف المنحط الى نخوة<sup>(٢)</sup> . ولكنها تدشن في الوقت نفسه جماليات ما زالت مسيطرة على عالمنا ، جماليات المبدعين المنفردين ، المنافسين العنيدين لإله 'مدان' . اعتباراً من الرومانسية لا تعود مهمة الفنان منحصرة فقط في خلق عالم ، ولا في ان يشيد بالجمال لذاته ، بل ايضاً في ان يحدد موقفاً . حينئذ يصبح الفنان أنموذجاً . انه يعرض نفسه كآسوة : والفن اخلاقه . ومعه يبدأ عهد المرشدين . وعندما لا يقتل اهل التظاهر بعضهم بعضاً ، أو عندما لا يصبحون في عداد الجانين ، فانهم يعرضون انفسهم كأنموذج أمام الاجيال المقبلة . وحتى حينما يجهر قائلين ، مثل الشاعر فيني ، انهم سيلزمون بجانب الصمت ، فان صمتهم مجلجل .

(١) راجع ص ٢٨٢ في « تيارات الفكر الفلسفي » . تأليف أندريه كريسون .

ترجمة نهاد رضا . المكتبة الفلسفية - منشورات هويدات

(٢) أي انه يستمد القاعدة من دافع ذاتي (الحرب)

أهل الظاهر ،  
الانصاليون ، الثوريون

ولكن في صميم الرومانسة نفسها ، يتراءى عظم هذا الموقف لبعض المتبردين الذين يشكلون حينئذ النموذجاً انتقالياً بين الشاذ ( أو الخارق ) وبين مغامرينا الثوريين . فما بين « ابن اخ الموسيقى رامو » <sup>(١)</sup> ، و « الفاتحون » <sup>(٢)</sup> في القرن العشرين ، نرى بيرون وشيلي يتنازعان من أجل الحرية ، وان يكن في الظاهر . انهما يعرضان نفسيهما ايضاً ولكن بصورة اخرى . ان التمرد يبارح تدريجياً عالم الظاهر الى عالم التنفيذ ، حيث سيوزج نفسه كلياً فيه . وحينئذ سيتراءى طلاب ١٨٣٠ الفرنسيون ، ومتظاهرو <sup>(٣)</sup> كلوث الاول الروس ، كأطهر تجسيدات يكتسبها تمرد كان في البدء منزلاً ، ثم اصبح بعدئذ يفتش عن درب اتحاد ، خلال سلسلة من التضحيات . ولكن الميل الى رؤيا الدمار الكلي والحياة الجنونية ، ستوجد لدى ثوريينا <sup>(٤)</sup> . ان عرض المحاكمات ، وتمثيلية قاضي التحقيق والمتهم الفظيعة ، واصطناع الاستجابات ، تدفنا احياناً الى القول بوجود مجازاة مفعلة للحملة القديمة التي كان بواسطتها المتبرد الرومانسي ، إذ يرفض وضعه ، يحكم على نفسه مؤقتاً بالظاهر ، يدغدغه أمل بائس باكتساب كينونة أسمى <sup>(٥)</sup> .

- (١) قصة هجاية ألفها الفيلسوف الفرنسي ديدرو . راجع ص ٣١ - ٣٢ من : « الادب الثوري في القرن الثامن عشر » تأليف نهاد رضا .  
(٢) « الفاتحون » او « الفزاة » قصة لأندريه مالرو .  
(٣) مستمدة هنا بالمثل المادي المعروف .  
(٤) إشارة الى الثورات السياسية في العصر الحالي .  
(٥) أ - الشاذ = ابن اخ الموسيقى رامو = الظاهر .  
ب - النموذج انتقال = الشاعر بيرون ، الشاعر شيلي .  
ج - الفامرون الثوريون = الفاتحون = التنفيذ .

(الحرب)

## رفض الخلاص

### التمرد الرومانسي

لئن يبعد التمرد الرومانسي الفردَ والشرَّ ، فإنه لا يتحزب اذن للبشر ، بل يتحزب لذاته فقط . ومما تكن الداندية فهي دائماً داندية بالنسبة الى الإله . فالفرد ، بوصفه مخلوقاً ، لا يسعه ان يعارض إلاَّ الخالق . إنه بحاجة الى الله ليتابع معه نوعاً من الحوار المفتاح الكئيب . وحقُّ لأرمان هوغ<sup>(١)</sup> ان يقول إن الله لم يمت بعدُ في هذه المؤلفات الرومانسية رغم ما فيها من جو نيتشوي<sup>(٢)</sup> . وما الهلاك الابدي نطالب به بجمعية ، سوى مخافة على الله .

أما عند دوستوفسكي فقد خطا وصف التمرد خطوة اخرى . فإيفان كارامازوف<sup>(٣)</sup> يتحزب للبشر ، وينوه ببراعتهم . انه يؤكد ان حكم الموت الذي ينقل كاهلهم هو حكم جائز . انه ، في حركته الاولى على الاقل ، لا يدافع عن الشر ، بل عن العدالة التي يجعلها فوق مقام الالهية ، فهو اذن لا ينكر وجود الله انكاراً مطلقاً ، بل يخطئ الله باسم قيمة اخلاقية .

\*\*\*

Les Petits Romantiques ( Cahiers du Sud ) ( ١ )

( ٢ ) سنرى مسألة موت الإله عند نقشه في الصلحات التالية (المرب) .

( ٣ ) الإخوة كارامازوف ، دوستوفسكي .

كان مطمح المتمرد الروماني ان يخاطب الله مخاطبة الند للند . حينئذ يقابل الشر بالشر ، والقساوة بالتسامح . إن المثل الاعلى للشاعر فيني هو مثلاً ان يقابل الصمت بالصمت . ليس من شك في ان المقصود بذلك هو الارتقاء الى مستوى الإله ، وهذا ما يشكل تجديفاً . ولكن لا يقصد إنكار سلطان اللاهوتية ، ولا مقامها . فهذا التجديف موقتر ، لأن كل تجديف هو أخيراً بمثابة اشتراك في القدسيات .

تمرد إيمان

اما مع إيمان فقد تبدلت الالهة . إن الله يحاكم بدوره ، ومن على . فاذا كان الشر ضرورياً للخلق الالهي ، فان هذا الخلق يكون حينئذ غير مقبول . لن يعود إيمان يتوكل على هذا الاله الغامض ، بل سيفوض أمره الى مبدأ أعلى منه ، الى مبدأ العدالة ؛ انه يدشن المشروع الاسامي للمتمرد ، ونعني استبدال ملكوت العون بملكوت العدالة . وفي الوقت نفسه ، يشرع بالمجموع ضد المسيحية . إن المتمردين الرومانيين قطعوا حبل الصلة مع الله نفسه ؛ بوصفه مبدأ بغضاء . أما إيمان فيرفض اللغز رفضاً صريحاً ، وبالتالي يرفض الله بوصفه مبدأ محبة ؛ فالهبة وحدها تستطيع ان تدفعنا الى ان نقر بالظلم اللاحق بمارث Marthe ، وبالعمال الذين يشتغلون عشر ساعات ، ويجعلنا فيها بعد ايضاً نقبل بموت الاطفال<sup>(١)</sup> الذي لا يمكن تبريره . يقول إيمان : « اذا كان تألم الاطفال مفيداً لاستكمال مجموع الآلام اللازمة للحصول على الحقيقة ، فاني أؤكد سلفاً ان هذه الحقيقة لا تساوي مثل هذا الثمن » . إن إيمان يرفض العلاقة المبيقة التي اوجدها المسيحية بين الألم والحقيقة . وأعمق صرخة تند عن إيمان ، الصرخة التي تفتح أرواح المهاري تحت اقدام المتمرد ، هي : حتى لو . « إن سخطي باقي حتى لو كنتُ على خطأ » . ومعنى ذلك ان إيمان لن يقبل ان يدفع ثمن هذه الحقيقة بالشر والألم وموت الابرياء ، حتى لو كان الله موجوداً ،

(١) الاطفال رمز البراءة التامة (الحرب) .

وحتى لو كان الفز يغطي حقيقة ما ، وحتى لو كان الكاهن زوزيم<sup>(١)</sup> على حق . إن إيمان ييحد رفض الخلاص . فالإيمان يؤدي الى الخلود ، ولصكته يفترض قبول الفز والشر والرضا بالظلم . فمن يمنعه تألم الاطفال من قبول الايمان ، فلن ينال الخلود . وفي مثل هذه الشروط ، سيرفض إيمان هذه الصفة حتى لو كان الخلود موجوداً . إنه لن يرضى بالعمون الرباني إلا اذا كان غير مشروط . ولهذا السبب يضع هو نفسه شروطه . التمرد يريد كل شيء ، أو لا يريد اي شيء . « كل ما في الكون من علم لا يساوي دموع الاطفال » .

#### صراع العدالة والحقيقة

إن إيمان لا يقول إن الحقيقة غير موجودة ، بل يقول ما يلي : اذا كانت الحقيقة موجودة ، فلا يسعها ان تكون إلا غير مقبولة . لماذا ؟ لأنها جائرة . هنا ، ولأول مرة ، يبدأ صراع العدالة ضد الحقيقة ، وسيكون صراعاً بلا انقطاع . إن إيمان المنفرد ، وبالتالي الاخلاقي ، سيكتفي بنوع من الدونكيشوتية الماورائية . ولكن ما ان تقضي سنوات ، حتى تسمى مؤامرة سياسية واسعة الى ان تجعل من العدالة الحقيقة .

#### رفض الخلاص اللردي

أضف الى ذلك ان إيمان ييحد رفض الخلاص المنفرد . فهو يتضامن مع المالكين ، وبسببهم يرفض دار النعيم . والحقيقة انه لو كان من المؤمنين لأمكن انقاذه ، ولكن الهلاك الابدي سيحل بغيره ، وسيستمر الألم . ليس من خلاص يمكن بالنسبة الى ذلك الذي يتألم بدافع الرافة الحقة . ان إيمان سيستمر في تحطئة الله ، رافضاً الايمان رفضاً مزدوجاً ، مثلاً يرفض الظلم والامتياز . ولا نحتاج إلا الى خطوة واحدة ايضاً حتى ننقل من « كل شيء أو لا شيء » الى « الجميع أو لا أحد » .

(١) الكاهن زوزيم من شخص رواية دوستويفسكي (المرب) .



## إيمان الميزق

هذا التصميم البالغ وما يفترض من موقف ، كان من شأنه ان يكفي الرومانيين . ولكن إيمان ، على الرغم من خضوعه للدائنية ايضاً ، يحيا مشكلاته حقاً ، بمنزلة مؤزناً بين القبول والرفض . اعتباراً من هذه الآونة يصبح تصرفه منطقياً . فاذا رفض الخلود فاذا يبقى له ؟ الحياة بما تلك من ابتدائي . فاذا ما حذف معنى الحياة ، بقيت الحياة ايضاً . يقول إيمان : « أنا أحيأ على الرغم من المنطق » . ويقول ايضاً : « لو انني لم اعد أؤمن بالحياة ، ولو كان يساورني الشك في امرأة محبوبة ، وفي النظام الكوني ، مقتنعاً على العكس بأن كل شيء ليس سوى فوضى جهنية ملعونة - حتى حينئذ ، لوددت ان أحيأ » . لذلك سيعيا إيمان ، وسيجب ايضاً « دون ان يعرف السبب » . ولكن العيش معناه ايضاً القيام بعمل . بلأم ماذا ؟ اذا كان الخلود غير موجود ، فلا وجود للثواب ولا للعقاب ، ولا وجود للخير ولا للشر . « اعتقد انه لا توجد فضيلة بلا خلود » . وايضاً : « أعلم فقط ان الألم موجود ، وان لا وجود للمذنبين ، وأن كل شيء مترابط ، وأن كل شيء يضي ويتوازن » . ولكن اذا كانت الفضيلة غير موجودة ، فلا وجود لشريرة : « كل شيء مباح »

## شرعية القتل

بشعار « كل شيء مباح » يبدأ حقاً تاريخ العدمية المعاصرة . فالتمرد الروماني لم يصل الى هذا الحد ، بل اكتفى بأن يقول ، اجمالاً ، إن كل شيء ليس مباحاً ، ولكنه بدافع القنعة يسمح لنفسه بعمل ما هو ممنوع . أما مع الأخوة كارامازوف فإن منطق السخط قلب التمرد على ذاته ، وأوقعه في تناقض مقلط . الاختلاف الاسامي هو أن الرومانيين يسمحون لأنفسهم بتساهلات ، في حين ان إيمان يجبر نفسه على ارتكاب الشر بدافع التماسك المنطقي . انه لن يسمح لنفسه بأن يكون براً صالحاً . فالعدمية ليست فقط

بأساً وإنكاراً ، ولكنها بوجه خاص إرادة يأس وإنكار . نفس الانسان الذي كان يتحزب بشراسة للبراءة ، ويرتجف امام تألم طفل ، ويريد ان يرى « بأم عينه » الوعلة تمام قرب الاسد ، والضحية تعانق القاتل ، نقول : نفس هذا الانسان يعترف بشرعية القتل ، وذلك اعتباراً من رفضه المنطق الإلهي ومحاولته ايجاد قاعدة شخصية له . إن إيفان يتمرد على إله قاتل ، ولكن ما ان يزن ثمره بميزان العقل ، حتى يستخرج منه قانون القتل . اذا كان كل شيء مباحاً ففي وسعه اذن ان يقتل اباه ، أو ان يرضى على الاقل بأن يُقتل ابوه . إن امعان النظر في وضعنا كأشخاص محكوم علينا بالموت ، يؤدي فقط الى تبرير الجريمة . ففي نفس الوقت يكره إيفان عقوبة الموت ( إنه إذ يروي قصة اعدام يقول بقسوة : « هوى رأسه بإسم العون الرباني » ) ، ويسلم مبدئياً بالجريمة . التسامح كل التسامح بحق القاتل ، ولا يُقبل أي تسامح بحق الجلاد . لقد كان المركيز ساد يتقلب في هذا التناقض بينسر ، ولكن هذا التناقض يأخذ بمخناق إيفان كلارامازوف .

#### التساؤل الجديد

إنه ، في الحقيقة ، يتظاهر بأنه يحاكم كما لو كان الخلود غير موجود ، في حين انه اكتفى بأن يقول انه يرفض الخلود حتى لو كان موجوداً . ولكي يحتج ضد الشر والموت ، يصطفي اذن بعدم أن يقول إن الفضيلة ليست اكثر وجوداً من الخلود ، وان يسبح بقتل والده . إنه يقبل بالخيار المزدوج عن علم : أنت يكون فاضلاً وغير منطقي ، أو منطقياً ومجرماً . ونظيره الشيطان ، على حق إذ يوسوس له قائلاً : « ستؤدي عملاً فاضلاً ، ومع ذلك انت لا تؤمن بالفضيلة ، وهذا ما يغيظك ويمدبك » . السؤال الذي يطرحه إيفان على نفسه أخيراً ، السؤال الذي يشكل التقدم الحقيقي الذي ادخله دوستويفسكي على روح التمرد ، هو الوحيد الذي يهنا هنا : هل نستطيع ان نحيا وان نستمر في التمرد ؟

## الإنسان - الإله وقبول الجبرية

إن إيمان يجعلنا نخمن جوابه : لا يمكننا أن نحيا في التمرد إلا إذا سرنا به إلى نهاية الشوط . م.م. هي نهاية التمرد الماورائي ؟ الثورة الماورائية . فبعدما أنكرَ ربّ هذا العالم في شرعيته ، صار لزاماً أن يطاح به ، وأن يحتل الإنسان مكانه . « بما أن الله والخلود غير موجودين ، لذلك يُسمح للإنسان الجديد بأن يُصبح إلهاً » . ولكن ما معنى أن يكون للإنسان إله ؟ أن يعترف حقاً أن كل شيء مباح ، وأن تُرفض كل شريعة غير شريعتة الخاصة . نلاحظ إذن ، ودون أن يكون التوسع في المحاكمات المتوسطة أمراً ضرورياً ، أن تتحوّل الإنسان إلى إله معناه قبول الجبرية ( وهي فكرة مفضلة عند متقفي دوستوفسكي ) . فمشكلة إيمان الشخصية هي إذن أن يعرف هل سيكون وفيّاً لمنطقه ، وهل سيقبل إذ ينطلق من احتجاجه الساخط إزاء تألم البريء - بقتل والده ، مع التزام الامبالاة المبهزة « للبشر الآلهة » . نحن نعرف حلّه : إن إيمان سيسمح بقتل والده . أنه اعتمد من أن يكتفي بمجرد التظاهر ، وأودع من أن ينفذ العمل بيده ، لذلك سيسمح بأن ينفذ غيره هذا العمل . ولكنه سيعاب بالجنون . فالإنسان الذي لم يكن يفهم كيف يمكننا أن نحب الآخرين ، لا يفهم أيضاً كيف يمكننا أن نقتلهم... لأنه محصور بين فضيلة لا يمكن تبريرها وجريمة لا يمكن قبولها ، تنهشه الشفقة ويمعز عن الحب ، وحيد محروم من القلعة المسعفة . لذلك سيقتل التناقض هذا العقل السامي . قال : « لي عقل دنيوي ، فما جدوى رغبتني في فهم ما ليس من هذه الدنيا ؟ » . ولكنه لم يكن يحيا إلا من أجل ما ليس من هذه الدنيا ، وكان هذا الاعتزاز بالمطلق يتزعزع عن هذه الأرض التي لم يكن يحب منها شيئاً .

السيد غو التنبؤ

ولكن ما أن تُطرح المشكلة ، فلا بد من أن تتلوها النتيجة : التمرد بعد الآن سيسير نحو التنفيذ . وقد أشار دوستوفسكي إلى هذه الحركة ، بقوة نبوءة ،

في اسطورة المفتش الأكبر . ثم إن ايفان لا يفصل الخلق عن الخالق . فهو يقول : « أنا لا ارفض الله ، بل الخلق » . وبتعبير آخر ، يرفض الإله الآب ، غير القابل للفصل عما خلقت . فمشروعه الاعتصامي يبقى إذن أدبياً قائماً . إنه لا يريد ان يصلح شيئاً في الخلق . ولكن بما ان الخلق هو على هذه الحال ، لذلك يستخلص منه حق تحرير نفسه أدبياً ، وتحرير الناس الآخرين معه .

#### مشروع جديد

وبالعكس ، ما ان يسمى روح التمرد - إذ يقبل مبدأ « كل شيء مباح » ومبدأ «الجميع أو لا احد» - الى اصلاح الخلق لتأمين سلطان البشر وألوهيتهم ، وما ان تمتد الثورة الماورائية من الميدان الاخلاقي الى الميدان السياسي ، حتى يبدأ مشروع جديد من الأهمية بمكان ، فاشيء هو أيضاً ... ويجدر بنا ملاحظة ذلك - عن نفس العدمية .

إن دوستوفسكي ، رسول الديانة الجديدة ، توقع ذلك وبشتر به ، « لو ان أليوشا خلس الى أن الإله والخلود غير موجودين » ، لأصبح في الحال ملجداً واشتراكياً . فالاشتراكية ليست المسألة العالية فحسب ، انها بوجه خاص مسألة الإلحاد ونجسده المعاصر ، مسألة برج بابل 'يشيد بلا إله ، لإتزال السموات حتى الارض لا لبلوغ السموات من الارض .

#### الحرية والعادة

لذلك يمكن لأليوشا في الحقيقة ان يصف ايفان بالفرّ الحقيقي . فهذا الاخير كان يحاول ان يسيطر على ذاته ، انما دون نجاح . وبقية آخرون ، اكثر جدية ، سيأتون وسيطالبون بالسيطرة على العالم ، منطلقين من نفس الإنكار اليأس . انهم المفتشون الكبار الذين يسجنون المسيح ، ويقولون له إن طريقتك ليست الطريقة الصالحة ، وان السعادة الشاملة لا تتنازل بالحرية الفردية ، حرية الإصطفاء

بين الخير والشر ، وإنما بالسيطرة على العالم وبتوحيده <sup>(١)</sup> . يجب بسط السيادة والسلطان أولاً . إن ملكوت السموات آتٍ في الحقيقة على الأرض ، ولكن البشر هم الذين سيؤدون فيها ، بعضهم في البدء سيكونون القياصرة ، أولئك الذين كانوا سابقين الى الفهم ، وبعدئذ سيؤدون الآخرون كلهم مع مر الزمان . إن وحدة الخلق هذه ستتحقق بجميع الوسائل ، لأن كل شيء مباح . لقد أدرك الوهن المفتش الأكبر لأن علمه مرّ لاذع . إنه يعلم ان البشر اقرب الى الكسل منهم الى الجبن ، وانهم يؤثرون الطمأنينة والموت على حرية التمييز بين الخير والشر . إنه يرثي رثاءً فاستراً لهذا السجين الصامت الذي يكذبه التاريخ في استمرار ، ويحث على الكلام وعلى ان يعترف بأخطائه ، وعلى ان يبرر بوجه ما مشروع المفتشين والقياصرة . ولكن السجين يلزم الصمت . لذلك سيستمر المشروع بدونه ، وسيقتل . أمسا الشرعية فستأتي في نهاية الزمان بعد توطد سلطان البشر . « المسألة ما زالت بعد » في البداية ، بعيدة عن النهاية ، وعلى الأرض ان تعاني كثيراً وكثيراً ، ولعلنا سنبلغ غايتنا وسنصبح قياصرة ، وحينئذ سنفكر في السعادة الشاملة .

#### خبز القياصرة

من ذلك أعدم السجين ، ولم يعد هناك من سادة سوى المفتشين الصغار يصغون الى روح الموت والدمار . « إن المفتشين الكبار يرفضون بإباه خبز السماء <sup>(٢)</sup> والحرية ويقدمون خبز الأرض بلا حرية . لقد كانت شرطتهم تصرخ على جبل الجلجلة قائلة : « انزل من الصليب نؤمن بك » . ولعلنا لم نزل ، وحتى في اصعب لحظات النزاع اشتكى الى الله لأنه تخلى عنه . لم يعد هناك اذن براهين ، بل هناك الإيمان والفرح ، اللذان يرفضهما المتمردون ويؤدبهما

(١) هذا المقطع مكتوب بصورة رمزية. انه يشير الى الحركات السياسية التي تهدف أولاً الى السيطرة على العالم ثم تحقيق السعادة في المستقبل (المغرب)  
 (٢) الترجمة الخيالية هي : الدمان ، ولكننا أثرت الترجمة التورية كما هي في النص الفرنسي لتعكس على جمالية اللفظة (المرب)

المفتشون. كل شيء مباح، وقد اخذت عصور الجريمة أميتها لهذه اللدخلة العصبية. ومن بولس الى ستالين ، نرى البوابات الذين اصطفوا قيصر قد مهدوا الطريق للقيصرة الذين لا يصطفون إلا ذاتهم .

إن وحدة العالم التي لم تتحقق مع الله ، ستحاول بعد الآن ان تتحقق ضده .

عزلة ايفان

ولكننا لم نصل بعد الى هذا الحد . إن ايفان لا يقدم لنا حالياً سوى الوجه الشاحب لمتورد في الهاوي ، عاجز عن القيام بعمل ، تمزقه فكرة براءته وإرادة القتل . انه يكره عقوبة الموت لأنها صورة الوضع البشري ، ويسير في الوقت نفسه نحو الجريمة . ان نصيبه العزلة لأنه مخزب للبشر .

إن تمرد العقل ، معه ، ينتهي في الجنون .

## التأكيد المطلق

ما أن 'يخضع' الإنسان الله للحكم الأخلاقي ، حتى يقتله في ذاته . ولكن ما هو حينئذ أساس الأخلاق ؟ إن الله 'يُنكر' بإسم العدالة <sup>(١)</sup> ، ولكن فكرة العدالة هل 'يفهم' بدورها فكرة الله ؟ ألا نكون حينئذ في العيشة ؟ العيشة هي التي يجاها نيتشه . وكما يتخطاها بشكل أفضل ، يسير بها الى نهاية الشرط : الأخلاق هي الوجه الآخر للاله ، ويجب ان نهدمها قبل إعادة البناء . وحينئذ لا يعود الله موجوداً ، ولا يعود يضمن وجودنا . وعلى الإنسان ان يعقد العزم على القيام بعمل ، كما يوجد .

١ - الأوحاد

أو

الأنا الفردية

الأنا الفردية

سبق ان اراد ستيرنر <sup>(٢)</sup> ان يهدم لدى الإنسان ، بعد الله بالذات ، كل فكرة عن الإله . ولكن عديمه قنوعة ، خلافاً لنيتشه . إن ستيرنر يضعك

(١) تحت عنوان : 'نمرود إيفان' ، رأينا استبدال ملكوت الملوك بملكوت العدالة (الحرب)  
(٢) بلورف الثاني .

وهو في ورطته، أما ينتشه فيناطح الجدران. منذ ١٨٤٥ ، عام صدور كتابه: الألوحد وملكيتته ، شرع ستيرنر بعملية التكنيس . فهذا الرجل الذي كان يختلف الى « جمعية المتحررين » ، مع الميغيلين الشبان اليساريين ( ومنهم كلل ماركس ) ، لم يكن لديه حساب يصفه مع الله فحسب ، بل ايضاً مع الإنسان فويرباخ ، و فكر هيغل المطلق وتجسده التاريخي في الدولة . فقد اعتقد ان كل هذه المعاييد صدرت عن نفس «المونغولية Mongolian» : الايمان بمُثُل خالدة. لذلك أمكنه ان يكتب ما يلي : « لم أن قضني على أي شيء » . ليس من شك في أن الخطيئة بلية ، ولكن الحق الذي نكابده منه هو ايضاً بلية ، الله هو العدو ؛ ولأن ستيرنر يذهب الى ابعد ما يمكن في التعديف : ( « اهضمُ خبز الذبيحة تصبح بريء الذمة » ) ولكن الله ليس سوى احد المحرفات <sup>(١)</sup> Aliénations الأنا، أو بشكل اصح ، احد المحرفات أناي الذاتية الفردية . إن سقراط ويوسع وديكارت وهيغل ، كل الانبياء والفلاسفة ، لم يكفوا عن ابتداع صور جديدة لانحرافات أناي الذاتية الفردية ، هذه الأنا التي يحرص ستيرنر على تمييزها عن الأنا المطلقة ( فيخته Fichte ) ، بتحويلها الى منتهى ما لها من صفة خصوصية وعابرة . « الأسماء لا تُسيها » ، إنها الأنا الفردية .

#### انخضاع الأنا الفردية للتبريدات

يعتقد ستيرنر ان التاريخ العام حتى مجيء يسوع لم يكن سوى جهد طويل للسير بالواقع نحو المثال . وقد تجسد هذا المجهود في الافكار والطقوس التطهيرية الخاصة بالقدماء . واعتباراً من يسوع تحقق الهدف ، وشرع بمجهود آخر ، قوامه ، بالعكس ، تحقيق المثال . فالكلف بالتجسيد تلا التطهير ، وأخذ يخرب العالم بشكل متزايد كلما وسعت الاستراكية ، وريثة المسيح ، من سلطانها . ولكن التاريخ العام ليس سوى سلسلة طويلة من الإساءات لمبدأ أناي الذاتية الألوحد ، وهو مبدأ حيّ ، محسوس ، مبدأ انتصار أرادوا إخضاعه لربقة

(١) مزدورهما المحرف ، ويشتمل بضمهم كلمة : ضيمة .



تجريدات متتابعة : الله ، الدولة ، المجتمع ، الانسانية . في اعتقاد ستيرنر ان محبة البشر تميمية . والفلسفات الملحدة التي تبلغ ذروتها في عبادة الدولة والانسان ، ليست هي نفسها سوى « عصيان لاهوتي » . يقول ستيرنر : « ان ملحدينا هم حقاً اشخاص ورعون » . وعلى امتداد التاريخ لم توجد سوى عبادة واحدة ، عبادة الخلود . هذه العبادة وهم وضلال . ليس من حقيقي سوى الأوحاد ، عدو السرمدي ، وعدو كل شيء لا يفيد رغبته في السيطرة .

حرية واحدة : قوتي ،

حقيقة واحدة : الأناية

ان حركة الإنكار التي ينبض بها التمرد تغبر ، عند ستيرنر ، كل التأكيدات بشكل لا يقاوم ، وتجنس أيضاً مستبدلات الإلهي المزدحمة في الوجدان الاخلاقي . يقول ستيرنر : « لقد كنست الآخرة الموضوعية ، ولكن الآخرة الذاتية أصبحت سماء جديدة » . ان هذا المتمرد نفّر حتى من الثورة ، ولا سيما من الثورة . كي يكون المرء ثورياً ، ينبغي له ان يؤمن بشيء ما ، وذلك حيث لا يوجد شيء يؤمن به . « لقد أدت الثورة (الفرنسية) الى ردة ، وهذا يبين ما كانت عليه الثورة في الحقيقة » . ليس الخضوع للانسانية بأفضل من القيام برواجبات العبادة . وعلى كل ، ليست الأخوة سوى « نظرة الغد المنتظر عند الشيوعيين » . أما خلال الفترة الفاصلة فيصبح الإخوة عبيداً . لا توجد اذن ، في اعتقاد ستيرنر ، سوى حرية واحدة : « قوتي » ، وحقيقة واحدة : « الأناية العظيمة ، أناية النجوم » .

التآلف : تطابق الأنايات

ولكن كل شيء يزهر ثانية في هذا القفر<sup>(١)</sup> . « إن المغزى الرهيب لصرخة الفرح بلا فكرة ، ما كان فيه ممكناً ما دام ليل الفكر والايان مستمر » . لقد دنا هذا الليل الطويل من نهايته ، وسيبزع فجر ليس بفجر الثورات ، بل

EXTRACTION APPROBÉE DE LA

(١) لأن الإنكار كنس كل شيء (المغرب)

فجر العصيان . والعصيان في حد ذاته تنسك يرفض كل أشكال العون . ولن يتألف العصامي مع الآخرين إلا بقدر تطابق انانيتهم مع انانيته وخلاا، هذا التطابق . حياته الحقيقية في العزلة ، حيث ينشبع .. دون لجام شهوة الوجود ... التي هي وجوده الوحيد .

#### الاحد والتثل

هكذا بلغت الفردانية ذروتها . إنها إنكار لكل ما ينكر الفرد ، ونجيد لكل ما يشيد به ويفيده . ما الحيز بنظر ستينر ؟ « انه هذا الذي استلبس الانتفاع به » . « بم يسمح لي بصورة شرعية ؟ » بكل ما أنا قادر عليه ، . إن التمرد يصب ايضاً في تبرير الجريمة . لم يجرب ستينر هذا التبرير فحسب ( بهذا الصدد ، نجد ذريته المباشرة ثانية في الاشكال الإرواهية للفوضوية ) ، بل ثل بما افتتح من آفاق على هذه الصورة . « ان الزهد في القديسات ، او بالأحرى تحطيم القديسات ، يمكن أن يصبح عاماً . ليست الثورة الجديدة تلك التي تطالعنا . ولكنك وانت القوي ، المتفطرس ، الجاساف ، الوقع ، اللامبالي ، ألا ترى ان هناك جرعة تتعاطم مع الصاعقة في الأفق ، ألا ترى أن السماء المشحونة بالتحبات يلغها السواد وتازم جانب الصمت » . نستشف هنا الفرحة القائمة التي تصدر عن أولئك الذين يؤكدون رؤى الدمار ... في كرخ حقير . لم يعد في وسع أي شيء ان يرقف هذا المنطق المرّ الملحاح ، سوى «أنا» متبردة على كل التجريدات ، أصبحت هي نفسها مجردة غير قابلة للنسبة ، وذلك من فرط ما عزلت عن أصولها وقطعت عن جذورها . لم يعد هناك جرائم ولا أخطاء ، وبالتالي لم يعد هناك مذنبون . اننا جميعاً متصفون بالكمال . وبما أن كل أنا هي ، في حد ذاتها ، مجرمة اصلاً نحو الدولة ونحو الشعب ، لذلك فلنعرف كيف تقرأ بأن الحياة معناها التمدي والتجاوز . إن لم يرض المرء بالموت ، وجب عليه ان يرضى بأن يقتل ، كي يكون الأوحده الفريد . « لست بعظيمة مجرم ، أنت يا من لا تثنيك أية حرممة مقدسة » . ولكن ستينر

مما زال متعزّواً من الحليّة ، لذلك يوضح قائلاً : « القتل ، لا التعذيب الشديد » .

اكتشاف القدر

ولكنّ سنّ شرعية الجريمة ، معناه إعلان التوبة والإقتال بين الأوحدين . وعليه ، بتطابق القتل مع نوع من الانتحار الجماعي . إن ستيرن الذي لا يعترف بشيء من ذلك ، أو لا يرى منه شيئاً ، لن يتراجع أمام أي تدمير . وأخيراً يجد روح التمرد إحدى أمرّ مسرّاته في الحواء . « ستندخين (الأمة الألمانية) ، ووما قريب ستلحق بك اخواتك الأمم الأخرى . وحينئذ نضي جميعاً في إرثك ، سنوارى الإنسانية التراب . وعلى قبرها ، أنا ، سيد نفسي الوحيد أخيراً ، أنا ، وربّها ، سأنفجر ضاحكاً » . هكذا على انقراض العالم ، ستعرب الضعكة المكدرة الصادرة عن « الفرد - الملك » ، ستعرب عن آخر انتصار بحرزه روح التمرد . ولكن ، عند هذه النهاية ، لا يعود شيء ممكن إلاّ الموت أو الانبعاث . إن ستيرن ، ومعه كل المتبردين العدميين ، سيحبرون جميعاً نحو أفاصي العالم ، ثلّين بالدمار . بعدئذْ يُكتشف القدر ، ولا بدّ للبرء من ان يتعلم كيف يبقى فيه .

حينئذ يبدأ بحث نيته المرحق .

## ٢ - لينته والعدمية

العدمية الواعة

« إننا ننكر الله ، ننكر مسؤولية الله ، بهذه الصورة ليس غير ، سنحرق العالم » . لدى نيته ، أصبحت العدمية نبوءة . ولكننا ما دمنا لا نجعل في المقام الأول من إنتاجه الطبيب قبل الفيلسوف ، فأننا لا نستطيع استخلاص أي شيء منه ، اللهم إلاّ القسوة الوضعية التي كان ييغضها بكل قوته . إن الطابع الوقت ، المنهجي ، وبكلمة واحدة : الطابع الستراتيجي للفكره ،

لا يمكن ان يوضع موضع الشك . فلدیه اصبت العدمية واعية لأول مرة .  
والجراحون يشتركون مع الانبياء فيما يلي : انهم يفكرون ويعملون تبعاً  
للمستقبل . ولم يفكر ينشئ قط إلا تبعاً لرؤيا دمار كلي مقبل ، وذلك لا  
ليشيد بها لأنه كان يقدر الوجه القذر الحاسب الذي ستكتسبه هذه الرؤيا في  
النهاية ، بل ليتجنبها ويحولها الى نهضة وانبعاث . لقد أقر بالعدمية وفحصها  
كواقعة سريرية . وادعى انه اول عدمي كامل في اوربا ، لا عن ميل بل عن  
واقع حال ، ولأنه كان اعظم من ان يرفض تركه عصره .

لساؤل

لقد شغص في ذاته ولدى الآخرين المعجز عن الايمان ، واختفاء الاساس  
الاولي لكل اعتقاد ، ونعني الايمان بالحياة . « هل يستطيع المرء أن يعيش  
متردأ ؟ » ، هذا التساؤل أصبح لديه كما يلي : « هل يستطيع المرء ان يعيش  
دون أن يؤمن بشيء ؟ » . إن رده ايجابي . أجل ، وذلك اذا جعلنا من  
فقدان الايمان طريقة ، واذا سرنا بالعدمية حتى نتأجها القسوى ، واذا شعرنا  
— ونحن نصب في القفر <sup>(١)</sup> ونحض الثقة لكل ما هو آت - بالألم والبهجة من  
نفس الحركة الأولية .

الإنكار المنهجي

بدلاً من الشك المنهجي <sup>(٢)</sup> ، مارس نيتشه الإنكار المنهجي <sup>(٣)</sup> والتهديم  
الدائب لكل الاشياء التي ما زالت العدمية تحفيها عن نفسها ، ولكل المعبودات  
التي تحفي موت الإله . « لإقامة معبد جديد ، لا بد من تهديم معبد قديم ، ...

(١) تليجة للإنكار المنهجي (المعرب)

(٢) راجع : تيارات الفكر الفلسفي ، تأليف اندريه كريسون ، ترجمة نهاد رضا ،  
المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات .

راجع ايضاً : مدخل اللفظة ديكرات ، تأليف الدكتور كمال الحاج ، المكتبة  
الفلسفية ، منشورات عويدات .

(٣) أي : جل من فقدان الايمان طريقة ، كما جاء تحت عنوان : تساؤل (المعرب)

ذاك هو القانون». من 'يُرد أن يكون خالفاً في الخير والشر ، فلا بدّ له ، في اعتقاد نيته ، من أن يكون هداماً ، وأن يحطم القيم . «إث منتهى الشر هو إذن جزء» من منتهى الخير<sup>(١)</sup> ، ولكن منتهى الخير خلاّق . «لقد كتب على طريقته الخاصة» مقالة في الطريقة ،<sup>(٢)</sup> خاصة بزمانه ، ولكن بغير الحرية والدقة اللتين كانتا تميزان القرن السابع عشر الذي كان نيته معيباً به لِمَا أعجاب ، بل بالصحر المجنون الذي يميز القرن العشرين ، قرن العبقرية في اعتقاده .  
وعليّنا الآن أن نفحص طريقة التمرد هذه<sup>(٣)</sup> .

العالم ، الثانية ، الله

إن أول مسمى يصدر عن نيته هو إذن الموافقة على ما يعرف . ففي اعتقاده أن الاتحاد شيء بدوي ، وأنه «بنّاء وجذري» . وتكمن كفاءة نيته العليا ، فيما يوحى لنا ، في أنه يولّد نوعاً من مرحلة وقف حاسم في مشكلة الاتحاد . العالم يتجطّط خيط عشواء ، ولا يخضع لغاية . فإله إذن غير 'مجد ، لأنه لا يريد شيئاً . لو كان يريد شيئاً ما -- وهنا نرى الصيغة التقليدية لمشكلة وجود الشر -- لصار إلزاماً عليه أن يأخذ على عاتقه «كمية من الآلام والخالقات المنطقية من شأنها تخليص القيمة الكلية للصيرورة» . ومعلوم أن نيته كان يحسد ستاندال<sup>(٤)</sup> علانية على عبارته التالية : «لا عذر لله إلا» كونه غير موجود .

مشكلة الحكم على العالم

إذا ما 'حرم العالم من المشيئة الربانية فإنه يحرم أيضاً من الوحدة والغائية .

(١) سنرى في الصفحات المقبلة أن الشر عند نيته هو أحد وجوه الخير الممكنة وأنه يقبل على أنه قدر (المردب)

(٢) إشارة إلى كتاب ديكاكارت .

(٣) سنهتم هنا بملزمة نيته الأخيرة ، من ١٨٨٠ إلى الانتهار . ويمكن اعتبار هذا الفصل بمثابة ملحق على كتاب نيته : إرادة القوة .

(٤) طالع : الأحمر والأسود ، تأليف ستاندال ، منشورات عويدات .

لذلك لا يمكننا الحكم على العالم . كل حكم قسيمي يطلق عليه ، يؤدي في النهاية الى التجني على الحياة . حينئذ نحكم على ما هو موجود ، قياساً على ما كان يجب ان يوجد : ملكوت السماء ، المثل الخالدة ، الاوامر الاخلاقية . ولكن الذي كان يجب ان يوجد ، ليس بالموجود . ولا يمكننا ان نحكم على هذا العالم باسم لا شيء . « محسنات هذا الزمان : لا شيء حق » ، كل شيء مباح » . هذه العبارات التي تنعكس في آلاف العبارات الأخرى ، العظيمة أو الساخرة ، تكفي لتبين لنا أن نيتشه يأخذ على عاتقه عبء العدمية والتمرد . حتى انه في تأملاته حول « الترويض والاصطفاء » ، وهي على كل تأملات ساذجة ، عبث عن أقصى منطق للمحاكمة العدمية : « المشكلة : بأي وسائل نحصل على شكل دقيق من العدمية الكبرى المعدية التي تعلم الموت الاختياري وتغارسه بوجدان علمي تماماً ؟ » .

#### ينتهه والأخلاق

على ان ننتشه يستثمر لصالح العدمية القيم التي اعتبرت تقاليداً مانعة للعدمية ، ونخص بالذكر الاخلاق . المسلك الاخلاقي كما شرحه سقراط أو كما توصي به المسيحية ، هو في حد ذاته علامة انحطاط . انه يريد ان يستبدل الانسان الحقيقي بالإنسان وهمي ، ويستنكر عالم الأهواء والعواطف باسم عالم منسجم ، كله خيالات . فاذا كانت العدمية هي العجز عن الايمان ، فان الخطر ظاهرة لها لا توجد في الاحاد ، وانما في العجز عن الايمان بما هو موجود ، وفي العجز عن رؤية ما يجري وعن عيش ما يستج . هذا الوهن هو في اساس كل مذهب مثالي . الاخلاق لا تؤمن بالعالم . أما الاخلاق الحقة فهي في اعتقاد نيتشه غير منفصلة عن الصحو والتمييز . لانه يقسو على « المتسبحين على المسالم » ، لانه يستشف في هذا التجني ميلاً مخجلاً نحو المروء . وفي اعتقاده ان الاخلاق التقليدية ليست سوى حالة خاصة من اللاأخلاقية . فهو يقول : « الخير هو الذي يحتاج الى تبرير » . وايضاً : « لأسباب أخلاقية سنكشف ذات يوم عن عمل الخير » .

## نيتشه والتمرد

إن فلسفة نيتشه تدور حقاً حول مشكلة التمرد . إنها بالضبط تبدأ بأن تكون تمرداً . ولكننا نشعر بالتحول الذي يجريه نيتشه . فالتمرد ، عنده ، ينطلق من : « لقد مات الإله » ، ويعتبر ذلك واقعة مكشّبة . وحينئذ ينقلب على كل ما يستهدف زوراً وبهتاناً استبدال الألوهية الزائلة ، وكل ما يُشِينُ عالمياً ، هو ولا شك دون توجيهِ ، ولكنه يبقى البوتقة الوحيدة للكلمة . وخلافاً لاعتقاد بعض النقاد المسيحيين ، لم يعقد نيتشه النية على قتل الإله . فقد وجدته ميتاً في نفوس أهل زمانه ، وأدرك قبل غيره أهمية الحادثة ، ورأى أن تمرد الانسان هذا لا يسهه أن يؤدي الى خضة وانبعاث اذا لم يكن خاضعاً لتوجيه . كل موقف آخر ازاء التمرد ، سواء أكان موقفاً الأسف أم المسيرة ، سيؤدي الى وؤيا الدمار الكلي .

إن نيتشه لم يضع إذن فلسفة في التمرد ، ولكنه بنى فلسفة على التمرد .

## نيتشه والمسيحية

لأنَّ يحمل على المسيحية بوجه خاص ، فذلك فقط بوصفها أخلاقاً . ولكنه لا يمس ابدأ شخص المسيح من جهة ، والنواحي الكلية في الكنيسة من جهة أخرى . وغير 'خاف' انه كان معجباً بالمسوعيين إعجاب العارف . كتب يقول : « لم 'يدحض' في الحقيقة سوى الإله الاخلاقي » (١) . والمسيح ، بنظر نيتشه كما بنظر تولستوي ، ليس متردداً . ان اساس عقيدته يتلخص في الرضا الكلي ، وفي عدم مقاومة الشر . يجب ان تمتنع عن القتل حتى في سبيل منع القتل . يجب ان نرضى بالعالم كما هو ، وان نرفض ان نزيد في شقائه ، وان نوافق على ان نتألم شخصياً بما فيه من شر . ان ملكوت السماء في متناولنا مباشرة . انه

(١) « تلولون إن هذا هو التسليل المفوي لله ، ولكنه ليس سوى اسلاخ . إنه يبدل بشرته الخارجية ؛ وسيتراهي لكم ما وراء الحيد والشر » .

ليس سوى استعداد داخلي يسبح لنا بأن نوفق أفعالنا مع هذه المبادئ ،  
ويستطيع ان يمنحنا السعادة المباشرة . وفي اعتقاده ان رسالة المسيح  
تكمن في الأفعال لا في الاعتقاد . وعلى هذا الأساس ، ليس تاريخ المسيحية  
سوى سلسلة طويلة من الحيات لهذه الرسالة . لقد سبق للعهد الجديد ان  
حُرِّفَ ، ومن بولس الى المجمع المقدسة ، تدفعنا العبادة الى نسيان  
الأفعال .

### المح والمسيحية

ما هو التعريف العميق الذي تضيفه المسيحية الى رسالة يسوع ؟ فكرة  
الحساب الدخيلة على تعاليم المسيح ، والمفاهيم المتعلقة بالعقاب والثواب . منذ  
هذه اللحظة ، تصبح الطبيعة تاريخياً ، وتاريخاً ذا دلالة ، هكذا 'ولدت' فكرة  
الشمول الانساني . ومن البشارة الى يوم الحساب ، تنحصر مهمة الانسانية في  
التكيف مع الغايات الاخلاقية الصريحة الخاصة برواية مكتوبة سلفاً . والفارق  
الوحيد هو أن الشخص ، في الخاتمة ، يتقاسم بأنفسهم الى أبرار وأشرار .  
وفي حين ان الحكم الوحيد للمسيح يكمن في قوله : ان الخطيئة الطبيعية ليست  
ذات أهمية ، نرى المسيحية التاريخية تجعل من الطبيعة كلها مصدر الخطيئة .  
« ماذا يُنكر المسيح ؟ كل ما يُسمى حالياً بمسيحي » . تعتقد المسيحية أنها  
تناضل ضد العدمية ، لأنها تعطي توجهاً للعالم ، في حين أنها عدمية هي نفسها ،  
وذلك بمقدار ما نقول دون اكتشاف المعنى الحقيقي للحياة ، إذ تفرض عليها  
معنىً وهمياً : « كل كنيسة بلاطة موضوعة على ضريح انسان - إله . إنها  
تسمى بالقوة لأن نعمته من الانبعاث » . والنتيجة الغريبة -- ولكننا نتيجة ذات  
دلالة - التي يخلص اليها نيتشه ، هي أن الله قد مات بسبب المسيحية ، وذلك  
بمقدار ما جعلت القدسيات أشياء دنيوية . ويجب ان نغني هنا المسيحية التاريخية  
و « مداعتها الشديدة الحقدرة » .



## الاشتراكية والعدمية

نفس الهاكمة تدفع نيقته الى الوقوف في وجه الاشتراكية ، وكل مذاهب الحبر الانساني العام . ليست الاشتراكية سوى مسيحية منحطة . انها تؤكد في الحقيقة الايمان بغاية التاريخ ، هذا الايمان الذي يخون الحياة والطبيعة ، ويحيل غايات مثالية محل الغايات الحقيقية ، ويُسهم في إثارة الرغبات والخيالات. الاشتراكية هي عدمية ، وذلك بالمعنى الدقيق الذي يضيفه نيقته على هذه الكلمة . العدمي ليس ذلك الشخص الذي لا يؤمن بشيء ، بل ذلك الذي لا يؤمن بما هو موجود . وبهذا المعنى ، تكون كل اشكال الاشتراكية تجليات عن الانحطاط المسيحي ما زالت متردية . فبالنسبة الى المسيحية ، كان الثواب والعقاب يفترضان وجود تاريخ . ولكن التاريخ كله يعني في النهاية ثواباً وعقاباً ، وذلك بموجب منطق حتمي . اعتباراً من ذلك اليوم ، ولد الطوبح الجماعي . أخذ الى ذلك أن مساواة النفوس امام الله تؤدي - بعد موت الإله الى المساواة ليس غير . هنا أيضاً ، يحارب نيقته النظريات الاشتراكية بوصفها نظريات اخلاقية . فالعدمية ، سواء أُنجلت في الدين أم في التبشير الاشتراكي ، هي النتيجة المنطقية لما يُسمى بقيمتنا السامية . إن الفكر الحر سيهدم هذه القيم ، بفضحه الأوهام التي تستند اليها ، والمساومات التي تفترضها ، والجرائم التي ترتكبها إذ تمنع العقل البصير من انجاز مهمته : تحويل العدمية السلبية الى عدمية ايجابية .



## الحرية والمسؤولية

في هذا العالم المتحرر من الإله ومن المعاييد الاخلاقية ، ما هو ذا الانسان وحيداً دون سيد . كان نيقته أقلّ من أوحى بأن مثل هذه الحرية في وسعها أن تكون سهلة ، وفي ذلك يتميز عن الرومانيين . وكان هذا التحرر الوحشي يضعه في مصاف أولئك الذين قال عنهم هو نفسه إنهم يعانون العذاب من كربة

وسعادة جديدين . ولكنها الكربة الوحيدة التي تهتف : « واحسرتاه ! إلمنعي الجنون إذن ... إن لم أكن فوق القانون ، فإنا ألعن الملعونين » . فذلك الذي لا يستطيع أن يبقى فوق القانون ، لا بدّ له في الحقيقة من أن يوجد قانوناً آخر ، أو أن يُصاب بالجنون . ما أن يُنكر الإنسانُ الله ، ويكف عن الإيمان بالخالود ، حتى يصح « مسؤولاً عن كل ذي حياة ، وعن كل ما نُذّر للتألم من الحياة ، إذ يولد من الألم » . إليه ، إليه وحده يرجع أمر إيجاد النظام والمانون . حينئذ يبدأ زمان الملعونين ، والبحث عن المبررات ، والشوق الخالي من الهدف . « أكثر ما يؤلم القلب ويمزقه ، تساؤلُه : أين يمكنني أن أحس بأنني في مكاني ؟ » .

#### الحرية والقيمة

لقد عرف نيتشه ، وهو المفكر الحر ، أن حرية الفكر ليست مجلبة للرفاه ، بل هي عظمة تُتبعَى وتُتال على فترات فاصلة كبرى ، بعد نضال مرهق . وعرف أن هناك احتمالاً كبيراً في أن تتردى إلى ما دون القانون ، حينما نريد البقاء فوق القانون . لذلك أدرك أن الفكر لا يتحرر حقاً إلا إذا قبل واجبات جديدة . إن الوجه الاساسي في اكتشافه يكمن فيما يلي : إذا لم يكن القانون الخالد هو الحرية ، فأحرى بانعدام القانون أن لا يكونها . إذا لم يكن أي شيء صحيحاً ، وإذا كلف العالم بلا قاعدة ، فلا شيء ممنوع . لمنع فعل ما ، لا بدّ في الحقيقة من قيمة ومن هدف . ولكن لا شيء مباح ، في الوقت نفسه ، فلا بدّ أيضاً من قيمة ومن هدف لاصطفاء فعل ما . سيطرة القانون المطلقة ليست بالحرية . ولكن الانتماع المطلق ليس بالحرية أيضاً . إذا ما أضيفت كل المكونات إلى بعضها بعضاً فإنها لا تشكل الحرية . ولكن المستحيل هو عبودية . والبلبة هي أيضاً عبودية . لا حرية إلا في عالم يُعرف فيه ما هو ممكن وما هو غير ممكن في نفس الوقت . بدون قانون ، لا وجود للحرية أبداً . إذا لم توجه المصير قيمةً علياً ، وإذا كانت الصدفة هي المتحكمة ، فنحن نخط خط عشواء ، ونحن إزاء حرية الأعمى الرهيبية .

من التحرر  
الى التبعة

في نهاية أعظم تحرر ، يصطفي نيتشه اكبر تبعة . « اذا لم نجعل من موت الإله زهداً كبيراً ، وانتصاراً دائماً على ذاتنا ، فسيتم علينا ان ندفع ثمن هذه الخسارة » . وبتعبير آخر ، اصبح التمرد مع نيتشه يصب في التمسك . ثمة منطق أعمق يستبدل حينئذ شعار كارام ازوف : « اذا لم يستكن أي شيء صحيحاً ، فكل شيء مباح » . لأنّ نكر أن يكون شيء واحد فقط ممنوعاً في هذا العالم ، معناه ان نتخلى عما هو مباح . حيث لا يعود أحد قادراً على أن يبين ما هو طالح وما هو صالح ، ينطليء الزور وتصبح الحرية سجنًا اختياريًا .

الحياة ، الحرية ، القانون

إن نيتشه يسير بعمديته سيراً منهجياً الى هذا المأزق . ويمكننا القول إنه يتهاوت عليه بنوع من البهجة الرهيبة . وهدفه المعترف به هو ان يجعل وضع انسان عصره وضعاً لا يطاق . ويبدو ان الأمل الوحيد بنظره هو الوصول الى منتهى التناقض . فاذا كانت الانسان لا يريد حينئذ ان يهلك في العقد التي تأخذ بمنافقه ، فعليه ان يقطعها بضربة واحدة ، وان يخلق قيمة الخاصة . إن موت الإله لا ينتهي شيئاً ، ولا يمكن أن يحتل إلا بشرط ان يهد لانبعث . قال نيتشه : « حيناً لا نجد العظمة في الله ، لا نجدها في أي مكان آخر . يجب ان نتكرها او ان نخلقها » . أما إنكارها فكان مهمة الناس المحيطين به ، والذين كان يرامهم يهرعون الى الانتحار . وأما خلقها فكان المهمة الحارقة التي من أجلها أراد ان يموت . كان يعلم في الحقيقة أن الخلق ليس ممكناً إلا في نهاية العزلة ، وان الانسان لا يعقد النية على بذل هذا المجهود المسبب للدوار ، إلا اذا كان من واجبه ، في منتهى شقاء الروح ، أن يرضى بهذا المسلك أو أن يموت . إن نيتشه يجب به إذن قائلًا إن الارض حقيقته الوحيدة ، من واجبه أن يخلص لها وأن يحيا ويحقق خلاصه عليها . ولكنه يعلم في الوقت نفسه

أن العيش على ارض بلا قانون شيء مستحيل ، لأن الحياة تفترض بالضبط وجود قانون .

كيف السبيل إذن الى أن يعيش المرء حراً وبلا قانون ؟ على هذا اللغز يجب ان يرد الانسان تحت طائلة الموت .

الرضا التام بالعالم

إن نيتشه على الأقل لا يتهرب . انه يجيب ، وجوابه في ركوب المخاطر : خير ما يُرَقَص ديموقليس ، حينما يكون تحت حد السيف . يجب أن نقبل ما لا يُقبل ، وان نتحمل ما لا يُحمل . اعتباراً من اعترافنا بأن العالم لا يستهدف أية غاية ، يقترح نيتشه بأن نسلّم ببراءته ، وان نؤكد بأنه لا يقع تحت نطاق الحكم ، لأننا لا نستطيع ان نحكم عليه بناءً على أية غاية ، وأن نُسبّل - بالتالي - كل الأحكام القِيية بـ « نعم » واحدة ، برضا تام بهذا العالم . هكذا ، من اليأس المطلق ستنبثق الفرحة اللامتناهية ، ومن العبودية المبياه ستنبع الحرية . ان يكون المرء حراً ، معناه بالضبط إلغاء الغايات . ما أت نعترف ببراءة الميرورة ، حتى تمثل منتهى الحرية : اللصكر الحر يجب ما هو حتمي . ان فكرة نيتشه العميقة هي ان حتمية الظاهرات اذا كانت حتمية مطلقة ، مُحكمة الجوانب ، فحينئذ لا يترتب عليها أي نوع من الإكراه . الرضا التام بالحتمية التامة ... هوذا تعريفه الغريب للحرية . والمسؤول القاتل : « حرٌّ من أي شيء ؟ » يُستبدل حينئذ بالسؤال القاتل : « حرٌّ من أجل أي شيء ؟ » . فالحرية تتطابق مع البطولة . انها 'نك الرجل العظيم' ، القوس الأكثر توتراً .

بجيد القدر

هذا القبول السامي الناضئ عن الوفرة والكمال ، هو التأكيد المطلق للخطية نفسها وللألم ، للشئ والقتل ، لكل ما في الحياة من ملتبس وغريب . انه ناضئ عن عقدنا العزم على ان نكون ما نحن ، في عالم يكون ما هو . « استبعاد

الذات كقدر محتم ، وان لا نريد ان نصبح غير ما نحن ... » . لقد 'نطق' بالكلمة . إن السك السيئوي ، المنطلق من الاعتراف بالقدر ، يؤدي الى تأليه القدر . ويزداد تمجيد القدر بتقدير ما هو ملازم . الله الاخلاقي ، والشفقة ، والحب ، من اعداء القدر بتقدير ما تحاول التعويض . إن نيتشه لا يريد اقتداء . ففرحة الصيرورة فرحة الفناء . ولكن لا يحل التلف إلا بالفرد وحده . إن حركة التردد التي كان الانسان فيها يطالب بكيونته الخاصة ، تتلاشى في خضوع الفرد خضوعاً مطلقاً للصيرورة . « ان حب القدر حل محل ما كان كره القدر »<sup>(١)</sup> . « كل فرد يشارك في كل الوجود الصكوبي ، سواء أعرفنا ذلك أم لا ، أردناه أم لا » . هكذا يتلاشى الفرد في مصير النوع والحركة الخالدة للعالم . « كل ما 'وجد' فهو خالد ، إن البحر يطرحه الى الشاطئ »<sup>(٢)</sup> .

حينئذ يعود نيتشه الى نشأة الفكر ، الى المفكرين الذين سبقوا سقراط . كان هؤلاء الفلاسفة يلغون المال الغائية ، كي لا يمسوا خلود المبدأ الذي كانوا يتصورونه . لا خلود إلا للقوة التي ليس لها هدف ، « لعبة » هيراقليطس . كل جهود نيتشه منصرف . اذن الى اثبات وجود القانون في الصيرورة ، واللعب في الضرورة : « الطفل هو البراءة والنسيان ، تكرار ، لعب ، دو لا ب يدور من ذاته ، حركة اولى ، قدرة مقدسة على قول : « نعم » . العالم إلهي لأنه بلا سبب . لذلك لا يكتبه إلا الفن ، لأنه بلا سبب ايضاً . ما من 'حكم' يفسر العالم ، ولكن الفن وحده يستطيع ان يعلمنا كيف نكرره ، مثلاً يتكرر العالم على امتداد المصاد الابدي . على نفس الشاطئ . يكرر البحر الاولي نفس الكلام ، دون كمال ولا ملل ، ويطرح نفس الكائنات المدهوشة من الحياة . ولكن ، على الأقل ، ذلك الذي يرضى بأن يعود ، واث يعود كل شيء ، والذي يصبح صدى وصدى متحمساً ، فانه يشارك في ألوهية العالم .

(١) هذه الجملة بالنسب اللاتيني .

(٢) إشارة الى فكرة الماد الابدي (المرب)

## الإدانة والالوهية

بهذه الوسيلة في الحقيقة ، تدخل ألوهية الانسان في نهاية الامر . فالتمرد الذي ينكر الإله في البدء ، يسعى بعدئذ الى ان يحل محله . ولكن رسالة نيتشه ان المتمرد لا يصبح إلهاً ، إلاّ اذا تخلى عن كل فرد ، حتى عن التمرد الذي يراود الآلهة في سبيل تقويم هذا العالم . « اذا كان هناك إله ، وكيف يتحمل المرء ان لا يكون هذا الإله » . ثمة إله في الحقيقة ، هو العالم . وكفى يسهم المرء في ألوهية هذا العالم ، حسب ان يقول : نعم . « فلنكف عن التضرع والصلاة » ، وحينئذ تقتل الارض ببشر- آلهة . أن يقول المرء نعم للعالم ، ان يكرر ذلك ، معناه في الوقت نفسه ان يعيد خلق العالم ، وان يعيد خلق ذاته ، معناه أن يصبح الفنان الأكبر ، الخالق . إن رسالة نيتشه تتلخص في كلمة خاشي ، بالمعنى المتلئس الذي اكتسبته هذه الكلمة . لم يعجد نيتشه قطّ سوى الأناية والقسوة الخاصتين بكل خالق . أما تحويل القيم فيمكن في استبدال قيمة الحاكم<sup>(١)</sup> بقيمة الخالق: احترام ما هو موجود ، والكلف به . الألوهية بلا خلود تعرف حرية الخالق . ان ديونيزوس ، إله الأرض ، يزعم دائماً في التجزئة . ولكنه يمثل في الوقت نفسه هذا الجمال الغلق الذي يتطابق مع الألم . وفي اعتقاد نيتشه ان قول: نعم للأرض ، وإله الارض ، معناه قول : نعم لآلام الذات . ان نقبل بكل شيء ، ان نقبل بالألم وبمنتهى التناقض في الوقت نفسه ، معناه بسط السلطان على كل شيء . وقد رضي نيتشه بدفع الثمن من اجل هذا الملكوت . فالأرض « العظيمة المعذبة »<sup>(٢)</sup> وحدها هي الحلقة ، وحدها هي الألوهية . وكما ان أمبيدوقليس يرمي نفسه في بركان « إتنا » باحثاً عن الحقيقة حيث هي ، في أحشاء الارض ، كذلك يقترح نيتشه على الانسان ان يفرق في الكون ليجد ألوهيته الخالدة ، وليصبح هو نفسه إله الأرض . إن كتاب

١) الذي يطلق احكاماً على العالم ، على اقتراح ان هذا العالم يضع لناية (المرب)

٢) جاءت في الكلمة المصدر للكتاب (المرب)

نيتشه : إرادة القوة ينتهي مثل كتاب باسكال : خواطو - والذي كثيراً ما يذكر به في رمان<sup>(١)</sup> . فالإنسان ما زال لا يحصل على اليقين ، بل على إرادة اليقين ، وهذا ليس نفس الشيء . إن نيتشه كان أيضاً متحيراً متردداً عند هذه النهاية : « وهذا ما لا يغتفر فيك ، فأنت تلك الطاقة ، ولكذك ترفض الموافقة » .



نيتشه والشر ،  
تشويه لكرته

إن التمرد لدى نيتشه يؤدي ، بوجه ما ، إلى تمجيد الشر . الفارق إن الشر عنده لم يعد عملية ثأر<sup>(٢)</sup> ، بل يقبل على أنه أحد وجوه الخير الممكنة ، وبشكل أو ثقل ، يقبل على أنه قدر . إنه أذن يؤخذ كي يتجاوز ، يؤخذ كعلاج ، أن جاز القول . كانت المسألة ، بنظر نيتشه ، فقط مسألة رضا النفس الشامخ أمام ما لا تستطيع تقاديه . ولكننا نعرف ذريته ، وأية سياسة كانت تنوي الاستناد إلى ذلك الذي كان يقول عن نفسه إنه آخر ألماني معادي للسياسة<sup>(٣)</sup> . كان نيتشه يتخيل طغاةً فنانين . ولكن الطغيان أكثر مطابقة من الفن لطبيعة الفنانين . كان نيتشه يصرخ قائلاً : « قيصر بورجيا ... ولا بارسيفال »<sup>(٤)</sup> . فحصل على قيصر وبورجيا<sup>(٥)</sup> ، ولكن محرومين من نبل العاطفة ، هذا النبل الذي كان يعزوه نيتشه إلى عظماء عصر النهضة . وعلى حين كان يطلب أن يخضع الفرد

(١) راجع : باسكال ، حياته ، فلسفته . تأليف اندريه كريسون ، ترجمة نهاد رضا ، منشورات هويدات .

(٢) أي : معاقبة الشر بالشر كما رأينا تحت عنوان : التمرد الروماني ( رفض الخلاص ) (المغرب)

(٣) يقصد سياسة هنتر وجماعته ( الاشتراكية الوطنية ) (المغرب)

(٤) الكردنبال يصير بورجيا الذي اشتهر بما اقترف من جرائم . بارسيفال : بطل طاهر النفس (المغرب)

(٥) لقب لفضيلة : لقد اشتق من الاسم الاول ايجين مـرولـين كرمز للطغيان (المغرب)

خلود النوع ، وان يفرق في دوامة الزمان الكبرى ، نراهم قد جعلوا من العرق حالة خاصة من النوع ، واخضعوا الفرد لهذا الإله الدنس . اما الحياة التي كان يتحدث عنها بخوف وارتجاف ، فقد هبطوا بها الى بيولوجيا للاستئصال المنزلي<sup>(١)</sup> . وفي النهاية اخذت ذرية من السادة الأيمن المتأثنين بإرادة القوة ، أخذت على عاتقها « الشناعة المعادية للساميين » والتي ما فتر هو عن ازدواجها .

#### ينته والتاريخية

لقد آمن بالشجاعة المقرونة بالعقل ، وهذا ما كان يسميه بالقوة . ولصكهم قلبوا بإسمه الشجاعة ضد العقل . وهذه المزية التي كانت حقاً مزيتها الخاصة ، تحولت اذن الى عكسها : العنف المحروم من البصيرة . وخلط الحرية بالعزلة بموجب قانون فكرى شامخ . ولكن « عزلة العبيقة » عزلة النور والديجور ، قد تبددت في الحشود الآلية التي زحفت على اوروبا<sup>(٢)</sup> . هذا المدافع عن الذوق الكلاسيكي ، هذا النبيل الذي عرف ان يقول ان النبيل يكمن في ممارسة الفضيلة دون التساؤل عن السبب ، وانه من الواجب علينا ان نشك في الانسان الذي يحتاج الى اسباب كي يبقى شريفاً ، هذا الشغف بالاستقامة .. « هذه الاستقامة التي أصبحت غريزة » هوى « - ، هذا الخادم العنيد » لمنتهى لإنصاف العقل السامي الذي يعتبر التمصب أعدى أعدائه « ؛ ... تقول : هذا الشخص بالذات قد نصبته بلاذ ، بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين عاماً على وفاته ، معلماً للكذب والعنف ، ونفرت النفوس من مفاهيم ومزايا جعلت منها تضعيته اشياء رائعة . واذا ما استثنينا كلل ماركس ، فلا مثيل لمغامرة نيتشه في تاريخ العقل . وسها حاولنا فلن نتمكن من اصلاح ما لحق به من ظلم . ليس من شك في اننا نعرف في التاريخ فلسفات قد أولت وارتكبت بمعها الحياة . ولكن

(١) يقصد القومية العرقية (المحرب)

(٢) إشارة الى النزود الخطري (المحرب)



حتى يجيء نيتشه والاشتراكية الوطنية الالمانية ، لم يكن لدينا مثال عن فلسفة منارة كلها بنبل وبتميزات نفس فريدة ، قد أظهرت للملا بسيل من الاقتراءات وبركام جشت المعتاقين الرهيب . التبشير بإدسانية متفوقة يكون مؤداه إنتاج الاقزام ... هوذا الأمر الذي يجي . ان 'يفضح دون شك' ، والذي يحتاج ايضاً الى التفسير . فاذا كلف من اللازم ان تكون النهاية الاخيرة لحركة التمرد الكبرى في القرن التاسع عشر والقرن العشرين هذا الاستعباد الظالم ، أفلا يجب علينا حينئذ ان نصرف عن التمرد وان نعود الى صرخة نيتشه اليائسة التي وجهها الى أهل زمانه : « وجداني ووجدانكم لم يعودا نفس الوجدان » .

نيتشه وروزنبيرغ

فلنعترف أولاً بأنه سيتجمل علينا دائماً ان نخلط نيتشه وروزنبيرغ . علينا أن ندافع عن نيتشه . وقد قال هو نفسه ، فاضعاً سلباً ذريته النجسة : « من حرر فكره ، فعليه ايضاً ان يطهر نفسه » . ولكن المسألة هي على الأقل ان نعرف هل ان تحرير الفكر -- كما كان يتصوره -- لا يزيح التطهر . فالحركة التي أدت الى نيتشه وحملته ، حركة لما قوانينها ومنطقها اللذان لعلها يفسران التغير الدامي الذي أدخل على معالم فلسفته . ألا يوجد أي شيء في إنتاجه يمكن ان يستخدم في منحي القتل النهائي ؟ فلماذا ما أنكر المحتوى من أجل الشكل ، واذا ما أنكر ما تبقى ذا محتوى ضمن الشكل ، أفلم يكن في وسع القتل ان يلتبسوا بحججهم عند نيتشه ؟ يجب ان نرد بالإيجاب . فمذ 'يحمل الوجه المناهجي للتفكير النيتشوي' ( وليس مؤكداً انه هو نفسه قد تمسك به دائماً ) ، لا يعود منطق المبرر يعرف حداً .

القبول النيتشوي  
وسبرير القتل

ولنلاحظ ايضاً ان القتل لا يجد تبريره في الرفض النيتشوي للمعايير ، بل في الإذعان المسور الذي يتوج إنتاج نيتشه . فقبول كل شيء معناه قبول القتل .

هناك على كل طريقتان للموافقة على القتل. فاذا قبل العبد كل شيء ، فإنه يقبل بوجود السيد وبألمه الشخصي ، والمسيح يعلم الامقاومة . واذا قبل السيد بكل شيء ، فإنه يقبل بعبودية الآخرين وبألمهم ، وها نحن أولاء حينئذ لئلاء الطاغية ، وإزاء تجميد القتل . « أليس مضحكاً ان نؤمن بقانون مقدس ، مصون - لا تكذب ، لا تقتل - (١) ، في حياة طابعها الكذب الدائم والقتل المستمر ؟ » . اصف الى ذلك ان التمرد الماورائي في حركته الاولى لم يكن سوى احتجاج ضد الكذب وجريمة الوجود . ان القبول النيتشوي ، الناسي للرفض الاصلي ، ينكر التمرد ذاته ... في نفس الوقت الذي ينكر فيه الاخلاق التي ترفض العالم كما هو (٢) . كان منتهى ما يتنى نيتشه قيصرأ رومانياً له نفسية المسيح . وكان معنى ذلك ، في اعتقاده ، قول : نعم للعبد والسيد في الوقت نفسه . ولكن قول : نعم للاتنين معناه اخيراً تطهير اقوامها ، اي : تطهير السيد . كان على قيصر ان يتخطى عن تحكم الفكر ، لاصطفاء سلطان الواقع . ان نيتشه كان يتساءل تساؤل الاستاذ المخلص لطريقته فيقول : « كيف تستفيد من الجريمة ؟ » وكان على قيصر ان يجيب : بالإكثار منها ... « حينئذ تكون الغايات عظيمة - كتب نيتشه لسوء حظه - . تلجأ الانسانية الى اجراء آخر ، ولا تعود تحكم على الجريمة بوصفها جريمة ، حتى لو استعملت افظع الوسائل » . ولقد مات نيتشه عام ١٩٠٠ في مطلع القرن الذي اصبح فيه هذا الإدعاء مهلكاً . وعبثاً هتف في ساعة الصبح : « من السهل ان نتحدث عن كل انواع الافعال اللاأخلاقية ، ولكن هل سنملك القوة على تحملها ؟ » فانا مثلاً لن انتمكن من تحمل الجثث بالكلام أو القتل . سيحل بي السقام زمناً متفاوت الطول ، ولكنني سأموت من جراء ذلك ، هكذا سيكون مصيري . ما ان نوافق على شمول التجربة الانسانية ، فتمه آخرون لا يحل بهم السقام ، سيأتون وسيؤمنون في الكذب والقتل . ان مسؤولية نيتشه تكمن في انه قد حلل في

(١) من وصايا الكتاب المقدس (المغرب)

(٢) عالم الاخلاق هو عالم ما يجب ... (المغرب)

صحو الفكر .. لأسباب طرائقية عليا ، وحتى اللحظة - الحق في الحزي ، هذا الحق الذي قال عنه دوستوفسكي إننا واقفون دائماً بأننا سنرى البشر يتهاقون عليه إذا ما قدمناه لهم . ولكن مسؤولية نيتشه غير الارادية تذهب الى أبعد من ذلك ..

الخلاص على الارض ،  
السهر نحو السانية متفوقة

لقد ملك نيتشه احد "شعور بالعدمية" ، كما اعترف به هو نفسه . اما الخطوة الحاسمة التي خطاها بفكر التمرد ، فتكمن في القفز به من "إنكار المثال" الى جعله مثلاً علمانياً . بما ان خلاص الانسان لا يتحقق في الله ، لذلك يجب ان يتحقق على الارض . وبما ان العالم يسير على غير هدى ، لذلك على الانسان ، اعتباراً من قبوله بهذا العالم ، ان يوجهه توجيهاً يؤدي الى انسانية متفوقة . كان نيتشه يطالب بإدارة المستقبل الانساني . «لأن مهمة إدارة الارض ستؤول اليه» . وفي مكان آخر : «ليس بعيد هذا الزمن الذي يجب علينا أن نتاخر فيه من أجل السيطرة على الارض ، وسيقاد هذا النضال بإسم المبادئ الفلسفية» . كان إذن يبشر بالقرن العشرين<sup>(١)</sup> . ولئن بشر به فلأنه كان متنبهاً الى منطق العدمية الذاتي . وكان يعلم ان التسلط احدى نتائجها . وبذلك بالذات ، مهد لهذا التسلط .

استثمار مفهوم ارادة القوة

قمة حرية للانسان بلا إله ، كما تصوره نيتشه ، أي : منفرداً . وقمة حرية في الظهيرة حينما يقف دولا ب العالم ، ويقول الانسان نعم لما هو موجود . ولكن ما هو موجود ، يتحول . لذلك يجب ان نقول نعم للصيرورة . النور سيمضي في النهاية ، وسيميل محور النهار . حينئذ يبدأ التاريخ ثانية<sup>(٢)</sup> ، وفي التاريخ

.....  
(١) إشارة الى النازية والشيوعية المتطرفتين على فلسفة (المرب)  
(٢) فكرة الماد (المرب)

يجب ان نلتبس الحرية . للتاريخ يجب ان نقول : نعم . إن النيتشوية ، نظرية لإرادة القوة الفردية ، كان محكوماً عليها بأن تندرج في إرادة القوة الكلية . فهي لم تكن شيئاً بدون التسلط على العالم . ليس من شك في ان نيتشه كان يكره المفكرين الاحرار ، والقائلين بنظرية الخير الانساني العام . وكان يأخذ كلمة « حرية الفكر » في معناها الاوسع : ألوهية الفكر الفردي . ولكن ما كان في وسعه منع المفكرين الاحرار من ان ينطلقوا من نفس الواقعة التاريخية التي انطلق منها هو بالذات ، ونعني موت الإله ، وان تكون النتائج هي نفسها . لقد رأى نيتشه ان مذهب الخير الانساني العام لم يكن سوى مسيحية محرومة من التبرير العلوي ، تستقي العلال الغائية بطرح العلة الأولى<sup>(١)</sup> . ولكنه لم يلاحظ ان مذاهب التحرر الاشتراكي ستأخذ على عاتقها ، بموجب منطق حتمي للعدمية ، ما حلم به هو نفسه : الانسانية المتفوقة .

استنثار آخر

ان الفلسفة تجعل المثال علانياً . فاذا بالطاعة يأتون ، ومرعان ما يعملون الفلاسفات علانية ، هذه الفلاسفات التي تعطيهم الحق في ذلك . لقد سبق لنيتشه ان تكن بهذا التطاول بخصوص هيجل الذي كانت أصالته ، بنظر نيتشه ، تكمن في انه استنبت أحتديّة Panthéisme (ألوهية الكون) ، لا يعود يصبح فيها الشر والخطأ والألم حجة ضد الألوهية . « ولكن الدولة والسلطات القائمة استخدمت فوراً هذه المبادرة العظيمة » . وهو نفسه ، كان قد تصور مذهباً لا تعود تصبح فيه الجريمة حجة ضد أي شيء ، وحيث تكن القية الوحيدة في ألوهية الانسان . هذه المبادرة العظيمة كانت بحاجة ايضاً الى الاستعمال . وليست الاشتراكية الوطنية الالمانية بهذا الصدد سوى وريث عرضي ، سوى النتيجة الغضوبية المشهودة للعدمية .

(١) العلة الأولى : الإله (المرب)

ينتبه وماركس

وثة أشخاص منطقيون وطموحون بصورة اخرى ، ونعني أولئك الذين ، اذ يصممون نيتشه بماركس ، يصفون بأن لا يقولوا نعم إلاّ للتاريخ ، لا للخلق كله <sup>(١)</sup> . فالتمرد الذي كان نيتشه يحمله على الركوع امام الكون ، سيُعمل والحالة هذه على الركوع امام التاريخ . ما الغرابة في ذلك ؟ ان نيتشه على الأقل في نظريته في الانسانية المتفوقة ، وماركس قبله في نظرية المجتمع بلا طبقات ، يستبدلان كلاما العالم الآخر بالمستقبل الآجل . وفي ذلك خالف نيتشه اليونانيين وتعاليم يسوع الذين استبدلوا ، في اعتقاده ، العالم الآخر بالهوي العاجل . إن ماركس ، مثل نيتشه ، كان يفكر تفكيراً ستراتيجياً . ومثله ، كان يكره الفضيلة الصورية . وان تمرديهما اللذين ينتهيان ايضاً بالأذعان لوجه معين من الحقيقة الواقعة ، سيدوبان في الماركسية - اللينينية ، وسيتجسدان في هذه الطبقة التي تحدث عنها نيتشه سابقاً ، والتي « ستحل محل الطاهي والمربي والطبيب » . أما الفارق ، الفارق الاساسي ، فهو ان نيتشه اذ ينتظر الانسان المتفوق ، يقترح قول نعم لما هو موجود ، في حين يقترح ماركس قبول ما هو في حالة الصيرورة . وفي اعتقاد ماركس ان الطبيعة هي ما تخضعه في سبيل الامتثال للتاريخ ، وفي اعتقاد نيتشه انها ما تمثل له في سبيل اخضاع التاريخ . انه الاختلاف بين المسيحي واليوفياني . وقد تكهن نيتشه على الأقل بما سيحدث : « إن الاستراكية الحديثة تسعى الى ايجاد نوع من اليسوعية <sup>(٢)</sup> العلمانية ، وان تجعل من البشر جميعاً ادوات » . وايضاً : « ما نريد ... هو الرفاه ... ومن ثم نمشي نحو عبودية روحية لم ير لها مثيل ... ان الاستبداد العقلي يحوم فوق كل نشاط التجار والفلاسفة » . فالتمرد اذ يمر ببوتقة الفلسفة النيتشوية ، وفي شغفه بالحركة ، يؤدي الى الاستبدادية البيولوجية أو التاريخية <sup>(٣)</sup> . لقد سار

(١) الخلق بمعنى الكون (الحرب)

(٢) أي : المداهنة (الحرب)

(٣) إشارة الى النظرية النازية ، والنظرية الشيوعية (الحرب)

الرفض المطلق بـ « ستيرز » الى تمجيد الجريمة والفرد في الوقت نفسه . ولكن القبول المطلق يؤدي الى تعميم الجريمة والانسان بالذات في نفس الوقت . وقد أخذت الماركسية - اللينينية حقاً على عاتقها إرادة نيتشه ، مقابل جهل بعض الفضائل النيتشوية . وحينئذ يخلق العاصي الكبير بكلمات يديه سلطان الضرورة المقيم ، ليجلس نفسه فيه . انه اذ يتحرر من سجن الاله ، ينصرف اول ما ينصرف الى بناء سجن التاريخ والعقل ، مستكملاً بالتالي اخفاء وتكريس هذه العدمية التي اراد نيتشه التغلب عليها .

## الشعر المتمرد

تميمه

إذا رفض التمرد الماورائي القبول ، واكتفى بالانكار المطلق ، فإنه ينذر نفسه للتظاهر . وإذا تهافت على عبادة ما هو موجود ، زاهداً في انكار قسم من الحقيقة الواقعة ، فإنه يُلزم نفسه عاجلاً أم آجلاً بالقيام بعمل . بين هاتين الحالتين ، يمثل إيفان كارامازوف التفاضل ، ولكن بمعنى مؤلم . إن الشعر المتمرد ، في نهاية القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين<sup>(١)</sup> ، تقلب في استمرار بين هذين الموقفين المتطرفين: الأدب وإرادة القوة، اللاعقلاني والعقلاني، الحلم اليائس والعمل المحقود . ومرة أخرى ، نرى هؤلاء الشعراء ، وخاصة السرياليين ، ينيرون لنا الدرب الذي يقود من التظاهر الى التنفيذ ، في طريق مختصر ملحوظ .

لقد أمكن لـ « هاوثورن » أن يقول عن « ميلفيل » : « كافر » لم يكن ليعرف الاستقرار في الكفر . كذلك ، عن هؤلاء الشعراء المنطلقين في الهجوم على السماء ، يمكن القول إنهم ، إذ أرادوا قلب كل شيء ، أكدوا في الوقت نفسه حنينهم اليائس الى نظام . ويتناقض أخير ، أرادوا استنباط الحجة من

(١) راجع : « تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين » ، تأليف بيير هنري سيمون ترجمة بيه ممر ، منشورات عويدات

عدم الصواب ، وأن يجعلوا من اللاعقلاني طريقة من الطرائق . هؤلاء الورثة الكبار الرومانسية أرادوا أن يجعلوا الشعر شعراً الخوذجياً ، وأن يجدوا ، في وجهه الأكثر غزيقاً للقلب ، ما ينشدون من حياة حقة . فوجدوا التجديف ، وسولوا الشعر الى تجربة والى وسيلة عمل . حتى يجيء هؤلاء ، نرى حقاً ان أولئك الذين أرادوا التأثير على الاحداث وعلى الانسان ، في الغرب على الأقل ، فعلوا ذلك باسم قواعد عقلانية . أما السريالية ، بعد أوثور رانبو ، فأرادت أن تجد في الجنون والهدم قاعدة بناء . إن رانبو ، بانتاجه ، بانتاجه فقط ، كان قد أشار الى الطريق ، ولكن بالصورة الحافظة التي تكشف بها العاصفة طرف الدرب . والسريالية حفرت هذا الدرب وربت اشاراته الهادية . وبمعالجاتها كما بتراجعاتها ، قدمت التعبير الاخير العظيم لنظرية عملية في التمرد اللاعقلاني ، في حين كان الفكر المتمرد ، على طريق آخر ، يضع أسس عبادة العقل المطلق . ولقد بين لنا ملهجاها ، لوتريامون ورانبو ، بأية طرق يمكن للرغبة اللاعقلانية في التظاهر أن تسير بالمتمرد الى اكثر اشكال العمل قضاءً على الحرية .

## ١ - لوتريامون والتفاهة

يبين لنا لوتريامون أن الرغبة في التظاهر تختفي ايضاً ، لدى المتمرد ، خلف ارادة التفاهة . فسواء تعاظم المتمرد أم تدنى ، فانه في كلتا الحالتين يريد أن يكون غير ما هو ، في حين انه تمرد كما يعترف به في كينونته الحقيقية . إن تجديف لوتريامون وإذعانه يُظهران على حد سواء هذا التناقض المشؤوم الذي يتحول معه الى ارادة العدم . ليس هناك استدراك كما يُعتقد بوجه الصوم ، فنفس الولع بالفناء يفسر نداء مالدورور<sup>(١)</sup> Maldoror الليل الأولي العظيم ، والتفاهات المتعبة الموجودة في كتابه : أشعار .

(١) اسم الشخصية الغريبة في كتابه : أناشيد مالدورور .



تمرد لوتريامون

إننا ندرك ان التمرد عند لوتريامون ما زال في طور المراهقة . فكبار  
إبراهيمي القنابل والشعر لم يخرجوا من الطفولة الا منذ قليل . وكتاب :  
أناشيد مالدورور كتاب طالب ثانوي يكاد يكون عبثياً . أما طابع الأناشيد  
المؤثر فينشأ بالضبط عن تناقضات قلب صغير متمرد على ذاته وعلى الخلق<sup>(١)</sup> .  
ومثل رانبر الاشرافات ، المتمرد ضد حدود العالم ، يصطفي الشاعر أولاً  
الفناء ورؤيا الدمار الكلي ، بدلاً من أن يقبل بالقاعدة المستحيلة التي نجعلها  
هو ، في هذا العالم السائر كما هو سائر .

من هو مالدورور ؟

يقول لوتريامون بلا بساطة : «أثبت للدفاع عن الانسان» . هل مالدورور  
إذن ملاك الرحمة ؟ إنه كذلك بصورة ما ، لأنه يشلق على ذاته . لماذا ؟ هذا  
ما يحتاج الى الاكتشاف . ولكن الرحمة الخبيثة ، المهانة ، المضرة ، المنكرة ،  
ستدفعه الى مبالغات غريبة . إن مالدورور ، على حد أقواله الخاصة ، تلقى  
الحياة كجرح ، ومنع الانتصار من شفاء الندوب (هكذا) . انه مثل  
رانبر . ذلك الذي تألم فتمرد . ولكنه إذ يتردد تردداً غامضاً في أن يقول  
انه يتمرد على وضعه ، يتذرع بحجة النائر الدائمة : حبة البشر .

أضواء على المتمرد العدمي

بيد أن ذلك الذي يأتي للدفاع عن الانسان ، يكتب في الوقت نفسه :  
« أراني إنساناً واحداً صالحاً » . هذه الحركة الدائمة هي حركة التمرد العدمي .  
فنحن نتمرد على الظلم اللاحق بذاتنا وبالانسان . ولكن في لحظة الصحو ، حيث  
نستشف في الوقت نفسه شرعية هذا التمرد ، وعجزه ، يمتد حينئذ الكلف  
بالانكار حتى الى ما كنا نزيد الدفاع عنه . إننا ، إذ لا نتمكن من إصلاح  
الظلم باقامة العدالة ، نفضل على الاقل إغراقه في ظلم أوسع يختلط أخيراً مع

(١) بمن الكون - العرب

الفناء . « الأذى الذي ألحقته به في كبر جداً ، والأذى الذي ألحقته بك أكبر من أن يكون طوعياً » . فحتى لا يكره المرء ذاته ، ينبغي له أن يعلن براءته ، وهي جرأة مستحيلة دائماً على الإنسان بمفرده ؛ ومانعه أنه يعرف نفسه . يمكنه على الأقل أن يعلن بأن الجميع أبرياء ، وإن عوملوا معاملة المذنبين . الله ، حينئذ ، هو المجرم .

الله ، مالدورور

من الرومانسيين إلى لوتريامون ، لا يوجد إذن تقدم حقيقي ، إلا في الهبة . أن لوتريامون يبعث مرة أخرى أيضاً ، مع بعض التحسينات ، صورة إله إبراهيم وصورة العاصي الأبلهسي . أنه يضع الله « على عرش من ذهب ... ومن ب ... ز البشر » ، حيث يستقر « بكبرياء محققاً ، ذلك الذي يسمى نفسه باطالقي ، وبدنه ملفوف بكفن مصنوع من شرائف غير مغسولة » . « القيوم القطيع ذو الوجه الشبيه بوجه الأفعى » ، « الشقي المحتال » الذي نراه « يشعل الحرائق حيث يهلك الشيوخ والأطفال » ، يتدمر مخوراً في الجدول ، أو يبحث عن متع دنيئة في الماخور . الله لم يمت ، ولكنه هوى . وأمام الألوهية المخلوقة يصور لنا مالدورور كفارس تقليدي ذي رداء أسود . أنه الملعون الأكبر . « يجب أن لا تكون العيون شاهدة على الدمامة التي أودعها الكائن الأممي في » ، بابتسامة حقد شديد . « لقد انكر كل شيء » أباه ، أمه ، العناية الربانية ، الحب ، المثل الأعلى ، كي لا يعود يفكر إلا في نفسه . هذا البطل الملعوب بالكبرياء يملك كل جاذبية الداندي الماورائي : « وجهه يفوق وجه البشر ، حزين كالكون ، جميل كالانتحار » . لذلك ، مثل المتمرّد الرومانسي ، سبتحزب مالدورور للشر إذ يعتره اليأس من عدالة الرب . ليلام الآخرين ، والتألم من جراء ذلك : هذا هو البومنج . الأناشيد هي ابتهالات شر حقيقية .

المبعوم التقليدي

عند هذا المتعطف ، لا يعود هناك دفاع حتى عن المخلوق . بل على العكس ،

تصبح « مهاجمة الانسان ، هذا الحيوان الأصعب ، ومهاجمة الخالق ، بكل الوسائل ... » الغاية التي تنادي بها الأفاشيد . إن مالدورور ، القلّيق بفكرة ان الله عدوه ، والشمل بعزلة كبار المجرمين القوية ( « أنا وحدي ضد الانسانية » ) ، سيشن الهجوم على الكون وعلى صانعه . فالأفاشيد تتغنى بـ « قداسة الجريمة » ، وتبشر بسلسلة متزايدة من « الجرائم المجيدة » ؛ بل ان المقطع رقم ٣٠ من الفصل الثاني يدشن فلسفة تربوية حقّة خاصة بالجريمة والعنف .

أصالة لوتريامون :

تخطيم حدود الكون

مثل هذه اللفظة الجميلة كانت آنذاك تقليدية . لأنها لا تكلف شيئاً . ولكن أصالة لوتريامون الحلقة تكمن في مجال آخر . كان الرومانسيون يستبقون ، بعناية ، التضاد المحتوم بين العزلة البشرية واللامبالاة الربانية ، علماً بأن التعبيرات الأدبية عن هذه العزلة هي: القصر المنعزل والداندي . ولكن انتاج لوتريامون يتحدث عن مأساة أعمق . إذ يبدو أن هذه العزلة كانت لا تطاق بالنسبة اليه ، وانه ، في تمرد على الكون ، أراد تحطيم حدوده . فبدلاً من ان يسمى لأن يعزّز عالم الانسان ببروج مسننة ، أراد ان يخلط كل العوالم . لقد ارجع الكون الى البعار الأولية ، حيث تفقد الاخلاق معناها ، وكذلك جميع المشكلات ، ومن جملتها هذه المشكلة المفزعة في اعتقاده ، مشكلة خلود النفس . انه لم يرد ان يرسم صورة ملحوظة عن العاصي أو الداندي امام الخلق ، بل ان يخلط الانسان والعالم في نفس الفناء . لقد هاجم الحدود التي تفصل الانسان عن الكون . الحرية التامة ، حرية الجريمة خاصة ، تفترض تهديم الحدود البشرية . ليس بكافٍ ان تنذر كل البشر وذاتنا للكره . بل يجب أيضاً أن نعود بعالم الانسان الى مستوى عوالم الغريزة . اننا نجد عند لوتريامون هذا الرضا للشعور العقلاني ، هذه العودة الى البدائي التي هي احدى علامات الحضارات المتبردة على ذاتها . المسألة لا تعود مسألة تظاهر ، بواسطة جهد عنيد بيذهل

الشعور ، بل هي ان لا نعود موجودين بوصفنا شعوراً .

المروية

كل مخلوقات الأناشيد هي مخلوقات بر- مائية Amphibiles ، لأن مالدورور يرفض الأرض وما فيها من تحديدات . النباتات مكونة من الأشنة ومن خزّ الماء Grémons . وقصر مالدورور قائم على المياه . موطنه الاوقيانوس القديم . والأوقيانوس ، الرمز المزدوج ، هو في الرقت نفسه مكان الفناء والصلح الموفق . انه يسكن ، على طريقته ، الظلمة الشديدة الذي تحس به نفوس "منذورة" لاحتقار ذاتها والآخرين ، الظلمة الى الكف عن الوجود . فالأناشيد ، والحالة هذه ، هي استحالتنا ، حيث تُستبدل الابتسامة القديمة بافتتارة ثغر مشروط بالموسى ، وهي صورة ذات فكاهة مجنونة حائقة . ولا يسع هذا المؤلف ان يخفي كل المعاني التي ارادوا ان يجدها فيه ، ولكنه يكشف على الاقل ارادة فناء تنبع من أحلك صميم التمرد . ومعه يكتب قول باسكال : « تَبَالَدُ » ، معنى حرفياً . يبدو أن لوتريامون لم يتمكن من تحمل الوضوح العابس الحقود الذي ينبغي للمرء ان يستمر فيه كي يعيش . « ذاتيتي ... وخالقي ، ... هذا كثير بالنسبة الى الذهن » . لقد اصطفى اذن ان يرجع بالحياة وبانتاجه الى مستوى عَوم أبو زيد البحر<sup>(١)</sup> الحافظ وسط لطخة حبر . ان المقطع الجميل الذي نرى فيه مالدورور يتزوج بانثى سمك القرش « تزواجاً طويلاً ، عفيفاً ، شنيعاً » ، ولا سيما الحكاية ذات الدلالة حيث يهاجم مالدورور - وقد تحول الى اخطبوط - الخالق ، تقول : ان هذه الاشياء تعبيرات واضحة عن هروية خارج نطاق الكينونة ، وعن اعتداءٍ مسعود على نواميس الطبيعة .

مخلوقات لوتريامون وحياه

أولئك الذين يجدون انفسهم منهوذين من العالم المنسجم الذي يتوازن فيه الهوى والمعادلة اخيراً ، يفضلون ايضاً على العزلة ، العوالم المرّة حيث لا يعود

(١) نوع من الرخويات عذبة اللعاب .

للكلمات معنى ، وحيث تسود قوة وغريزة كائناتٍ تجبّط خبط عشواء . هذا التحدي هو في الوقت نفسه إمامة للحواس . إن الصراع مع الملاك في الفصل الثاني ينتهي بخذلان الملاك وفساده . حينئذٍ تُرجع السماء والأرض الى دركات الحياة الاولى وتُخلطان بها . هكذا نرى في الأناشيد أن الانسان - كلب البحر - L'homme requin <sup>(١)</sup> « لم يطرأ التبدل الجديد على طرفيه العلويين والسفليين إلا » كجزاءٍ تكفيري عن جريمة مجهولة . هناك في الحقيقة جريمة ، أو وم جريمة ، (هل هي اللواط) ، في حياة لوتريامون المجهولة . ولا يستطيع أي قارئٍ للأناشيد أن ينكر الفكرة الغائلة إن هذا الكتاب بحاجة الى اعترافات .

من الأناشيد الى الاشعار

لعدم وجود اعترافات ، يجب ان نرى في الأشعار ازدياداً لهذه الرغبة الغامضة في التكفير . إن الحركة الخاصة ببعض اشكال التمرد والتي تقوم ، كما سنرى ، على إعادة العقل في نهاية المغامرة اللاعقلانية ، وعلى الاهتمام الى النظام من فرط الغوضى ، وعلى التحمل الاختياري لأغلال اتقل من تلك التي كان يراد التحرر منها ، نقول : ان هذه الحركة قد رُسمت في الكتاب بإرادة تبسيطة وبقعةٍ هما من القوة بحيث لا بد ان يكون لهذا التحول معنى ما . فقد تلت الأناشيد التي كانت تمجد الرفض المطلق ، نظرية "في القبول المطلق ، وتلا التمرد القاطع إذعان" بات . لقد جرى هذا في الصحر . والحقيقة ان كتاب الأشعار يعطي خير تفسير عن كتاب الأناشيد . « فاليأس إذ يقنات بالاهوام العبيية بتعريض » بقدر الاديب بخطى ثابتة الى الغاء القوانين الإلهية والاجتماعية بالجملة . والى الحبس النظري والعملي . « إن الأشعار تفضح أيضاً » لأم كاتبٍ يتدحرج على منعدرات العدم ، ويحتقر ذاته 'مصدراً صيحات الابتهاج' . ولكن لا تداوي الداء إلا " بالإذعان الماورائي . « فلئن وصل شعر الشك الى هذا الحد

(١) ملك القرش او كلب البحر .

من اليأس الكئيب والحبث النظري ، فإذنه باطل أصلاً . ذلك ان المرء يناقش فيه المبادئ ، مع انه يجب ان لا تناقش فيه » . ( رسالة الى داراسته ) .  
والخلاصة ان هذه الحجة السامية تلخص اخلاق خادِم القداس وكتاب الأواصر العسكرية . ولكن الاذعان قد يكون جنونياً ، وبالتالي غير اعتيادي . فحينما يكون المرء قد مجد انتصار النسر الشرير على تبتين الرجاء ، يمكنه أن يردد باصرار انه لم يعد يتوهم إلا بالآمل ، ويمكنه ان يكتب : « بصوتي وبأبهة الأيام العظيمة ، ادعوك الى مواطني المقفرة ، أيها الأمل المجيد ! » ، ... ولكن ينبغي له ان يقتنعنا ... إن تعزية الانسانية ، معاملتها معاملة الأخ ، الرجوع الى كرونغوشوس ، بوذا ، سقراط ، يسوع المسيح ، الى « هؤلاء الاخلاقيين الذين كانوا يطوفون بالقرى وهم يموتون جوعاً » ( الأمر الذي لا اساس له من الوجهة التاريخية ) ، ... نقول : إن هذه الأمور ما زالت مشاريع اليأس . وعليه ، في صميم الرذيلة ، يكون للفضيلة وحسن السيرة فَوْحُ الحين . لأن لوتريامون يرفض الصلاة ، وليس المسيح ينظره سوى مؤلف في علم الاخلاق . إن ما يقترحه ، ما يعقد العزم عليه بالآخرى ، اللاأدبية وانجاز الواجب . مثل هذا البرفاميج العظيم يفترض لسوء الحظ الاهمال وحلاوة الأمسيات ، ويفترض قلباً خلياً وفكراً مطمئناً . إن لوتريامون يؤثّر في النفس حينما يكتب فجأة : « ليس لي عهدٌ إلا بنعمى واحدة : نعمى الولادة » . ولكننا نستشف حقيقته عندما يضيف قائلاً : « ان الفكر المتجرد يجدها نعمى ثامة » . ليس من فكر متجرد ازاء الحياة والموت . فعند لوتريامون ، يهرب المتورد الى القفر . ولكن قفر الاذعان يحزن كـ « حَرَزْ » (١) . فالميل الى المطلق ما زال يعقّمه ، وكذلك الكفاف بالغناء . بما ان مالدورور اراد التردد الكلي ، لذلك ولتفس اسباب ، يسنّ لوتريامون التفاهة المطلقة . إن صرخة الشعور ، هذه الصرخة التي سعى الى خنقها في الاوقيانوس الاولى ، والى خلطها بالصيحة

(١) حرر : مدينة في الجبهة سافر اليها الشاعر رانجو ، وسنجد ذلك في الصلحات المبلّلة .  
(المغرب)

البهيمية ، والتي سعى في آونة أخرى الى الشاغل عنها في الشغف بالرياضيات ، يريد الآن ان ينجحها في تطبيق اذعان كتيب . حينئذ يحاول المتورد ان يتصامم عن هذا النداء نحو الكينونة القابع ايضاً في اعماق تمرده . المقصود هو الكف عن الكينونة ، إما برفض المرء ان يكون أي شيء ، أو بقبوله ان يكون أي شيء . والمسألة في كلتا الحالتين مسألة اصطلاح حالم .  
التفاهة ايضاً هي موقف .

لوتريامون والاذعان

إن اذعان أخذ ميول التمرد العدمية ، ويهيمن على قسط كبير من تاريخنا الفكري . يبين لنا ذلك ، على كل حال ، ان المتورد الذي ينتقل الى التنفيذ يفتن بأكبر اذعان ، اذا ما نسي اصله . انه اذن يفسر القرن العشرين .

ينادى بلوتريامون عادة ، كشاعر التمرد المحض . ولكنه يشير على العكس بالميل الى العبودية العقلية التي تتفتح في عالمنا . ليست الأشعار سوى مقدمة « كتاب مقبل » ، والجميع يحلمون بهذا الكتاب المقبل ، النتيجة المثلث للتمرد الاديبي . ولكنه يكتب اليوم ، ضد لوتريامون ، بملادين النسخ ، على صعيد المكاتب . ليس من شك في ان العبقرية لا تنفصل عن التفاهة . ولكن ليس المقصود تفاهة الآخرين ، تلك التي تنوي اللحاق بها سدى ، والتي تلحق هي نفسها المبدع ، وقت الحاجة ، بالوسائل البولييسية . المسألة بالنسبة الى المبدع مسألة تفاهته الخاصة ، الواجب خلقها بتأملها . كل عبقرية هي في الوقت نفسه قريبة وتافهة . وهي ليست شيئاً اذا كانت احدهما فقط . علينا ان نتذكر ذلك فيما يتعلق بالتمرد . لأن له جماعة من اهل التظاهر ومن اهل الاذعان ، ولكنه لا يتوسم فيهم ابتداء الشرعين <sup>(١)</sup> .

(١) يتصف هذا المقطع بتيه من التوسم . مثل هذا التوسم يتكرر في ص الكتاب كلما اتت المؤلف فبأية الى حركات المرن الشرير السياسية - العرب .

## ٢ - السريالية والثورة

لوضح

يكاد رانبو لا يكون موضوع البحث هنا، فحواله قليل كل شيء، بل لسوء الحظ قليل المزيد. ولكننا سنبين مع ذلك (لأن هذا الايضاح يتعلق بموضوعنا)، أن رانبو لم يكن شاعر التمرد إلا في انتاجه. أما حياته فلا تبرز ما أثارت من أسطورة، بل تظهر فقط رضاء بأسوء عدمية ممكنة، واث. المطالعة الموضوعية لرسائل حرّر تكفي لتبيان ذلك. لقد نجد رانبو.. لأنه نخلي عن عبقريته، فكأن هذا التخلي يفترض وجود مزية خارقة. ولكن بالمعكس. وعلى الرغم من أن هذا يزيد ذرائع معاصرينا، يجب أن نقول إن العبقرية وحدها تفترض وجود مزية، لا التخلي عن العبقرية. ليست عظيمة رانبو في الصرخات الأولى التي أطلقها في مدينة شارلويل، ولا في العمليات التجارية التي أجراها في حرّر (الحبشة). أنها تجعلنا حيناً يعطي التمرد أغرب عبارة صحيحة، ويصور انتصاره ونغمه، الحياة الساهية عن العالم.. والعالم الذي لا مفر منه، استصراخ المستحيل.. والواقع الحثيث الواجب احتضانه، رفض الأخلاق.. والشوق العارم إلى الواجب. أنه اذ يحيل في حنايا ذاته الاشرار والجمعيم<sup>(١)</sup>، ويثتم الجمال ويحييه، يجعل التناقض الثابت نشيداً مزدوجاً متناوباً. في هذه اللحظة بالذات، يصبح شاعر التمرد، اعظم شاعر تمرد. أما ترتب تكون كتابه العظيمين فليس ذا أهمية. على كل، لم تفصل بين تكونها سوى فترة زمنية بسيطة، وكل فنان يعلم من اليقين المطلق الحاصل عن تجربة حياة، أن رانبو كثر كتابه: فصل في الجمعيم والاشراقات في نفس الوقت. لأن كتبها

(١) سري بعد قليل ان كتابه الإمامسين هما: «الاشراقات» و «فصل في الجمعيم»  
- العرب -



الواحد بعد الآخر ، فلقد عاناهما معاً . في هذا التناقض الذي كان يفتك به ، كانت تكمن عبقرية الحلقة .

هـ أسطورة

ولكن أين هي اذن مزية ذلك الذي ينصرف عن التناقض ويخون عبقريته قبل ان يعانيتها حتى النهاية ؟ ليس سكوت رانبو بالنسبة اليه طريقة جديدة في التبرد . على الأقل ، لم نعد نستطيع ان نؤكد ذلك منذ نشر رسائل حرّو . ليس من شك في أن تحوله غامض . ولكن هناك ايضاً لغزاً في التفاهة التي تطرأ على هؤلاء الفتيات الذكيّات اللواتي يحولن الزواج الى آلات مبتزة للأموال . ان الاسطورة التي حيكت حول رانبو تفتقر وتؤكد ان ليس من شيء ممكن بعد فصل في الجحيم . ما هو اذن الشيء المستحيل بالنسبة الى الشاعر المتوّج بالموهب ، بالنسبة الى المبدع الذي لا ينضب له معين ؟ فبعد هوي ديك ، القضية ، هكذا تكلم زرادشت ، المأخوذون <sup>(١)</sup> ، ماذا تصور ؟ مع ذلك ثمة مؤلفات عظيمة ، بعد هذه المؤلفات المذكورة ، ما زال تظهر ، تعلم وتقرّم ، وتشهد لأبّل ما في الانسان ولا تنتهي إلا بموت المبدع . من ذا الذي لا بأسف لهذا المولّد الذي يفرق فصل في الجحيم ، والذي حرّمنا منه بسبب توقف رانبو عن الكتابة ؟

لبيم

هل الحبشة دبرٌ على الأقل ، هل المسيح هو الذي أسكت رانبو ؟ هذا المسيح يكون حينئذ ذلك الذي يجلس على العرش اليوم في نافذات المصرف ، اذا حكمنا بناءً على هذه الرسائل التي لا يتحدث فيها الشاعر الملعون <sup>(٢)</sup> إلا عن تقوده التي كان يود لو يراها مستثمرة استثماراً جيداً ، و « قدرٌ بانتظام » <sup>(٣)</sup> .

(١) هوي ديك : قصة للبليل . القضية : قصة لكانكا . المأخوذون : قصة لستوييسكي . المغرب .

(٢) يشتر رانبو مع الشاعر فرلين والشاعر بودلير من شعراء اللغة - المغرب .

(٣) يصح ان نلاحظ ان لمحة هذه الرسائل يمكن ان تفسر بشخصية المرسل اليهم . ولكننا لا نشعر بوجود جهد للكذب فيها . وما من كلمة يشك منها رانبو القديم .

ذلك الذي كان يغني في العذاب ، وبشتم الإله والجمال ، ويجترس من العدالة والامل ، وبتنشف باعتزاز في هواء الجريمة ، ... يريد فقط ان يتزوج بأمرأة « ذات مستقبل » . وهذا المتبىء ، العراف ، السجين الشرس الذي تغلق عليه أبواب السجن دائماً . الانسان . الملك على الارض دون آله ، ... يحمل دائماً ثمانية كيلوغرامات من الذهب في نطاق يمك بكرشه ، ويشكو من انه يسبب له الزحار (الزنتاريا) . أهذا هو البطل الأسطوري نمرضه على كثير من الشبان الذين لا يصقون ، هم ، على العالم مثل رانبو ، ... ولكنهم يموتون خجلاً لجرد فكرة هذا النطاق ؟ لإبقاء الأسطورة يجب ان نجعل هذه الرسائل الحاسمة (١) . اننا نفهم سبب قلة ما لقيت من تعليق . إنها خارقة للقدسيات شأنها في ذلك شأن الحقيقة أحياناً . شاعر عظيم رائع ، أعظم شعراء زمانه ، هاتف بالغيب ، ... هوذا رانبو . ولكنه ليس الانسان . الإله ، الأنموذج المتوحش ، راحب الشعر ، هذا الذي ارادوا ان يصوروه لنا . لم يجد الرجل عظمته ثانية إلا " وهو مسجى على سرير المستشفى ، في ساعة الاحتضار الصعبة ، حيث تصبغ حتى تفاهة القلب ذات جرس مؤثر : « ما اتعسني ، ما اتعسني اذن ، ... ومع ذلك معي تقود لا تستطيع حتى حراستها ! » . ان الصرخة الكبرى الصادرة في هذه الساعة البائسة ، ترجع رانبو لحسن الحظ الى هذا الجزء من القياس المشترك الذي يتطابق بصورة غير ارادية مع العظيمة : « كلا ، كلا ، الآن افرّد ضد الموت ! » . إن رانبو الشاب ينبعث ثانية أمام الموت ، وينبث معه قرود هاتيك الاوقات التي لم يكن فيها صب اللعنات على الحياة سوى يأس من الممات . حينئذ يلتقي رانبو التاجر البورجوازي برانبو الفتى الممزق الذي طالما محضناه حباً ودوداً . انه يلحق به في الذعر وفي الألم المر ، حيث يلتقي أخيراً الناس الذين لم يعرفوا كيف يستقبلون السعادة . هنا فقط يبدأ عذابه وحقيقته .

(١) يقصد رسائل حرر - العرب -

من رانبو الى السريالية

ولكن المعالم المبشرة بـ « حرر » ، كانت بادية في انتاجه ، انما في شكل الاستعفاء الاخير : « الأفضل ، نومٌ نمل ، على الساحل الرملي » . إن الولع بالفناء ، والخاص بكل متحدر ، يكتسب حينئذٍ أعم شكل . وإن رؤيا الجريمة كما بصورها رانبو في الأمير الذي يقتل اتباعه دون كلل ، والاختلال الطويل ، هما موضوعتان قمرديتان سيقع عليهما السرياليون فيما بعد . ولكن التفوق كتب أخيراً للثنى العدمي ؛ فالكفاح والجريمة بالذات تصكدان النفس الواهنة . إن هذا العرف الذي - اذا تجرأنا على القول - كان يشرب كي لا ينسى ، يجد أخيراً في الشلل النوم العميق الذي يمرره معاصرون معرفة جيدة . فنحن نستسلم للنوم على الشاطئ الرملي ، أو في عدن . ونوافق سلباً لا ايجاباً على نظام العالم ، حتى لو كان هذا النظام - ام مذلاً مخزياً . إن صمت رانبو يمد ايضاً لصت الامبراطورية الذي يحوم فوق اذهان راضية بكل شيء إلا - بالنضال . فهذه النفس التي تخضع فجأة - أه للمال ، تنبئ عن مطالب أخرى ، تكون في البدء مفرطة ، ثم تضع نفسها في خدمة النظم . الرغبة في الفناء ، هي الصيحة التي تصدر عن الفكر الضعيف من قمرداته الخاصة . حينئذ تكون المسألة مسألة انتحار فكري أقل جلالاً من انتحار السرياليين وأغنى بالمواقف . ليست السريالية ذات دلالة ، في ختام حركة التمرد هذه ، إلا لأنها حاولت إدامة رانبو الوحيد الذي يستمتع الشفقة . فهي ، إذ تستخلص من الرسالة حول العرف ، ومن الطريقة التي تلتزمها هذه الرسالة ، قاعدة 'نسك متحدر' ، تظهر هذا الصراع الدائر بين إرادة الوجود والرغبة في الفناء ، بين الرفض والقبول . وهو الصراع الذي رأيناه في سكل مراحل التمرد . لكل هذه الاسباب ، بدلاً من ان تكرر التعليقات الدائمة المحيطة بآثار رانبو ، يبدو من الأفضل ان نجد رانبو وان نتنبه لدى سخله .

## أندريه بروتون

الريالية وحركة دادا

تمردٌ مطلق ، عصيان تام ، تخريب منظم ، مزاجٌ هزلي ، عبادة العبث... هذه هي الريالية التي تعرّف في مقصدها الاول على انها مقاضاةٌ لكل شيء مقاضاةٌ تستأنف في استمرار . إن رفض كل التحديدات واضح ، بيّن ، مستفيض . « نحن أنصائو التبرّد » . الريالية في اعتقاد آراغون وسيلة للقلب الفكر ، وقد شقت طريقها أولاً في حركة « دادا » التي يجب التنويه بمنشئها الرومانسي ، وصفتها الداندية المزيبة <sup>(١)</sup> . فاللامعنى والتناقض ينيّان اذاتهما . والدادويون الحقيقيون هم ضد دادا . الكل مرشد دادا ، أو أيضاً : « أي شيء خير ؟ أي شيء قبيح ؟ أي شيء عظيم ، قوي ، ضعيف ... لا أدري ، لا أدري » . إن عدّمتي الصالونات هؤلاء كانوا طبعاً على وشك أن يمدوا أضيّق المجتمعات التقليدية بالحدّم . ولكن يوجد في الريالية ما هو أكثر من عدم الإذعان الاستمراري ، توجد فيها تركّة رائبو التي يلخصها اندريه بروتون كما يلي : « هل علينا ان نتخلّى هنا عن كل رجاء ؟ » .

الريالية والقلق

إن دعوة عظيمة الى الحياة المفقودة تتسلح برفض كلي للعالم الحاضر ، كما يعبّر بروتون عن ذلك بروعة : « غير قادر على الاستكانة الى مصيري المقرر لي ، ومجروحاً في صميم شعوري بسبب رفض الانصاف ، أتجنب تكيف حياتي مع الشروط التافهة لكل حياة في هذه الدنيا » . يعتقد بروتون أن الفكر لا يسمعه أن يجد الاستقرار في الحياة ولا في العالم الآخر . وتريد الريالية ان تجيب على هذا القلق المضطرب . لمنها « صرخة الفكر الذي يتقلب على ذاته ، ويعقد العزم

(١) يشتر جاري Jarry ، أحد اصحاب حركة دادا ، التجسد الاخير للداندي الماورائي ، ولكنه تجسد أقرب الى الغرابة منه الى البغرية .

على أن يسحق هذه العقبات بأَس. . لأنها تَجْزُر الموت و « الديمومة التافهة لوضع غير مستقر » . فهي إذن تضع نفسها ومن أواخر الجزع وفقد الاصطبار . لأنها تحيا في حالة من الجنون الجريح ، وبالتالي في الصرامة والتعنت الصَّلف اللذين يفترضان وجود أخلاق . ولأن كانت السريالية إنجيل الفوضى ، فلقد أَلْفَتْ نفسها منذ نشأتها مضطرة الى خاق نظام . ولكنها لم تفكر بأدى ذي بدء إلاَّ في التهديم ، بالشعر أولاً على صعيد اللعن ، وبطارق مادية بعدئذ . إن مقاضاة العالم الحقيقي أصبحت منطقياً مقاضاة الخلق .

### السريالية والانتحار

إن النظرة السريالية المعادية للتأليه نظرة قياسية منهجية . لأنها توطد أركانها أولاً على فكرة البراءة المطلقة للانسان الذي يجدر أن تُردَّ اليه « كل القوة التي أمكنه أن يضعها في كلمة الله » . وكما في كل تاريخ التمرد ، تحولت فكرة التمرد المطلقة التابعة من اليأس ، ... تقول : تحولت هذه الفكرة شيئاً فشيئاً الى كُتُفٍ بالعقاب . وإذ أشاد السرياليون بالبراءة الانسانية ، اعتقدوا انهم قادرون في الوقت نفسه على الاشادة بالقتل والانتحار ، فتحدثوا عن الانتحار حديثهم عن حل ؛ وإن كرفيل الذي اعتقد ان هذا الحل « صحيح ونهائي على أرجح احتمال » ، انتحر مثل ريفو وفاشيه . وقد أمكن لأراغون ان يَسِمَ ثنائي الانتحار . ولكن هذا لا يمنع ان تمجيد الفناء وعدم التهافت عليه مع الآخرين ، لا بشرت احداً . في هذه النقطة ، حفظت السريالية من « الأدب » الذي كانت تكرهه ، أسوأ التنازلات ، وسوَّغت صرخة ريفو المغلقة : « أنتم جميعاً شعراء ، أما أنا فمن شيعه الموت » .

### الألوية للرد ورفضه

لم تكتفِ السريالية بذلك . بل اصطلت لها بطلاً، فيوليت نوزير، أو مجرم الحق العام التمثل ، مؤكدة هكذا أمام الجريمة نفسها براءة المخلوق . ولكنها تجرأت على القول ايضاً ، ( وهذه هي الكلمة التي منذ ١٩٣٣ لا بد أن أندوبه

بروتون ندم على قولها) ، إن أبسط فعل سريالي يكمن في النزول الى الشارع ،  
 والمسدس في قبضة اليد ، واطلاق النار على جماهير الناس ككيفها اتفق . من  
 يرفض كل حكم غير حكم الفرد ورغبته ، كل أولوية إلا أولوية اللاشعور ، عليه  
 في الحقيقة أن يتمرد في الوقت نفسه ضد المجتمع والعقل . إن نظرية « الفعل  
 بلا سبب » تتوج المطالبة بالحرية المطلقة . ولا أهمية إذا كانت هذه الحرية تتلخص  
 في العزلة التي يعرفها جاري Jarry كما يلي : « متى أخذت كل الفلوس<sup>(١)</sup> فسأقتل  
 الناس جميعاً ثم سأنتصر » . المهم هو أن تتكرر العقبات ، وأن ينتصر  
 اللاعقلاني . والحقيقة هل يعني هذا التكريز للقتل سوى أن الرغبة في الكينونة  
 وحدها ، بكل أشكالها ، هي المشروعة ، في عالم خالٍ من المعنى والشرف .  
 إن اندفاع الحياة ، ودفعه اللاشعور ، وصيغة اللاعقلاني ، هي الحقائق المحضة  
 التي يجب تشجيعها . كل ما من شأنه معارضة الرغبة ، خاصة المجتمع ، يجب أن  
 يُهدم بلا شفقة . حينئذ نقيم ملاحظة بروتون بخصوص المركيز ساد : « حقاً  
 إن الإنسان لا يعود يوافق هنا على الاتحاد بالطبيعة إلا في الجرعة ، ولكن  
 يبقى علينا أن نعرف أليس ذلك أيضاً أحد طرق الحبة الأكثر جنوناً ، الأكثر  
 يقيناً . نلاحظ أن المقصود هو الحب بلا موضوع ، وهو حب النفوس الممزقة .  
 ولكن هذا الحب الحائوي والتبهم ، هذا الشغف بالتملك هو الشغف الذي يعيقه  
 المجتمع لا محالة . لذلك ، أمكن لبوتون الذي ما زال يشعر بالارتباك من هذه  
 التصريحات ، يقول : أمكنه أن يثني على الحياة وأن يصرح ( الأمر الذي  
 حاول السرياليون إثباته ) بأن العنف هو الوسيلة التعبيرية الوحيدة الملائمة .

#### السريالية والماركية

ولكن المجتمع لا يتألف من اشخاص فحسب ، بل هو أيضاً نظام . إن  
 السرياليين أنبل من أن يقتلوا الناس جميعاً . لذلك ، بموجب منطق موقفهم

(١) المعروف عن الفريد جاري أنه يتعمد أحياناً خريف الكلمات . وقد جاريته في عبارته  
 فاستعملنا كلمة : اللأوس ، التي يقصد بها بالطبع : المال . (الناشر)

بالذات ، انتهوا الى الاعتقاد بأنه لتحرير الرغبة لا بد أولاً من قلب المجتمع . لقد اختاروا خدمة ثورة عصرهم . ومن البول والمركيز ساد ، وبetasك يشتمل موضوع هذه الدراسة ، التحق السرياليون بهيلفيوس وماركس . ولكننا نرى ان دراسة الماركسية ليست هي التي قادتهم الى الثورة (١) . فبالعكس ، انصرف جهد السريالية الدائم الى التوفيق بين المتطلبات التي سارت بها الى الثورة وبين الماركسية . يمكننا ان نقول دون تناقض ان السرياليين التحقوا بالماركسية بسبب أبغض الاشياء اليهم فيها ، اليوم . ولذا نعرف 'كنه مطلبها ونبلها' ، وحيناً نكون قد اشتركنا في نفس التمزق ، نتردد في ان 'نذكر أندريه بروتون بأن حركته جعلت من مبادئها إقامة « سلطة غاشمة » وحكم ديكتاتوري ، والتعصب السياسي ، ورفض حرية النقاش ، وضرورة عقوبة الاعداء . وتعتبرنا الدهشة أيضاً امام المفردات الغريبة لذاك العصر ( « تخريب » ، « واثي » الخ ) ، الذي هو عصر الثورة البوليسية . ولكن هؤلاء المجانين كانوا يريدون « ثورة » أياً كانت » ، كانوا يريدون اي شيء يخرجهم من عالم الحائرين ، عالم التسوية ، حيث كانوا يجبرين على العيش . ولذا عجزوا عن الحصول على ما هو افضل ، آثروا مسا هو أسوأ . وفي هذا ، كانوا عديمين . لم يلاحظوا ان اولئك الذين كان عليهم ان يبقوا غاصين بعد الآن للماركسية ، بقوا عاصين في الوقت نفسه لعدميتهم الاولى . ان التهديم الحقيقي للغة ، والذي تمته السريالية باحراز كبير ، لا يكمن في عدم التماسك أو في الآلية (٢) ، بل يكمن في الشعار . وبعثاً ابتداءً آراغون بفضح « الموقف الذرائعي المشين » ، ففيه قد وجد في النهاية التحرر التام من الاخلاق ، حتى لو تطابق هذا التحرر مع عبودية اخرى . إن أعنى السرياليين تفكيراً في هذه المشكلة آنذاك ، يبر

- (١) الشيوعيون الذين آمنوا بالثورة نتيجة لدراسة الماركسية يمدون على اصابع اليد . فالمرء يبتدي اولاً ... ثم يطالع كتب العيدة .  
(٢) الانشاء الآل . راجع صفحة ٢٩٨ من تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين . منشورات عويدات - المغرب .

نافيل، إذ بحث عن العامل المشترك بين العمل الثوري والعمل السريالي، وجدّه في التشاؤم، أي: « الرغبة في مواكبة الانسان الى هلاكه، وفي عدم إهمال أي شيء لكي يكون هذا الهلاك الابدي مفيداً » هذا المزيج من الاوغسطينية والماكيافلية يعرف حقاً ثورة القرن العشرين؛ ولا يسعنا ان نعطي تعبيراً أكثر جرأة عن عدمية العصر. ان مرتدي السريالية كانوا أميين للعدمية في معظم مبادئها. فبصورة ما، كانوا يريدون الموت. ولئن قطع اخباراً اندريه بروتون وغيره الصلة مع الماركسية، فلأنه كان عندهم شيء ما أكثر من العدمية. كانت عندهم امانة ثانية لأصفي ما في اصل التمرد: انهم لم يكونوا يريدون الموت.

#### السريالية والثورة

صحيح ان السرياليين ارادوا ان يجاهروا بالمادية. « في اصل تمرد الباراجة « بومبكين »، يطيب لنا ان نوسم وجود قطعة اللحم القطيعة هذه » (١). ولكن لا يوجد لديهم، كما لدى الماركسيين، تحمس، حتى عقلي، لقطعة اللحم هذه. إن الجيفة تمثل فقط العالم الحقيقي الذي يولد التمرد... وليكن ضده. ولئن برزت كل شيء، فانها لا تفسر شيئاً. لم تكن الثورة بالنسبة الى السرياليين غاية تحقق يوماً فيوماً، في العمل، ولكنها اسطورة مطلقة وممزوجة. لقد كانت الثورة « الحياة الحقة، كالحب »، التي كان يتحدث عنها الشاعر ايلوار. ولم يكن هذا الاخير يتصور آنذاك ان صديقه « كالندرا » سيوت من هذه الحياة. كان يريد « شيوعية العبقريّة »، لا الشيوعية الأخرى. وكان هؤلاء الماركسيون الغريبون يصرحون بأنهم في حالة عصيان ضد التاريخ، وكانوا يمجّدون الفرد البطل. « تتحكم بالتاريخ قوانين 'كيفية نذالة الأفراد' ». كان اندريه بروتون يريد في نفس الوقت، الثورة والحب،... وهما متنافيان. فالثورة تكمن في حب انسان ما زال غير موجود. ولكن ذلك الذي يجب كائناً حياً، اذا كان يحبه حقاً، فلا يسهل ان يموت إلا من اجله. الواقع ان

(١) يقصد بقطعة اللحم التفسير المادي (المعرب)



الثورة لم تكن بنظر بروتون سوى حالة خاصة من التمرد ، في حين ان العكس وحده هو الصحيح بنظر الماركسين ، وينظر كل فكرة سياسية بوجه العموم .  
 لم يكن بروتون يسمى الى ان يحقق ، بالعبل ، المدينة الفاضلة التي ستنتج التاريخ . والحقيقة ان احدى النظرات الاساسية في السريالية تقول بعدم وجود خلاص . ليست مزية الثورة في انها تمنح البشر السعادة ، « الرفاهية الأرضية المفقطة » . بل عليها في اعتقاد بروتون ان تطهر وضمهم الفاجع وان توضحه . ولن تقدم الثورة العالمية وما تفترض من تضحيات فظيعة ، سوى حسنة واحدة : « منع التقلل المصطنع للوضع الاجتماعي من ان يحجب التقلل الحقيقي للوضع الانساني » . ولكن هذا التقدم كان بنظر بروتون غير ملائم . سواء اذن أن نقول إن على الثورة ان توضع في خدمة النسك الذاتي الذي بواسطته ينسى لكل انسان ان يحول الواقع الى شيء عجيب ، « ثأر واضح تقوم به نخلة الانسان » . ان « العجيب » يحتل لدى أندريه بروتون المقام الذي يحتله « العقلاني » عند هيجل . فلا يمكننا اذن ان نتصور تعارضاً أكمل مع الفلسفة السياسية في الماركسية . إن الترددات الطويلة العادرة عن أولئك الذين كان آرتو يسميهم « آميلات »<sup>١١</sup> الثورة ، تتوضع دون جهد . كانت السرياليون أكثر اختلافاً عن ماركس منهم عن الرجعيين مثل جوزيف دي مبستر . هؤلاء الاخيريون يستخدمون مأساة الوجود لرفض الثورة ، أي لإبقاء وضع تاريخي . ويستخدمها الماركسيون لتبرير الثورة ، أي لخلق وضع تاريخي آخر . كلاهما يضع المأساة الانسانية في خدمة غاياته الذرائعية . أما أندريه بروتون فكان يستخدم الثورة لإتمام المأساة ، وكان يضع الثورة - رغم عنوان مجلته - فعلاً في خدمة المغامرة السريالية .

( ١ ) اشتقاق من اسم الدبلوف السويسري آميل الذي اشتهر بالحجل والقلق . آميلات  
 الثورة : أي : ثلثو الثورة (المغرب)

## مقارنة

تتوضع القطيعة النهائية أخيراً اذا تذكرنا ان الماركسية كانت تطالب بإخضاع اللاعقلاني ، في حين هب السرياليون للدفاع عن اللاعقلاني حتى الموت . وكانت الماركسية تسمى الى الفوز بالكلية والشمول ، أما السريالية فكانت ، ككل تجربة روحانية ، تسمى الى الفوز بالوحدة <sup>(١)</sup> . في وسع الشول اذن أن يطالب بمخضوع اللاعقلاني اذا كان العقلاني يكفي للتسلط على العالم . ولكن الرغبة في الوحدة هي اكثر تطلباً . فلا يكفيها أن يكون كل شيء عقلانياً ، بل تريد خاصة ان يوفى بين العقلاني واللاعقلاني عند نفس المستوى .

ليس فمن وحدة تفترض وجود اجزاء .

## الكلية مرحلة

يعتقد اندريه بروتون ان الشمول <sup>(٢)</sup> لا يسهه أن يكون سوى مرحلة على درب الوحدة ، ولعل هذه المرحلة ضرورية ولكنها بلا شك غير كافية . نجد هنا موضوعة : « كل شيء أو لا شيء » <sup>(٣)</sup> . إن السريالية تسمى الى الكلّي L'universel ، والمأخذ الغريب <sup>(٤)</sup> - ولكن العميق - الذي يأخذه بروتون على ماركس هو ان هذا الأخير ليس كلياً . كانت غاية السرياليين التوفيق بين شعار ماركس القائل بـ « تطوير العالم » وشعار رانبو القائل بـ « اصلاح الحياة » ، ولكن الشعار الاول يؤدي الى الفوز بكلية العالم ، والثاني الى الفوز بوحدة الحياة . كل شمول ( كلية ) هو ، بحكم مفارقة عجيبة ، مقيدٌ في نهاية المطاف .

(١) بمعنى السجام (المعرب)

(٢) لتشمل الشمول بمعنى الكلية Totalité . وهذه غير : الكلّي Universel (المعرب)

(٣) مرت معنا هذه الموضوعة في الاسام الاول من الكتاب (المعرب)

(٤) مأخذ غريب لأن الماركسية ، كما رأينا ، تسمى الى الفوز بالشمول والكلية . ولكن « الكلّي » يوفق بين العقلاني واللاعقلاني ، أما الماركسية فتطالب بإخضاع اللاعقلاني

لأنها نظرية عقلانية (المعرب)

وقد قسم هذان الشعاران العصبة السريالية . فاذا اختار بروتون وانبو ، أظهر أن السريالية ليست عملاً ، بل نسكاً وتجربة روحية . لقد أعاد إلى مرتبة الصدارة ما يشكل الأصالة العميقة في حركته ، وهو الوجه الثمين لكل تأمل حول التمرد ، ونعني : إحياء المقدسات والفوز بالوحدة . وكلما مئى هذه الأصالة ، ازداد انقصصاً عن رفاقه السياسيين ، وفي الوقت نفسه عن بعض طالبيه الأولية .

### الحل الأرفع

الحقيقة أن اندريه بروتون لم يتبدل قط في مطالبته بما فوق الواقع ، امتزاج الحلم والواقع ، تصعيد التناقض القديم بين المثال والواقع . أننا نعرف الحل السريالي : الاعتقالية المحسوسة ، والصدفة الموضوعية <sup>(١)</sup> . إن الشعر غزو ، الغزو الوحيد الممكن ، « للحل الأرفع » . « حل معين من الفكر ، يكف فيه العيش والموت ، الواقع والخيال ، الماضي والمستقبل ، عن أن يدرك بشكل متناقض » . ما هو إذن هذا الحل الأرفع الذي عليه أن يظهر « الفشل الأكبر للمذهب الميتافيزيقي » ؟ إنه نشدات « القمة الموهبة » ، المألوفة من الصوفيين . والحقيقة أن المسألة مسألة تعرف بلا إله ، عدى ويظهر تعطش التمرد إلى المطلق . العقلانية هي العدو الاسامي للسريالية . وعلى كل ، أن تفكير بروتون يقدم المشهد الغريب لتفكير غربي يفضل فيه مبدأ التجانس ، في استمرار ، على حساب مبدأ الموهبة وبدأ استحالة اجتماع الكون وعدمه <sup>(٢)</sup> Principe de Contradiction . المقصود ، بالضبط ، هو تذويب التناقضات في نار الرغبة والمهبة ، واسقاطا جدران الموت . إن السحر ، والحضارات البدائية أو الساذجة ، وعلم الحيل ، والزخارف اللطيفة وليالي الأرق ، هي مراحل عجيبة على درب

( ١ ) من الموضوعات الروائية (المعرب)

( ٢ ) مختلفاً ، ما ذكر قبل قليل حول الحل الأرفع وفنون التناقضات فيه (المعرب)

الوحدة والحجرة الفلسفية <sup>(١)</sup> . فلئن لم تبدل السريالية العالم ، فقد أمدته ببعض الاسطورات الغريبة التي تهرز جزئياً نيتشه الذي بشر بعودة الاغريق . جزئياً فقط ، لأن موضوع الكلام يونان الظلال ، يونان الانساز والآلهة السود . أخيراً ، كما ان تجربة نيتشه تتوجت بقبول النور ، كذلك تبلغ السريالية الأوج في الاشادة بالديجور ، وعبادة العاصفة عبادة "محررة قلقة" . لقد أدرك بروتون ، على حد اقواله بالذات ، ان الحياة ممطرة رغم كل شيء . ولكن لم يكن في وسع اذعانه ان يكون لاذعان النور التام الذي نحتاج اليه . فقد قال : « في من ربيع الشمال العاتية أكثر مما يسمع لي بأن أكون رجلاً الاذعان التام » .

#### بروتون والاخلاق

على أن بروتون أنقص - ضد ذاته غالباً - نصيب الانكار ، ووضح المطالبة الايجابية للتسرد . فقد اصطفى الشدة بدل الصمت ، واستبقى فقط « الدعوة الاخلاقية » التي كانت في اعتقاد « باناي » تدفع السريالية الاولى : « لإحلال أخلاق جديدة محل الاخلاق الدارجة ، سبب كل مصائبنا » . ازه ولا شك لم ينجح ، ولم ينجح أحد اليوم ، في هذه المحاولة لوضع الاخلاق الجديدة . ولكنه لم يقنط قط من القدرة على عمل ذلك . فلإزاء قباحة عصره يلاقي فيه الانسان - الذي أواد بروتون أن يعجده - الذل والمهران بإصرار ، بإسم بعض المبادئ التي كانت السريالية قد تبنتها ، ... نقول : إزاء هذه القباحة وجد بروتون نفسه مضطراً الى ان يقترح الرجوع مؤقتاً الى الاخلاق التقليدية . لعل هذا التصرف يشكل وقفة ، ولكنها في الحقيقة وقفة المدمية ، والتقدم الحقيقي للتسرد . ومعلوم أن بروتون اصطفى الحب ، حينما عجز عن إعطاء الاخلاق والقيم التي أحس احساساً واضعاً بضرورتها . ففي خسارة زمانه

(١) الحجرة الفلسفية : في اعتقاد اصحاب علم الحيل انها تحول المادون الى ذهب .. وتشتمل مجازياً إشارة الى الاهداف التي يستحيل تحقيقها (المعرب)

- وهذا لا يمكن نسيانه - ، كان الوحيد الذي تحدث عن الحب بعمق .  
 الحب هو الاخلاق المرتعشة التي كانت بمثابة الوطن لهذا المنفي . ولا شك في  
 أن الحاجة الى مقياس لا تزال ماسة . ليست الريالية سياسة ولا ديانة ، ولعلها  
 ليست سوى حكمة مستحقة . ولكن هذا دليل على عدم وجود حكمة مريحة .  
 لقد هتف بروتون قائلاً بروعة : « نحن نريد ، نحن سنحصل على الحياة الاخرى  
 في ايامنا هذه » . فلعل الليل البهي الذي يستكين اليه ، بينا ينتقل العقل الى  
 العمل <sup>(١)</sup> ويضعف بجيوشه على العالم ، نقول : لعل هذا الليل يبشر بفجر  
 لم يسطع نوره بعد ، وبصبيحات رنيه شار شاعر نهضتنا .

.....  
 (١) يقصد الحركات السياسية المعاصرة المستندة الى الفلسفات (المحرب)

## العدمية والتاريخ

الدروع الى القاعدة ،  
المهروب من التوتر

مائة وخمسون عاماً من التمرد الماورائي والعدمية *Nihilisme* ، رأت نفس  
الوجه المحطّم ، وجه الاحتجاج البشري ، يعود تحت أقتعة مختلفة . وقد أكد  
الجميع ، إذ تمردوا على الوضع وخالفه ، عزلة الخلق ، وبُطلان كل أخلاق .  
ولكنهم سعوا جميعاً في الوقت نفسه الى بناء ملكوت أرضي محض ، تسود فيه  
القاعدة التي يصطفون . لقد انساقوا منطقياً ، وهم منافسو الخالق ، الى إعادة  
تشكيل الخلق <sup>(١)</sup> على حسابهم . أما الذين رفضوا كل قاعدة للعالم الذي خلقوه ،  
ما خلا قاعدة الرغبة والقوة ، فهرعوا الى الانتحار ، أو الى الجنون ، وتغنوا  
برؤيا الدمار الكلي . وأما الآخرون الذين أرادوا أن يخلقوا قاعدتهم بقوتهم  
الخاصة ، فقد اصطفوا التصنع العقيم ، التظاهر أو التفاهة ، أو ايضاً القتل  
والدمار . ولكن المركز ساد والرومانسيين ، كرامازوف أو نيتشه ، لم يدخلوا  
عالم الموتى إلاّ لأنهم أرادوا الحياة الحقة . بحيث اننا نرى ، بفعل معاكس ،  
أن النزوع الممزق الى القاعدة والنظام والاخلاق هو الذي يدوي في هذا  
الكون المجنون . ولم تصبح استنتاجاتهم مشؤومة أو قاضية على الحرية إلاّ منذ

(١) العالم .

نبذوا عبء التمرد، وهربوا من التوتر الذي يفترضه هذا التمرد، واحتفظوا رغد  
الطغيان أو رفاه العبودية .

معنى الاحتجاج

إن العصيان البشري ، في أشكاله العليا والفاجعة ، ليس - ولا يسعه أن  
يكون سوى احتجاج طويل ضد الموت ، واتهام حائقٍ شديد لهذا الوضع  
الذي تتحكم به عقوبة الموت الممّث<sup>(١)</sup> . في كل ما مررنا من حالات ، يتوجه  
الاحتجاج كل مرة الى كل ما هو في الخلق نشارٌ وغبشةٌ وانقطاع . المسألة  
إذن هي ، أساساً ، مسألة مطالبة دائمة بالوحدة . أما وسائل كل هذا الجنون  
السام أو الصياني فهي رفض الموت ، والرغبة في الديمومة والشفافية . هل  
يعني ذلك فقط رفض الموت رفضاً نذلاً وشخصياً ؟ كلا، لأن كثيراً من هؤلاء  
العصاة دفعوا الثمن اللازم<sup>(٢)</sup> كي يكونوا على مستوى مطلبهم . فالتمرد لا يطلب  
الحياة ، بل أسباب الحياة . انه يرفض النتيجة التي يأتي بها الموت . فاذا لم يكن  
هناك شيء دائم ، فلا شيء مبرر، وما يحل به الموت يُحرّم من المعنى . الصراع  
ضد الموت منناه المطالبة بمعنى الحياة ، والنضال من أجل القاعدة ومن أجل  
الوحدة .

البحث عن الشفافية ،  
وعن مقدسات

إن الاحتجاج ضد الشر ، والكامن في صميم التمرد الماورائي ، هو ذو دلالة  
بهذا الصدد . ليس عذاب الطفل هو المثير في حد ذاته ، بل كون هذا العذاب  
بلا مبرر . مهما يكن من أمر ، فإن المرء يرضى أحياناً بالعذاب والنفي والحجر  
حينما يقنعه بها الطب أو العقل الرشيد . أما المتمرد فيعتقد ان ما يعوز عذاب  
الناس ، ولحظات سعادتهم ، هو مبدأ تفسيري . العصيان على الشر يظل ، قبل

.....  
(١) الموت الذي هو مصير الجميع (الحرب)

(٢) يقصد ضموا بحياتهم (الحرب)

كل شيء ، مطالبة بالوحدة . إن التمرد يعارض دون كلل عالم المحكوم عليهم بالموت <sup>(١)</sup> ، وغُبْشَةُ الوضع الميئة ، بتطلبه الحياة والشفافية النهائية . انه يبحث ، من حيث لا يدري ، عن اخلاق أو عن مقدسات . التمرد 'نسك' ، وإن يكن اعمى . فلأن يهدف التمرد إذن ، فذلك أملاً منه بإله جديد . انه يهتز تحت صدمة اول الحركات الدينية وأعمقها ، ولكن المسألة مسألة حركة دينية خائبة . ليس التمرد في حد ذاته هو الشيء النبل ، بل النبل ما يتطلبه التمرد ، حتى لو كان ما يحصل عليه لا يزال خسيساً .

التمرد والقتل

على الأقل ، يجب ان نعرف كيف تبين ما يحصل عليه من خسيس . فكما يجتد التمرد الرفض التام لما هو موجود ، كلما يجتد « اللامطلقة » ، فانه يقتل . وكلما قبل قبولاً اعمى بما هو موجود ، ونادى بـ « النعم المطلقة » ، فانه يقتل . إن كرهه الخالق قد يتحول الى كرهه الخلق ، أو الى حب ما هو موجود حباً متفرداً مسخطاً . ولكنه ، في كلتا الحالتين ، يصب في القتل ويفقد الحق في ان يسمى تمرداً . يمكننا ان نكون عديمين بطريقتين ، وكل مرة بشره الى المطلق . هناك في الظاهر المتمردون الذين يريدون ان يموتوا ، واولئك الذين يريدون ان 'يمتوا' . ولكنهم هم ، محترقين بنار الرغبة في الحياة الحقة ، محرومين من الكينونة ، مفضلين حينئذ الجور المعتم على عدالة مشوهة . عند هذا الحد من السخط ، يصبح العقل جنوناً . فاذا صح ان التمرد الغريزي للقلب الانساني يسير تدريجياً على امتداد القرون نحو وعيه الاعظم ، فقد تعاضلت ابناً ، كما رأينا ، جرأته العمياء تماظماً مفرطاً بحيث اعتزم الرد على القتل الشامل بالفتك الماورائي .

تائج العدمية

إن « ستي لو » <sup>(٢)</sup> ، التي تبين لنا انها تشير الى اللحظة الرئيسية في التمرد

(١) عالم البشر (الحرب)

(٢) راجع : « رفض الخلاص » ، المقطع الثاني من ٧٧ (الحرب)



الماورائي ، تتم على كل في الدمار المطلق . ليس التمرد ولا نبله هما اللذان  
يسطمان اليوم على العالم ، بل المدمية . وينبغي لنا ان نرسم نتائجها ، دون ان  
تغيب عنا حقيقة اصلها . حتى لو كان الله موجوداً ، فلن يدعن له ايغان ، إزاء  
الجور اللاحق بالانسان . ولكن امعان النظر في هذا الجور لأمعاناً أطول ،  
والاحتراق بسعير أمر ، حول عبارة : « حتى لو كنت موجوداً » الى :  
« لا نستحق أن توجد » ، ثم الى : « لست موجوداً » . لقد التمس الضحايا  
قوة الجريمة النهائية <sup>(١)</sup> وأسبابها في البراءة التي توسرها في انفسهم . فإذا يسوا  
من خلودهم ، وتأكدوا من إدانتهم ، قرروا قتل الإله . اذا كلف من الخطأ  
القول إن مأساة الانسان المعاصر بدأت من هذا اليوم ، فليس صحيحاً ايضاً  
انها انتهت فيه . إن هذا التعدي بشير ، بالعكس ، الى ذروة مأساة ابتدأت  
منذ نهاية العالم القديم ، ولما 'تدو' بعد' كلماتها الاخيرة . اعتباراً من هذه اللحظة ،  
قرر الانسان ان يحرم نفسه من العون <sup>(٢)</sup> ، وان يحيا بوسائله الخاصة . ومن  
الركيز ساد حتى يومنا هذا ، كبن التقدم في توسيع المحل الميئج <sup>(٣)</sup> توسيعاً  
متزايداً . وفي هذا المحل الميئج الموسع بسط الانسا سطرانه وفق قاعدته  
الخاصة ، بقسوة ودوغا إله . وجرى توسيع حدود المعسكر المحصن بثناريس  
توسيعاً متزايداً امام الأوهية ، بحيث انهم جعلوا العالم كله حصناً ضد الإله  
المخدوع والمنفي . لقد لاذ الانسان بالخلوة في نهاية قمرده ، ومن قصر الركيز  
ساد الفاجع الى معسكرات الاعتقال <sup>(٤)</sup> ، 'كنت حريته في بناء سجن جرائمه .  
ولكن حالة الحصار تتمم تدريجياً ، والمطالبة بالحربة تريد الامتداد الى الجميع .  
يجب اذن ان يبنى الملكوت الوحيد الذي يعارض ملكوت العون ، ونعني  
ملكوت العدالة ، وان 'تجمع' اخيراً الجماعة البشرية على انقراض الجماعة الإلهية .

(١) يقصد قتل الإله (المرب)

(٢) العون الرائي

(٣) يقصد لمر الركيز ساد . راجع الصفحات الخاصة بساد من ٤٥ (المرب)

(٤) يقصد مستخرات الاعتقال في القرن العشرين (المرب)

قتلُ الإله ... وبناء كنيسة <sup>(١)</sup> ، ... إنها حركة التمرد الدائمة والمتناقضة .  
 إن الحرية المطلقة تصبح أخيراً سجيناً من الواجبات المطلقة ، 'نسكاً جماعياً' ،  
 وفي نهاية المطاف تاريخياً . إن القرن التاسع عشر ، قرن التمرد ، يصب في  
 القرن العشرين ، قرن العدالة والأخلاق ، حيث يلطم كل فرد صدره . ومن  
 قبل ، أتى شانفور ، أخلاقي التمرد ، بالمبدأ : « على المرء أن يكون عادلاً  
 قبل أن يكون كريماً ، مثلما يقتني القمصان قبل اقتناء الدانتيل » .  
 سنتخطى إذن عن أخلاق الترف في سبيل أخلاق البناء الصعبة .

القضاء التمرد الماورائي بالحركة  
 الثورية - جرائم العقل العاوي

ينبغي لنا الآن أن نتصدى لهذا المسعى المحموم نحو التسلط على العالم، ونحو  
 القاعدة الشاملة . لقد وصلنا إلى هذه النقطة التي يعتزم فيها التمرد، بعد ما طرح  
 نير كل عبودية، لإحقاق الخلق كله به. وفي كل انكسار من هذه الانكسارات،  
 في السابق ، تراءت لنا معالم الحل السامعي الغازي . بعد الآن ، لن يستبقي  
 التمرد ، مع المدمية الأخلاقية ، سوى إرادة القوة . لم يكن المتمرد يريد  
 مبدئياً سوى الفوز بكيئوته الخاصة ، وتأكيدا في وجه الإله ، ولكنه يفقد  
 ذكرى أصله . وما هوذا ، بحكم تسلطية روحية ، يسير نحو السيطرة على العالم  
 خلال عمليات قتل لامتناهية . لقد طرد الإله من سمائه . ولكن المطالبة  
 اللاعقلانية بالحربة ، إذ يلتقي روح التمرد الماورائي صراحة بالحركة الثورية ،  
 ستتسلح بالعقل - بحكم مفارقة عجيبة - ، ستتسلح بهذه القدرة الوحيدة على  
 الغزو التي تبدو لها إنسانية محضة . لقد مات الإله، وبقي البشر، أي : التاريخ  
 الذي يجب فهمه وبناءه . إن المدمية التي تغمر حينئذ ، في صميم التمرد ، قوة  
 الخلق ، تضيف فقط قائلة إن بالامكان بناء هذه القوة بكل الوسائل . وسيضم

(١) يقصد مقدسات جديدة (المغرب)

الانسان الى جرائم اللاعقلاني ، على ارض يعرف انها منفردة بعد الآف <sup>(١١)</sup> ،  
جرائم العقل السائر نحو ملكوت البشر . والى : « أنا أقرد ، إذن نحن  
موجودون » <sup>(١٢)</sup> ، يضيف مضرباً نوايا عجيبة وموت التمرد بالذات - :  
« ونحن موجودون وحدنا » <sup>(١٣)</sup> .

- (١) بلا إله (المغرب)
- (٢) التكرمة المشاركة الانسانية والاتصال بالآخرين (المغرب)
- (٣) بلا إله (المغرب)

## الفصل الثالث

### التمرد التاريخي

## التمرد والثورة

العدالة ، الحرية ، الارهاب

الحرية ، « هذا الإسم الرهيب المكتوب على مركبة العواصف » <sup>(١)</sup> ، هي في مبدأ الثورات كلها . بدونها ، تتراعى العدالة للعصاة غير قابلة للتصور . ومع ذلك ، ثمة وقت يحل ، تتطلب العدالة فيه إيقاف الحرية ، حينئذ يتوج الارهاب الثورة ، بسيطاً كان أم كبيراً . كل تمرّد حينئذ إلى البراءة ، وتزوع الى الكينونة . ولكن الحنين يحل السلاح ذات يوم ، ويأخذ على عاتقه الوزر التام ، أي : القتل والعنف . إن تمردات العبيد ، والثورات القاتلة للملوك ، وثورات القرن العشرين ، قبلت - عن علم - بوزر متعاضم ، بقدر ما استهدفت إقامة حرية متعاضمة الكمال . هذا التناقض الذي أصبح ساطعاً ، حال دون ظهور معالم السعادة والأمل على رجالنا الثوريين ، هذه المعالم التي كانت ظاهرة في وجوه رجالنا التأسيسيين وفي خطبهم . هل هذا التناقض أمر لا مناص منه ، هل يميز أو يكشف قيمة التمرد ، ... انه السؤال الذي يطرح بصدد الثورة ، منما كان يطرح بصدد التمرد الماورائي . والحقيقة ان الثورة ليست سوى التتمة المنطقية للتمرد الماورائي . ولسوف نتابع ، في تحليل الحركة الثورية نفس المجهود اليائس والدامي لتأكيد الإنسان إزاء ما 'ينكر الإنسان' . فالروح الثوري يدافع عن هذا الجزء من الانسان ، عن هذا الجزء الذي لا يريد أن

بمخضع ، ويحاول أن يقلده سلطانه في الزمان . إنه ، اذ يرض الله ، يصطلي  
التاريخ بموجب منطق لا مناص منه في الظاهر .

#### الثورة والمكرة

ان كلمة ثورة ، في حقل النظرية ، تحافظ على ما لها من معنى في حقل  
الفلك<sup>(١)</sup> . انها حركة تقفل الحلقة ، تنتقل من حكومة الى اخرى بعد دورة  
انتقالية تامة . ان تبديلاً يطرأ على نظام الملكية دون أن يقابله تبديل في  
الحكومة ، ليس ثورة بل إصلاحاً . ليس من ثورة اقتصادية ، سواء أكانت  
دموية أم سلمية في وسائلها ، لا تبدو في الوقت نفسه ثورة سياسية . وبذلك  
تتميز الثورة عن حركة التمرد . إن الكلمة الشهيرة التالية : « كلا يا مولاي ،  
لسنا أمام تمرد ، بل أمام ثورة » ، تركز على هذا الفارق الجوهرى . انها تعني  
تماماً « اليقين بمجيء حكومة جديدة » . فحركة التمرد ، في الأصل ، تغير  
وجهتها بغتة<sup>(٢)</sup> ، انها ليست سوى شهادة مضطربة . أما الثورة فتبدأ اعتباراً من  
الفكرة . انها ، بالضغط ، ادخال الفكرة في التجربة التاريخية ، في حين ان  
التمرد هو فقط الحركة التي تقود من التجربة الفردية الى الفكرة . ان تاريخ  
حركة التمرد ، حتى لو كان تاريخاً جماعياً ، هو تاريخ ولوج في الوقائع بلا  
مخرج ، واحتجاج مبهم لا يستخدم مذاهب ولا أسباباً . أما الثورة فهي محاولة  
لتكييف الفعل على فكرة ، ولصياغة العالم في إطار نظري . لهذا السبب يقتل  
التمرد أنفاساً ، اما الثورة فتهلك أنفاساً وتهدم مبادئه في نفس الوقت .

#### الثورة والحكومة

لكن ، لنفس الأسباب ، يمكننا أن نقول إنه لم توجد بعد ثورة في التاريخ .  
ولا يمكن أن توجد سوى ثورة واحدة ستكون الثورة النهائية . فالحركة التي

(١) لهم القسم الأول من هذا المقطع يجب أن تشير الى أن كلمة Révolution في اللغة  
الفرنسية تعني : ١ - ثورة ؛ ٢ - دورة كاملة يقوم بها الجرم السماوي (المرب)  
(٢) اطلع في الصفحات التالية تحت عنوان : سبب التراجع (المرب)

تبدو أنها 'تنتهي الحلقة' ، تشرع في حلقة جديدة حالما تتشكل الحكومة . وقد لاحظ الفوضويون ، وفي طليعتهم فارليه ، ان الحكومة والثورة شيان متنافران بالمعنى المباشر . يقول برودون : « ثمة تناقض في أن تتمكن الحكومة في يوم من الأيام من أن تكون ثورية ، لا شيء إلا لأنها حكومة » . فلننظف قائلين بناء على التجربة ، إن الحكومة ، لا يمكنها أن تكون ثورية إلا ضد حكومات أخرى . ان الحكومات الثورية تازم نفسها في معظم الاحيان على أن تكون حكومات حربية . وكلما اتسع نطاق الثورة ، تصاظم مدار القتال الذي تفترضه الثورة . فالجنتع المنبثق عن ١٧٨٩ ، أراد ان يحارب من اجل اوروبا . والجنتع الذي نشأ عن ١٩١٧ ، حارب من أجل السيطرة العالمية . إن الثورة الشاملة تطالب إذن في النهاية -- وسنرى لماذا -- بالسلط على العالم .

#### التدردات والثورة النهائية

في انتظار تحقق ذلك -- إذا كان عليه أن يحدث -- ، يُعتبر تاريخ البشر ، بوجه ما ، مجموع تمرداتهم المتتالية . وبعبير آخر ، ان الحركة الانتقالية التي تجد تعبيراً واضحاً في المكان ، ليست سوى تقدير تقريبي في الزمان . مما كان يُسمى في القرن التاسع عشر ، بصورة وريغة ، التحرر التدريجي للجنس البشري ، يتراءى من الخارج كسلسلة متصلة من التدردات تتجاوز ذاتها ، وتحاول أن تجد شكلها في الفكرة ، ولكنها لم تبلغ بعد الثورة النهائية التي تُنبئ كل شيء في السماء وعلى الأرض . بدلاً من تأكيد تحرر حقيقي للانسان ، يخلص الفحص السطحي الى تأكيد الانسان بواسطة ذاته ، وهو تأكيد متزايد الاتساع ، ولكنه يظل ناقصاً دائماً . والحقيقة لو وُجدت ثورة مرة واحدة ، لما عاد هناك تاريخ ، ولو وُجدت وحدة ميمونة وموت قريب . لهذا السبب يستهدف كل الثوريين في النهاية وحدة العالم ، ويتصرفون كما لو كانوا يؤمنون بانتهاء التاريخ .

#### ثورة القرن العشرين

إن أصالة ثورة القرن العشرين تكمن في انها تدعي علانية ولأول مرة تحقيق

الحلم القديم الذي راود آناكارسيس كلوتس<sup>(١)</sup> ، وحدة الجنس البشري ، والتوزيع النهائي للتاريخ في الوقت نفسه . وكما أن حركة التمرد كانت تصب في شعار : « كل شيء أو لا شيء » ، وكما أن التمرد الماورائي كان يريد وحدة العالم ، كذلك نرى الحركة الثورية في القرن العشرين ، وقد وصلت الى اوضح نتائج منطقها ، تطالب والسلاح في يدها بالكلية التاريخية . حينئذ يطالب التمرد بأن يصبح ثورياً ، وإلا تعرض لأن يكون تافهاً أو باطلاً . فالمسألة لا تعود بالنسبة الى المتمرد ان يعيد ذاته مثل ستيرنر، أو أن ينقذ مجرد نفسه بواسطة الموقف<sup>(٢)</sup> ، بل ان يعيد الجنس البشري مثل نيتشه ، ويتكفل بئله الاعلى في انسانية متفوقة لتأمين سلامة الجميع ، بحسب أمنية إيفانز كلرامازوف . ولأول مرة يظهر المأخوذون على المسرح ويظهرون حينئذ أحد أسرار العصر : تماثل العقل وإرادة القوة . لقد مات الإله ، ويجب تبديل العالم وتنظيمه بواسطة قوى الانسان . إن مجرد قوة اللعنة لم تعد كافية فيه ، ولا بد من اسلحة ولا بد من بسط السيطرة على العالم . ليست الثورة - حتى ، بل وخاصة الثورة التي تدعي انها مادية - سوى صليبية ماورائية مغالية .

هدف هذا التحليل

ولكن هل الكلية هي الوحدة ؟ هذا هو السؤال الذي يطلب من هذه الدراسة أن تجيب عليه . ولكننا نرى ان هدف هذا التحليل ليس وصف الطاهرة الثورية - هذا الوصف الذي 'كرر مرات ومرات - ، ولا أن يحصي .. مرة أخرى ايضاً - الاسباب التاريخية أو الاقتصادية الكامنة وراء الثورات الكبرى ، بل هدفه ان يجد في بعض الوقائع الثورية التهمة المنطقية والصور والموضوعات الثابتة للتمرد الماورائي .

إن معظم الثورات تكتسب شكلها وأصلاتها في جريمة قتل . جميعها ، أو

(١) ثوري فرنسي من أصل روسي . أحد مؤسسي دولة العزل . الحرب .  
(٢) درسنا هذه الحالات في الاقسام السابقة (الحرب)



جميعها تقريباً ، كانت قاتلة بشر . ولكن بعضها مارس ، زيادة على ذلك ، قتل الملك وقتل الإله . وبما ان تاريخ التمرد الماوراني بدأ مع المركز ساد ، لذلك يبدأ موضوعنا الحقيقي فقط مع قتلة الملوك ، مع معاصريه ، الذين هاجموا التمجيد الإلهي <sup>(١)</sup> ، دون ان يملكوا بعد الجراءة على قتل المبدأ الخالد <sup>(٢)</sup> . ولكن تاريخ البشر ، آنفاً ، يظهر لنا ايضاً مثل أول حركة تمرد ، حركة العبد .

### تمرد سبارتاكوس

تمرد العبد على السيد

حينما يتمرد العبد على السيد، ثمة انسان يتمرد ضد انسان آخر، على الارض الباغية ، بعيداً عن سماء المبادئ . فتكون النتيجة فقط قتل انسان . إن فتن العبيد ، وانتفاضات الفلاحين ، وحروب الصعاليك ، وتمردات اهل الريف ، تضع في الخط الاول مبدأ تعادل ، حياة مقابل حياة ؛ وهو مبدأ سنجده دائماً ، رغم كل الجارات وكل التعيينات ، في أقصى أشكال الروح الثورية ، في الحركة الارهابية الروسية عام ١٩٠٥ مثلاً .

معنى تمرد سبارتاكوس

إن تمرد سبارتاكوس في نهاية العالم القديم ، وقبل التاريخ المسيحي بعشرات السنين ، هو بهذا الخصوص أنموذجي . نلاحظ أولاً ان المسألة مسألة تمرد محارعين ، أي : تمرد عبيد تذكروا للبارونات الفردية ، ومحكوم عليهم بأن يقتلوا ، أو يقتلوا في سبيل متعة الاسياد . هذا التمرد الذي ابتدأ بسبعين شخصاً ، انتهى بجيش جرار قوامه سبعمون ألفاً من العصاة حطموا خيرة الفائق الرومانية ، وتوغلوا في ايطاليا ليضلحوا نحو المدينة الخالدة <sup>(١)</sup> بالذات . مع ذلك ، لم يأت

(١) ملك الحق الإلهي (المرب)

(٢) الله (المرب)

(٣) روما - الرب .

هذا التمرد ، كما لاحظ اندريه برودومو<sup>(١)</sup> ، بأي مبدأ جديد في المجتمع الروماني. إن النداء الذي وجهه سبارتاكوس اكتفى بأن يعد العיד بـ «حقوق متكافئة» . هذا الانتقال من الواقع الى الحق ، والذي حفلناه في حركة التمرد الاولى ، هو في الحقيقة المكتسب المنطقي الوحيد الذي يمكننا أن نجده عند هذا المستوى من التمرد. فالعاصي يطرح العبودية ويؤكد نفسه مساوياً للسيد . إنه يريد أن يكون سيداً بدوره .

سبب التراجع

إن تمرد سبارتاكوس يوضح دائماً مبدأ المطالبة المذكور . فجيئش العيد يجر العيد، ويدخل فوراً اسياهم القدماء تحت نير عبوديتهم . بل ثمة رواية ، مشكوك فيها في الحقيقة ، تذهب الى ان هذا الجيش نظم معارك مصارعة بين عدة مئات من المواطنين الرومانيين، وأجلس العيد على المدرجات، وهم يهذون فرحاً وهيجاناً . ولكن قتل البشر لا يؤدي الى شيء، اللهم إلا الى قتل المزيد منهم . ولتأمين انتصار مبدأ ، يجب القضاء على مبدأ . إن المدينة الفاضلة التي كان يحلم بها سبارتاكوس ، ما كان بوسعها ان ترتفع إلا على انقاض روما الخالدة وآلمتها ونظمتها . لقد زحف جيش سبارتاكوس في الحقيقة لتطويق روما التي أصابها الذعر ، إذ كان عليها ان تدفع ثمن ما اقترفت من جرائم . ومع ذلك ، في هذه اللحظة الحاسمة ، وامام الاسوار المقدسة ، تجحد الجيش ثم ارتد<sup>(٢)</sup> ، كما لو كان يتراجع امام المبادئ ، امام النظام ، امام مدينة الآلهة . والحقيقة ، بعد الانتهاء من تدمير المدينة ، ماذا يقام محلها ، ما خلا هذه الرغبة المتوحشة في العدالة ، وهذا القلب الجريح المستثار الذي جعل هؤلاء المساكين ينتصبون حتى الآن<sup>(٣)</sup> ؟ على كلر ، انسحب الجيش ، دون ان يحارب ، وقرر اذن

(١) La Tragédie de Spartacus . Cahiers Spartacus

(٢) انظر في الصفحات السابقة تحت عنوان : الثورة والمكرة (المرب)

(٣) ان تمرد سبارتاكوس يرجع في الحقيقة الى برنامج تمردات العيد السابقة . ولكن هذا البرنامج يتلخص في تقسيم الاراضي والفاء العبودية . ولا يمس مباشرة آلهة المدينة .

- بحركة غريبة - ان يعود الى منبت قمرات العيد ، وان يمشي القبرى على طريق انتصاراته الطويل ، وان يرجع الى حقلية . حتى لكأن هؤلاء المحرومين ، وقد أصبحوا وحيدين بعد الآن وعزلاً امام المهام الكبرى التي كانت في انتظـارهم ، واصابهم القنوط امام هذه الساء الواجب مهاجمتها ، عادوا الى أقصى تاريخهم وأدفعه ، على ارض الصرخات الاولى حيث كان الموت سهلاً ميسوناً .

حساب العبد  
وحساب السيد

حينئذ بدأ الانكسار والاستشهاد . وقبل المعركة الاخيرة ، صلب سبارتاكوس مواطناً رومانياً ليحيط رجاله علماً بما ينتظروهم من مصير . وخلال القتال ، وبحركة حائقة لا يسعنا ان لا نرى فيها رمزاً ، حاول هو نفسه دون انقطاع ان يبلغ كراسوس قائد الجحافل الرومانية . انه يريد ان يهلك ، ولكن في مبارزة فردية مع ذلك الذي يمثل ، في هذه اللحظة ، كل الاسياد الرومانيين . انه يقبل بالموت ولكن في اسمى مساواة . انه لن يبلغ كراسوس : فالمبادىء تحارب عن بُعد ، والقائد الروماني يظل منعزلاً . سيوت سبارتاكوس ، كما اراد ، ... ولكن تحت ضربات الجنود المرتفة ، العيد مثله ، والذين يقضون على حريتهم وعلى حريته . أما مقابل المواطن الروماني الوحيد المصاب ، فيعذب كراسوس آلاف العيد . ان الستة آلاف صليبا التي ، بعد الكثير من التبرعات العادلة ، تمتد على طول الطريق من كابو الى روما ، تثبت لجمرة العيد ان لا وجود للتعاذل في عالم القوة ، وان الاسياد يقدرون عن دمهم الخاص اضعافاً مضاعفة .

دور الوسيط  
خلع التجرد

الصليب هو أيضاً عذاب المسيح . يمكننا ان نتصور ان المسيح ، بعد هذه الحادثة ببضع سنوات ، لم يعطف عقاب العبد إلا ليختصر هذه المسافة الفظيعة

التي صارت بعد الآن تفصل المخلوق المهان عن وجه الإله الحقود . انه يقوم بدور الوسيط ، ويتمرض بدوره لأقصى ظلم ، كي لا يقسم التمرد العالم الى قسمين ، وكي ينتقل الألم ايضاً الى السماء وينتشلها من لعنة البشر . فمن ذا الذي يدهش ان يكون الروح الثوري ، إذ اراد بعدئذ تأكيد فصل السماء والارض ، قد بدأ بخلق التجدد عن الألوهية ، وذلك بقتل ممثليها على الارض .

في عام ١٧٩٣<sup>(١)</sup> ، بصورة ما ، انتهت أزمة التمرد وابتدأت الازمنة الثورية ... على مقصلة<sup>(٢)</sup> .

- (١) عام اعدام الملك لويس السادس عشر (المعرب)
- (٢) بما ان هذه الدراسة لا تهتم بروح التمرد ضمن المسيحية ، لذلك لا مكان فيها لطرفات الإصلاح الديني (لويبر وكالمان) ، ولا للتمردات العديدة السابقة ضد السلطة الكنسية . ولكن يمكننا ان هول على الامل ان حركات الإصلاح مهدت لديماغوجية دينية وانها بدأت ، بوجه ما ، ما سينتهي عام ١٧٨٩

## قتل الملوك

قلب مبدأ الحق الإلهي

لقد قتل ملوك قبل ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ بكثير ، وقبل قتل الملوك في القرن التاسع عشر . ولكن رافايك و داميان <sup>(١)</sup> وأقرانها ، كانوا يريدون إصابة شخص الملك ، لا المبدأ . كانوا يسمون مَلِكاً آخر ، أو لا شيء ، ولكنهم لم يكونوا ليتصوروا إمكان بقاء العرش شاغراً على الدوام . إن ١٧٨٩ تقع في مفرق الأزمنة الحديثة ، لأن رجال ذلك الزمان أرادوا ، في جملة ما أرادوا ، أن يقلبوا مبدأ الحق الإلهي ، وأن يدخلوا في التاريخ قوة الانكار والتبرد التي تشكلت في الصراعات الفكرية في القرون الأخيرة ، فأضافوا الى القتل التقليدي للطاغية ، قتل الإله استناداً الى صحيح ورايين . إن الفكر المسمى بالمحدد ، فكر الفلاسفة وفقهاء القانون ، مدّ هذه الثورة <sup>(٢)</sup> بالقوة المعنوية . وكما يصبح هذا المشروع ممكناً ، ويشعر بشرعيته ، وجب أن تقف الكنيسة وهذه هي مسؤوليتها اللامتناهية .. بجانب الأسياد ، آخذة

(١) رافايك : قتل الملك هنري الرابع ، وكان مصيره الاعدام .

داميان : ضرب الملك لويس الخامس عشر بالموسى ، وحكم عليه بالاعدام (المغرب)

(٢) ولكن الملوك اسهبوا فيها ، برفضهم السلطة السياسية على السلطة الدينية تدريجياً ، مهدمين بهذه الصورة مبدأ شرعيتهم بالذات .

على عاتقها إزال العذاب ، وذلك بحركة تفتحت في عاك التفتيش واستمرت في الاشتراك في الذنب مع القوى الدينية . ولم يخطئ مبشليه عندما لم يشأ أن يرى في الملحمة الثورية سوى بطلين اثنين : المسيحية والثورة . أن ١٧٨٩ تفسر ، في نظره ، بالصراع بين العون والعدالة . وعلى الرغم من انه كان يميل ، مع عصره المنطرف ، الى التجريدات الكبرى ، فقد وجد هنا احد الاسباب العبيقة للأزمة الثورية .

#### العدالة والعمون

فلما لم تكن ملكية النظام القديم دائماً استبدادية في حكمها ، فقد كانت ولا شك استبدادية في مبدئها . كانت ملكية تستند الى الحق الإلهي ، أي : لا مرجع بعدها فيما يتعلق بشرعيتها . بيد ان هذه الشرعية كثيراً ما أنكرت ، ولا سيما من قبل البرلمانات . ولكن بماضي هذه الشرعية ، كانوا يعتبرونها ويقدمونها كحقيقة بديهية . فلويس الرابع عشر ، فيما نعلم ، كان حازماً حول هذا المبدأ<sup>(١)</sup> . وساعده في ذلك بوسويه الذي كان يقول للملك : « اتم آلهة » . فالملك ، من احد وجوهه ، الوكيل الإلهي للشؤون الدينية ، وبالتالي للعدالة . انه ، كالله نفسه ، المرجع الاخير لأولئك الذين يعانون البؤس والظلم . أما الشعب فقي وسعه مبدئياً ان يرجع الى الملك ضد مضطهديه . « آه لو كان الملك يعرف ... لو كان القيصر يعرف ... » . هذا هو في الحقيقة الشعور الذي غالباً ما عبّر عنه الشعبان الفرنسي والروسي في فترات البؤس . صحيح -- في فرنسا على الاقل -- ان الملكية عندما كانت تعلم ، كثيراً ما حاولت أن تدافع عن الجماعات الشعبية ضد اضطهاد العطاء والبورجوازيين . ولكن هل كانت هذه هي العدالة ؟ كلا ، من وجهة النظر المطلقة ، وهي وجهة نظر كتاب ذلك العصر . فاذا كان في وسع الفرد التقدم بشكوى الى الملك ، فليس في وسعه التقدم بشكوى ضده ، بوصفه مبدأ . لأنه يمنع مساعدته اذا أراد وحينا

(١) كان شارل الاول متمسكاً بالحق الإلهي لدرجة انه لم يكن يؤمن بلزوم العدل والانخلاص ازاء منكري هذا الحق .

يريد . إن الإرادة المطلقة إحدى خصائص العون الرباني . والملكية في شكلها  
اللاهوتي حكمٌ يريد أن يضع العون فوق العدالة ، تاركاً له دائماً القول الفصل .  
أما إعلان عقيدة النائب الأسقي السافوي<sup>(١)</sup> ، فليس فيه من أصالة سوى أنه  
يُذمّع الله للعدالة ، ويدشن بالتالي بحفاوة ذلك العهد الساذجة بعض الشيء .  
الاربخ المعاصر .

#### مراع العدالة والعون

والحقيقة ، ما أن يجعل الفكر المالحد الله موضوع البحث ، حتى يدفع  
مشكلة العدالة الى المقام الاول . على أن العدالة آنذاك كانت تختلط مع  
المساواة . إن الله بنوجرج ، أما العدالة فينبغي لها ، صكياً تؤكد ذاتها في  
المساواة ، أنت . تسدد اليه الضربة الأخيرة ، بمهاجمتها بمثله على الارض هجوماً  
مباشراً . على كل ، إنه استديم الحق الإلهي أن نعارضه بالحق الطبيعي ، وإن  
نجبره على الساهل معه خلال ثلاث سنوات ، من ١٧٨٩ حتى ١٧٩٢ . فالعون  
لا يسعه أن ينسأهل في النقطة الأخيرة . يمكنه أن يتنازل عن بعض النقاط ،  
ولكن لا يمكنه أبداً أن يتنازل عن آخر نقطة . على أن هذا لا يكفي .  
يعتقد ميشليه أن لويس السادس عشر ، وهو في سجنه ، كان لا يزال يريد أن  
يكون ملكاً . وفي مكان ما ، في فرنسا المبادئ الجديدة ، كان المبدأ المقهور  
مستمراً إذن بين جدران أحد السجون ، بمجرد قوة الوجود والايان . أن  
للعدالة نقطة مشتركة مع العون وهذه النقطة فقط وهي أنها تريد أن تكون  
ثامة ، وإن تسود سيادة مطلقة . وما أن يتنازعا ، فانها يتصارعان حتى الموت .  
قال دانتون الذي لم يكن ملك لياقة الحقوقيين الأدبية : « نحن لا نريد إذانة  
الملك ، بل نريد قتله » . فاذا ما أنكر الله ، في الحقيقة ، وجب قتل الملك .  
إن سان - بوسب ، ديا يبدو ، أمر بقتل لويس السادس عشر ، ولكن عندما

(١) راجع : روسو ، حياته ، فلسفته . تأليف اندريه لاريون . سلسلة « زدى علما »  
رقم ٢٦ - بتورات عويدات

هتف قائلاً : « إن تحديد المبدأ الذي بموجبه ربما سيموت المتهم ، معناه تحديد المبدأ الذي يقوم عليه المجتمع الذي يدينه » ، أثبت أن الفلاسفة هم الذين سيقولون الملك : على الملك أن يموت بإسم العقد الاجتماعي <sup>(١)</sup> .  
ولكن هذا يتطلب التوضيح .

## ١ - الإنجيل الجديد

العقد الاجتماعي والسلطة

العقد الاجتماعي <sup>(٢)</sup> هو قبل كل شيء بحث حول شرعية السلطة . ويمكنه كتاب يتناول الحق لا الوقائع <sup>(٣)</sup> ، لذلك لا يشكل مجموعة من الملاحظات الاجتماعية ، في أي وقت من الأوقات . انه يتكلم في المبادئ ، وبذلك بالذات ، يشكل إنكاراً . ويفترض ان الشرعية التقليدية ، المفترضة بأنها من أصل إلهي ، لم تصبح في حكم المكتسبة . ويشر إذئذ بشرعية أخرى وعيادية أخرى .

والعقد الاجتماعي هو أيضاً كتاب تعاليم ، له نبوة مثل هذا الكتاب ولغته المتمذهبة الجازمة . وبما أن ١٧٨٩ أكملت انتصارات الثورتين الانكليزية والاميركية ، فقد سار روسو بنظرية العقد التي نجدها عند هوبز ، الى نهايتها المنطقية . إن العقد يوسع ويسرد سرداً متمذهباً هذا الدين الجديد الذي جعل إله العقل ، المختلط مع الطبيعة <sup>(٤)</sup> ؛ واعتبر الشعب بمثله على الارض بدلاً عن

(١) ماكان روسو يريد ذلك طبعاً . يجب ان نضع في بداية هذا التحليل ، كي نعطيه حده ، ما اعلنه روسو بجزء : « ليس من شيء على هذه الارض يستحق ان يشترى بدم البشر » .

(٢) راجع تيارات الفكر الفلسفي ، ص ٢٤٧ - المغرب .

(٣) راجع أيضاً : الادب الثوري في القرن الثامن عشر ، تأليف نهاد رضا ص ٦٩ راجع : مقالة في الفناوت . « للنبأ اذن إراحة جميع الوقائع ، لأنها لا تحس الموضوع إطلاقاً » .

(٤) يقصد الموحّد توحداً ذاتياً مع الطبيعة (الطيرة) - المغرب .



الملك ، ناظرآ الى الشعب من خلال مشيئته العامة .

مصدر السلطة

إن المهجوم ضد النظام التقليدي من الواضح بحيث ان روسو يسمى ، منذ الفصل الاول ، لان 'يثبت اسبقية ميثاق المواطنين ( الذي يوطد الشعب ) على ميثاق الشعب والملك ( الذي يوطد الملكية ) . حتى صدور العقد ، كان الله يصنع الملوك الذين كانوا بدورهم يصنعون الشعوب . واعتباراً من العقد الاجتماعي ، صارت الشعوب تصنع نفسها قبل ان تصنع الملوك . أما الله فلم يعد موضوع البحث ، موقتاً . لدينا هنا ، على الصعيد السياسي ، مثل ثورة نيوتون . لم يعد مصدر السلطة اذن في التحكم ، وانما في القبول العام . وبتميز آخر ، لم تعد السلطة ما هي ، بل ما ينبغي لها ان تكون . ولحسن الحظ ، في اعتقاد روسو ، ما هو ، لا يمكن ان يتفصل عما ينبغي له ان يكون . إن الشعب صاحب السيادة ، « لا شيء إلا لأنه دائماً كل ما ينبغي له ان يكون » . إزاء هذه المحاكمة التي تفترض ما يطلب برهانه... ، يمكننا ان نقول ان العقل الذي كان 'يتذرع به آنذاك باصرار ، لا يوفى حقه . وواضح اننا ، مع العقد الاجتماعي ، نشهد ولادة نزعة صوفية ، لأن المشيئة العامة يسلم بها كالله نفسه . يقول روسو : « يضع كل واحد منا شخصه وكل قدرته مشاركة ، تحت الاشراف الأعلى للمشيئة العامة <sup>(١)</sup> » ، ونتلقى بالجملة كل عضو ، كجزء لا يتجزأ من الكل » .

الإله الجديد : المشيئة العامة

هذه الذات السياسية ، وقد أصبحت صاحبة السيادة ، معروفة هي ايضاً كذات إلهية . وهي على كل ، تلك جميع خصائص الذات الالهية . انها معصومة في الحقيقة ، لأن صاحب السيادة لا يسهه ان يريد اساءة الاستعمال . « في ظل شريعة العقل ، لا شيء يفعل بلا سبب » . وهي حرة تماماً ، اذا صبح ان

(١) راجع تيارات الفكر الفلسفي ، ص ٢٤٨ « اساس النظرية » -المعرب

الحرية المطلقة هي الحرية نحو الذات . إن روسو يعلن بأنه أمرٌ مخالفٌ للطبيعة  
 الهيئة السياسية أن يفرض صاحب السيادة على نفسه قانوناً لا يستطيع مخالفته .  
 وهي أيضاً لا توهب ولا تتجزأ ، بل تستهدف أخيراً حل المشقة اللاهوتية  
 الكبرى ، ونعني التناقض بين القدرة الكلية والبواء الإلهية . إن المشيئة العامة  
 مازمة في الحقيقة ، وقوتها بلا حدود . ولكن العقاب الذي ستفرضه على من  
 يرفض الامتثال لها ، ليس سوى طريقة لـ « إجباره على أن يكون حراً » .  
 ويكتمل التأليه حينما يصل روسو ، إذ يفصل صاحب السيادة عن أصله بالدات ،  
 الى تمييز المشيئة العامة عن مشيئة الجميع <sup>(١)</sup> . يمكننا استنتاج ذلك منطقياً من  
 مقدمات روسو . فإذا كان الانسان صالحاً بالطبع ، وإذا كان الطبيعة فيه  
 تتوحد ذاتياً مع العقل ، فسيظهر عن كمال العقل ، ولكن بشرداً واحد : أن  
 يعبر عن أفكاره تعبيراً حراً طبيعياً . إنه إذن لا يعود قادراً على الرجوع عن  
 قراره الذي سيحوم فوقه بعد الآن . المشيئة العامة هي أولاً التعبير عن العقل  
 الكلي ، وهو مؤكد تأكيداً مطلقاً .

لقد وُلد الإله الجديد .

#### العقيدة المدنية

لهذا السبب نجد أن الكلمات التي كثيراً ما تتكرر في العقد الاجتماعي هي  
 كلمات : « مطلق » ، « مقدس » ، « مصون » . إن الهيئة السياسية المعروفة  
 على هذه الصورة ، والتي يُعتبر قانونها بمثابة وصية مقدسة ، ليست سوى بديل  
 عن الهيئة الصوفانية في المسيحية الدنيوية . على كلٍ ، ينتهي العقد الاجتماعي  
 في وصف ديانة مدنية ، ويجعل من روسو سابقاً الى التبشير بالمجتمعات المعاصرة  
 التي لا تزيح المعارضة فحسب ، بل تزيح أيضاً الحياذ . والحقيقة أن روسو هو  
 الاول في الأزمنة الحديثة الذي وضع إعلان العقيدة المدنية ، والاول الذي برز  
 عقوبة الاعدام في مجتمع مدني ، وخضوع الفرد خضوعاً مطلقاً لسلطان صاحب

(١) راجع تبايرات الفكر العلمي . ص ٢٤٩ : « معنى المشيئة العامة » - المحرر بـ

السيادة . « كي لا يذهب المرء ضحية قاتل ، فانه يرضى بالموت اذا اصبح في عداد القتلة » . إنه لتبرير غريب ، ولكنه يقرر تقريراً صارماً بأنه يجب على المرء ان يعرف كيف يموت اذا أمر بذلك صاحب السيادة ، وان عليه - اذا اقتضت الحال - ان يعطيه الحق ضد ذاته . هذا المفهوم الصوفي يبرر صمت سان جوست منذ توقيفه حتى ساعة اعدامه على المقصلة . فاذا ما جرى توضيحه توضيحاً ملائماً ، فانه يفسر تصرف المتهمين المتحمسين خلال المحاكمات التي جرت في عهد ستالين .

ديي جديد ...

ومفاصل جديدة

نحن هنا في فجر ديانة جديدة لها شهادتها ونسائها وقدّسوها . فكما نحسن الحكم على تأثير هذا الانجيل الجديد ، وجب ان نمك فككرة عن اللهجة المستوحاة من إعلانات ١٧٨٩ . ان الأب فوشيه وقف امام عظام الموتى التي اكتشفت في الباسنيل وهتف قائلاً : « لقد أزفت ساعة الكشف والتجلي ، ... إن العظام نهضت لدى سماع صوت الحرية الفرنسية . انها تشهد ضد قرون الاضطهاد والموت ، وتنبئ بتجدد الطبيعة البشرية وحياة الامم » . وتكهن حينئذ قائلاً : « لقد بلغنا وسط الزمان . وقد اينعت رؤوس الطفلة » . لأنها لحظة الايمان المندesh ، الحير ، اللحظة التي يقلب فيها شعب عظيم رائع المقصلة ودولاب التمثيل في فرساي<sup>(١)</sup> . فالمفاصل تبدو كمعابد الدين والظلم . لذلك لا يمكن المدين الجديد ان يتحملها . ولكن ثمة لحظة تحمل ، وحينئذ نرى الدين الجديد ينصب . اذا مسا أصبح ممتدّها بدوره . معابده الخاصة ويتطلب العبادة غير المشروطة . إذ ذاك تعود المفاصل الى الظهور . وعلى الرغم من المعابد والحرية ، وعلى الرغم من عهود العقل واعياده ، لا بد من إقامة قداسات الدين الجديد في الدماء . وفي كل الاحوال ، كي تشير ١٧٨٩ الى بداية سلطات

(١) رأينا نفس الظاهرة في روسيا عام ١٩٠٥ حين طاف الراد سوفيات سان بطرسبرغ بالافئات مطالبين بالغاء عقوبة الاعدام ، وفي عام ١٩١٧ ايضاً .

« الانسانية المقدسة »<sup>(١)</sup> و « سيدنا الجنس البشري »<sup>(٢)</sup> ، يجب أولاً ان يحتفي صاحب السادة الخلع . إن قتل الملك ... الكاهن<sup>(٣)</sup> سينتصر العصر الجديد الذي ما يزال قائماً .

## ٢ - إعدام الملك

سان جوست ومحور برهانه

لقد أدخل سان جوست آراء روسو في التاريخ . فخلال محاكمة الملك ، كان المحور الأساسي لبرهانه يقوم على ما يلي : ليس الملك مصوناً ، ويجب ان يحاكم من قبل المجلس ، لا من قبل محكمة . أما حججه فمدني بها لروسو . لا يجوز لمحاكمة ما ان تقوم بدور القاضي بين الملك وصاحب السادة . ولا يجوز مقاضاة المشيئة العامة أمام قضاة عاديين . إنها فوق الاشياء جميعاً . لقد أعلنت إذن حرمة هذه المشيئة ورفعتها . ومعلوم ان الفكرة الكبرى في المحاكمة كانت ، بالعكس ، حرمة الذات الملكية . وقد تجلى الصراع بين مبدئي العون والعدالة في أقوى صورة له عام ١٧٩٣ ، حيث تقابل حتى الموت مفهومان في الحرمة والرفعة . مها يكن من أمر ، فقد لاحظ سان جوست عظم المدار ، قال : « الروح التي سيدان الملك بموجبها ، ستكون نفس الروح التي سبني بموجبها الجمهورية » .

نظريته الاتهامية

إن الخطاب الشهير الذي ألقاه سان جوست يملك إذن كل مظاهر الدراسة اللاهوتية . « لويس غريب بيننا » ، تلك هي نظرية المتهم الشاب . لو كان هناك عقد ، طبعي أو مدني ، لا يزال قادراً على ان يربط الملك وشعبه ، لكان هناك التزام متبادل ، ولما أمكن لمشيئة الشعب ان تدعي بأنها قاضٍ

(١) فيرجيليو ، سياسي فرنسي اعدم عام ١٧٩٣

(٢) آغا كاريس كوتس ، ثوري فرنسي من اصل بروسي . احد مؤسسي ديانة العقل .

(٣) يقصد : ملك الحق الإلهي (المعرب)

مطلق ، لتصدر الحكم المطلق <sup>(١)</sup> . الماصود إذن هو اثبات عدم وجود صلة  
تربط الشعب بالملك . ولإقامة البرهان على ان الشعب هو في حد ذاته الحقيقة  
الخالدة ، لا بد من اظهار الملكية على انها في حد ذاتها جريمة خالدة . يفترض  
سان جوست إذن كحقيقة بديهية ان كل ملك هو عاصٍ أو مغتصب . إنه  
عاصٍ على الشعب، ويغتصب منه سيادته المطلقة . الملكية ليست ابدأ ملكاً ،  
« انها الجريمة » . انها ليست جريمة ، بل ... الجريمة ، فيما يقول سان جوست ،  
أي انها الانتهاك المطلق . إنه المعنى الدقيق والآخر في الوقت نفسه لكلمة سان  
جوست ، هذه الكلمة التي 'وسّع مدلولها توسيعاً مفرطاً' <sup>(٢)</sup> . ولا احد يستطيع  
أن يتقلد الملك ببراءة ، . كل ملك مذنب ، وبمعز ما يدعي المرء بأنه ملك ،  
يُنذر للموت في الحال .

لويس ليس مواطناً

إن سان جوست يقول غامماً نفس الشيء حينما يثبت بعدئذ ان سيادة الشعب  
« شيء مقدس » . المواطنون هم فيا بينهم مصونون ومقدسون ، ولا يسعهم  
ان يجبروا بعضهم بعضاً إلا بواسطة القانون ، المعبر عن المشيئة المشتركة . لويس،  
وحده، لا يستفيد من هذه الحرمة الخصوصية ومن مساعدة القانون ، لأنه واقع  
خارج نطاق العقد . إنه ليس ابدأ طرفاً في المشيئة العامة ، لأنه ، بالعكس ،  
بحكم وجوده بالذات ، يجدف بهذه المشيئة القادرة على كل شيء . انه ليس  
« مواطناً » ، ... الوسيلة الوحيدة للاسهام في الألوهية الناشئة . « ما الملك  
إزاء أحد الفرنسيين ؟ » .

يجب اذن ان يحاكمكم ، وان يحاكمكم فقط .

.....

(١) يقصد الاعداد (الحرب)

(٢) أو ، على الاقل ، الكلمة التي حدد معناها مسبقاً . وعندما لفظ سان جوست هذه الكلمة ،  
لم يكن بعد ليحرف انه يتكلم سلفاً من اجل نفسه .

ولكن من سيفسر هذه المشيئة وسيصدر الحكم ؟ المجلس ، الذي يملك بحكم نشأته تفويضاً عن هذه المشيئة ، والذي يُسهم - وهو المجمع الماهم - في الألفية الجديدة . هل سيجري بعدئذ الحصول على مصادقة الحكم من قِبَل الشعب ؟ معلومٌ أن مسمى الملكيين في المجلس تناول في النهاية هذه الناحية . بهذه الصورة ، كان بالامكان انقاذ حياة الملك من منطلق الحقوقين - البورجوازيين ، لتُسَلِّم على الأقل لأهواء الشعب العفوية ولشفقته . ولكن سان جوست ، هنا ايضاً ، سار بمنطقه حتى نهاية الشوط واستخدم التضاد الذي ابتدعه روسو بين « المشيئة العامة » و « مشيئة الجميع » . حتى لو صفح الجميع ... فان المشيئة العامة لا تستطيع ذلك . الشعب بالذات لا يستطيع أن يمسح جريمة الطغيان . ألا تستطيع الضحية ، قانوناً ، أن تسحب شكواها ؟ نحن لسنا في حق القانون ، بل في حق اللاموت . جريمة الملك هي في نفس الوقت جريمة ضد النظام الأسسى . الجريمة تُرتكب ، ثم تلاقي التغفران أو العقاب أو النسيان . ولكن جريمة الملكية دائمة . انها مرتبطة بشخص الملك ، بوجوده . ولئن كان المسيح بالذات قادراً على الصفح عن المذنبين ، فانه لا يستطيع ان يغفر للآلهة المزيقة . على هؤلاء أن يزولوا أو ان ينتصروا . وإذا ما صفح الشعب اليوم ، فانه واجدٌ غداً الجريمة كاملة غير منقوصة ، حتى لو كان المجرم نائماً في هدأة السجون .

ليس هناك إذئذ سوى مخرج واحد : « الذي أر لقتل الشعب ، يموت الملك » .

### زوال الآلهة

لم يستهدف خطاب سان جوست سوى سد جميع المنافذ على الملك ، واحداً فواحداً ، إلا المنفذ المؤدي الى المقصلة . فاذا ما قُبلت مقدمات العقد الاجتماعي ، في الحقيقة ، فهذه الأمثلة تكون حتمية منطقياً . وبعده ، أخيراً ، « سيهرب الملوك الى الصحراء ، وستستعيد الطبيعة حقوقها » . عبثاً صوتت حكومة

الاتفاق على تحفظ ، وزعمت انها لا ترى رأياً مسبقاً اذا ما أذانت لويس السادس عشر أو اذا اصدرت لإجراء أمن . كانت آنذاك تتهرب من مبادئها الخاصة ، وكانت تحاول ان تخفي ، بنفاق منكرد ، مشروعاتها الحقيقي ، ونعني إرساء أسس الحكم المستبد الجديد . إن جاك روكان على الاقل مماشياً لحقيقة الساعة إذ سمى الملك بـ «لويس الاخير» ، مدلاً بهذه الصورة على ان الثورة التي سبق لها ان جرت على مستوى الاقتصاد ، كانت تم آنذاك على مستوى الفلسفة ، وانها زوال الآلهة .

لقد هوجمت حكومة ظل الإله عام ١٧٨٩ في مبدئها ، وقضي عليها عام ١٧٩٣ في تجسدها <sup>(١)</sup> . وصدق بريسو <sup>(٢)</sup> إذ قال : « الفلسفة ارسخ صرح في ثورتنا » <sup>(٣)</sup> .

على مفرق التاريخ

في ٢١ كانون الثاني ، يقتل الملك الكاهن ، انتهى ما سمي تسمية ذات دلالة ، عذاب لويس السادس عشر . حقاً انه لمن العار أن يكون القتل العلني لانسان ضعيف طيب ، قد صور على انه لحظة كبرى في التاريخ الفرنسي . هيهات ان تشير هذه المقصلة الى قمة . ولكن هذا لا يمنع ان الحكم على الملك ، بحيثياته ونتائج ، يقع على مفرق تاريخنا المعاصر . انه يمثل نزاع القدسية عن هذا التاريخ ، ورفع التجسد عن الإله المسيحي . حتى الآن ، كان الله يتدخل في التاريخ بواسطة الملوك . ولكن بمثله التاريخي قد قُتل ، ولم يعد هناك ملك . لم يعد هناك إذن سوى صورة إله معزول في سماء المبادئ <sup>(٤)</sup> .

موت لويس الحق الإلهي

في وسع الثوريين أن ينسبوا الى الانجيل . ولكنهم في الواقع سددوا الى

(١) اي : باعدام ملك الحق الإلهي (المرب)

(٢) بريسو : أحد رؤساء الجيروديين ، شربت عنقه عام ١٧٩٣ (المرب)

(٣) حرب مقاطعة اللندة ، الحرب الدينية ، اعطته الحق ايضاً .

(٤) سيكون إله كسط و يعقوي و لمثته .

المسيحية ضريبة فظيعة لم تنهض منها بعد . يبدو حقاً أن اعدام الملك المتبوع ،  
 فيما نعلم ، بمشاهد انتحار وجنون عصبية ، قد جرى بنجاح في وعي للأحداث .  
 ويبدو أن لويس السادس عشر شك أحياناً في حقه الإلهي ، وإن رفض كل  
 مشاريع القوانين التي كانت تمس اعتقاده . ولكن ما إن قدّر أو عرف مصيره ،  
 حتى توحد ذاتياً فيما يبدو - وإن كلامه ليبن ذلك - مع مهمته الإلهية ، كي  
 يقال إن الاعتداء على شخصه يستهدف الملك - المسيح ، التجسد الإلهي ،  
 لا جسد الانسان المذعور . كان كتابه المفضل في سجنه كتاب الاقتداء  
 بالمسيح <sup>(١)</sup> L'Imitation . إن هدوءه وكآل هذا الانسان ، ذي الحساسية  
 المتوسطة مع ذلك ، في لحظاته الاخيرة ، وملحوظاته المادية حول كل ما له  
 علاقة بالعالم الخارجي ، واخيراً خوره القصير على المقصلة ، أمام هذا الطبل  
 الرهيب الذي كان يغطي صوته ، بعيداً جداً عن هذا الشعب الذي كان يأمل  
 أن يسمع نداءه ، ... كل ذلك يدفع الى الاعتقاد أن هذا الذي يموت ، ليس  
 كاتب <sup>(٢)</sup> ، بل لويس الحق الإلهي ، ومعه بصورة ما المسيحية الدنيوية . وكما  
 يؤكد معلم الاعتراف هذا الرباط المقدس بشكل افضل ، دعم لويس في وهنه ،  
 مذكراً لإياه بـ « شبهه » مع إله الألام <sup>(٣)</sup> . حينئذ نقالك لويس السادس عشر  
 نفسه ، عائد إلى كلام هذا الإله ، قال : « سأفجرع كأس الآلام حتى الثمالة » .  
 ثم استسلم مرتجفاً ليدي الجلاد اللثيمين .

### ٣ - دين الفضيلة

التبشير بهاد حديد

ولكن الدين الذي يقضي بهذه الصورة على صاحب السيادة القديم ، عليه

- (١) كتاب غزل من اسم المؤلف ، مكتوب باللغة اللاتينية (المغرب)
- (٢) أطلق هذا الاسم على لويس السادس عشر رسمياً بعد التنازل الملكية (المغرب)
- (٣) المسيح (المغرب)



الآن ان يبنى سلطان الجديد . انه يفتق ابواب الكنيسة ، الأمر الذي يدفعه الى السعي الى بناء معبد . إن دم الآلهة ، الذي يطلع لحظة كاهن لويس السادس عشر ، يبشر بعهد جديد . كان دي ميستري نعت الثورة بأنها شيطانية . ونحن ندرك لأي سبب ، وبأي معنى . بيد ان ميثله كان أقرب الى الحقيقة إذ سمى الثورة مَطْهَرًا . ثمة عصرٌ يدخل في هذا النَّقْص بصورة عمياء ليكتشف نوراً جديداً ، وسعادة جديدة ، ووجه الإله الحقيقي .

ولكن من سيكون هذا الإله الجديد ؟ فلنتوجه بالسؤال الى سان جوست أيضاً .

من الإله القديم  
الى الإله الجديد...

١٧٨٩ ما زالت لا تؤكد ألوهية الانسان ، بل ألوهية الشعب ، بقدر ما تتطابق ميثته مع ميثثة الطبيعة والعقل . فاذا ما عبوت الميثثة العامة عن رأيها بشكل حر ، فلا يسعها ان تكون سوى التعبير الشامل عن العقل . واذا كان الشعب حراً ، فهو معصوم . لقد مات الملك ، وتحطمت سلاسل الطغيان القديم ، لذلك سيعبر الشعب عن الحقيقة كما كانت وتكون وستكون في كل زمان ومكان . انه الهاتف بالقيس ، الذي يجب استشارته لمعرفة ما يتطلبه النظام الابدي للعالم . صوت الشعب ، صوت الطبيعة . ثمة مبادئ خالدة تحكم بمسكنا : الحقيقة ، العدالة ، العقل اخيراً . هوذا الإله الجديد . إن الكائن الاسمي الذي كانت تعبه جموع الفتيات إذ يحتفلن بالعقل ، ليس سوى الإله القديم ، وقد خلع عنه تجسده ، وقطع فجأة عن كل ارتباط بالارض ، وأرسل كالبون في السماء الفارغة ، سماء المبادئ الكبرى . إن إله الفلاسفة والحامين ، المحروم من مثله ، ومن كل وسيط شفيع ، ليس له سوى قيمة برهات . إنه ضعيف جداً في الحقيقة ، لذلك ندرك لماذا اعتقد روسو .. وهو الذي كان يبشر بالتسامح .. انه يجب الحكم مع ذلك على الملحدن بالموت . فكّي

تُعد احدى النظريات ردحاً طويلاً من الزمن ، لا يكفي مجرد الايمان ، بل لا بد ايضاً من وجود شرطة . ولكن مثل هذا الامر سيصبح ضرورياً فيما بعد . أما في ١٧٩٣ فكان الدين الجديد لا يزال بعدُ سليماً ، وحسبنا - على حد قول سان جوست - ان نسوس بحسب العقل . اعتقد سان جوست ان فن الحكم لم يُنجب سوى مسوخ ، لأن الناس ، حتى مجيء سان جوست ، لم يرغبوا في ان يسوسوا بحسب الطبيعة . لقد انتهى زمان المسوخ مع زمان العنف . « إن القلب البشري يسير من الطبيعة الى العنف ، ومن العنف الى الاخلاق » . فليست الاخلاق إذن سوى طبيعة استرجعت اخيراً بعد قرون من الانحراف <sup>(١)</sup> . فلنمنح الانسان قوانين « بحسب الطبيعة وبحسب قلبه » فقط ، فانه لا يعود حينئذ بائساً وفاسداً . إن الاقتراع العام ، اساس القوانين الجديدة ، سيجلب لا محالة اخلاقاً شاملة . « ان هدفنا ايجاد وضع ، بحيث يتحقق ميل عام نحو الخير » .

#### الاخلاق الصورية

إن دين العقل يُرمي أسس جمهورية القوانين بشكل طيعي . أما المشيئة العامة فيعبر عنها بقوانين يجمعها يمثلوها . « الشعب يصنع الثورة ، والمشرع يصنع الجمهورية » . إن النُظُم « الحالدة ، الثابتة ، البعيدة عن مغامرة البشر ، ستسوس بدورها حياة المجتمع ، في وفاق شامل ، ودون تناقض ممكن ، لأن الجميع في امتثالهم للقوانين لا يتناون إلا لذواتهم . قال سان جوست : « خارج نطاق القوانين ، كل شيء عقيم وفان » . إنها الجمهورية الرومانية ، الصورية ، القانونية . ونحن نعرف ككُلف سان جوست بالعهود القديمة الرومانية . فهذا الشاب المنحط الذي كان في مدينة (ريس) يقضي ساعات وساعات ، مغلقاً مصراعي النافذة ، في غرفة ذات بُسْط سوداء ، مزينة بلطخ بيضاء ، كاث يمني النفس بجمهورية اسباطية . كان سان جوست ، مؤلف « أورغانا » القصيدة الطويلة

.....  
(١) أو الفضة .

الخليعة ، يحس بالحاجة الى العفة والفضيلة . وكان يمنع في نظامه اللحم على الطفل حتى السادسة عشرة من عمره ، وكان يحلم بأمة نبأية وثورية . وكان يهتف قائلاً : « منذ الرومان والعالم فارغ » . ولكن أزمته بطولية ذرّ قرنها ، وأصبح يحبي أشخاص امثال كلتون وبروتوس وسكافولا أمراً ممكناً . لقد عادت بلاغة الاخلاقيين اللاتينيين الى الازدهار . وصارت كلمات امثال « الرديئة ، الفضيلة ، الفساد ، تتردد في استمرار في خطابات العصر ، واكثر ايضاً في خطب سان جوست فتثقلها دائماً . أما سبب ذلك فيبسط . إن هذا الصرح الجميل . . وقد أدرك مونتسكيو ذلك من قبل - لم يكن في وسعه الاستغناء عن الفضيلة . وإذ زعمت الثورة الفرنسية بأنها تبني التاريخ على مبدأ طهارة مطلقة ، دشنت الازمنة الحديثة وعصر الاخلاق الصورية في الوقت نفسه .

الفضيلة وظهور مبدأ التمتع

ما الفضيلة في الحقيقة ؟ إنما ، بنظر الفيلسوف البورجوازي آنذاك ، المطابقة مع الطبيعة <sup>(١)</sup> ، أما في السياسة فهي الامثال للقانون الذي يعبر عن المشيئة العامة . يقول سان جوست : « الاخلاق اقوى من الطغاة » . فما هي ذي في الحقيقة قد قتلت لويس السادس عشر . كل عصيان على القانون لا ينشأ إذن عن نقص ، يفترض انه مستحيل ، في هذا القانون ، وإنما عن نقص في الفضيلة لدى المواطن المنشق . لذلك ، ليست الجمهورية مجلس الشيوخ فحسب ، كما يقول سان جوست بقوة ، بل هي الفضيلة . كل فساد اخلاقي هو في الوقت نفسه فساد سياسي والعكس بالعكس . ثمة مبدأ قمع يستقر حينئذ ، تابعاً من العقيدة نفسها . ليس من شك في ان سان جوست كان صادقاً في رغبته في الحب الشامل . لقد حلم حقاً بجمهورية 'نساك' ، بإنسانية يسودها التصافي ، مستسلمة للبراءة الاولى ، تحت رعاية هؤلاء الشيوخ الحكماء ، الذين كانت يُزينهم سلفاً

(١) ولكن الطبيعة كما مجدها عند برناردان دي سان بيير هي نفسها مضابطة لفضيلة مدينة سلفا . العالمية ايضاً هي مبدأ شريدي .

بوشاح مثلث الالوان<sup>(١)</sup> ، وبريشة بيضاء . ومعلوم أيضاً ان سان جوست كان منذ بداية الثورة يتبنى موقفاً ضد عقوبة الاعدام ، مع روبسيير . كان يطالب فقط باللباس القتل لباساً أسود طيبة حياتهم . وكانت يريد قضاء لا يسعى الى « اعتبار المتهم مذنباً » بل الى اعتباره ضعيفاً » ، وهذا لعمرى شيء رائع . وكان يحلم أيضاً بجمهورية غفران ، 'نقر بأنه اذا كانت شجرة الجريمة قاسية فان جذرها لين . ان احدى صيحاته على الاقل صادرة عن الجنان ، ولا يلفها النسيان : « انه لشيء رهيب ان يتعرض الشعب للذاب » . أجل ، إن هذا رهيب ، ولكن القلب يستطيع أن يستشعر ذلك ، وأن يخضع مع ذلك لمبادئه تفترض أخيراً عذاب الشعب .

#### الاحلاق المتفرسة

حينما تكون الاحلاق صورية فلإنما تلتهم وتفترس . وتفسيراً لسان جوست نقول : لا احد يكون فاضلاً براءة . فاعتباراً من اللحظة التي لا 'تحقق فيها القوانين' الوثام ، وتحل الوحدة التي كان على المبادئ ان توجد لها ، اعتباراً من هذه اللحظة من المذنب ؟ جماعة العصاة<sup>(٢)</sup> . من هم العصاة ؟ أولئك الذين ينكرون الوحدة الضرورية ، بنشاطهم بالذات . إن جماعة العصاة تقسم صاحب السيادة . انها إذن عديمة وبجريمة . يجب محاربتها ، ووحدها فقط . ولكن اذا كانت هناك جماعات كثيرة من العصاة ؟ ستحارب جميعاً بلا هوادة . إن سان جوست ينتف قائلاً . « إما الفضائل أو الارهاب » . يجب تصفيح الحرية بالبرونز ، وإن مشروع الدستور في حكومة الاتفاق يذكر حينئذ عقوبة الاعدام . الفضيلة المطلقة مستحيلة ، وجمهورية الغفران تستدعي لا بحالة جمهورية المفاصل . لقد ندّد مونتسكيو بهذا المنطق من قبل ، متهماً إياه بأنه احد اسباب انحطاط المجتمعات ، قائلاً إن سوء استعمال السلطة يصبح اشد حينما لا تنص عليه القوانين . إن

(١) العلم الفرنسي (المعرب)  
(٢) سنسبها أيضاً الشيخ (المعرب)

قانون سان جوست المجرد لم يأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة القديمة قِدم التاريخ نفسه ، ألا وهي ان القانون بحكم ماهيته منذور للانتهاك .

#### ٤ - الاوهاب

اضواء على سان جوست

إن سان جوست ، معاصر الماركيز ساد ، انتهى الى تقرير الجريمة ، رغم انطلاقه من مبادئ مختلفة . ليس من شك في ان سان جوست هو نقيض الماركيز ساد ، ولو أمكن لشمار الأخير ان يكون : « افتحوا ابواب السجون أو اثبتوا طهركم » ، لكن شعار الاول : « اثبتوا طهركم أو ادخلوا السجون » . كلاهما مع ذلك يور إرهاباً ، فردياً لدى الماركيز ساد الفاسق ، وحكومياً لدى سان جوست كاهن القضية . اذا ما وضعنا المنطق اللازم ، في الخير المطلق أو الشر المطلق ، فانها يتطلبان نفس القوة . حقاً إن هناك التباساً في حالة سان جوست . فالرسالة التي كتبها الى فيلان دويني عام ١٧٩٢ تتضمن شيئاً مخالفاً للصواب . إن هذا الاعلان للعقيدة الصادر عن معذب معذب ينتهي باعتراف عصبي . « اذا لم يقتل بروتوس قط الآخرين ، فيقتل نفسه » . إن شخصاً جهاً بإصرار . جامداً بتصميم ، منطقياً ، ثابت الجنان ، يدفعنا الى افتراض كل الاختلالات والبلبلات . لقد ابتدع سان جوست نوعاً من الجدل يجعل تاريخ القرنين الأخيرين رواية سوداء مئة جداً . قال : « من يهزل في رئاسة حكومة ، ينجح الى الطغيان » . انها حكمة مذهشة ( ولا سيما اذا فكرنا ماذا كان آنذاك بمن مجرد الاتهام بالطغيان ) تمهد على كل لعهد المستبدن المتبعين . كانت سان جوست قدوة ، ولهجة نفسها بارة . هذا السيل من التأكيدات الجازمة ، وهذا الاسلوب الآتي بالحكم والحقائق البديهة ، يرسامه خيراً من الصور الأمينة . إن الامثال تهرت كحكمة الامم ، والتعاريف المشككة للعالم تتعاقب كوصايا جامدة واضحة . « على المبادئ أن تكون معتدلة ، والقوانين مقبسة ، والعقوبات نهائية » .

إنه أسلوب المصفاة .

## الوحدة والشيء

على أن مثل هذا التصلب في المنطق يفترض وجود هوى عميق . هنا أيضاً ، كما في المجالات الأخرى ، نجد الكلف بالوحدة . كل فرد يفترض وحدة . إن فرد ١٧٨٩ يطالب بوحدة الوطن . وسان جوست يحمل بالمدينة الفاضلة ، حيث سيظهر الآداب ، وقد تطابقت أخيراً مع القوانين ، براءة الإنسان وتنازل طبيعته فمثلاً ذاتياً مع العقل . فإذا ما عاقت الشيعة هذا الحلم ، فإن الهوى سيبلغ في منطق . وحينئذ لا يدور بخلدنا ان المبادئ . بل ان الشيعة موجودة -- ربما كانت مخطئة . إن هذه الشيعة مجرمة ، لأن المبادئ تظل غير قابلة للمس . « أنت الاوان كي يعود الناس جميعاً الى الاخلاق ، وإن تعود الارستوقراطية الى عهد الارهاب » . ولكن الشيعة الارستوقراطية ليست بالوحيدة ، بل يجب ان نحسب حساب الجمهوريين ، وحساب كل أولئك الذين بوجه عام ينتقدون عمل الجمعية التشريعية وحكومة الاتفاق . أولئك أيضاً هم مذنبون ، لأنهم يحددون الوحدة . إن سان جوست يعلن حينئذ المبدأ الأكبر للحكومات المستبدة في القرن العشرين . « الوطني هو ذلك الذي يدعم الجمهورية جملة ، ومن يجارها بالتفصيل فهو خائن » . من ينتقد فهو خائن . من لا يدعم الجمهورية علانية فهو محط الشبهة . وحينئذ لا يتمكن العقل ولا التعبير الحر للأفراد من ان يرمي دعائم الوحدة ، يجب عقد العزم على إزاحة الاجسام الدخيلة . وعليه ، يصبح الساطور مدلياً بحجج وبراهين ، ووظيفته ان يدحض . « إن المحتال الذي تحكم عليه المحكمة بالاعدام ، يزعم بأنه يريد مقاومة الاضطهاد ... لأنه يريد مقاومة المقصلة » . إن سحق سان جوست لا يفهم جيداً ، لأن المقصلة حتى مجيئه لم تكن إلا رمزاً من أوضح رموز الاضطهاد . ولكن ضمن هذا المذهب المنطقي ، في نهاية اخلاق الفضيلة هذه ، تصبح المقصلة حرة . لأنها تؤمن الوحدة العقلانية ، والانسجام في المدينة . إنها تظهر ( والكلمة صحيحة ) الجمهورية ، وتزيح العيوب التي تخالف المشيئة العامة والعقل

العام . لقد هتف مارا قائلاً : « ينكرون عليّ لقب محب البشر ، ولكن من طراز مختلف تمام الاختلاف . آه ! يا له من ظلم ! من ذا الذي لا يرى انني أريد أن أقطع عدداً معدوداً من الرؤوس لأتخذ عدداً اكبر ؟ » . عدد معدود ، شيعه من الشيع ؟ لا شك في ذلك ، وكل عمل تاريخي يتطلب هذا الثمن . ولكن مارا ، إذ أجرى حساباته النهائية ، طالب بـ ٢٧٣.٠٠٠ رأس . ولكنه أفسد الوجه العلاجي للعملية إذ نادى بالبش والتشكيل : « ادمغوم بالحديد الحامي ، اقطعوا إبهاماتهم ، شقوا لسانهم » . هكذا كان محب البشر يكتب في أرتب كلام ممكن ، ليل نهار ، حول ضرورة القتل من أجل الخلق . وكان ما يزال مكباً على الكتابة في ليالي ايلول ، في اعماق قبوه ، على ضوء شمعة ، حين كان القتل يضعون في ساحات السجون مقاعد النظارة ، الرجال على البمين ، والنساء على اليسار ، ليقدموا لهم ذبح الارستوقراطيين الفرنسيين كأنموذج ظريف عن محبة البشر .

#### الفضيلة والمصلحة

لا نخلطن ابدأ ، ولو لحظة واحدة ، شخصية سان جوست العظيمة مع مارا الثاني ، مقلد روسو ، كما يقول ميشليه بحق . ولكن مأساة سان جوست تكمن في انه ، لأسباب عيسا ، وبدافع حاجة أعمق ، تناغم أحياناً مع مارا .

الشيع تضم للشيع ، والأقليات للأقليات ، وليس بالمؤكد أخيراً ان المصلحة تعمل في خدمة مشيئة الجميع . إن سان جوست سيؤكد على الأقل ، وحتى النهاية ، أنها تعمل من أجل الفضيلة . « إن ثورة كتورتا ليست محاكمة ، بل صاعقة تنزل بالأشرار » . الخير يصنع ، والبراءة تصبح برقاً يفتح الحق . حتى المستمعون ، ولا سيما المستمعون ، هم معادون للثورة . إن سان جوست الذي قال إن فكرة السعادة فكرة جديدة في أوروبا ( والحقيقة انها كانت جديدة ولا سيما بالنسبة الى سان جوست الذي كان يوقف التاريخ عند بروتوس ) ،

فطن الى ان لدى البعض « فكرة رهيبة عن السعادة ، ويخلطونها مع اللذة » .  
 بهؤلاء ايضاً يجب إززال العقاب. أخيراً ، لم تعد المسألة مسألة أكثرية ولا أقلية .  
 إن فردوس البراءة الشاملة المفقود والمرغوب دائماً ، يتعد ؛ وعلى الارض  
 التعيسة ، الممتلئة بصيحات الحرب الاهلية والوطنية ، حكم سان جوست ، خلافاً  
 لذاته ولما دعه ، بأن الناس جميعاً مذنبون حينما يكون الوطن مهدداً . إن  
 سلسلة التقارير حول الشيع الموجودة في الخارج ، والقانون الصادر في الثاني  
 والعشرين من الشهر التاسع من التقويم الثوري ، وخطاب ١٥ نيسان ١٧٩٤  
 حول ضرورة الشرطة ، ... تشير الى مراحل هذا التحول . فهذا الرجل الذي  
 كان بكثير من العظمة يعتبر إلقاء السلاح عاراً ما دام هناك ، في مكان ما ،  
 سيد وعبد ، هو نفسه الذي رضي بأن يبقى دستور ١٧٩٣ معطلاً ، وأن يمارس  
 التحكم المستبد . وفي الخطاب الذي ألقاه دفاعاً عن روبسيير ، أنكر الشهرة  
 والبقاء ، ولم يركن إلا الى عتبة إلهية مجردة . واعترف بالتالي ان الفضيلة التي  
 كان يعتبرها ديناً ، ليس لها من مثوبة سوى التاريخ والحاضر ، وان عليها بأي  
 ثمن كان أن ترمي أركان سلطانها الخاص . لأنه لم يكن يجب السلطة « الباغية  
 الشريرة » التي ، كما قال ، « تثير نحو الاضطهاد ، لولا القاعدة » . ولكن  
 القاعدة هي الفضيلة ، وتصدر عن الشعب . فاذا ما عجز الشعب ، انحولت  
 القاعدة ، وتعاظم الاضطهاد . حينئذ يكون الشعب هو المذنب ، لا السلطة ،  
 التي يلزم أن يكون مبدؤها بريئاً . إن مثل هذا التناقض العظيم الدامي ما كان  
 ليذول إلا بواسطة منطق أكثر تطرفاً ، وبالقبول النهائي للبادئ في الصمت  
 وفي الموت . إن سان جوست على الأقل بقي في مستوى هذا المطلب . هنا ،  
 أخيراً ، كان لا بد له من أن يجد عظيمته ، وهذه الحياة المستقلة في الأحقاب  
 وفي السنوات والتي تحدث عنها بكثير من الانفعال .

#### الصمت والموت

لقد شعر في الحقيقة ومنذ زمن طويل ان مطلبه يفترض تضحية تامة دون



تحفظ ، قائلاً هو نفسه إن أولئك الذين يصنعون الثورات في العالم ، « أولئك الذين يفعلون الخير » ، لا يسعهم النوم إلا في القبر . وإذا أيقن أن على مبادئهم ، كي يكتب لها الظفر ، أن تبلغ ذروتها في فضيلة شعبه وسعادته ، وإذا أحس أنه ربما كان يروم المستحيل ، سدّ على نفسه طريق الانسحاب سلفاً ، معلناً على رؤوس الأشهاد أنه سيطعن نفسه يوم يحل به اليأس من هذا الشعب . وما هو ذا يحل به اليأس مع ذلك ، لأنه يشك في الارهاب نفسه . « لقد تجذبت الثورة ، ووهنت كل المبادئ ، ولم تبق سوى قبعات حمراء تعتبر بها المكيدة . إن ممارسة الارهاب خدّرت الجريمة ، مثلاً تخدّر المشروبات القوية حاسة الذوق . إن الفضيلة بالذات « تتحد مع الجريمة في اوقات الفوضى » . لقد قال إن الجرائم كلها صادرة عن الطغيان ، أول الجرائم جميعاً ؛ وأمام عناد الجريمة الذي لا يكل ، كانت الثورة تهرع نحو الطغيان وتصبح مجرمة . فلا يمكننا إذن انت نهر الجريمة ، ولا الشيع ؛ ولا روح التمتع الرهبة . يجب أن نقطع من هذا الشعب وان نخضعه . ولكن لا يمكننا ايضاً ان نسوس الناس ببراعة . يجب إذن ان نحمل الشر أو ان نخدّمه ، ان نسلّم بأن المبادئ على خطأ أو أن نعتزف بأن الشعب والبشر مذنبون . إذ ذاك يُشيع سان جوست بوجهه المستغلق البهي : « اننا لا نفارق شيئاً ثميناً إذ نفارق حياة يجب ان نكون فيها شركاء الشر ، أو شهداء عليه صامتين » . إن بروتوس الذي كان سيقتل نفسه اذا لم يقتل الآخرين <sup>(١)</sup> ، يشرع بقتل الآخرين . ولكن الآخرين 'كثير ، ولا يمكن قتل الكل . عليه إذن ان يموت ، وان يثبت مرة اخرى ايضاً ان التمرد حيناً يحتمل يتحول من إغناء الآخرين الى افناء الذات . هذه المهمة هي ، على الأقل ، سهلة . حسبنا مرة اخرى ايضاً ان تتبع المنطق حتى نهاية الشوط . ففي الخطاب الذي ألقاه دفاعاً عن روبسبير ، قبل موته بقليل ، أكد سان جوست ثانية المبدأ الكبير في عمله ، وهو المبدأ الذي سيدينه . « لا أمت بالصلة الى أية

(١) نذكر بالجملة التي وردت تحت عنوان : أضواء على سان جوست (المغرب)

شيعة ، وسأحارب الشيع جميعاً . لقد اعترف لإذن سلفاً بقرار المشيئة العامة ، أي بقرار المجلس ، وقبيل بأن يمضي نحو الموت حباً بالمبادئ ، وخلافاً لكل حقيقة واقعة ، لأنه لا يمكن الحصول على رأي المجلس إلا بفصاحة وتعمب إحدى الشيع . ولكن يا للعجب ! متى وهنت المبادئ ، فليس لدى البشر سوى وسيلة واحدة لانقاذها ، وانتقاد اعتقادهم ، وهي ان يموتوا في سبيلها . هكذا ، في حر باريس الخائق في شهر تموز ، إذ أنكر سان جوست الحقيقة الواقعة والعالم علانية ، اعترف بأنه يضع حياته رهن قرار المبادئ . وجنثذ استشف فيما يبدو حقيقة أخرى بشكل عابر ، وانتهى الى تنديد معتدل بـ « بتيو فارين » و « كولود ديروا »<sup>(١)</sup> . « أود لو يبرنا نفسها ، ولو نصبح أكثر تعقلاً » . لقد توقف الاسلوب والمقصلة هنا لحظة . ولكن الفضيلة ليست الحكمة ، لأنها مفرطة في الكبرياء . ان المقصلة ستهبط على هذا الرأس الجليل الجامد كالاخلاق . ومذ أدان المجلس سان جوست الى ان مد رأسه للساطور ، أدخل الى الصمت . هذا الصمت الطويل أهم من الموت بالذات . لقد اشتكى من ان الصمت يخيم على العروش ، ولهذا السبب اراد ان يتكلم كل هذا الكلام الحسن الزافر . ولكنه ، إذ ازدرى الطفيان ولغز شعب لا يتكيف مع العقل المجرد ، عاد هو نفسه الى الصمت . إن مبادئه لا يسعها ان تتلاءم مع ما هو موجود ، والاشياء ليست ما كان ينبغي لها ان تكون . المبادئ هي اذن وحيدة ، صامتة ، ثابتة . والركون اليها معناه الموت في الحقيقة ، معناه الموت بحجب مستحيل هو عكس الحب .

لقد مات سان جوست ، ومات معه الامل بدين جديد .



(١) الاول من الاتفاقيين وقد أسهم في اسقاط روبيير ، والثاني عضو لجنة السلامة العامة وقد اشتهر بميلاته الديماغوجية (المرب)

تصية المبدأ الإلهي

قال سان جوست : « كل الحجارة قد نُحِتَتْ من أجل صرح الحرية .  
بنفس الحجارة تستطيعون ان تبنوا للحرية معبداً ... أو قبرا » . ان مبادئ  
العقد الاجتماعي نفسها هيمنت على بناء القبر الذي جاء نابليون بوناپرت ليرسخه .  
ولم يكن روسو يعدم الدرامة ، لذلك أدرك جيداً ان مجتمع العقد لا يصاح  
إلا للآلهة . وقد رضي خلفاؤه باقتراحه فوراً ، وسعوا الى وضع أسس ألوهية  
الانسان . إن العلم الاحمر ، رمز الحكم العرفي ، وبالتالي رمز السلطة التنفيذية  
في ظل العهد القديم ، اصبح رمزاً ثورياً في ١٠ آب ١٧٩٢ . إنه تحول له  
دلالة ، وقد علق عليه جوريس<sup>(١)</sup> بالصورة التالية : « نحن الشعب ، نحن نختل  
الحق ... لسنا متمردين . المتمردون هم في قصر التويلري » . ولكننا لا نصنع  
آلهة بمثل هذه السهولة . إن الآلهة القديمة بالذات لا تموت من اول ضربة ، وعلى  
ثورات القرن التاسع عشر ان تنهي تصفية المبدأ الإلهي . لقد تمردت باريس ،  
والحالة هذه ، لتعيد الملك تحت قانون الشعب ، ولتمنعه من اعادة سلطة مبدأ .  
وهذه الحجة<sup>(٢)</sup> التي جرتها ثوار ١٨٣٠ عبر ردهات قصر التويلري ، وأجلسوها  
على العرش ليقدموا لها آيات التبجيل المضحكة ، ليس لها مدلول آخر . كان  
لا يزال في وسع الملك آنذاك ان يكون « قائماً بالأعمال » محترماً ، ولكن  
مصدر تفويضه اصبح الآن ككامنأ في الأمة ، أما شريعته فأصبحت كامنة في  
الوثيقة . انه لم يعد صاحب الجلالة . وبما ان النظام القديم زال نهائياً في فرنسا ،  
لذلك بعد ١٨٤٨ ، يجب ان يتوطد النظام الجديد . وإن تاريخ القرن التاسع  
عشر حتى ١٩١٤ هو تاريخ إحياء السادات الشعبية ضد ملكيات النظام القديم ،  
تاريخ مبدأ القوميات . وقد انتصر المبدأ القديم في اوروبا<sup>(٣)</sup> . وفي كل مكان ،

(١) جان جوريس ، احد زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي ، قتل في باريس عام ١٩١٤

(٢) بالنسبة للمجاري (المغرب)

(٣) باستثناء الملكيةاسبانية . ولكن الامبراطورية الالمانية انهارت ، وهي التي قال عنها  
غليوم الثاني انها « الدليل على اننا نحن آل هوهنزولرن ، نتلقى ثأنا من السماء وحدها ،  
واننا لا نهدم الحساب إلا للسماء وحدها » .

حلت سيادة الأمة قانوناً وعقلاً محل الملك العظيم . حينئذ فقط اممكن لتنتائج  
١٧٨٩ أن تتجلى . ونحن الاحياء اول من يستطيع الحكم على ذلك  
بوضوح .

التعميد للديميتين المعاصرتين

لقد حجبّ اليعقوبيون المبادئ الاخلاقية الخالدة ، بنسبة ما ازالوها من  
دعامة هذه المبادئ . وأرادوا ، وهم وعقائهم 'بشرى' ، ان 'يسروا' أسس الاخوة  
على الحقوق الرومانية التجريدية ، فأحلوا محل الوصايا الإلهية ، القانون الذي  
لا بد من ان يعترف به الجميع ، فيما افترضوا ، لأنه المعبر عن المشيئة العامة .  
كان القانون مجرد تبرير في الفضيلة الطبيعية ، وكان يبررها بدوره . ولكن ما  
أن تظهر شيعة واحدة ، حتى تنهار أسس المحاكمة ، وحينئذ نغتنم الى ان الفضيلة  
تحتاج الى تبرير كي لا تكون أبداً فضيلة مجردة . وبالتالي ، إذ سحق الحقوقيون  
البورجوازيون تحت وطأة مبادئهم انتصارات شعبهم العادلة الخيرة ، مهدوا  
للمديميتين المعاصرتين : عدمية الفرد ، وعدمية الدولة .

القانون

يمكن للقانون ان يسود ، في الحقيقة ، ما دام قانون العقل العام <sup>(١)</sup> .  
ولكنه ليس كذلك أبداً ، وان تبريره يزول اذا لم يكن الانسان صالحاً  
بالطبع . وذات يوم تصطدم العقائد بالانفسيات . فلا تعود توجد حينئذ  
سلطة شرعية . ان القانون يتطور إذن حتى يختلط مع الشرع ومع إرادة مطلقة  
جديدة . الى أين تتجه حينئذ ؟ ها هو ذا القانون قد فقد اتجاهه ؛ وهو ، إذ  
يفقد دقته ، 'يصبح أكثر فأكثر' بعداً عن الأحكام ، لدوحة أنه يعتبر كل  
شيء جرمية . إن القانون يظل سائداً ، ولكن لا تعود له حدود ثابتة . كان  
سان جوست قد توقع مثل هذا الاستبداد يجري بإمام الشعب الصامت .

(١) لقد أدرك هيجل ان لفظة الانوار ارادت ان تحرر الانسان من اللاعقلاني . ان العقل  
يجمع البشر الذين يفرونهم اللاعقلاني .

« الجريمة الباردة » تُتصب نفسها ديناً ، ويصبح المختالون في المركب المقدس ، ولكن ذلك أمر لا مفر منه . فاذا لم تكن المبادئ الكبرى صائبة ، وإذا لم يكن القانون معبراً إلا عن اجراء مؤقت ، فانه لا يعود يُسن حينئذ إلا كي يكون موضع تلاعب ، أو كي يُفرض فرضاً . فالمرکز ساد أو الدكتاتورية ، الارهاب الفردي أو ارهاب الدولة ، كلاهما يبرران بنفس انعدام التبرير ، وان هذا احد الاصطفاات المحتومة في القرن العشرين ، وذلك حالما ينفصل التمرد عن جذوره ، ويمحرم نفسه من كل اخلاق واقعية .

#### فساد البورجوازية

ان حركة العصيان التي انبثقت عام ١٧٨٩ لا يسعها مع ذلك ان تقف عند هذا الحد . فانه لم يمت تماماً بالنسبة الى العقوبين ولا بالنسبة الى الرومانسين . انهم ما زالوا محتفظين بالكائن الأسمى . وما زال العقل وسيطاً بصورة ما . انه يفترض نظاماً سابق الوجود . ولكن ، على الأقل ، 'رفع عن الله تجسده' ، واقتصر بوجوده على الوجود النظري لمبدأ اخلاقي . ولم تُسد البورجوازية خلال القرن التاسع عشر كله إلا بكونها الى هذه المبادئ التجريدية . ولكنها كانت أقل جدارة من سان جوست ، لذلك استخدمت هذا المرجع كذريعة ، بماسة في كل ساذجة قبيحاً معاكسة . فساعدت بفسادها الجوهري وريائها المثبط ، على ازالة حظوة المبادئ التي كانت تنادي بها . لمت لئها بهذا الخصوص لامتناه .

#### تمرك العقل العاوي

ما ان توضع المبادئ الخالدة موضع الشك مع الفضيلة الصورية ، وما ان تزول حظوة كل قيمة ، حتى يشرع العقل بالحركة ، ولا يعود يركن إلا الى نجاحاته . إنه يود أن ييسط سلطانه ، منكرأ كل ما كان ، مؤكداً كل ما سيكون . إنه سيصبح غازياً . وإن الشيوعية الروسية ، بنقدها العنيف لكل فضيلة صورية ، انتهت العمل التمردي للقرن التاسع عشر ، منكرة كل مبدأ

علوي . وثلاثة الملوك<sup>(١)</sup> في القرن التاسع عشر ، قتلة الآلهة في القرن العشرين . وقد مضى هؤلاء الى نهاية الشوط في المنطق المتمرد ، وأرادوا أن يجعلوا من الارض الملكوت الذي سيصبح فيه الانسان إلهاً . لقد ابتدأ سلطان التاريخ ، أما الانسان المتوحد توحداً ذاتياً مع تاريخه فقط ، وغير الامين لتمرده الحقيقي ، فسيف نفسه بعد الآن لثورات القرن العشرين العدمية ، هذه الثورات التي ، إذ تتكرر كل اخلاق ، تسمى سعيًا يائسًا وراء وحدة الجنس البشري ، خلال تراكم مرهق في الجرائم والحروب . هكذا تلت الثورة المعقوبة التي حاولت أن تضع دين الفضيلة كي تقيم فيه الوحدة ، الثورات المزدربة للقيم التقليدية ، سواء أكانت ثورات يمينية أم يسارية ، والتي ستحاول ان تفوز بوحدة العالم لتقيم اخيراً دين الانسان .

كل ما كان لله سيرجع بعد الآن الى قيصر .

(١) يمكن ان يكون عنوان القسم : قتلة الملوك ، بدلاً من : قتل الملوك (المغرب)

## قتل الآلهة

استبدال العقل العام

العدالة ، العقل ، الحقيقة ، ... كانت لا تزال ساطعة في السماء العقوبية . وكان في وسع هذه النجوم الثابتة ان تقوم مقام العلامات الهادية . وقد أراد الفكر الالاماني في القرن التاسع عشر ، وخاصة هيجل ، ان يتابع عمل الثورة الفرنسية <sup>(١)</sup> ، بمخذه اسباب الفشل . وخيل لهيغل انه ابصر جيداً ان الارهاب موجود سلفاً في تجريد المبادئ العقوبية . كانت على الحرية المطلقة المجردة ، بنظره ، ان تؤدي الى الارهاب . ان سلطان الحق المجرد يتطابق مع سلطان الاضطهاد . يلاحظ هيجل مثلاً ان الفترة الزمنية الممتدة من الامبراطور الروماني اوكتافيوس الى الامبراطور اسكندر القاسي ( ٢٣٥ بعد الميلاد ) ، هي فترة ازدهار علم القانون ، ولكنها كانت ايضاً فترة أحقد طغيان . فكان لازماً إذن ، لتجاوز هذا التناقض ، ابتغاء مجتمع واقعي ، ينشطه مبدأ غير صوري ، وحيث توفقت الحرية مع الضرورة . لقد استبدل الفكر الالاماني إذن العقل العام ولكن المجرد ، عقل سان جوست وروسو ، بمفهوم ابعد عن الاصطناع ولكنه أكثر التباساً : الكلي الملوس . حتى الآن ، كان العقل يحوم فوق الظواهرات

(١) وان يتابع ايضاً عمل الإصلاح الديني ، ثورة الالمان في اعتقاد هيجل .

التي كانت متعلقة به . وها هو ذا بعد الآن وقد أدمج بمجرى الاحداث التاريخية ، ينيرها بقبسه ويتلقى منها هيكله في الوقت نفسه .

القيم غايات لا علامات

يمكننا ان نقول طبعاً ان هيجل جعل حتى من اللاعقلاني شيئاً عقلانياً . ولكنه في الوقت نفسه منع العقل نبرة مخالفة للصواب ، واسبغ عليه إفراطاً نرى نتائجها ماثلة أمام أعيننا . كما أن الفكر الالاماني ادخل دفعة واحدة في فكرة عصره الثابتة حركة لا تقاوم . فتجسدت الحقيقة والعقل والعدالة فجأة في صيرورة العالم . ولكن العقائدية الالمانية اذ ألقت بهذه القيم في تسارع دائم ، خلطت كينونتها بمحركها ، وحددت اكتمال هذه الكينونة في نهاية الصيرورة التاريخية ، اذا كانت هناك نهاية ... فلم تعد هذه القيم علامات هادية ، بل اصبحت غايات . أما وسائل بلوغ هذه الغايات ، أي : الحياة والتاريخ ، فلا يمكن لأية قيمة موجودة سابقاً أن تثيرها وتهديها . إن قسماً كبيراً من البرهان الهيجلي ، بالعكس ، يكمن في اثبات ان الوجدان الاخلاقي ، في ثقافته ، هذا الوجدان الذي يمثل للعدالة والحقيقة كما لو كانت هذه القيم موجودة خارج العالم ، ... يعيق بالضبط مجيء هذه القيم . إن قاعدة السلوك اصبحت إذن السلوك نفسه الذي ينبغي له ان يجري في الظلمات <sup>(١)</sup> بانتظار الإشراف النهائي . لم يعد العقل الذي ألحقته هذه الرومانسية بها ، سوى هوى ثابت .

الانسان مغامرة

لقد ظلت الاهداف هي هي ، وتعاضل الطموح وحده . اصبحت الفكر حركياً ، والعقل صيرورة وغزواً . لم يعد العمل سوى حساب يجري تبعاً للنتائج لا للبادئ ، وبالتالي اختلط مع حركة دائمة ، وبالصورة نفسها ، انصرفت العلوم في القرن التاسع عشر عن الثبات والتصنيف الذين كانوا يميزان فكر القرن الثامن عشر . وكما حل داروين محل لينيه <sup>(٢)</sup> ، كذلك حل فلامنة الجدلية

<sup>(١)</sup> لعدم وجود علامة هادية (الحرب)

<sup>(٢)</sup> عالم سويدي . اعطى مصلياً للنباتات (الحرب)



الدائمة محل بناء العقل المنسجمين العقيمين<sup>(١)</sup> . الى هذا العهد يرجع تاريخ الفكرة ( هذه الفكرة المعادية لكل الفكر القديم الذي كان بالعكس يلتقي جزئياً في الفكر الثوري الفرنسي ) القائلة إن الانسان لا يملك طبيعة بشرية معينة بشكل نهائي ، وانه ليس مخلوقاً كاملاً ، بل مغامرة يمكنه ان يكون صانها جزئياً . مع نابليون وهيجل ، الفيلسوف النابليوني ، يبدأ زمان الفعلية .

حتى مجيء نابليون ، اكتشف البشر مجال الكون . واعتباراً من نابليون ، اكتشفوا زمن العالم والمستقبل . ونتيجة لذلك سيتحول الفكر المتمرد تحولاً عميقاً .

اضواء على التكبير هيجل

من الغريب ، على كل ، ان نجد إنتاج هيجل في هذه المرحلة الجديدة من روح التبرّد . والحقيقة ان كل انتاجه يعبر ، برّجه ما ، عن الثغور من اختلاف الآراء : فقد أراد ان يكون الفكر الموفّق . ولكن ذلك ليس سوى احد وجوه مذهب ، يُعتبر بطريقته أغض ما في الانتاج الفلسفي . وبقدر ما اعتقد هيجل ان كل ما هو وجود فهو معقول ، برّر كل مجازفات الفكر حول الوجود . ان ما سمي النظرية المنطقية الجامعة عند هيجل ، هو تبرير للأمر الواقع . ولكن نظريته المأساوية الجامعة تمجد أيضاً الدمار في ذاته . كل شيء يوفّق ويأتلف في الجدلية . ولا يمكننا ان نفترض قضية دون ان تنبجس القضية الأخرى المناقضة لها . يوجد لدى هيجل - كما في كل فكرة عظيمة - ما يلزم لتقويم هيجل . ولكن قلما يقرأ الناس الفلاسفة بالعقل وحده ، وغالباً ما يقرأون بالقلب والأهواء ، وهذه لا توفّق شيئاً .

ثوريو القرن التاسع عشر

عن هيجل ، على كل ، استمد ثوريو القرن التاسع عشر العدة التي هدمت المبادئ الصورية للفضيلة تديماً نهائياً . لقد استبقوا منها القول بتاريخ بلا

(١) أي : حلّ لفلسفة أمثال هيجل وماركس محلّ لفلسفة أمثال كمنط (المغرب)

استشراف ، يتلخص في انكار دائم وفي صراع لإرادات القوة . إن حركة عصرنا الثورية هي أولاً ، من وجهها الانتقادي ، تنديدٌ عنيف بالرياء السوري الذي يتحكم بالمجتمع البورجوازي . هذا وإن ادعاء الشيوعية الحديثة المعقول جزئياً ، كادعاء الفاشية الأتفه ، هو التنديد بالتمعية التي تقصد الديمقراطية البورجوازية ومبادئها وفضائلها . كان الاستشراف الإلهي حتى عام ١٧٨٩ يفيد في تبرير الاستبداد الملكي . وبعد الثورة الفرنسية ، صار استشراف المبادئ السورية - العقل أو العدالة - ، يفيد في تبرير تسلط غير عادل وغير معقول . هذا الاستشراف هو إذن قناعٌ يجب رفعه . لقد مات الإله ، ولكن مثلما تكن ستونز - يجب القضاء على أخلاق المبادئ حيث لا تزال ذكرى الإله باقية . إن كره الفضيلة السورية ، الشاهدة المنحطة على الألوهية ، شاهدة الزور في خدمة الظلم ، ظلّ إحدى وسائل التاريخ الحالي . لا شيء طاهر ، ... هذه الصيحة تبليبل العصر . الدّيس ، ... وبالتالي التاريخ ، سيصبح القاعدة وستسلّم الأرض المغفرة للقوة المجرّدة التي ستحكم ، أو لا ، على ألوهية الانسان . وحينئذ ندخل في الكذب وفي العنف ، مثلما ندخل في الدين ، ونفس الحركة المؤثرة .

سان جوست وهغل

ولكننا مدينون لهغل بأول انتقاد اسامي للوجدان الصالح ، ومدينون له بالتنديد بالنفس السامية وبالمواقف غير الفعالة . هذا وقد اعتبر عـائدي الحق والجمال والخير ديانةً منّ ليس لهم دين . وفي حين نرى ان وجود الشّيع يدesh سان جوست ، ويتخالف ما يؤكد من نظام مثالي، نرى هغل لا يدesh للأمر . ليس ذلك فحسب ، بل يؤكد ان الجماعة المخالفة هي في مستهل الفكر . كل الناس فاضلون بنظر اليعقوبي . أما الحركة التي انطلقت من هغل وتنتشر اليوم ، فتفترض بالعكس ان ليس من فاضل ، ولكن الجميع سيصبحون فاضلين . في البدء ، كل شيء حبّ يريه بنظر سان جوست ، وكل شيء مأساة بنظر هغل .

ولكن ذلك يعني نفس الشيء في النهاية . يجب تحطيم أولئك الذين يهدمون الحب البريء، أو يجب ان نهدم في سيل خلق الحب البريء . في كلتا الحالتين، يغطي العنف كل شيء .

إن مجاوزة الارهاب التي شرع بها هيجل تؤدي فقط الى توسيع الإرهاب .

تكييف الوجه الفلسفي

ليس هذا كل ما في الأمر . فالعالم الحالي لم يعد في وسعه ان يكون ، على ما يظهر ، سوى عالم سادة وعبيد . ذلك ان العقائدات المعاصرة ، العقائدات التي تبدل وجه العالم ، تعلمت من هيجل ان تتصور التاريخ تبعاً لديالكتيك : « سلطة السيد » و « العبودية » . فإذا لم يكن هناك تحت السماء المقفرة ، في صبيحة العالم الاولى ، سوى سيد وعبد ، بل اذا لم يكن هناك من الله العلي الى البشر، سوى علاقة سيد بعبد، فلا يمكن ان يكون هناك في العالم سوى قانون القوة . ولم يكن في وسع أحد سوى إله أو مبدأ فوق السيد والعبد، أن يتوسط حتى الآن ، وان يجعل تاريخ البشر لا يختصر فقط في تاريخ انتصاراتهم أو اندحاراتهم . ولكن جهود هيجل ، ثم الهيجليين ، انصرف متزايداً الى تهديم كل استشراف وكل شوق الى الاستشراف Transcendence . وعلى الرغم من اننا نجد عند هيجل اكثر بكثير مما عند الهيجليين اليساريين الذين تغلبوا عليه في النهاية ، فانه مع ذلك يقدم ، عند مستوى ديالكتيك السيد والعبد ، التبرير الحاسم لروح القوة في القرن العشرين . إن المنتصر بحق دائماً ، وهذه هي احدى العبر التي يمكن استخلاصها من اكبر مذهب فلسفي ألماني في القرن التاسع عشر . طبعاً هناك في البناء الهيجلي العجيب ما يلزم لمناقضة هذه المعطيات جزئياً . ولكن عقائدية القرن العشرين لا ترتبط بما يسمى اصطلاحاً مثالية أستاذ جامعة إينينا<sup>(١)</sup> . إن وجه هيجل ، الذي يعود الى الظهور في الشيوعية الروسية ، قد أعيد تكييفه تبعاً من قبل دافيد شتراوس ، برونو باور، فوردباخ ، ماركس ،

(١) من هيجل استاذاً في جامعة إينينا عام ١٨٠١ (المغرب)

وكل اليسار الهيفلي . ولا يهتما احد سواء هنا ، لأنه هو وحده الذي جثم على تاريخ عمرنا . فلئن استخدم نيتشه وهيجل ككذبة لسادة<sup>(١)</sup> داشو و كاراغنده<sup>(٢)</sup> ، فان ذلك لا يدين فلسفتها كلها . ولكن ذلك يدفع الى الظن بأن احد وجوه افكارهما أو منطقهما كان في وسعه ان يؤدي الى هذه النهايات الرهيبة .

## فينومينولوجيا الذهن

اصرة عامة

العدمية النيتشوية منهجية<sup>(٣)</sup> ، وفينومينولوجيا الذهن<sup>(٤)</sup> لها أيضاً طابع تربوي . فهي ، عند نقطة التقاء قرنين<sup>(٥)</sup> ، تصف تهذيب الشعور - في مراحل - وهو يسير نحو الحقيقة المطلقة . إنها إميل<sup>(٦)</sup> ما ورائي<sup>(٧)</sup> . كل مرحلة هي خلال ، وتكون مقرونة بعقوبات تاريخية تكاد تكون دائماً شؤماً ، إما على الشعور ، أو على الحضارة حيث ينمكس . إن هيجل يود ان يبين ضرورة هذه

(١) لقد وجدوا نفاذ الحق للفلسفة ... في الشرطة البروسية والتابليوية واليعبرية ، أو في المسكرات الانكليزية في افريقيا الجنوبية .

(٢) يقصد حكام المانيا النازية ، وروسيا ، لأن داشو هي مدينة المانية كانت معسكر اعتقال اثناء الحرب العالمية الثانية ، اما كاراغنده فهي مدينة في تازاستان (المغرب)

(٣) اشرا الى هذه النقطة في القسم الخامس ببيتشه (المغرب)

(٤) كتاب هيجل . ولما يلي نذكر ما جاء في كتاب الاستاذ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ٢٦٤ ، حول فينومينولوجيا الذهن . قال : اول كتبه فينومينولوجيا الذهن « اي : وصف الظواهر الذهنية وآثارها في حياة الانسان ، يصف فيه تطور الفرد وتطور النوع ، اي علم النفس وتاريخ المدينة متداخلين حتى ليصعب احياناً كثيرة التمييز بينهما ؛ والكتاب بمثابة مدخل الى « مذهب هيجل » (المغرب)

(٥) عام ١٨٠٧

(٦) إميل : كتاب روسو في التربية (المغرب)

(٧) ان مقاربة هيجل بروسو ذات مدلول . كان حظ الفينومينولوجيا في تناولها كحظ « العدد الاجتماعي » . فقد كبت الفكر السياسي في زمانها . وان نظرية المشيئة العامة عند روسو موجودة ، على كل ، في المذهب الهيفلي .

المراحل المؤلمة . والفينومينولوجيا هي ، من أحد وجوها ، تأمل حول اليأس والموت . ويدعي هذا اليأس انه منهجي ، لأن عليه ان يتجلى في نهاية التاريخ في الرضا التام والحكمة المطلقة . بيد ان هذه التوية يؤخذ عليها انها لا تفترض سوى وجود تلامذة ومتقوين ، وقد فهمت فهماً حرفياً في حين انها بالكلمة أرادت فقط ان تنبئ عن الروح . هذه هي الحال فيما يخص التحليل الشير لسلطة السيد ، والعبودية (١) .

#### الانسان شعور بالذات

يمتد هينغل ان الحيوان يملك شعوراً مباشراً بالعالم الخارجي ، احساساً بالذات ، ولكنه لا يملك الشعور بالذات ، هذا الشعور الذي يميز الانسان . فلا يؤكد الانسان حقاً إلا 'مذ يشعر بنفسه بوصفه شخصاً عارفاً . انه اذن جوهرياً شعور' بالذات . والشعور بالذات ، كما يؤكد نفسه ، عليه ان يتميز عما ليس هو . فالانسان هو المخلوق الذي 'ينكر' ، كي يؤكد كينونته واختلافه .

#### الرغبة تميز الشعور بالذات

ان ما يميز الشعور بالذات عن العالم الطبيعي ليس مجرد التأمل ، حيث يتوحد هذا الشعور بالذات مع العالم الخارجي وينسى نفسه . وانما يتميز بالرغبة التي يستطيع ان يحس بها لزاء العالم . وهذه الرغبة تذكره بنفسه ، إذ 'يظهر هو للانسان ان العالم الخارجي شيء مختلف .

" (١) الكلمات التالية هي شرح مبسط للديالكتيك : سيد عبد . ولا يهنا هنا سوى نتائج هذا التحليل . لذلك نرات لنا ضرورة شرح جديد يظهر بعض الاتجاهات بدلاً من غيرها . وفي الوقت نفسه ، يربح هذا كل شرح لابد . ولكن ان يكون صعباً ان نرى ان الهامة اذا كانت تستمر منطقياً ، بواسطة بعض الوسائل المصطنعة ، فلا يسما ان تصبو الى وضع علم ظاهرات ، وذلك بمقدار ما تستند الهامة الى سيكولوجيا اعتباطية . ان منفعة ولعالية النقد الذي وجهه كيركغارد الى هينغل هو انه يستند غالباً الى السيكولوجيا . مما يكن من أمر ، فان هذا لا يقلل من قيمة بعض تحليلات هينغل الزائفة .

الشعور بالذات إنكار

وفي رغبته ، يتراءى له العالم الخارجي كشيء موجود وليس في حياته ، ولكنه يريد أن يمتلكه كما يوجد هو ، وان لا يعود العالم موجوداً . إن الشعور بالذات هو إذن بالضرورة رغبة . ولكن ينبغي له ان يرتوي كما يوجد ، ولا يسهه ان يرتوي إلا بإرواء رغبته . انه يقوم إذن بعمل لإرواء نفسه ، وإذا فعل ذلك ، 'ينكر' ويزيل الشيء الذي به يرتوي . إنه إنكار .

الآخرون يولدونا

القيام بعمل ، يعني الإفناء في سبيل توليد حقيقة الشعور الروحية . ولكن إفناء غرض فاقده الشعور ، كاللحم مثلاً ، في فعل الأكل ، هو عمل يقوم به الحيوان أيضاً . عملية الاستهلاك لا تعني بعداً اننا بصدد شعور . يجب ان تتوجه رغبة الشعور الى شيء غير الطبيعة فاقدة الشعور . والشيء الوحيد في العالم ، الذي يتميز عن هذه الطبيعة ، هو بالضبط الشعور بالذات . يجب إذن أن يرتوي الشعور بالذات بشعور آخر بالذات . ومعنى ذلك ان الانسان لا 'يعترف' به ولا يعرف نفسه كالإنسان ، ما دام يكتفي بأن يعيش عيشة الحيوان . انه بحاجة الى اعتراف الآخرين به . كل شعور هو ، في مبدئه ، رغبة في ان 'يعترف' به كشعور من قبل الشعور الأخرى . إن الآخرين هم الذين 'يولدونا' . وفي المجتمع فقط ، نكتسب قيمة انسانية أعلى من القيمة الحيوانية .

المغامرة بالحياة

بما أن أسمى قيمة بنظر الحيوان هي المحافظة على الحياة ، لذلك على الشعور أن يتسامى الى ما فوق هذه الغريزة كما يكتسب القيمة الانسانية . عليه ان يكون قادراً على المغامرة بالحياة . على الانسان كما يعترف به شعور آخر ، أن يكون مستعداً للمغامرة بحياته ، وان يقبل باحتمال التعرض للموت . إن العلاقات الانسانية الاساسية هي بالتالي علاقات نفوذ محض ، وصراع ابدى يرضى بالموت ، في سبيل اعتراف الواحد بالآخر .

اعتراف الجميع بالجميع

في المرحلة الاولى من جدليته ، يؤكد هيغل ما يلي : بما ان الموت عامل مشترك بين الانسان والحيوان ، لذلك يتميز الاول على الثاني بقبوله الموت ، بل بإرادته إياه . في صميم هذا الصراع الأولي من أجل الاعتراف ، يتوحد الانسان إذن توحداً ذاتياً مع الموت العنيف . « مُتْ » و « كُنْ » ، هذه الحكمة التقليدية قد رجع اليها هيغل . ولكن « كُنْ » ما انت ، افسحت المجال لـ « كُنْ ما لستَ بعدُ » . إن هذه الرغبة الأولية والمجنونة في الاعتراف ، والتي تختلط مع ارادة الوجود ، لن تشفي غلتها إلا باعتراف يتوسع توسعاً تدريجياً حتى يشمل اعتراف الجليل . وبما ان كل واحد يريد ان يعترف به الجميع ، لذلك ان يتوقف الصراع من أجل الاعتراف إلا باعتراف الجميع من قبل الجميع ، والذي يميّن نهاية التاريخ . ان الكينونة التي يسمى الشعور الهينلي للحصول عليها ، تولد في مجد مرافقة جماعية لا تقال إلا بصعوبة .

الصراع من اجل السلطان

يجدر بنا ان نشير الى ان الخير الأسمى ، في الفكر الذي ألمه ثوراتنا ، لا يتطابق إذن مع الكينونة ، وإنما مع تظاهر مطلق . بها يكن من أمر ، فليس تاريخ البشر كله سوى صراع طويل حتى الموت ، من أجل الحصول على التفرد الكلي والسلطان المطلق . انه ، بذاته ، تسلطي . نحن الآن بعيدون عن المتوحش الصالح الذي تحدث عنه القرن الثامن عشر ، وبعيدون عن العقد الاجتماعي ، ففي جلبة القرون وفورتها ، أصبح كل شعور يود موت الآخر ، كما يوجد هو . أضف الى ذلك ان هذه المأساة الحفودة عبثية . ففي حالة إفناء شعور ، يظل الشعور المظفر غير معترف به ، لأنه لا يمكن ان يعترف به من قبل شعور لم يعد موجوداً . والحقيقة ان فلسفة التظاهر<sup>(١)</sup> نجد هنا نهايتها .

(١) رأينا في الصفحات السابقة ان الآخرين م المرأة (الحرب)

شعور السيد وشعور العبد

لو أنه لم يوجد منذ الاصل ، بحكم ترتيب يمكن اعتباره ميوّناً بالنسبة الى المذهب الميغلي ، نوعان من الشعور احدهما لا يملك الجرأة على التخلي عن الحياة ، ويرضى إذن بأن يعترف بالشعور الآخر ، دون ان يعترف هذا الاخير بالأول ، ... نقول : لو ان ذلك لم يوجد ، لما وُلدت إذن أية حقيقة انسانية واقعة . إنه إذن يوافق على أن يُعتبر كشيء . هذا الشعور الذي يتخلى عن الحياة المستقة ، حفاظاً على الحياة الحيوانية ، هو شعور العبد . أما الشعور الذي يُعترف به وينال الاستقلال ، فهو شعور السيد . انها يتميزان عن بعضهما بعضاً ساعة يتجاهاان ويرضخ احدهما قبل الآخر . ولا يعود حداً الحيار في هذه المرحلة : الحرية أو الموت ، بل القتل أو الاستعباد . وسينعكس هذا الحيار على باقي التاريخ ، على الرغم من ان العبثية لا تزال إذ ذاك غير محفّقة .

تليل

لا جرم ان حرية السيد تامة إزاء العبد أولاً ، لأن هذا الاخير يعترف بالسيد اعترافاً كلياً ؛ وإزاء العالم الطبيعي بعدئذ ، لأن العبد يحول بميله هذا العالم الى اشياء تتمتع يستهلكها السيد في تأكيد مستمر لذاته . بيد أن هذا الاستقلال ليس مطلقاً . فالسيد ، لسوء حظه ، يعترف به في استقلاله شعوراً لا يعترف به هو نفسه كشعور مستقل . لذلك لا يمكنه ان يروي غلته ، وليس استقلاله سوى استقلال سلبي . إن سلطة السيد طريق مورّطة . فبما انه لا يستطيع ايضاً ان يتخلى عن السيادة وان يعود عبداً ، لذلك يكون مصير السادة الأبدى القتل أو العيش دون إرواء الغلة . إن السيد لا يفيد شيئاً في التاريخ ، اللهم إلا لإحداث شعور العبودية ، الشعور الوحيد الذي يصنع التاريخ حقاً . فالعبد ، والحق يقال ، ليس مقيّداً بوضعه ، بل يريد تبديله . في وسعه إذن ان يهذب نفسه ، بعكس السيد . وما يسمى التاريخ ، ليس



سوى سلسلة الجهود الطويلة المبذولة للحصول على الحرية . وبالعقل ، وبتهويل العالم الطبيعي الى عالم تقني ، يحرق العبد نفسه من هذه الطبيعة التي كانت علة عبوديته لأنه لم يعرف كيف يتسامى عليها بقبول الموت <sup>(١)</sup> . وحتى كربة الموت التي يشعر بها في ذل الصكنونة كلها ، تسبو بالعبد الى مستوى الشمول الانساني . انه يعرف بعد الآن ان هذا الشمول موجود ، ولا يبقى عليه سوى أن يفوز به فخلل سلسلة طويلة من الصراع ضد الطبيعة وضد السادة . فالتاريخ يتوحد إذن توحداً ذاتياً مع تاريخ العمل والتمرد . وليس عجيباً ان نستخلص الماركسية - اللينينية من هذا الديالكتيك المثل الأعلى المعاصر : الجندي - العامل .

وجه آخر من الجدلية

اننا سنهمل وصف مراقب شعور العبودية ( الرواقية ، التشكك ، الشعور البائس ) ، هذه المواقف التي نجدها من بعد في فينومينولوجيا الزمن . ولكن لا يمكننا ان نهمل -- من حيث نتائجها - وجهاً آخر من وجوه هذا الديالكتيك ، ونعني تشبيه العلاقة : ( السيد - العبد ) بعلاقة الإله القديم بالإنسان . إن أحد شراح هيجل <sup>(٢)</sup> يلاحظ ما يلي : لو كان السيد موجوداً حقاً لكان إلهاً . وان هيجل بالذات يسمي سيد العالم بالإله الحقيقي . ويبين في وصفه للشعور البائس ان العبد المسيحي ، اذا اراد انكار مضطهديه ، التجأ الى ما وراء العالم ، واعطى نفسه بالتالي إلهاً جديداً في شخص الإله . وفي موضع آخر ، يوحده هيجل الرب الأعلى توحيداً ذاتياً مع الموت المطلق . إن الصراع يحتدم إذن ثانية على صعيد أعلى ، بين الإنسان المستعبَد والإله الظالم ، إله ابراهيم . أما حل هذا التمزق الجديد بين الإله الكلي والذات الشخصية فيقدمه يسوع المسيح الذي يوفق بين

<sup>(١)</sup> الحقيقة ان الانهام عميق لأننا لنا بصد نفس الطبيعة . قبل يزيح عجم العالم التني الموت او الخوف من الموت في العالم الطبيعي ؟ تلك هي المسألة الحقيقية التي يتركها هيجل معلقة .

(٢) جان هيبوليت : تكوير وبيان فينومينولوجيا الزمن ، ص ١٦٨

الكلي والمفرد . ولكن المسيح هو ، بوجه ما ، جزء من العالم المحسوس . وقد امكنت رؤيته بالعين ، وعاش ، ومات . فهو اذن ليس سوى مرحلة على درب الكلي . هو ايضاً يجب ان ينكّر جدلياً . يجب ان لا يعترف به إلا كإنسان -- إله لنحصل على وحدة تركيبيّة عليا . ويتجاوز الدرجات الوسيطة ، يكفي ان نقول ان هذه الوحدة التركيبيّة ، بعدما تجسدت في الكنيسة و العقل ، ستنتهي بالدولة المطلقة التي سينبئها الجنود - العمال ، وحيث سينعكس روح العالم بذاته في اعتراف الجميع بكل فرد اعترافاً متبادلاً ، وفي التوفيق الشامل لكل ما وُجد تحت الشمس . في هذه اللحظة « حيث تتطابق عين الروح وعين الجسم » ، لن يكون كل شعور سوى مرآة تعكس مرايا أخرى ، هي نفسها معكوسة الى ما لا نهاية في صور منعكسة . وستطابق مدينة الانسان مع مدينة الرب ؛ وان التاريخ العام ، محكمة العالم ، سيصدر حكمه حيث سيبرز الخير والشر . وستصبح الدولة قَدراً وسيُعلن الرضا بكل حقيقة واقعة في « يوم الحضرة الروحي » (١) .



#### تقديم الاستشراف الشاؤول

إن هذا يلخص الافكار الاساسية التي -- على الرغم من التجريد المفرط في الشرح ، أو بسببه -- حركت الروح الثورية في اتجاهات متباينة ظاهراً ، والتي علينا الآن ان نجدها في عقائدية عصرنا . وإذا حلت اللاأخلاقية والمادية العلمية والإلحاد ، نهائياً محل نظرة المتبردين القدامى المعادية للتاليه ، انضمت تحت تأثير هيغل الى حركة ثورية لم تنفصل قط حتى مجيء هذا الفيلسوف عن أصلها الاخلاقي والالهي والمثالي . فلئن كانت هذه الاتجاهات بعيدة عن ان تكون خاصة بهيغل ، فقد نشأت عن إلهام فكرته وعن نقده للاستشراف . لقد حدم هيغل

(١) المصطلح غامض بعض الشيء بسبب الانحراف في التجريد (الحرب)

نهائياً كل استشراف شاقولي<sup>(١)</sup> ولا سيما استشراف المبادئ . تلك هي أصله المؤكدة . ليس من شك في أنه أعاد حلولية الروح الى صيرورة العالم . ولكن هذه الحلولية ليست ثابتة ، ولا تلك أية نقطة مشوكة مع الأحدية Panthéisme القديمة . الروح موجود ، وغير موجود ، في العالم . فيه يحدث ، وفيه سيوجد . لقد أرجئت القيمة إذن الى نهاية التاريخ . ومن الآن الى ذلك الزمان ، ليس من معيار قادر على بناء حكم قيمي ، يجب التصرف والعيش تبعاً للمستقبل . كل اخلاقي تصبح موقفة . إن القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، في ميلها الصيصي ، قرنان حاولا العيش بلا استشراف .

الإذعان والمطابقة مع روح العصر

إن اسكندر كوخيف ، أحد شراح هيجل - وهو من اليساريين والحق يقال ، ولكنه تقليدي في هذه النقطة المعينة - يلاحظ كره هيجل للأخلاقيين ، وأن مبداه الوحيد هو العيش وفق آداب أمته وعاداتها . انها حكمة اذعان اجتماعي أعطى عنها هيجل أكثر البراهين بعداً عن القيم . على ان كوخيف يضيف قائلاً إن هذا الاذعان ليس مشروعاً إلا بمقدار مطابقة هذه الأمة لروح العصر ، أي ما دامت راسخة وما دامت تقاوم الانتقادات والمخالفات الثورية . ولكن من سببت في هذا الرسوخ ، ومن سيعمك على هذه الشرعية ؟ منذ مائة عام والنظام الرأسمالي في الغرب يقاوم هجمات عنيفة . فهل علينا مع ذلك ان نعتبره مشروعاً . ومن جهة اخرى ، هل كان على من اخلصوا للجمهورية واما ان يتخلوا عنها ، وان يعدوا هتلر بولائهم عام ١٩٣٣ لأن الجمهورية انهارت تحت ضرباته ؟ وهل كان لزاماً خيانة الجمهورية الاسبانية ساعة كتب النجاح لنظام الجنرال فرانكو ؟ إنما استنتاجات يبررها التفكير الرجعي التقليدي في منظوره الخاص . ولكن وجه الجدة - التي لا يمكن حساب نتائجها - يكمن في ان الفكر الثوري قد قتل هذه الاستنتاجات . إن إلغاء المبادئ وكل قيمة اخلاقية

(١) الاستشراف الإلهي واستشراف المبادئ المبردة (الحقيقة مثلاً) - الحرب -

واستبدلها بالأمر الواقع ، الملك الموقت ولكن الفعلي ، لم يؤد -- وقد رأينا ذلك جيداً -- إلا الى سفاهة سياسية ، سواء أكانت صادرة عن الفرد أم عن الدولة -- وهذا ما هو أخطر... إن الحركات السياسية أو السياسية المستهتمة من هيجل تلتقي جميعاً في التخلي عن الفضيلة تخلياً بيتناً .

البراءة غريبة عنا

ما كان في وسع هيجل في الحقيقة ان يمنع اولئك الذين قرأوا لتناجيه بقلق غير منهجي ، في اوروبا همزة بالظلم ، من ان يروا أنفسهم في عالم بلا براءة ولا مبادئ ، في هذا العالم الذي قال عنه هيجل انه في حد ذاته خطيئة ، لأنه منفصل عن الروح . ليس من شك في ان هيجل يصفح عن الخطايا في ختام التاريخ . ولكن من الآن الى ذلك الزمان ، ستكون كل عملية أئبة . لا تمثل البراءة إذن إلا في انعدام الفعل ، في كينونة سمجرة ، حتى ولا في كينونة طفل . إن براءة الحجارة هي إذن غريبة عنا . بلا براءة : ما من علاقة ، ما من عقل . بلا عقل : القوة المجردة ، السيد والعبد ، ... في انتظار أن 'تكتب السيادة للعقل ذات يوم . بين السيد والعبد ، يكون العذاب منفرداً ، والابتهاج بلا جذور ، وكلاهما غير مستحقين . كيف العيش إذن ، كيف التحمل ، اذا كانت الصداقة في نهاية الزمان ؟ المخرج الوحيد هو ان نخلق القاعدة والسلاح في يدنا .

الحل الاول : القتل

«القتل أو الاستعباد» . أولئك الذين طالعوا هيجل بنزوتهم الرهيبة وحدها ، لم يستبقوا حقاً سوى الحل الاول من الخيار . فقد اخذوا عنه فلسفة ازدراء وبأس ، معتبرين انفسهم عبيداً ، وعبيداً فقط ، مرتبطين بالسيد المطلق ( الله ) بواسطة الموت ، وبالسادة الأرضيين بواسطة الوسط . إن فلسفة الشعور الخبيث هذه علمتهم فقط ان كل عبد ليس عبداً إلا بالقبول ، ولا يتحرر إلا برفض يتطابق مع الموت . إن اكثرهم كبرياء ، إذ ارتضوا التحدي ، توحدوا تماماً

مع هذا الرفض ونذروا أنفسهم للموت . مها يكن من أمر ، فان القول بأن الإنكار هو في حد ذاته فعل ايجابي ، كان يبرر بلفاً كل انواع الإنكار ويشرح بصرخة باكونين و نيتشايف : « إن مهتنا التهديم ، لا البناء » . فالعدمي ، بنظر هيغل ، كان فقط المنشكك الذي لم يكن له مخرج سوى التناقض أو الانتحار الفلسفي . ولكنه ولد هو بالذات نوعاً آخر من العدميين الذين ، إذ جعلوا من الملل مبدأ عمل ، وحدوا انتحارهم توحيداً ذاتياً مع القتل الفلسفي<sup>(١)</sup> . هنا ولد الارهابيون الذين قرروا انه يجب القتل والموت في سبيل الوجود ، لأن الانسان والتاريخ لا يسعها ان يُخلقا إلا بالتضحية والقتل . هذه الفكرة العظيمة القائلة إن كل مثالية هي جوفاء ما لم يكن ثمة المغامرة بالحياة ، سيسير بها نحو نهاية الشوط فتية<sup>٢</sup> لم يعلموها من فوق كرسي جامعي من قبل ان يدركهم الموت وهم في سريرهم ، بل خكل دوي القنابل وحتى تحت اعداد المشائق . بذلك ، وفي أخطائهم بالذات ، قوّموا معلمهم وبينوا ، خلافاً لرأيه ، أن ثمة ارسطوقراطية ، على الاقل ، أعلى من ارسطوقراطية النجاش البشعة التي أساد بها هيغل . هذه الارستوقراطية هي ارسطوقراطية التضحية .

#### الحد الثاني : الاستبعاد

ثمة نوع آخر من الورثة ، قرأوا هيغل بشكل أكثر جدية ، واصطفوا الحد الثاني من الخيار ، واعلنوا ان العبد لا يتحرر إلا اذا استعبد بدوره . إن المذاهب الما بعد - هيغلية ، إذ نسبت الوجه الصوفي لبعض اتجاهات المعلم ، سارت بهؤلاء الورثة الى الإلحاد المطلق والى المادية العلمية . ولكن لا يمكن تصور هذا التطور دون اختفاء كل مبدأ تفسيري استشرافي اختفاء مطلقاً ، ودون تهديم المثل الأعلى العقوي تهديماً تاماً . ليس من شك في ان الحلولية ليست الإلحاد . ولكن الحلولية في حالة الحركة هي ، ان جاز القول ، إلحاد

(١) هذه العدمية هي ، رغم الظواهر ، عدمية بالمعنى النيتشوي ، بحدار ما هي اقراء على الحياة الحاضرة لى صالح آخرة تاريخية يسمى الى الايمان بها .

موقّت<sup>(١)</sup> . ولن يكون من الصعب طمس وجه الإله المبهم الذي ما زال ، عند هيجل ، ينمكس في روح العالم ، ومن كلفة هيجل المبهمة القائلة : « الله بلا الإنسان ليس أكثر وجوداً من الإنسان بلا إله » ، ... نقول : من كلفة هيجل هذه سيستخلص خلفه نتائج حاسمة . إن دافيد شتراوس في كتابه : « حياة يسوع » ، يعزل نظرية المسيح باعتباره كماله إنسان . أما برونو باور فيضع نوعاً من المسيحية المادية بتركيزه على إنسانية يسوع ، في كتابه : « نقد التاريخ الانجيلي » . أخيراً ، نرى فورباخ ( الذي اعتبره ماركس مفكراً كبيراً واعترف بأنه تلميذه الناقد ) في « جوهر المسيحية » يستبدل كل علم اللاهوت بديانة الإنسان والنوع ، وهي ديانة استأثرت قسماً كبيراً من الفكر المعاصر .

#### ديانة فورباخ

إن مهمتها أن تبين أن التمييز بين « الإنساني » و « الإلهي » مجرد وهم ، وأنه ليس سوى التمييز بين جوهر الإنسانية ، أي : الطبيعة الإنسانية ، والفرد . « ليس لفرز الإله سوى لفرز حب الإنسان لذاته » . وحينئذ تنصاعد نقمات نبوءة جديدة وغريبة : « لقد حلت الذاتية الفردية محل الإيمان ، والعقل محل الكتاب المقدس ، والسياسة محل الدين والكنيسة ، والأرض محل السماء ، والعمل محل الصلاة ، والبؤس محل الجحيم ، والإنسان محل المسيح » . لم يعد هناك أذن سوى جحيم واحد ، وهو في هذا العالم . ومن واجبنا أن نناضل ضد هذا الجحيم . السياسة دين ؟ أما المسيحية الاستشراكية ، مسيحية الحياة الأبدية ، فتزطد سادة الأرض بواسطة زهد العبيد ، وتولّد سيداً آخر في قلب السوات . لهذا السبب ، ليس الاتحاد والروح الثورية سوى وجهي نفس الحركة التحررية .

(١) مها يمكن من امر ، لأن اشتداد كيركفارد ، يقول . إن إقامة اللاهوتية على التاريخ تعني بصورة مفارقة ، إقامة قيمة مطلقة على معرفة تاريخية . ما هو « تاريخي إلى الأبد » يشكّل تناقضاً في اللفظ .

الأصل العدمي لأفكاره

هذا هو الرد على السؤال المطروح دائماً : لماذا توحدت الحركة الثورية توحداً ذاتياً مع المادية وليس مع المثالية ؟ لأن استعباد الله واستخدامه معناه القضاء على الاستشراف العلوي الذي يحافظ على السادة القدماء ، ومعناه — مع صعود السادة الجدد — التمهيد لأزمة الإنسان - الملك . بعد انتهاء البؤس ، وحل التناقضات التاريخية ، « ستصبح الدولة هي الإله الحقيقي ، الإله البشري » ، أما شعار : « الانسان ذئب على الانسان » ، فيصبح حينئذ : « الانسان إله الانسان » هذه الفكرة هي في أصل العالم المعاصر . مع فورباخ ، نشاهد ولادة تساؤل فطيع لا تزال نراه يعمل الآن ، ويبدو انه يختلف اختلافاً تاماً عن اليأس العدمي . ولكن ذلك ليس سوى مظهر . يجب ان نعرف استنتاجات فورباخ الأخيرة في كتابه : «نَسَب الآلهة» ، كي نلاحظ الأصل العدمي لأفكاره المضطربة . والحقيقة ان فورباخ يؤكد ، خلافاً لهيغل ، ان الانسان ليس سوى ما يأكل ، ويلخص فكرته والمستقبل على الصورة التالية : « الفلسفة الحقة هي إنكار الفلسفة . ما من دين هو ديني ، وما من فلسفة هي فلسفتي » .

حينما يولد التاريخ القيم

ان التحال من القيم ، وتأليه التاريخ والمادة ، والارهاب الفردي أو جرمية الدولة ، ... كل هذه النتائج المتطرفة ستنشأ ، شاكية السلاح ، عن نظرة مبهمة الى العالم تعهد الى التاريخ وحده بمهمة توليد القيم والحقيقة . فاذا استحال تصرر أي شيء بوضوح قبل ان يخصص الحق في ختام الزمان ، غدا كل عمل اعتباطياً ، وكتبته السيادة للقوة اخيراً . لقد هتف هيغل قائلاً : « اذا كانت الحقيقة لا تدرك ، وجب علينا وضع مفاهيم لا تدرك » . إن مفهومها لا يدرك ، يحتاج ، كالحلال ، لأن يبتدع ابتداءً . ولكن ، كما يلقى القبول ، لا يمكنه ان يعمل على الاقناع الذي هو من مصاف الحقيقة ، ولا بد له إذن من ان يفرض فرضاً في النهاية . إن موقف هيغل يكمن في قول ما يلي :

هذه هي الحقيقة التي تتراءى لنا مع ذلك انها ضلال ، ولكنها حقة لأنها عرضة للضلال . أما البرهان فما انا ، بل التاريخ هو الذي سيدلي به ، في نهايته . مثل هذا الادعاء لا يمكنه ان يولد الا موقنين : إما توقيف كل تأكيد دينياً يدلى بالبرهان ، أو تأكيد كل ما يبدو في التاريخ انه منذور للنجاح ، والقوة في الطبيعة . وفي كلتا الحالتين ، لا يمكنه ان يولد إلا العدمية . مهما يكن من أمر ، فانتا لا تفهم الفكر الثوري في القرن العشرين اذا اهتمنا ان هذا الفكر ، بفعل حظ عاثر ، قد استبد جزءاً كبيراً من إلهامه من فلسفة إذغائية انتهازية . ان التبرد الحقيقي لا يوضع موضع اللوم والالتهام بسبب فساد هذا الفكر .

حاج هينل الحاطي.

ولكن ما مبرر لهيغل بهذا الادعاء ، هو الذي يجعله فكرياً والى الابد محط الشبهة . فقد اعتقد ان التاريخ قد انتهى عام ١٨٠٧ بمجيء نابليون وبجيئه هو ، وان التأكيد صار بالإمكان والعدمية في خذلان . إن فينومينولوجيا الذهن ، هذا الكتاب المقدس الذي لم يتنبأ إلا بالماضي ، وضمت حداً للزمان . في عام ١٨٠٧ شملت الخطايا بالفقران ، وانتهت العصور والازمان . ولكن التاريخ استمر ... ومنذئذ ثمة خطايا أخرى تصرخ في وجه العالم وتبرز خزي الجرائم القديمة التي غفرها الفيلسوف الالماني الى ابد الدهر . ان تأليه هيغل لنفسه ، بعد تأليه نابليون الذي اصبح بريئاً لأنه نجح في تثبيت التاريخ ، لم يدم في الحقيقة سوى سبع سنوات . وبدلاً من التأكيد الكلي ، غطت العدمية العالم . إن للفلسفة معاركها الخاسرة ، حتى لو كانت فلسفة عبودية .

استمرار ارادة الألوهة

ولكن لا شيء يستطيع ان يشبط ارادة الألوهة في قلب الانسان . ثمة آخرون جاءوا وما زالوا يجيئون ، وإذ ينسون المعارك الخاسرة ، يزعمون دائماً لإنهاء التاريخ . ان ألوهة الانسان ما زالت سائرة ، ولن تصبح معبودة إلا في



ختام الزمان . يجب خدمة هذه الرؤيا ؛ ونظراً لعدم وجود إله ، يجب بناء الكنيسة على الأقل . سها يكن من أمر ، فان التاريخ الذي لم يتوقف بمد ، يشف عن أفق قد يكون أفق المذهب الميغلي ، لا شيء الا لأن أبناء ميغل الروحيين يجرونه مؤقتاً ان لم يكونوا يوجهونه . لما فتكت الكوليرا بميغل وهو في أوج مجده ، كان كل شيء مرتباً في الحقيقة لما سيتلو من أحداث . فالسما فارغة ، والارض مسلّمة للقوة المجردة من المبادئ .

الذين اصطفوا القتل ، والذين اصطفوا الاستعباد ، سيحتلون تباعاً واجهة المسرح بإسم تمرّد حوّل عن حقيقته .

## الارهاب الفردي

نضال المقتدين

لاحظ يوزاريف ، فيلسوف العدمية الروسية ، أن الاطفال والشباب اكثر الناس تعصباً . وهذا صحيح ايضاً فيما يتعلق بالأمم .

كانت روسيا آنذاك أمة فتية أظهرها الى حين الوجود ، منذ حوالي قرن ، قيصر كاث لا يزال على حد كاف من السذاجة بحيث كان يقطع هو بالذات رؤوس المتبردين . فليس عجباً انها سارت بالفكر الالاماني الى حدود التضحية والدمار ، هذه الحدود التي لم يتمكن الاساتذة الالمان من بلوغها إلا بالذهن . لقد نراهى لستاندال اختلاف أول بين الالمان والشعوب الاخرى ، ألا وهو أن التأمل يدفعهم الى التحمس بدلاً من أن يدفعهم الى السكينة . وهذا صحيح أيضاً ، ولكن بشكل أكثر ، بالنسبة الى روسيا . ففي هذه البلاد الناشئة التي لم تكن تلك تقاليد فلسفية<sup>(١)</sup> ، ثمة فتية ، بمثابة اخوة لطلاب لوترياموف الداميين ، تمسكوا بالفكر الالاماني ، وجسدوا نتائجه في الدماء . فقد تسلمت

(١) يلاحظ يوزاريف نفسه ان الحضارة ، في عدتها العقائدية ، قد استوردت في روسيا دائماً .  
راجع : ارمان كوكار ، يوزاريف وعقائدية العدمية الروسية .

« بوليتاريا من حملة البكالوريا »<sup>(١)</sup> حركة تحرير الانسان العظمى لتكسيبها وجهاً أكثر انفعالاً . وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم يتجاوز عدد هؤلاء الشبان بضعة آلاف . ومع ذلك ، بفردهم ، تجاه أهلك 'حكم استبدادي آنذاك ، استزموا تحرير أربعين مليوناً من الفلاحين المعدمين ( الموجيك ) ، وبصورة مؤقتة اسهموا حقاً في تحريرهم . وقد دفع معظمهم ثمن هذه الحرية بالانتحار أو الاعدام أو السجن أو الجنون . إن كل تاريخ الارهاب الرومي يمكن أن يتلخص في نضال حقنة من المثقفين ضد الطغيان ، بمشهد من الشعب الصامت . وقد تعرض ظفرهم المنهوك للضيانة في نهاية المطاف . ولكنهم ، بتضحياتهم ، وحتى بمواقفهم المفرطة في الإنكار ، جسدوا قيمة أو فضيلة جديدة لم تكف حتى في يومنا هذا عن مجابة الطغيان ، وعن مؤازرة التحرير الحقيقي .

جرمنة روسيا

لم تكن جرمنة روسيا في القرن التاسع عشر حادثاً منعزلاً . فقد كانت الفكر الالاماني آنذاك ذا تأثير راجع ، ونحن نعرف مثلاً معرفة كافية ان القرن التاسع عشر في فرنسا ، مع ميشله وكيينه ، كان قرن الدراسات الالمانية . ولكن هذا الفكر لم يصادف في روسيا فكرة مكومة في السابق ، بينما اضطر في فرنسا الى مغالبة الاشتراكية المتحزبة للحرية المطلقة والى التوازن معها . في روسيا ، كان هذا الفكر في ارض مفتتحة مقهورة . فأول جامعة روسية ، جامعة موسكو ، التي أسست عام ١٧٥٠ ، كانت ألمانية . إن استثمار روسيا استثماراً بطيئاً من قبل المربين والموظفين والعسكريين الالمان ، بدأ في عهد بطرس الأكبر ، ثم تحول بفضل نقولا الاول الى جرمنة منهجية . وقد نحس المثقفون ليشنغ ولفرنسيين معاً في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، ولهيغل في العقد الخامس ، وللأشراكية الالمانية المنبثقة عن هيغل في النصف الثاني من

(١) ستوبسكي .

القرن<sup>(١)</sup> . ونفتت الشيعة الروسية في هذه الافكار التجريدية قوة الهوى الجامع الذي تتميز به ، وعاشت حقاً هذه الافكار الجامدة . صحيح ان الاساتذة الالمان وضعوا صيغة ديانة الإنسان ، ولكن هذه الديانة كانت لا تزال مفتقرة الى الحواريين والشهداء . وقد قام بهذا الدور المسيحيون الروس الذين المحرفوا عن استعدادهم الاصلي . وفي سبيل ذلك ، رضوا بأن يعيشوا بلا استشراف ولا فضيلة .

## ١ - التخلي عن الفضيلة

نوار كانون الاول

حوالي ١٨٢٠ ، كانت الفضيلة لا تزال موجودة لدى ثوريي كانون الثاني ، أول الثوريين الروس . ولم تكن المثالية المعقوية بعد ' قد قُوت لدى هؤلاء النبلاء . بل كانت فضيلتهم فضيلة واعية . قال احدهم ، بيير فياسمسي : « كان آباءنا من محبي الذات ، أما نحن فمن أهل التعسف » . يضاف الى ذلك ، الرأي الذي سنجده حتى عند باكونين والاشتراكيين الثوريين عام ١٩٠٥ ، ألا وهو ان الألم مجدّد . إن نوار كانون يذكروننا هؤلاء النبلاء الفرنسيين الذين تحالفوا مع الشعب وتحلوا عن امتيازاتهم . كانوا من النبلاء المثاليين ، لذلك كانت لهم ليلة ٤ آب<sup>(٢)</sup> ، واصطفوا التضحية بالذات في سبيل تحرير الشعب . وعلى الرغم من ان رئيسهم بيستيل كان صاحب فكرة سياسية واجتماعية ، فان مؤامرتهم الفاشلة لم تكن ذات برنامج ثابت ، بل ليس مؤكداً أنهم كانوا يؤمنون بالنجاح . قال احدهم عشية العصيان : « أجل ، سنموت ، ولكنها ستكون مئة جميلة » . ولقد كانت كذلك حقاً . ففي كانون الاول عام ١٨٢٥ ، دُمرت منطقة الثوار بالمدافع في ساحة مجلس الشيوخ في مدينة بطرسبرغ . أما الباجون فيجري

(١) ترجمه رأس المال الى الروسية عام ١٨٧٢

(٢) إشارة الى ليلة ٤ آب ١٧٨٩ ، وهي الليلة التي الت خلالها الجمعية التأسيسية الامتيازات الانتقالية (الحرب)

إبعادهم ، ولكن بعدما أعدم خمسة منهم بصورة خرقاء دفعت الجلادين الى تكرار العملية مرتين . لذلك نفهم دوغا صعوبة ان هؤلاء الضحايا غير الفعالين ظاهراً ، كانوا موضع التمجيد في حماسة ورعدة من قبل كل روسيا الثورية . لقد كانوا انموذجيين ، إن لم يكونوا فعالين . وقد اشاروا في مستهل هذا التاريخ الثوري الى حقوق والى عظمة النفس التي سماها هيغل بسخرية النفس النبيلة ، هذه النفس التي سيتحدد مع ذلك بالنسبة اليها الفكر الثوري الروسي .

اول رد فعل

في هذا الجو من الحماس ، جاء الفكر الالماني بحارب التأثير الفرنسي ويفرض سحره على أذهان يتنازعها الحس بعزالتها ، والرغبة في الانتقام والعدالة . فاستقبله المثقفون في البدء استقبال الكلام المنزّل نفسه ، ووضعوه مثله موضع التمجيد والتعليق . بل ذهبوا الى حد نظم منطق هيغل شعراً . وقد استخلص معظم المثقفين الروس من المذهب الهيغلي في البدء تبريراً لنظرة اجتماعية متصوفة . فكان الشعور بعقلانية العالم كافياً ، لأن الروح سيتحقق على كل حال في ختام الزمان . كان هذا أول رد فعل صدر عن ستانكييفش<sup>(١)</sup> وباكونين وبيلسكي مثلاً . ولكن الهوى الروسي تراجع فيما بعد أمام هذه المشاركة الفعلية في الإنتم مع الحكم المستبد ، ( إن لم تكن هذه المشاركة مقصودة ) . وارتقى فوراً في الموقف المناقض .

تطور بيلسكي

لا شيء اكثر دلالة بهذا الخصوص من تطور بيلسكي الذي يعتبر من أنبغ المفكرين في العقدين الرابع والخامس واكثرهم تأثيراً . فقد انطلق من مثالية غامضة متحيزة للحرية المطلقة ، ثم اكتشف هيغل فجأة . وفي غرفة نومه ، في منتصف الليل ، اغرورقت عيناه بالدمع ككباسكال ، بتأثير صدمة الإلهام ، وكفر بذاته دفعة واحدة : « لا وجود للاعتباط ولا للصدفة » ، لقد ودّعت

(١) « ينظم العالم روح العقل ، وهذا ما يطمئني حول الباقي » .

الفرنسيين ، . وهذا هو ذا قد أصبح عاذفاً ومن انصار النظرة الاجتماعية المتصورة . كتب ذلك دوناً تردد ، ودافع عن موقفه بشجاعة كما يحس به . ولكن هذا القلب الشجاع ، ألقى نفسه واقفاً بجانب الظلم ، أبغض الأشياء اليه في هذا العالم . اذا كان كل شيء منطقياً <sup>(١)</sup> ، فكل شيء مبرر . ينبغي لنا إذن أن نقول : نعم للوسط ، للعبودية ، لسييرا . وقد تراءى له لحظة أن قبول العالم وآلامه سيل' العظيمة ، لأنه كان يتصور فقط تحمل عذابه الخاص وتناقضاته . ولكن اذا كان المقصود ايضاً قول : نعم لعذاب الآخرين ، فان شجاعته تخونه دفعة واحدة . حينئذ يضي في منحى معاكس . اذا كنا لا نستطيع الرضا بعذاب الآخرين ، فثمة شيء في العالم لا يبرر ؛ وفي احدى تقاطعه على الاقل ، لا يعود التاريخ متطابقاً مع العقل . ولكن يجب ان يكون كله معقولاً ، أو انه ليس معقولاً إطلاقاً . إن الاحتجاج المنعزل الصادر عن الانسان الذي نهته لحظة الفكرة' القائلة بإمكان تبرير كل شيء ، ... ان هذا الاحتجاج سينفجر ثانية في كلمات حادة . وحينئذ يتوجه بيلنسكي بكلامه الى هيجل بالذات : « مع كل الاحتمام اللائق بفلسفتك البورجوازية ، لي الشرف بأن أحيطك علماً بأنني سأسألك الحساب عن كل ضحايا الحياة والتاريخ اذا أتحت لي فرصة الارتقاء الى أعلى درجات التطور . انني لا اريد السعادة حتى لو كانت مجانية ، اذا لم اكن مستريح البال بخصوص كل اخوتي في الدم » <sup>(٢)</sup> .

النموذج التالي

أدرك بيلنسكي ان ما يريد ليس « مطلق العقل » بل « كمال الكينونة » . إنه يأبى ان يوجد بينها توحيداً ذاتياً ، ويريد خلود الانسان كله ، منتصباً في شخصه الحي ، لا الخلود التجريدي للنوع وقد أصبح روحاً . إنه يدافع بنفس

(١) إشارة الى قول هيجل : كل ما هو وجود فهو معقول (المرب)

(٢) Bakounine et le panslavisme révolutionnaire . Rivière .

الحماس ضد خصوم جُدد ، ومن هذه المداولة الذاتية العظمى يستخلص نتائج يدين بها هيغل ولكنه يقلبها ضده .

هذه الاستنتاجات ستكون نتائج الفردانية المتمردة . فالفرد لا يسعه قبول التاريخ كما هو سائر . ينبغي له أن يحطم الحقيقة الواقعة كي يؤكد ما هو ، لا أن يتعاون معها . « أصبح الإنكار الهنيء ، مثلما كانت الحقيقة الواقعة <sup>(١)</sup> من قبل » . إن أبطالي هم محطو القديم : لوثير ، فولتير ، الموسوعيون ، الارهابيون ، بيرون في قابيل . هكذا نجد كل موضوعات التمرد الماورائي ، دفعة واحدة . صحيح ان تقاليد الاشتراكية الفردانية الفرنسية بقيت حية دائماً في روسيا . فسان سيمون وفورييه اللذان اقبل الناس على قراءتهما في العقد الثالث من القرن ، وبرودون الذي دخلت كتبه روسيا في العقد الرابع ، أوحوا لهيرزن بتفكيره العظيم ، وليبير لافروف فيما بعد . ولكن هذا التفكير الذي بقي متعلقاً بالقيم الاخلاقية قهر أخيراً ، على الأقل بصورة مؤقتة ، في منازعاته الكبرى مع الانكار المتحللة من القيم . أما بيلنسكي فوجد ، مع هيغل وضده ، نفس اتجاهات الفردانية الاجتماعية ، ولكن من زاوية الإنكار ، وذلك في رفض القيم الإستشراافية . ولما مات عام ١٨٤٨ كان تفكيره ، على كل ، قريباً جداً من تفكير هيرزن . ولكنه ، في مقابله مع هيغل ، عرّف بدقة موقفاً أصبح موقف العديمين ، وموقف الارهابيين الى حد ما . هكذا قدم أنوذجاً انتقالياً بين كبار نبلاء ١٨٢٥ المثلثين ، وطلاب ١٨٦٠ « اللاشيئين » .

. Rienistes

(١) أو : الوجود (الحرب)

## ٢ - ثلاثة موسمين

تمديد

عندما كتب هيرزن - مدافعاً عن الحركة العدمية بمقدار ما رأى فيها مزيداً من التحرر لإزاء الافكار التافهة - ، عندما كتب قائلاً : « إن إزالة القديم تعني إحداث المستقبل » ، استأثف اقوال بيلنسكي . وعندما تحدث كوتليارفسكي عن أولئك الذين سموا أنفسهم بالراديكاليين ، عرقهم على انهم حواريون « اعتقدوا ان من الواجب التخلي تماماً عن الماضي ، وبناء الشخصية الانسانية استناداً الى طراز آخر » . إن مطالبة ستيرن<sup>(١)</sup> تعود الى الظهور مع طرح كل تاريخ والعزم على بناء المستقبل تبعاً للفرد -- الملك لا تبعاً للروح التاريخية . ولكن الفرد -- الملك لا يستطيع الارتقاء الى السلطة بمفرده . انه بحاجة الى الآخرين ، ويدخل حينئذ في تناقض عدمي سيحاول كل من بيزاريف وباكونين ونيشاياف حله بتوسيع ساحة الدمار والإنكار قسط ما ، ريثما يقضي الإرهاب على التناقض نفسه ، في التضحية والقتل الواقعين في وقت واحد .

### بيزاريف Pissarev

تعريف العدمية

إن عدمية سنوات العقد السابع من القرن بدأت في الظاهر بآتم إنكار ممكن ، طارحة كل عمل ليس أنانياً صرفاً . ومعلوم ان كلمة عدمية ابتدعها تورغونيف في قصة عنوانها : « والد وأبناء » ، يمثل بطلها بازاروف هذا الطراز من البشر . وإذا كان علي بيزاريف أن ينتقد هذه القصة ، أعلن ان العدميين يعترفون ببازاروف النموذجاً لهم . يقول بازاروف : « ما علينا ان نتباهى إلا

(١) راجع ما ذكر تحت عنوان: الأوحش ص ٨٩ (المرب)



بشعورنا المقيم بفهمنا ، الى حد ما ، نُقيم ما هو موجود . — هل هذه هي العدمية ؟ — أجل ، هذه هي العدمية . وقد امتدح بيزاريف هذا الاندوج وعرفته ، في سبيل المزيد من الوضوح ، على الوجه التالي : « لا علاقة لي بنظام الاشياء القائم ، ما عليّ ان ادخل فيه » .

القيمة الوحيدة تكمن إذن في الأناية العقلانية .

إنكار بيزاريف

إن بيزاريف ، إذ أنكر كل ما ليس لإرضاء للذات ، أعلن الحرب على الفلسفة ، على الفن المعتبر كمعب ، على الأخلاق الكاذبة ، على الدين ، وحتى على العرف والمجاملة . وبني نظرية لإرهاب عقلي تذكرنا بإرهاب السريالين الفرنسيين . فقد رُفِع التحدي إلى مصاف العقيدة ، ولكن بمقٍ أعطى عنه راسكولنكوف فكرة صحيحة . في قمة هذه الوثبة الرائعة ، طرح بيزاريف يجد السؤال التالي : هل يستطيع المرء أن يقتل أمه ، ثم أجاب قائلاً : « لم لا ، إذا كنت أريد ذلك وأجده مفيداً ؟ » .

العدمية : خلاصة عقلانية

إعتباراً من هذا الحد ، تموتنا الدهشة بأن لا نجد عديمينا مشغولين بجمع ثروة أو الارتفاع إلى منصب ، وبالاستمتاع بكل ما يستمتع لهم استمتاعاً متحللاً من القيم . والحقيقة ان العدميين موجودون في كل مراتب المجتمع العليا . ولكنهم لا يضعون نظرية حول تحللهم من القيم ، ويفضلون في كل فرصة أن يقدموا في الظاهر آيات التكريم للفنية ، دونما تبعة . أما هؤلاء الذين نحن بصددهم فكانوا يناقضون أنفسهم في تحديهم للمجتمع ، هذا التحدي الذي كان في حد ذاته تأكيداً لقيمة . وكانوا يدعون : « بأنهم ماديون ، وكان كتابهم المفضل « القوة والمادة » لبوخس . ولكن أحدهم اعترف قائلاً : « كل فرد منا كانت مستعداً للضي إلى المشتقة ، ولتقديم رأسه في سبيل مولييسكوت <sup>(١)</sup> وداروين »

(١) عالم هولندي من المدافعين عن المادية .

'مَبْنُوتًا' العقيدة مقاماً أسمى من مقام المادة . عن هذه الدرجة ، كان للعقيدة سياء الدين والتعصب . فقد اعتقد بيزاريف ان لامارك خائن لأن داروين على صواب . وأي امرئ في هذا الوسط يتم بالحديث عن خلود النفس كان يُحكم عليه بالحرامات . لذلك ، 'حق لوايدلي' (١) أن يُعرف العدمية على انها ظلامية Obscurantisme عقلانية . كان العقل عندهم يضم اليه بصورة غريبة أحكام الدين الاعتبارية ، ولم يكن أبسط تناقض عند هؤلاء الفراديين اصطفاً أتفه علمانية (٢) Scientisme أنموذجاً للعقل . كانوا ينكرون كل شيء ، ما عدا أكثر القيم قبولاً للجدال ... قسّم السيد هوميه (٣) M. Homais .

حقيقة بيزاريف

مع ذلك ، قدم العدميون أنموذجاً خلفهم باتخاذهم العقل الضيق عقيدة جوهرية . إنهم لم يؤمنوا بشيء ، اللهم إلا بالعقل والصلحة . ولكنهم اصطفوا أعباء الرسالة بدلاً من التشكك ، واصبحوا اشتراكيين . وهنا كن تناقضهم ، فككل الأذهان الفتية ، أحسوا في الوقت نفسه بالشك وبالحاجة إلى الإيمان وقد كن حلهم الشخصي في إكساب إنكارهم تشدد الإيمان وهواه . ما الغريب ، مع ذلك ؟ لقد استشهد وايدلي بمجلة الفيلسوف سولوفيف المحقرة ، مندداً بهذا التناقض : « الانسان منحدر من القرد ، لذلك علينا ان نحب بعضنا بعضاً » . ومع ذلك ، في هذا التمزق كننت حقيقة بيزاريف . فإذا كان الانسان صورة مصغرة عن الإله ، فليس سهلاً أن يُحرم من الحب البشري ، وسيأتي يوم يروي فيه غلته . أما إذا كان مخلوقاً أعمى يخطب خطب عشواء في ظلمات وضع قاسٍ ومحدود ، فانه بحاجة إلى أنداده وإلى حبهم الفاني . سها يكن من أمر ، فأين

(١) La Russie absente et présente. Gallimard

(٢) راجع : تيارات الفكر اللغوي ص ٣٨٩

(٣) أنموذج يمثل أوصاف المثقفين السخفاء خلفه لوبير في قصته : مدام بوماري ( صدرت في منشورات عويدات ) في صورة سيدلي وممكر حر يمثل الحماة البورجوازية ... العرب

يمكن أن تلجأ الحجة ، إن لم يكن ملجأها في عالم بلا إله ؟ ففي العالم الآخر ، يتدارك العون الرباني كل شيء ، ويُعنى حتى بأمر المنتسبين . إن الذين ينكرون كل شيء يدركون على الأقل أن الإنكار شقاء . لذلك ، في وسعهم أن يفتحوا على شقاء الآخرين ، وأن ينكروا ذاتهم في النهاية . إن يزاريف لم يكن ليتراجع ذهنياً أمام قتل أم <sup>(١)</sup> ، ولكنه وجد مع ذلك نبوات صحيحة للتحدث عن الظلم . لقد أراد أن يتمتع تمتعاً ثانياً بالحياة ، ولكنه كابد مرارة السجن ثم أصبح مجنوناً ، هذا المقدار من التحلل من القسَم دفعه أخيراً إلى معرفة الحب ، وإلى أن 'يبعد عنه ويتألم منه إلى حد الانتحار' ، ملتقياً بالإنسان العجوز البائس المعذب الذي ينبر التاريخ بعظمته وحدها ، بدلاً من الالتقاء بالفرد - الملك الذي أراد هو أن يخلقه .

### باكونين Bakounine

بذرة جديدة

لقد جسد ماكونين نفس التناقضات ، ولكن بصورة ملحوظة أخرى . ومات عشية الملمعة الإرهابية <sup>(٢)</sup> . مهما يكن من أمر ، فقد استنكر سلفاً الاعتداءات الفردية ، وندّد بـ «بروتوسات عصره» <sup>(٣)</sup> . ولكنه كان يشعر بخوم بالاحترام ، فقد أنقى باللائمة على هيرزن لأنه انتقد جهراً اعتداء كارا كوزوف الفاشل على القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٦٦ . هذا الاحترام كانت له أسبابه . إن باكونين أثر على سلسلة الأحداث ، بنفس الصورة التي أثر فيها بيلنسكي والمدميون ، في منحنى التمرد الفردي . ولكنه أتى بشيء آخر : بذرة تحلل قيسمي سياسي تلبو بعدئذ في مذهب لدى نيتشايف وأفقد الحركة الثورية صبرها .

(١) من ذلك تحت عنوان : إفتكار يزاريف ص ٢٠١ (المعرب)

(٢) ١٨٧٦

(٣) جمع بروتوس .

التحسس لهيفل  
والانصراف عنه

لم يكذب باكونين يودع سن الفتوة ، حتى هزته الفلسفة الهيفلية كما لو بفعل رجة عجيبة . فانغمس فيها ليل نهار « حتى الجنون » كما قال . « لم تكن عيني لترى إلا مقولات هيفل » . ولما انتهى من تعلم المبادئ ، كان متحمساً حماسة الحديثين في الايمان . « ماتت أنائي الشخصية الى الأبد . ان حياتي هي الحياة الحقة . لقد توحدت ، بشكل ما ، توحداً ذاتياً مع الحياة المطلقة » . ولكنه لم يحتاج إلا الى قليل من الزمن كي يدرك مخاطر الركون الى هذا الموقف المريب . فمن فهم الحقيقة الواقعة ، فإنه لا يشور عليها ، بل يتنهد بها ، ... ها هوذا من أهل الإدعان . ليس من شيء لدى باكونين كان هيبته سلفاً لفلسفة « الكلب الحارس » . من الممكن أيضاً ان رحلته الى ألمانيا والرأي الحزن الذي كثرته عن الألمان قد منعه من أن يسلم ، مع هيفل المعجوز ، بأثر الدولة البروسية هي الأمانة المفضلة التي استودعت غايات الروح . مهما يكن من أمر ، فلم يكن في وسعه -- وهو الروسي أكثر من قيصر بالذات ... رغم أحلامه العالية - أن يرضى بالدفاع عن بروسيا حينما يقوم هذا الدواع على منطلق من الحدة بحيث يؤكد : « ليس لمشينة الشعوب الأخرى أي حق ، لأن الشعب الممثل لأرادة [الروح] هو الذي يسود العالم » . وفي العقد الخامس من القرن ، من جهة أخرى ، اكتشف باكونين الاشتراكية والفوضوية الفرنسية اللتين حل منها مع بعض الميول . مهما يكن من أمر ، فقد نبذ باكونين الفكر الألماني بعظمة . هكذا مضى الى المطلق كما الى الدمار التام ، بنفس الحركة المتدفعة ، في الكاف بـ « كل شيء » أو « لا شيء » ، والذي نجده عنده في الحالة الحالية .

ماوية باكونين

بعد ما يمتدح باكونين الوحدة المطلقة ، يرمي في أبسط ماوية (١) . إنه ،

(١) ماوية أو إثنائية . سترى بعد قليل انه يقول بتحكم مبدأين بالتاريخ - المرب

ولا شك ، يريد « كنيسة الحرية » الكنيسة العالمية الديمقراطية حقاً . هنا تكمن ديانتها . إنه إذن من أهل عصره . مع ذلك ، ليس مؤكداً ان إيمانه بهذا الخصوص كانت تاماً . ففي اعترافه لتقولا الأول ، تبدو لهجته صادقة حيناً يزعم بأنه لم يؤمن قط بالثورة النهائية « إلا بعد بذل جهد خارق مؤلم ، خائفاً بالقوة الصوت الذاتي الذي كان يحس لي بمعية أحلامي » . أما لأخلاقيته النظرية فهي أكثر رسوخاً ، وانا لنراه دائماً يتقلب فيها براحة وبهجة حيوان وثاب . التاريخ لا يتحكم به سوى مبدأين : الدولة والثورة الاجتماعية ، الثورة والثورة المماكة اللتين يجب ان لا يوفى بينهما ، وهما مشبكتان في صراع حتى الموت . الدولة هي الجريمة . « إن أصغر دولة وأبعدا عن الأذى هي أيضاً مجرمة في أحلامها » . الثورة هي إذن الخير . هذا الصراع الذي يتخطى السياسة ، هو أيضاً صراع المبادئ الإبلية ضد المبدأ الإلهي . إن باكونين 'يدخل ثانية إحدى موضوعات التمرد الماورائي ، على وجه صريح ، في العمل التمرد . وسبق لبرودون ان حكم بأن الله هو الشر ، وصرخ قائلاً : « تعال أيها الشيطان ، يا من يتجنى عليه الصغار والملاك » . وإن باكونين ينه أيضاً الى مدى عمق تمرد ، هو في الظاهر تمرد سياسي . « الشر هو التمرد الشيطاني على السلطان الرباني ، تمرد نرى فيه ، بالعكس ، البذرة المولدة لكل الانعناقات البشرية . ان الاشتراكيين الثوريين ، مثل « أخرة بوهيميا » في القرن الرابع عشر (?) يتعارفون اليوم بهذه الكلمات : « إنهم ذلك الذي ألقنا به أذى كبيراً » (١) .

تمرده وثاقبه المفضلة

الصراع ضد الخلق سيكون إذن صراعاً لا رحمة فيه ولا أخلاق ، والخلاص الوحيد هو في الإبادة . « الكلف بالدمار كلف مبدع » . إن صفحات باكونين الملتهبة حول ثورة ١٨٤٨ (٢) تصطب بهجة الدمار . قال : « عيد لا بداية له

(١) يقصد الشيطان (المرب)

(٢) اعتراف ص ١٠٢

ولا نهاية . والحقيقة ان الثورة ، بنظره وبنظر جميع المضطهدين ، هي العيد ، بالمعنى المقدس للكلمة . هنا نتذكر الفوضوي الفرنسي «كوردروا»<sup>(١)</sup> الذي دعا قبائل الشمال في كتابه : « الثورة بواسطة الفوزاق » الى تدمير كل شيء . وذلك ايضاً اراد ان « يحل المشعل الى بيت الوالد » . وصرخ قائلاً انه لا يأمل إلا بالطوفان البشري وبالخواء . ان التمرد يؤخذ في الحالة الخالصة حُلُلَ هذه التجليات ، في حقيقته البيولوجية . لذلك ، كان باكونين الوحيد في زمانه الذي انتقد حكومة العلماء بعمق استثنائي . و ضد كل تجريد ، دافع عن الانسان كله ، المتوحد توحداً ذاتياً مع التمرد . واثق بحُجَّتِه الشقي ، وقائد الفلاحين العصاة ، ولئن كانت نماذجُه المفضلة تتمثل في ستنكرازين وبوغاتشيف<sup>(٢)</sup> ، فذلك لأن هؤلاء الاشخاص حاربوا بلا عقيدة ولا مبادئ ، من أجل مثل أعلى من الحرية الخالصة ، لقد أدخل باكونين مبدأ التمرد المجرد في صميم الثورة . « العاصفة والحياة » هذا ما نحتاج اليه . عالم جديد ، بلا قوانين ، وبالتسالي عالم حر » .

باكونين والدستائورية

ولكن العالم المنتم من القوانين هل هو عالم حر ، هذا هو السؤال الذي بطرحه كل تمرد . لو لزم أن نسأل باكونين الرد ، لما كان جوابه ملتبساً . فعلى الرغم من أنه عارض في كل الظروف ، ويمتنع الوعي ، الاشتراكية المستبدة ، فما أن يُعرف هو نفسه مجتمع المستقبل ، حتى يصوره على انه مجتمع دكتاتوري ، دون أن يهتم بالتناقض . إن نظام «الأخوة الأبية» ( ١٨٦٤ - ١٨٦٧ ) الذي ألقاه هو نفسه ، شرع تبعية الفرد تبعية مطلقة للجنة المركزية ، خلال العمل . وكذلك هي الحال بالنسبة الى الفترة الزمنية التي تلي الثورة . انه يأمل

(١) تاريخ القوضوية ، الجزء الاول . كلود هارميل وآلان سيرجان .

(٢) دجال روسي ادى اليه القيصر بطرس الثالث ، ثم كسرت جيوشه وقتل في موسكو .

( المرب )

لروسيا المتحررة «سلطة دكتاتورية قوية ... ، سلطة محاطة بالانصار ، مستنيرة بنصائحهم ، معززة بمعاونتهم الحرة ، ولكن لا يجدها شيء ولا شخص ، . إن باكونين أسهم ، بقدر خصمه ماركس ، في العقيدة اللينينية . مهما يكن من أمر ، فإن حلم الامبراطورية السلافية الثورية ، كما ذكره باكونين امام القيصر ، هو نفس الحلم الذي حققه ستالين ، حتى في تفاصيل الحدود . هذه الأفكار الصادرة عن رجل عرف أن المحرك الأساسي لروسيا القيصرية هو الخوف ، ورفض النظرية الماركسية القائلة بدكتاتورية حزب ... تقول : لعل هذه الأفكار تبدو متناقضة . ولكن هذا التناقض يدل على ان أصل المعتقدات المستبدة هو علمي جزئياً . إن بيزاريف يبرر باكونين ، صحيح ان هذا الاخير أراد الحرية التامة ، ولكنه سعى اليها خصلل الدمار التام . إن تهديم كل شيء معناه الانصراف إلى البناء دونما أسس ؛ بعدئذ يجب إبقاء الجدران قائمة بدعم الذراع . من ينبذ كل الماضي ، دون أن يستبقي منه ما من شأنه أن يفيد في تقوية الثورة ، يحكم على نفسه بأن لا يجد تبريراً إلا في المستقبل ، . وفي انتظار ذلك ، يكلف الشرطة بتبرير الموقّت . لقد بشر باكونين بالدكتاتورية ، لا ضد رغبته في التهديم ، بل وفقاً لها ، ما من شيء في الحقيقة كان في وسعه أن يوقفه على هذا الدرب لأن القيم الأخلاقية كانت قد ذابت أيضاً في جمر الإنكار المطلق . فباعترافه للقيصر ، هذا الاعتراف المجامل جبراً والذي أُلغى ليطلق القيصر سراحه أدخل بصورة ملحوظة المداينة في السياسة الثورية . وبتعاليم الثوري هذه ، والتي يُظن أنه أُلغى فيها سوبرا مع نيتشايف ، أعطى صورة عن السفاهة السياسية - حتى لو اضطر فيما بعد إلى إنكارها - أعطى صورة عن هذا التحرر من القيم الذي لن يكف عن التأثير في الحركة الثورية ، والذي مثله نيتشايف نفسه بصورة تدعو إلى السخط .

### بنشاييف الثالث

إن نيتشايف أقل شهرة من باكونين ، وأكثر غموضاً ، ولكنه وجه أكثر دلالة فيما يخص الموضوع . فقد سار بمنطق العدمية إلى أبعد ما يمكن ، وبكاد يكون خالياً من التناقض . ظهر حوالي ١٨٦٦ في أوساط المثقفين الثوريين ، ومات في ظروف غامضة عام ١٨٨٢ . وفي هذه الفترة القصيرة ، ما فتى يأخذ بجامعة القلوب : الطلاب من حوله ، باكونين بالذات والثوريون المهاجرون ، أخيراً حر "راس سجنه الذين نجح في إشراكهم في مؤامرة هوجاء . منذ ظهوره ، كان راسخ المعتقد . فلئن افترض به باكونين لدرجة أنه وافق على تكليفه بتفريضة وهمية ، فذلك لأنه توهم في هذا الوجه الحقود ما يطابق توصياته ويوجه ما ، ما كان سيؤول إليه هو نفسه لو تسنى له الشفاء من قلبه .

### انجمااته الفكرية

لم يكتفِ نيتشايف بأن يقول ان من الواجب الانضمام « الى عالم الأشياء المتوحش ، هذا الوسط الثوري الحقيقي والوحيد في روسيا » ، ولا بأن يكتب ، مرة أخرى أيضاً ، كباكونين ، قائلاً ان السياسة بعد الآن ستصبح الدين ، والدين السياسة . بل صير نفسه الكاهن الطاغى لثورة يائسة ، وكان أوضح ما يصبر اليه أن يضع النظام الخطر الذي يسمح بنشر وبإنجاح الألوهية السوداء التي اعترم بذل نفسه في خدمتها .

إنه لم يتحدث فقط عن الدمار الكلي ، بل طالب أيضاً بإبادة كل شيء للذين يقفون أنفسهم للثورة ، وأباح لنفسه كل شيء في الحقيقة ، وفي هذا كانت أصالته . « الثوري انسان محكوم عليه سلفاً . يجب أن لا يرتبط بأية علاقات عاطفية ، وأن لا تكون له أشياء أو كائنات محبوبة . عليه أن يتجرد حتى من



اسمه . كل شيء فيه يجب أن يتركز في هوى وحيد : الثورة . والحقيقة اذا كان التاريخ ، خارج نطاق كل مبدأ ، لا يقوم إلا على الصراع بين الثورة والثورة المضادة ، فليس من مخرج آخر للره سوى أن يتبنى إحدى هاتين القيمتين ثباتاً كلياً ، كي يموت أو يُبعث فيها . ان نيتشايف يسير بهذا المنطق الى نهايته . ولأول مرة معه ، ستبعد الثورة بشكل صريح عن الحب والصدافة .

#### مناقشة

لما نرى لديه نتائج السيكولوجيا الاعتبارية التي نقلها تكبير هغل . مع ذلك سلم هذا الأخير بأن اعتراف الشعورات<sup>(١)</sup> ببعضها بعضاً قد يحدث في مجابهة الحب<sup>(٢)</sup> . ولكن نيتشايف امتنع عن وضع هذه « الظاهرة » في صدر تحليله . فقد اعتقد انها « لا تلك قوة السليبي وصبوره وفعله » . وآثر إظهار الشعورات في معركة مراطين فاقدة البصر ، تتحس طريقها في الظلمة على رمال البحر كي تتسك أخيراً بالخالب في صراع حتى الموت ؛ وأهل طوعاً هذه الصورة الاخرى ، الشرعية أيضاً ، صورة منارات تسعى بشق الأنفس للتعارف في الظلام ، وتلتقي أخيراً في سبيل المزيد من الضياء . إن الاصفاء والاصدقاء والاحباء يعلمون ان الحب ليس لمناجاة فحسب ، بل هو أيضاً صراع طويل مؤلم يجري في الظلمات من اجل الاعتراف والتوفيق النهائيين . على كل ، اذا كانت الفضيلة التاريخية 'تعرّف' بأنها 'تظهر الصبر' ، فان الحب الحقيقي هو أيضاً صبور صبر الكره . مها يكن من أمر ، فان المطالبة بالعدالة ليست وحدها هي التي تبرر الهوى الثوري على امتداد العصور ، هذا الهوى الذي يستند ايضاً الى مطالبة مؤلمة بالصدافة للجميع ، حتى ولا سيما تجاه سماه معادية . الذين يضعون بأرواحهم في سبيل العدالة ، دائماً سموا أنفسهم « أخوة » . فالعنف ، بنظرهم

(١) باللغة البسيطة : الكائنات البشرية . (المغرب)

(٢) قد يحدث الاعتراف ايضاً في الإعجاب حيث تكتسب « سيدة » [معلم] حيلته معنى مغلياً : الذي يتلف دون ان يهدم .

جميعاً ، مخصص للعدو ، في خدمة جماعة المضطهدين . ولكن اذا كانت الثورة هي القيمة الوحيدة ، فانها تتطلب كل شيء ، تتطلب حتى السعاية والوشاية ، وبالتالي التضحية بالصدق . بعد الآن ، سيوجه العنف ضد الجميع ، في خدمة فكرة مجردة . كان لا بد من مجيء المسوسين ، كي يقال دفعة واحدة ان الثورة في ذاتها مقدّمة على من تريد انقاذهم ، وان الصداقة التي كانت حتى الآن تبدل وجه الانكسارات ، يجب ان يُضحي بها وان تُرجأ الى يوم الظفر الذي لا يزال غير منظور .

#### حق القادة

وعليه ، تكمن أصالة نيتشايف في تبرير العنف اللاحق بالأخوة . لقد حدد التعاليم مع باكونين . ولكن ما ان عهد اليه هذا الاخير ، في ضرب من النفي ، بأن يمثل في روسيا «اتحاداً ثورياً» اوروبياً لا وجود له إلا في مخيلته ، حتى مضى نيتشايف حقاً الى روسيا ، وأسس «جمعية الفأس» وحدد هو نفسه نظامها . واننا واجدون فيه كشيء ضروري ، دون ريب ، لكل عمل عسكري أو سيامي ، «اللجنة المركزية» السرية التي ينبغي للجميع ان يعاهدوها على الولاء المطلق . ولكن نيتشايف فعل اكثر من القيام بتنظيم الثورة تنظيماً عسكرياً ، وذلك منذ سلّم بأن القادة يملكون الحق في استعمال العنف والكذب في سبيل قيادة المرؤوسين . والحقيقة انه سيكذب حينما سيزعم بأنه مندوب من قبل هذه اللجنة السرية التي ما زالت غير موجودة ، وحينما سيصف هذه اللجنة بأنها تلك تحت تصرفها موارد غير محدودة ، وذلك كي يدفع المترددين الى العمل الثوري الذي يعزّم الشروع به . بل سيفعل اكثر من ذلك ، بتسييزه ثقات من بين الثوريين ، مع العلم بأن ثوريي الفئة الاولى ( القادة ) يحتفلون بحق اعتبار الآخرين كـ «رأسمال يجوز إنفاقه» . لعل كل قادة التاريخ فُكروا على هذه الصورة ، ولكنهم لم يجهروا بفكرتهم . حتى مجيء نيتشايف ، على كل حال ، لم يجرؤ أي قائد ثوري على ان يجعل من ذلك قاعدة سلوكه . ولم تضع

أية ثورة حتى الآن في رأس لوحة قوانينها جواز اعتبار الإنسان كأداة .. كان تجنيد الانصار يتوجه تقليدياً بالنداء الى الشجاعة والى روح التضحية . ولكن نيتشايف قرر جواز إرهاب المترددين وتهديدهم بالشهير ، وجواز التمييز بالرائتين . حتى الثوريون الموهومون يمكنهم ايضاً ان يبدوا اذا ما دُفعوا دفعاً منظماً الى القيام بأخطر الاعمال . أما المضطهدون ، فبما ان المقصود هو انتقامهم نهائياً ، لذلك يجوز لنا ان نزيد في اضطهادهم . ان ما يفقده المضطهدون الحاليون في هذه العملية ، سيوجه المضطهدون في المستقبل . ان نيتشايف يضع كبدأ ان من الواجب دفع الحكومات الى اتخاذ إجراءات زجرية ، وان من الواجب ايضاً عدم مس الممثلين الرسميين الاكثر تعرضاً لكره الشعب ، وان على الجمعية السرية اخيراً ان تبذل كل نشاطها كي تزيد آلام الجماهير وشقاها .

نقطة الطالب إيفانوف

على الرغم من ان هذه الافكار اكتسبت كل معناها اليوم ، لم يتسن لنيتشايف ان يرى مبادئه مظفرة . ولكنه على الاقل سعى الى تطبيقها بقتل الطالب إيفانوف ، الامر الذي ألهم نخبة العصر لدرجة دفعت دوستويفسكي الى ان يعمل من هذا القتل احدى موضوعات «المأخوذون»<sup>(١)</sup> . كان خطأ إيفانوف الوحيد ، فيما يبدو ، ان بعض الشكوك ساورته حول اللجنة المركزية التي ادعى نيتشايف بأنه مندوبها . لقد عارض الثورة إذن لأنه عارض ذلك الذي توحد توحداً ذاتياً معها ، فصار موته لازماً . «أي حق لنا في ان تقتل إنساناً؟ سأل أوسبنسكي ، أحد رفاق نيتشايف . - المسألة ليست مسألة حق ، بل مسألة واجبنا في أن نزيح كل من يلحق الضرر بالقضية . . حينما تكون الثورة هي القيمة الوحيدة ، لا تعود هناك حقوق ، في الحقيقة ، بل ثمة واجبات فقط . ولكن بانقلاب فوري ، بإسم هذه الواجبات ، تؤخذ كل الحقوق . بإسم القضية نرى إذن نيتشايف الذي لم يعتد على حياة أي طائفة ، يقتل إيفانوف في

(١) أو الموسون ، أو : الشياطين - قصة لدوستويفسكي .

كهن ، ثم يغادر روسيا ويذهب للقاء باكونين . ولكن هذا ينصرف عنه ويستنكر هذه « الوسيلة المقرزة للنفس » . كتب باكونين : « توصل تدريجياً الى ان يقنع المرء نفسه بأنه ، لإقامة مجتمع يتمتع الفناء ، يجب أن نعتد سياسة ماكيافيل كأساس ، وأن نتبنى طريقة اليسوعيين <sup>(١)</sup> . من أجل البدن : العنف وحده . ومن أجل النفس : الكذب » . إن هذا واضح . ولكن بإسم ماذا نقرر ان هذه الوسيلة مقرزة للنفس اذا كانت الثورة هي الخير الوحيد كما يزعم باكونين ؟ ان نيتشاف هو حقاً في خدمة الثورة . انه لا يخدم نفسه ، بل يخدم القضية . فاذا مثل امام القضاة ، لم يسلم لهم بشيء . واذا حكم عليه بالسجن ٢٥ عاماً ، بقي مهيناً على السجون ، ونظم السجانين في جمعية سرية ، واعتزم قتل القيصر ، فحكم عليه مرة ثانية . اخيراً في قلب احد الحصون بعد اثني عشر عاماً من الانزواء ، طوت المئون صفحة هذا المتمرّد الذي دشّن ذرية مستخفة ، ذرية من كبار اقطاب الثورة .

#### البلاء التائبون

إذ ذاك ، وداخل الثورة بالذات ، يصبح كل شيء مباحاً ، ويجوز إقامة القتل كبدأ . ولكن مع تجديد الحركة الشعبية عام ١٨٧٠ ، خيل للأذهان ان هذه الحركة الثورية المنبثقة عن الاتجاهات الدينية والاخلاقية التي تجدها عند ثوار كانت ، وفي اشتراكية لافروف وهيرزن ، ستوقف الإنزلاق نحو السفاهة السياسية التي مثلها نيتشاف . فقد توجهت الحركة بالنداء الى « ذوي النفوس الحية » ، وطالبتهم بأن يقصدوا الشعب وان يهذبوه كي يمضي هو نفسه نحو التحرر . وصار « البلاء التائبون » يغادرون أسرهم ويرتدون ثياباً رثة وبطوفون في القرى ليعطوا الفلاح . ولكن الفلاح كاث يلزم جانب الميطة والصمت . وعندما لم يكن يلزم الصمت ، كان يشي بالداعية عند الدركي . إن المخدال ذوي النفوس السامية كان من شأنه السير بالحركة نحو سفاهة نيتشاف

(١) راجع : باسكال ، حياته وللمتة (منشورات عويدات) .

أو ، على الأقل ، نحو العنف . فبقدر ما عجزت الفئات المثقفة عن اجتذاب الشعب إليها ، أحست بنفسها ثانية منفردة أمام الحكم المستبد المطلق ، وثانية تراءى لها العالم في صورة السيد والعبد . إن زمرة «إرادة الشعب» ستجعل إذن من الإرهاب الفردي مبدأ ، وستدشن سلسلة عمليات القتل التي استمرت حتى ١٩٠٥ ، مع الحزب الاشتراكي الثوري . عند هذه النقطة ، يولد الإرهابيون ، منصرفين عن الحب ، منتصبين ضد إثم السادة ، ولكن وحيدين مع يأسهم ، وجهاً لوجه مع تناقضاتهم . ولئن يتمكنوا من حل هذه التناقضات ، إلا في التضحية بالبراءة والحياة .

### ٣ - القتل الودعاء

اعمال اعتداء وقع

سنة ١٨٧٨ هي سنة ميلاد الإرهاب الرومي . ففي ٢٤ كانون الثاني ، غداة محاكمة ١٩٣ شخصاً من انصار الحركة الشعبية ، اغتالت الفتاة فيرا زاسوليتش الجنرال تريوف حاكم مدينة سان بطرسبرغ . وقد يرأها المخلعون ، ثم أفلتت من شرطة القصر . إن طلقة المدس هذه دشنت سلسلة متعاقبة من اعمال القمع والاعتداء ، لا يستطيع ان يضع لها حداً إلا السأم .

وفي نفس السنة ، قام احد افراد «إرادة الشعب» بوضع الإرهاب كبداً ، في رسالته الهجائية المسماة : «الضحية بالضحية» . وسرعان ما تلت النتائج المبادئ . ففي اوروبا ، ذهب امبراطور المانيا وملك ايطاليا وملك اسبانيا ضحايا اعتداءات . وفي ١٨٧٨ ايضاً ، ألسا اسكندر الثاني «الأوخرافا» <sup>(١)</sup> ، أنجع سلاح لإرهابية الدولة . اعتباراً من ذلك تتوج القرن التاسع عشر بأعمال القتل في روسيا والغرب . وفي ١٨٧٩ ، جرى اعتداء جديد على ملك اسبانيا ،

١١ جهاز قمع .

واعتداء فاشل على القيصر . وفي ١٨٨١ ، ذهب القيصر ضحية لإرهابي « إرادة الشعب » ، وشنت السلطات صوفيا بيروفسكايا وجيلابوف واصدقاءهما . وفي ١٨٨٣ ، جرى اعتداء على امبراطور ألمانيا ، وأعدم قاتله بالفاش . وفي ١٨٨٧ ، أعدم شهداء شيكاغو ، وعُقد مؤتمر « فالانس » (بلنسية) للفوضيين الاسبانيين الذين وجهوا الانذار الإرهابي التالي : « اذا لم يستسلم المجتمع فيجب أن ينفى الشر والرذيلة ، حتى لو هلكنا جميعاً معها » . وقد اشار العقد العاشر من القرن في فرنسا الى ذروة ماسمي بالدعاية بالفعل . ومهدت اعمال رافاشول و فايان وهنري لقتل الرئيس كلرنو<sup>(١)</sup> . وفي عام ١٨٩٢ وحده ، أصعب أكثر من ألف اعتداء بالديناميت في اوروبا ، وزهاء خمسمائة في اميركا . وفي ١٨٩٨ ، 'قتلت اليزابيت امبراطورة النمسا . وفي ١٩٠١ ، اغتيل ماك كينلي رئيس الولايات المتحدة . وفي روسيا ، حيث استمرت الاعتداءات على ممثلي النظام الثوريين ، ولدت « منظمة الكفاح » للحزب الاشتراكي الثوري عام ١٩٠٣ ، وضمت أغرب وجوه الحركة الاوهابية الروسية . وقد اشار مقتل الوزير بليف وسازونوف والدوق سرج الاكبر من قبيل كاليايف عام ١٩٠٥ ، الى ذرى هذه الاعوام الثلاثين من الرسالة الدائمة ، واختتم عصر الشهداء بالنسبة الى الدين الثوري .

علاوة الخروج من التنافس

إن العدمية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحركة ديانةٍ أصيبت بالحية ، قد انتهت إذن بالإرهاب . ففي عالم الإنكار المطلق ، بالقنبة والمسدس ، وايضاً بالشجاعة التي كانوا يسرون بها الى المشتقة ، كان هؤلاء الشبان يسمون الى الخروج من التنافس والى خلق القيم التي كانوا اليها يفتقرون . فحتى يجثهم ، كان الناس يموتون بلاسم ما كانوا يعلمون أو ما كان يحيل اليهم انهم يعلمونه . واعتباراً منهم ،

(١) اصحب رئيساً للجمهورية الفرنسية عام ١٨٨٧ ، وقته احد الفوضيين عام ١٨٩٤ في مدينة ليون .

اكتسبت عادة جديدة اصعب ، عادة التضحية بالذات في سبيل أمر لم يكن يعلم عنه أي شيء ، اللهم إلا انه لا بد من الموت كي يوجد هذا الأمر . الى ذلك الوقت ، كان الذين يريدون الموت يتكلمون على الله ضد عدالة البشر . ولكن حينما نطالع تصريحات المحكوم عليهم في هذه الفترة ، ندهش إذ نرى ان الجميع دونما استثناء كانوا يتكلمون ضد قضائهم على عدالة أناس آخرين سيأتون في المستقبل ، ويظلمون ملاذهم الاخير في حالة عدم وجود قيم عليا . المستقبل هو الاستشراف الوحيد لمن كان بلا إله . ليس من شك في ان الارهابيين ارادوا التهديم أولاً ، وزعزعة اساس الحكم المستبد تحت تأثير القنابل . ولكنهم ، بموتهم على الاقل ، سعوا الى إعادة خلق رابطة عدل وعبء ، وبالتالي الى استئناف رسالة خاتمتها الكنيسة . لقد ارادوا في الحقيقة ان يوجدوا «كنيسة»<sup>(١)</sup> ينبثق عنها الإله الجديد ذات يوم .

ولكن هل هذا كل شيء ؟ لو ان إقبالهم الإختياري على الإنتم والموت لم يصدر عنه سوى الوعد بقيمة مستقبلية ، لأجاز لنا تاريخ اليوم ان يؤكد حالياً ، على كل ، بأنهم ماتوا سدى ، وما زالوا عديمين . القيمة المستقبلية هي تناقض في الألفاظ ، لأنها لا تستطع ان تتبر عملاً ، ولا أن تقدم مبدأ اصطفاً ما دامت هذه القيمة غير مبلورة . ولكن أناس ١٩٥٥ ، المميزين بالتناقضات ، كانوا بإنكارهم ويموتهم بالذات يخلقون قيمة أصبحت ملحّة . وكانوا يؤكدونها معتقدين فقط انهم إنما يبشرون ببعيها . وكانوا طاهراً وعلانية يضعون فوق جلاذيتهم وفوق أنفسهم هذا الأثير الاسمي والمؤلم الذي وجدناه سابقاً في أصل التمرد .

فلنقف ، على الأقل عند هذه القيمة انفتحها حينما يصادف روح التمرد روح الشفقة والتضامن لأنهم مرة في التاريخ .

(١) بيم : قيم ومقدسات جديدة (الحرب)

وساوس حتى في المعترك

هتف الطالب كاليبايف قائلاً : أيجوز للمرء ان يتحدث عن العمل الثوري دون أن يشترك فيه ؟ إن رفاقه الذين اجتمعوا اعتباراً من ١٩٠٣ في « منظمة الكفاح » التابعة للحزب الاشتراكي الثوري ، تحت قيادة آزييف ، ثم بوريس سافنكوف ، كانوا جميعاً على مستوى هذه الكلمة العظيمة . لقد كانوا من أهل الإصلاح ، وكانوا الآخرين في تاريخ التمرّد لم يرفضوا شيئاً من وضعهم ولا من مأساتهم . فلئن عاشوا في الإرهاب ، و « لئن آمنوا به » ( بوكوتيلوف ) ، فما فتروا قط عن التنزق فيه شرّ مزق . إن التاريخ لا يقدم إلا قليلاً من الأمثلة عن اشخاص متعصّين عانوا وساوس حتى في المعترك . ولكن أشخاص ١٩٠٥ على الأقل لم تعوزهم الشكوك . وأعظم ما نستطيع ان تقدم إليهم من آيات التكريم ، هو ان نقول ما يلي : لا يسعنا في ١٩٥٠ (١) ان نطرح عليهم سؤالاً واحداً إلا سبق لهم انهم طرحوه على أنفسهم ، وأجابوا عليه جزئياً في حياتهم... أو بموتهم .

مرور خاطف

غير أنهم سرعان ما دخلوا في التاريخ . فعندما قرر كاليبايف مثلاً ، عام ١٩٠٣ ، أن يسهم مع سافنكوف في العمل الإرهابي ، كان عمره ٢٦ عاماً . وبعد عامين « شتق » الشاعر ، كما كان يُلقب . إنها حياة قصيرة . ولكن كاليبايف في مروره الخاطف ، يتراءى لذلك الذي يفحص تاريخ هذه الفترة بشيء من الهوى على أنه الوجه الإرهابي الأكثر دلالة .

إن سازونوف وشوايتزر وبوكوتيلوف وفواناروفسكي ومعظم الآخرين ظهروا على هذه الصورة في تاريخ روسيا والعالم ، منتصين لحظة ، منذورين للانفجار ، شهوداً عابرين وخالدي الذكر على تمرّد يزداد تمزقاً يوماً بعد يوم .

جميعهم تقريباً كانوا ملحدين . كتب بوريس فواناروفسكي الذي لقي حتفه

(١) صدرت الطبعة الأولى من « الإنسان التمرد » عام ١٩٥١ . - الحرب -



وهو 'يلقي قبلته على الاميرال دوباسوف : « أذكر انني ، حتى قبل دخولي المعهد الثانوي ، كنت أبشر أحد أصدقاء الطفولة بالإلحاد . ثمة سؤال واحد كان يجيرني . من اين جاء هذا ؟ ذلك انني لم اكن املك أبسط فكرة عن الحياة الأبدية » . اما كاليانيف فكان يؤمن بالله . فقبل بضع دقائق من اعتداء به بالقتل ، رآه سافنكوف في الشارع مسيراً امام أيقونة ، ممسكاً القنبل بيد ورأساً إشارة الصليب بالأخرى . ولكنه نبذ الدين ظهيرياً ، ورفض عونهُ في الزنازة قبيل الإعدام .

عزلة .. وتضامن تام

لقد اضطرتهم السرية الى العيش في العزلة . لانهم لم يعرفوا ، الا بصورة مجردة ، هذه البهجة العارمة التي يشعر بها كل رجل عمل يعيش على تماسٍ مع جماعة انسانية واسعة . ولكن الرابطة التي تجمع بينهم تقوم بالنسبة اليهم مقام كل التعلقات . «فروسية ا» ، كتب سازونوف الذي قال معلقاً بالصورة التالية : «كانت فروستينا مشبعة بروح بلغت من القوة مبلغاً بحيث ان كلمة «أخ» لا تعبر أيضاً بوضوح كاف عن ماهية علاقاتنا المتبادلة» . وفي السجن ، كتب سازونوف الى اصدقائه قائلاً : « اما من جهتي ، فالشرط الذي لا بد منه في سبيل السعادة هو ان احافظ الى الابد على شعوري بتضامني التام معكم » . اما فواروفسكي فاعترف من جهته ان امرأة محبوبة اعاقته عن الذهاب ، فقال لها هذه الجملة التي يعترف بأنها «مضحكة بعض الشيء» ، ولكنها فيما يعتقد تدل على حالته الذهنية : «اذا وصلت متأخراً عند الرفاق فسألنك» .

احترام حياة الآخرين ،  
وتضحية بالذات ...

هذه الزمرة الصغيرة من الرجال والنساء ، الضائعين في الجهور الروسي ، المتراصين المتضامنين ، اصطفوا مهنة الجلادين ، وهي مهنة كانت أبعد ما تكون عن استعداداتهم . انهم يحبون على نفس التناقض ، جامعين في أنفسهم احترام

الحياة الإنسانية بوجه العموم ، واحترار حياتهم الخاصة ، حتى ليصل بهم ذلك الى حد الجنين الى التضحية العظمى<sup>(١)</sup>. كانت دورا بريليان تعتقد ان مسائل البرنامج غير ذات اهمية . فالعمل الثوري كان يتجمل اولاً بتضحية الارهابي . قال سافنكوف : « ولكن الارهاب كان يتقل عليها كالخنة » . اما كاليبايف فكان مستعداً في كل لحظة للتضحية بحياته . « بل اكثر ، فقد كان ينشد هذه التضحية بجراح النفس . وخلال إعداد الاعتداء على الوزير بليف ، اقترح ان يرمي بنفسه تحت اقدام الحيل وان يهلك مع الوزير . ولدى فواناروفسكي ايضاً ، كانت الميل الى التضحية يتطابق مع فتنة الموت . وبعد توقيفه ، كتب لأهله قائلاً لهم : « كم مرة خطر بيالي وانا في شرح الشباب ان اقتل نفسي .... » .

#### الضحية الإرهابي

هؤلاء الجلادون الذي كانوا يغامرون بحياتهم ، وبشكل تام ، كانوا في الوقت نفسه لا يقاربون حياة الآخرين الا بوجودان مفرط في التشدد . فالاعتداء على الدوق مرج الأكبر فشل اول مرة لأن كاليبايف - الذي صوبه كل رفاقه في رأيه - ابى ان يقتل اطفالاً كانوا في عربة الدوق الأكبر . « وحول إرهابية اخرى ، راشيل لورديه ، كتب سافنكوف قائلاً : « كانت مؤمنة بالعمل الثوري ، وكانت تعتبر الانسحاب فيه كشرف وكواجب ، ولكنها لم تكن أقل تأثراً بالدماء من دورا بريليان » . وقد عارض سافنكوف نفسه في اعتداء على الاميرال دوباسوف في قطار (بطرسبورغ - موسكو) السريع : « لأدنى غفلة وأبسط تهور ، كان في وسع الانتحار ان يحدث في العربة وان يقتل اشخاصاً غرباء » . وفيما بعد انكر سافنكوف إنكاراً حاتماً ، « باسم الضحية الإرهابي » ، ان يكون قد اشتبك فني في السادسة عشرة في اعتداء . وساعة الحرب من احد المجريين القيصريين ، قرر اطلاق النار على الضحايا الذين قد يعترضون طريق هربه ، ولكنه قرر ان يقتل نفسه بالأحرى بدلا من ان يوجه سلاحه

ضد الجنود . اما فوئاروفسكي ، هذا القاتل الفتاك الذي اعترف بأنه لم يتصيد قط «لأنه كان يعتبر هذا العمل مجيباً» ، فصرح ايضاً بدوره قاتلاً : «إذا كان دوباسوف مع قريبته فلن ألقى القنبلة» .

موقفهم ...

وموقف النفوس الثانية

مثل هذا التكرات للذات ، مقرونًا بمثل هذا الاهتمام الشديد بحياة الآخرين ، يسمح لنا بأن نفترض ان هؤلاء القتلة الودعاء عاشوا المصير التدري في منتهى تناقضه . ويمكننا ان نفترض انهم هم ، مع اعترافهم بطابع العنف المحترم ، كانوا يقرون مع ذلك بأن العنف هو بلا مبرر . لا بد منه ... ، ولا معذرة فيه ... ، هكذا كان يتراءى لهم القتل . ان النفوس التافهة ، اذ تعترضها هذه المشكلة الرهيبة ، تستطيع ان تستكين الى نسيان احسد الحدين . فليأثم المبادئ الصورية ، كتكتفي بأن تعتبر كل عنف فوري لا معذرة فيه ، وتسمح اذن بهذا العنف المنتشر في أوجه شتى على صعيد العالم والتاريخ . او انها يأسم التاريخ ، تعزي نفسها بأن العنف لا بد منه ، وبالتالي تضيف القتل الى القتل ، بحيث لا نجعل من التاريخ سوى انتهاك واحد مديد لكل ما هو في الانسان احتجاج على الظلم .

ان هذا يعرف وجهي العدمية المعاصرة ، البورجوازي والثوري .

الانتحار يجر ما لا مبرر له

ولكن هذه النفوس المتطرفة التي نحن بصدددها لم تكن لتنسى شيئاً . وبالتالي ، إذ عجزت عن تبرير ما كانت تعتبره شيئاً لا بد منه ، تصورت ان تهب نفسها كبرر ، وأن ترد بالتضحية الشخصية على السؤال الذي كانت تطرحه على ذاتها . بالنسبة الى هؤلاء ، وبالنسبة الى كل المتمردين حتى مجيئهم ، توحد القتل توحداً ذاتياً مع الانتحار . إذ ذاك تقدم حياة مقابل حياة أخرى ، ومن هاتين التضحيتين ينبع الوعد بقيّة . إن كالييف و فوئاروفسكي والآخرين

يؤمنون بالتكافؤ بين حياة وأخرى. إنهم إذن لا يضعون أية فكرة فوق الحياة الإنسانية ، رغم أنهم يقتلون في سبيل الفكرة . أنهم يحيون تماماً على مستوى الفكرة . ويبررونها أخيراً في تقييدهم إياها حتى الموت .

نحن لا نزال إذن تجاه نظرة في التبرد ، إن لم تكن دينية ، فعلى الأقل ماورائية .

#### قيمة أخرى للحياة

ثمة اشخاص آخرون<sup>(١)</sup> سيأتون بعد أولئك ، يحذون نفس الابعان الشديد ، سيعتبرون مع ذلك هذه الطرق 'طرقاً عاطفية' ، سيرفضون التكافؤ بين حياة وأخرى . وبالتالي ، سيضعون فكرة 'مجردة' فوق الحياة البشرية ، حتى لو سموا هذه الفكرة تاريخياً . وإذا تخضعون سلفاً لهذه الفكرة ، سيعقدون العزم ، اعتباراً ، على اخضاع الآخرين أيضاً . حينئذ لا تعود مشكلة التبرد 'تحل بالرياضيات'<sup>(٢)</sup> ، بل بحساب الاحتمالات . فإذا تحقق الفكرة في المستقبل ، يجوز ان تكون الحياة كل شيء ... أو لا شيء . كلما تعاظم إيمان الحاسب بتحقيق هذه الفكرة ، تناقصت قيمة الحياة الانسانية . وفي النهاية ، لا يعود لها أية قيمة ...

#### تأكيد البراءة

لسوف نفحص هذه النهاية ، ونعني زمان الجلادين الفلاسفة وإرهابية الدولة . ولكن ، في انتظار ذلك ، نرى ان متبردي ١٩٠٥ ، عند الحد الذي يلزمون ، يعملوننا وسط دوي القنابل أن التبرد لا يسعه أن يؤدي الى العزاء والراحة العقائدية دون أن يكف عن أن يكون متبرداً . ان انتصارهم الوحيد اليقين هو في التغلب على العزلة والانكار ، على الأقل . فوسط عالم يقابلونه بالإنكار ويقابلهم بالعزل والنبد ، يحاولون الواحد بعد الآخر أن 'يعيدوا الأخوة' ،

(١) يقصد ثوري القرن العشرين الاشتراكيين - العرب -

(٢) أي بالتكافؤ بين حياة وحياة - العرب -

شأنهم في ذلك شأنا جميع النفوس العظيمة . إن تحاييهم الذي يُعتبر سبب سعادتهم حتى في قعر السجن ، والذي يشمل الجماهير الواسعة من إخوتهم المتعبدين الصامتين ، يُظهر مدى شقاوتهم وأملهم . في سبيل خدمة هذا الحب ، يحتاجون أولاً الى القتل . وفي سبيل تأكيد سلطان البراءة ، يحتاجون الى قبول بعض الإثم . ولن يُحل هذا التناقض بالنسبة اليهم إلا في اللحظة الأخيرة . العزلة والفروسية ، الإهمال والألم ، لن يمكن التغلب عليهما إلا في القبول الحر بالموت . إن جليابوف الذي نظم عام ١٨٨١ الاعتداء على اسكندر الثاني ، والذي أوقف قبل القتل بثمان وأربعين ساعة ، طالب بأن يُعدم مع المرتكب الفعلي للاعتداء . قال في رسالة الى السلطات : « إن جُنُ الحكومة وحده يُفسر نصب مشنقة واحدة بدلاً من اثنتين » ...

لقد نُصبت خمس مشاتق ، إحداها للمرأة التي كان يجب . ولكن جليابوف مات مهنساً . أما ريساكوف الذي تقاذل اثناء الاستجواب فقد جُرَّ جُرّاً على منصة الاعدام ، نصف مجنون من الرعب ...

#### الموت الطهر

ذلك أن هناك نوعاً من الإثم لم يكن جليابوف ليريد ، وكان يعلم انه سيتلقاه ، مثل ريساكوف ، اذا ظل وحيداً بعد ارتكاب القتل أو بعد دفع الغير الى ارتكابه . وهكذا قبيل تنفيذ الإعدام عانقت صوفيا بيروفسكايا حبيبها وصديقه ، ولكنها صدت عن ريساكوف الذي مات وحيداً ، ملعوناً من الدين الجديد . بنظر جليابوف ، كان الموت وسط اخوته يتطابق مع تبريره . من يقتل فلا يكون مذنباً إلا اذا ظل موافقاً على البقاء ، أو اذا خان إخوته كي يبقى . أما الموت فيمحو الإثم والجريمة بالذات .

ومن قبل ، صاحت شارلوت كورداي بفوكيه - ثاقيل<sup>(١)</sup> : « يا للوحش ،

(١) شارلوت كورداي : قتلت مارا انتقاماً للجيورديين ، وأعدمت في ١٧ تموز ١٧٩٣ .  
لوكيه ثاقيل : ألتم المام في المحكمة الثورية ، أعدم عام ١٧٩٥ (الحرب)

يجسني قائلة ا . . . إنه الإكتشاف المزعق العابر لقيمة انسانية قائمة بين البراءة والإلثم ، الرشاد والقي ، التاريخ والخلود . ساعة هذا الاكتشاف ، وفي هذه الساعة فقط ، تحل بالنسبة الى هؤلاء اليائسين سكينه غريبة ، سكينه الانتصارات النهائية . قال بوليفانوف : إن الموت بالنسبة اليه سيكون « سهلاً وعذباً » . وكتب فواناروفسكي انه تغلب على الحرف والموت ، « دون ان تختلج عضلة واحدة من عضلات وجهي ، دون أن أنبس ببنت شفة ، سأصعد الى منصة الإعدام ... ولن يكون ذلك عتفاً يمارس علي » ، بل سيكون النتيجة الطبيعية لحياقي . « وفيما بعد ، كتب الملازم شميدت قبل ان يعدم رماً بالرصاص : « إن موتي سينهي كل شيء ، وإن قضيتي إذ تتروّج بالعذاب ستكون تامة لا مأخذ عليها » . أما كاليبايف الذي 'حكم عليه بالاعدام بعدما وقف موقف المتهم أمام المحكمة ، والذي أعلن قائلاً : « أعتبر موتي بمثابة احتجاج عارم على عالم الدموع والدماء » ، ... تقول : أما كاليبايف فكتب هو نفسه قائلاً : « لمذ صرت خلف القضبان ، لم تخالطني في أية لحظة الرغبة في البقاء بصورة ما على قيد الحياة » . ولقد استجعت أمنيته . وفي ١٠ أيار ، في الثانية بعد منتصف الليل ، مشى نحو التبرير الوحيد الذي يقره هو ، وصعد الى منصة الاعدام ، موشحاً بالسواد ، دون معطف ، مكسو الرأس بلبادة . ولما مدّ له الأب فلورنسكي يسوع المصلوب ، أجابه وهو يعرض عن يسوع : « قلت لك سابقاً إنني نقضت يدي من الحياة ، وقأهبت للبهات » .

طور قيمة التضامن

أجل ، إن القيمة القديمة تولد ثانية هنا ، في نهاية المدمية ، على عتبة المشتقة بالذات . إنها انعكاس لشعار « نحن موجودون » (١) ، والذي وجدناه في نهاية تحليل روح التمرد ؛ ولكنه انعكاس تاريخي هذه المرة . انها حرمان "ويعين"

(١) إشارة الى القيمة الاولى ، قيمة التضامن ، : « أنا احمرد ، اذن نحن موجودون » .  
(المرب)

ملهم في الوقت نفسه ، وهي التي تألفت يومئذ خاطف على وجه دورا بريليان المضطرب ، إذ خطر ببالها ذلك الشخص الذي مات في سبيل نفسه وفي سبيل الصداقة الدائمة . وهي التي دفعت سازونوف الى الانتحار في السجن احتجاجاً ، وكي « يُحترَم إخوته » . وهي التي بررت حتى نيتشاييف يوم طلب اليه احد الجنرالات ان يشي برفاقه ، فطرحه بلطمة واحدة .

من خلال هذه القيمة ، كان هؤلاء الارهابيون يؤكدون عالم البشر ، يضعون انفسهم في الوقت نفسه فوق هذا العالم ، مبرهنين لآخر مرة في تاريخنا على ان التمرد الحق مبدع قيم .

نوريو القرن العشرين

١٩٠٥ ، بفضلهم ، أشارت الى قمة التوثب الثوري . ومنذ هذا التاريخ بدأ الانحطاط . فالشهداء لا يصنعون « الكنائس » : إنهم وثاقها أو ذريعتها . بعدئذ يأتي الكهان والمتطرفون في التقوى والايمان . إن النوريين المقبلين لن يطالبوا بمقايسة حياة بحياة . انهم سيروضون بمخطر الموت ، ولكنهم سيقبلون ايضاً باستبقاء انفسهم أكثر ما يمكن للثورة ولخدمتها . لذلك سيقبلون بالإثم الكلي لأنفسهم . الرضا بالمهانة ، ... هذه هي الميزة الحقيقية لنوريي القرن العشرين الذين يضعون الثورة وكنيسة البشر فوق انفسهم .

هل يكفي اعتراف الآخرين ؟

أما كاليبايف فيثبت ان الثورة ، الوسيلة اللازمة ، ليست بالغاية الكافية . وبذلك يتسامى بالإنسان بدلاً من أن يحيط من قدره . إن كاليبايف وإخوته الروس أو الامان هم الذين ، في تاريخ العالم ، يعارضون هيغل حقاً <sup>(١)</sup> ، لأنهم يقررون بأن الاعتراف الشامل <sup>(٢)</sup> لازم أولاً ، وغير كافٍ بعدئذ . لم يكن

(١) اوعان من البشر : نوع يقتل مرة واحدة ويدفع حياته لمنأ ، ونوع يبيع آلاف الجواهر  
ويقبل بتلقي آيات التكريم .  
(٢) بحث هذه النقطة سابقاً .

كاليبايف ليكتفي بمجرد التظاهر<sup>(١)</sup> ، حتى لو اعترف به الناس جميعاً ، لبقى الشك يخامر نفسه لأنه بحاجة الى موافقة الخاصة ، ولما كَفَتْ الموافقات كلها لإسكات هذا الشك الذي توكده في نفس كل انسان حقيقي مئات التهليلات الحماسية. لقد شك كاليبايف حتى النهاية ، ولكن هذا الشك لم يصرفه عن السعي. وفي ذلك يعتبر أنقى صورة عن التردد . من يرض بالموت ، ويدفع حياة مقابل حياة ، فانه يؤكد في الوقت نفسه قبة تتخطاه هو نفسه بوصفه فرداً تاريخياً ، وذلك مهما تكن مواقفه الإنكارية .

ان كاليبايف ينذر نفسه للتاريخ حتى الموت ، وفي ساعة الموت ، يضع نفسه فوق التاريخ . بصورة ما ، صحيح انه يفضل نفسه على التاريخ ، ولكن ماذا يفضل : أنفسه التي يوردها مورد الردى دونما تردد ، أم القية التي يجسدها وينفخ فيها الحياة ؟

الرد لا لبس فيه ولا اشتباه . لقد تقلب كاليبايف واخوته على العدمية .

#### ٤ - الشيغاليقية<sup>(٢)</sup>

من طريقة الى اخرى

بيد أن هذا الظفر سيكون بلا غد ، لأنه يتطابق مع الموت . وهكذا تبقى العدمية ، مؤقتاً ، بعد قاهرها . وفي قلب الحزب الاشتراكي الثوري بالذات ، تستمر السفاهة<sup>(٣)</sup> السياسية في السير نحو النصر .

إن الرئيس آذيف الذي أرسل كاليبايف الى الموت ، يمارس اللعب المزدوج ، يشي بالثوريين الى المباحث ... ويقتل الوزراء والنبل في الوقت نفسه . إن

(١) فلنتذكر ان الآخرين هم المرأة بالنسبة الى اهل التظاهر (الحرب)

(٢) اشتقاق من شيغالف . يقصد استعباد البشر ... جأهم (الحرب)

(٣) تستعمل الكلمات التالية بنفس المعنى : السفاهة ، الحرور من الدين ، الخيبة (الحرب)



التحدي يعيد شعار « كل شيء مباح » الى محله ، ويوحد التاريخ والقيمة المطلقة  
توحيداً ذاتياً .

هذه العدمية ، بعدما أثرت في الاشتراكية الفردانية ، ستقل عدواها الى  
الاشتراكية المسماة بالعالية ، والتي ظهرت في العقد التاسع من القرن التاسع عشر  
في روسيا<sup>(١)</sup> . وإن تركه لينشاييف وماركس المشتركة ستولد ثورة القرن  
العشرين المطلقة . وبينما كان الارهاب الفردي يطارد بمثلي الحق الإلهي  
الآخرين<sup>(٢)</sup> ، كانت لإدهابية الدولة تأخذ عندها كي تحطم هذا الحق تحطياً  
نهائياً في منشأ المجتمعات . إن طريقة تسلّم زمام السلطة لتحقيق الغايات النهائية ،  
تتقدم على التأكيد الانموزجي لهذه الغايات<sup>(٣)</sup> .

بين العدمية والاشتراكية العسكرية

الحقيقة ان لينين سيأخذ عن تفاتشيف ، وهو رفيق وأخ روحي لينشاييف ،  
نظرية في تسلّم السلطة كالت يعتبرها « عظيمة » ، وكان يلخصها هو نفسه كما  
يلي : « تكتم صارم ، اصطفاء الاعضاء اصطفاءً دقيقاً ، إعداد الثوريين  
المحترفين » . إن تفاتشيف الذي مات مجنوناً ، يشكل حلقة الانتقال بين العدمية  
والاشتراكية العسكرية . فقد أراد ايجاد يعقوبية روسية ، ولم يأخذ عن  
اليعقوبيين سوى طريقتهم في العمل ، لأنه كان ينكر هو ايضاً كل مبدأ وكل  
فضيلة . إنه ، وهو عدو الفن والاخلاق ، لم يوفق بين العقلاني واللاعقلاني إلا  
في الوسيلة . وان هدفه تحقيق المساواة الانسانية بتسلّم ، سلطة الدولة . تنظيم  
سري ، حلقات من الثوريين ، سلطة دكتاتورية للقادة ، ... هذه الموضوعات  
تعرّف مفهوم « الجهاز » الذي سيلقي نجاحاً عظيماً وفعالاً ، إن لم تعرف  
حقيقة هذا الجهاز . أما الطريقة نفسها فستكون عنها فكرة صحيحة حيناً نعلم

(١) ان اول زمرة اشتراكية ديموقراطية ، زمرة ييلشاوف ، ظهرت عام ١٨٨٣

(٢) يبعد اغتيال الارهابيين للوك (المرب)

(٣) يبعد قلب طريقة الاشتراكيين على طريقة الارهابيين الفرديين (المرب)

ان تلافيف كان يقتوح القضاء على كل الروس الذين يتجاوز عمرهم الخامسة والعشرين ، بوصفهم عاجزين عن تقبل الافكار الجديدة . انها لطريقة بارعة في الحقيقة ، وكان من المرجح ان تغلب في فن الدولة الحديثة المتفرقة ، حيث تجري تربية الطفل الجنونة وسط يافعين مذعورين .

صحيح أن الاشتراكية المطلقة تستنكر الارهاب الفردي بقدر ما يُخفي قيساً لا تنفق وهيئة العقل التاريخي . ولكنها ستعيد الارهاب الى صعيد الدولة ، ومبررها الوحيد في ذلك بناء الانسانية التي تُرفع أخيراً الى مرتبة الألوهية .

استعباد البشر ... حياً بالبشر

ثمة دورة تنتهي هنا . فقد انفصل التبرد عن جذوره الحقة ، ولم يعد أميناً للبشر ، لأنه خضع للتاريخ . وها هوذا الآن يعتزم إخضاع الكون كله . فيبدأ ، والحالة هذه ، عصر الشيغالية الذي يجده (المسوسون) <sup>(١)</sup> فرخوفنسكي المدمي الذي يطالب بالحق في الحزبي . إنه ، وهو المفكر النعيس الحقود <sup>(٢)</sup> ، يصطلي لإرادة القوة . فهي وحدها تستطيع في الحقيقة أن تسود على تاريخ ليس له من مدلول سوى ذاته . إن شيغاليف سيكون ضامنه وكفيله . بعد الآن سيكون حبُّ البشر مبرراً لاستعبادهم . إن شيغاليف الكلف بالمساواة <sup>(٣)</sup> خلص يأس ، وبعد تأملات طويلة ، إلى أنه ثمة نظام واحد ممكن ، رغم أنه في الحقيقة نظامٌ مقنط . وانطلقت من الحرية المطلقة ، وانتهت إلى الإستعباد المطلق . فالحرية النامة التي هي إنكار لكل شيء ، لا يسعها أن تحيا وان تُبرَّر إلا بخلق قبة جديدة متوحدة توحيداً ذاتياً مع الإنسانية كلها . فاذا ما تأخر هذا الحلق فان الانسانية تتناطح وتتفانى حتى الموت . إن أقصر طريق نحو هذه القيم الجديدة

(١) المسوسون ، أو الماخوذون ، أو الشياطين ، قصة لدستوينسكي .

(٢) «كان يتصور الإنسان على منواله ، وبهذا ، لا يعود يتخطى عن فكرته» .

(٣) «القتل والإقتراف في أمسى الحالات ، ولكن لا سبب المساواة» .

ير بالدكتاتورية التامة . «عُشر البشر سيملكون حقوق الشخصية ، وسيارسون سلطة مطلقة على الأعمار التسعة الباقية . أما هؤلاء الآخرون فيسقدون شخصيتهم ، ويصبحون كقطيع . وإذا خضعوا للطاعة السلبية ، سيُعادن إلى البراءة الأولى والبرّ الأصلي ، وإن جاز القول ، إلى الفردوس الأولي حيث سيعملون ، على كل حال» . إنها حكومة الفلاسفة التي حلم بها المفكرون الطوباويون . ولكن هؤلاء الفلاسفة لا يؤمنون بشيء . لقد جاء الملكوت ، ولكنه يُنكر التمرد الحقيقي ، والمسألة هي فقط مسألة سيطرة «القديسين»<sup>(١)</sup> العنيفين ، على حد قول أديب متعصب بمجد حياة رافائيل ومبائه . قال فرخوفنسكي بغصة : «الخبز الأعظم من فوق ، ونحن من حوله ، والشيغالية من تحتنا» .

#### السادة الجدد

هكذا بُشر بحكومات القرن العشرين المستبدة وإبراهيمية الدولة . إن السادة الجدد ، وصغار المفتشين<sup>(٢)</sup> يسودون اليوم على جزء من تاريخنا ، مستخدمين قمر المضطهدين . إن حكمهم طاغية ، ولكنهم يبررون طغيانهم بثقل العبء ، شأنهم في ذلك شأن الشيطان الروماني . «نستبقي لأنفسنا الرغبة والألم ، أما العيد فلهم الشيغالية» .

#### ثن الألووية

حينئذ تولد ذرية من التهداء جديدة وفظيعة بما فيه الكفاية . إن عذابهم الشديد يكمن في إيلام الآخرين . إنهم يستبدون انفسهم ... لسلطان سيادتهم الخاصة . فكي يصبح الإنسان إلهاً ، يجب ان تتدنّى الضحية لأن تصبح ... جلاداً . لهذا السبب ، يكون الجلاد والضحية يائس على حد سواء . ولا يعود السلطان ولا اليهودية متطابقين مع السعادة ويصبح السادة شرسين ، والمبيد

(١) في النص الفرنسي : المسيح ، بصيغة الجمع .

(٢) أو كبار الباحثين .

عابسين. وصدق مان جوست إذ قال إن تعذيب الشعب شيء رهيب . ولكن  
كيف نتعجب تعذيب البشر إذا كنا قد قررنا أن نجعلهم آلهة ؟ فكيف أن  
كبيريلوف الذي انتحركي يكون إلهاً ، رضي بأن تستفيد «مؤامرة»  
فرخوفنسكي من انتحاره ، كذلك فإن تأليه الإنسان لذاته يُعظم الحدّ الذي  
أظهره التمرد مع ذلك ، ويمشي قُدُماً في الدروب الموحلة ، دروب الوسيلة  
والإرهاب التي لما يتخلص منها التاريخ بعدُ .

## إرهابية الدولة و الإرهاب اللاعقلاني

نحو الدولة

كل الثورات الحديثة أدت الى تعزيز الدولة <sup>(١)</sup> ؛ ١٧٨٩ جاءت بنابليون ؛ ١٨٤٨ بنابليون الثالث ؛ ١٩١٧ بستانين ؛ الاضطرابات الايطالية في العقد الثالث .. موسوليني ، وجمهورية وايمار بهتار . وقد استهدفت هذه الثورات بجرأة متعاضمة بناء ملكوت الانسانية وإقامة الحرية الحقيقية ، ولا سيما بعدما صفت الحرب العالمية الأولى آثار الحق الالهي . انت جبروت الدولة المتعاضم ثبت كل مرة هذا الطموح . من الخطأ القول ان ذلك كان لا بد من حدوثه . ولكن من الممكن ان نقص كيف حدث ذلك ، اما العبرة فلعلها آتية .

بجانب عدد محدود من التعليقات التي لا تشكل موضوع هذه الدراسة ، يمكننا ان نعتبر نحو الدولة الحديثة الغريب الرهيب كنتيجة منطقية لمطامع تقنية وفلسفية مفرطة ، غريبة عن روح التمرد الحقيقية ، ولكنها مع ذلك ولدت

---

(١) المواطن والدولة . تأليف رويدي يلو ، ترجمة هاد رضا . سلسلة : ردي علما  
منشورات عويدات

الروح الثورية في عصرنا . ان 'حلم' ماركس النبوي وتكهنات هيجل او نيته الجبارة ولدت في النهاية ، بعد ما قوضت ملكوت الرب ، دولة عقلانية او لاعقلانية ، ولكنها اراهية في كلتا الحالتين .

هل الفاشية ثورة ؟

والحقيقة ان ثورات القرن العشرين الفاشية لا تستحق لقب ثورة . فقد اعوزها الطموح الشامل . ليس من شك في ان موسوليني وهتلر سعيا الى خلق امبراطورية ، وان المفكرين الوطنيين الاشتراكيين فكروا ، على وجه صريح ، في الامبراطورية العالمية . ووجه اختلافهم مع الحركة الثورية التقليدية انهم اصطفوا من التبركة العدمية تأليه اللاعقلاني ، واللاعقلاني وحده ، بدلاً من تأليه العقل . وبذلك تخلوا من الكلي . هذا لا يمنع أن موسوليني ينسب الى هيجل ، وهتلر الى نيته ، وهما يمثلان على صعيد التاريخ بعض نبوءات الفكر الألماني . وهذا الصدد ، يخضن تاريخ التردد والعدمية . وكأنا أول من بنى دولة على الفكرة القائلة بأن ليس لشيء معنى ، وان التاريخ ليس سوى عرض القوة . وسرعان ما ظهرت النتائج ...



دين هلتر

منذ ١٩١٤ بشر موسوليني بـ « دين القوضوية المقدس » ، وأعلن بأنه عدو كل المذاهب المسيحية . أما هتلر فلأن دينه كان يضع الإله العناية جنباً الى جنب مع الوهالالا (١) . والحقيقة ان إلهه كان حجة وبرهاناً في الإجماعات ، ووسيلة لإثارة النقاش في ختام الخطابات . لقد آثر ان يعلن بأنه 'ملهم' ، ما لقي النجاح . وعند الإنكسار ، ادعى بأن شعبه قد خانته . وبين الحالتين ، لم يظهر ما 'يعلن' للملأ انه استطاع في يوم من الايام ان يعتبر نفسه مذنباً امام

(١) هيكل لظله الرجال في المانيا .

(٢) مئوى الابطال القتلى في الميتولوجيا الساندينافية .

أي مبدأ . إن إرنست برتر ، الرجل الوحيد ذا الثقافة الرفيعة الذي اضفى على النازية مظهر فلسفة ، اصطفى على كل صيغ العدمية بالذات : «ان خير رد على خيانة العقل للحياة ، خيانة العقل للعقل . وان إحدى المتع الكبرى في هذا الزمان هو الإسهام في هذا العمل التخريبي» .

#### اخلاق العصابات

إن رجال العمل ، حينما لا تكون قلوبهم عامرة بالإيمان ، لا يؤمنون أبداً إلا بحركة العمل . اما المفارقة الواهية الاساس والتي وقع فيها هتلر ، فتكمن في انه اراد ان يؤسس نظاماً مستقراً ، على حركة مستمرة وإسكار . وصدق راوشنغ في كتابه «ثورة العدمية» ، إذ قال ان الثورة الهتلرية حركة محضة . ففي ألمانيا التي زعزت أركانها حرباً لم يسبقها مثيل ، وهزتها كادئة الإنكسار والضائقة الاقتصادية ، لم تعد أية قيمة قائمة . ولئن وجب اعتبار ما سماه الشاعر غوته « قَدَر الشعب الألماني في ان يصعب كل الامور على نفسه » فلن وباء الاتجار الذي نزل بالبلاد كلها ، في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، بنىء كثيراً عن تشوش الاذهان . من تيؤس قلوبهم من كل شيء ، فلا يتردد إليهم ليأمنهم عن طريق المحاكات المنطقية ، بل عن طريق الهوى وحده ؛ وفي هذه الحالة المعنية ، عن طريق نفس الهوى الذي كان يجثم في اعماق هذا اليأس ، ونعني الهوان والكره . لم تعد هناك قيمة ، مشتركة بين البشر وأعلى منهم في الوقت نفسه ، يستطيعون بإسمها ان يحكموا على بعضهم بعضاً . لذلك قبلت ألمانيا ١٩٣٣ بتبني القيم المنحطة التي جاء بها نقر محدود، وحاولت ان تقرضها على حضارة بأسرها .

بدلاً من اخلاق غوته ، اصطفت اخلاق العصابات وخضعت لها ...

صراع دائم ... ومنهبات دالة

اخلاق العصابات ... انتصار وانتقام ، انكسار وغل ، بلا نقاد .  
عندما أشاد موسوليني بـ «قوى الفرد الاولى» بشر بتمجيد قوى الفرزة

والدم الغامضة ، وبالتبرير البيولوجي لاسوء ما 'نتج غريزة' التحكم . وفي محاكمة نورمبرغ ، نوه فرانك بـ « كراهية الشكل » التي كانت تتمثل في نفس هتار . صحيح ان هذا الرجل لم يكن إلا قوة في حالة حركة ، 'تقومها وتعززها حسابات الكيد وبراعة الدهاء . حتى شكله الجسماني ، العادي التافه ، لم يكن ليشكل عائقاً ، بل كان يسنده ويدعمه لدى الجماهير <sup>(١)</sup> . كان العمل <sup>(٢)</sup> قوامه والسعي عماده . وكانت المكينونة هي العمل ، في اعتقاده . لهذا السبب ، لم يكن في وسع هتار وجماعة نظامه الاستغناء عن الاعداء . لم يكن في وسعهم ، وهم من اهل الظاهر <sup>(٣)</sup> المجنونين ، ان 'يعرفوا' أنفسهم الا بالنسبة الى هؤلاء الاعداء ، وأن يتبلور شكاهم إلا في الحركة الحامية الوطيس التي ستطيح بهؤلاء الاعداء . اليهود ، الماسونيون ، الرأسماليون المسيطرون ، الانغلو ساكسون ، السلافيون البهيميون ، ... كل هؤلاء تتالوا في الدعاية وتعاقبوا في التاريخ كي يسيروا 'صعداً بالقوة العمياء الماضية الى حدها ومنتهىها .

الصراع الدائم ... كان يتطلب منبهات دائمة

#### الحركة الناعية

كان هتار التاريخ في الحالة الخالصة . «الصيرورة» كما قال يونغر ، خير من العيش . لقد بشر إذن بالتوحيد الذاتي التام مع تيار الحياة ، عند أخفض مستوى ، وضد كل حقيقة واقعة عليا . إن النظام الذي ابتدع السياسة الخارجية البيولوجية كان يسير خلافاً لمصلحة البشرية ، ولكنه كان يمثل على الأقل لمنطقه الخاص . هكذا كان روزنبرغ يتحدث عن الحياة بألفاظ فغصية : «أسلوب طاوور يسير ، ولا يهم نحو أية جهة وإلى أية غاية يسير» . بعد ذلك ، سنشر هذا الطاوور الدمار في التاريخ ، وسيخرب ببلاده بالذات ، ولكنه يكون قد

(١) L'homme du néant . Max Picard

(٢) العمل - السعي - الحركة .

(٣) لم ان اهل الظاهر يعرفون انفسهم بالنسبة الى الآخرين .



عاش على الأقل . كانت المنطق الحقيقي لهذه الحركة : إما الخذلان التام ، او السير من غزو الى غزو ومن عدو الى عدو نحو إقامة «امبراطورية» الدماء والعمل . قلما يُحتمل ان يكون هتلر قد تصور هذه الامبراطورية ، على الأقل في الاصل . فلا في الثقافة ، وحتى لا في الغريزة او الدهاء ، لم يكن على مستوى مصيره . لقد انهارت المانيا لانها خاضت صراعاً توسعياً مسلحة بفكرة سياسية اقليلية . ولكن يوتنر كان قد لاحظ هذا المنطق ، واعطى صيغته . فقد تصور «امبراطورية عالمية وتقنية» ، «لديانة تقنية معادية للسيحية» ، اوفياؤها وجنودها العمال انفسهم لان - وهنا كان يوتنر يلتقي بماركس - العامل عالمي<sup>١</sup> يهيكله الإنساني . «قانون» نظام قيادة جديدة ، يقوم مقام تبديل العقد الاجتماعي<sup>(١)</sup> . ان العامل يُنتشل من دائرة المفاوضات والشقة والكلام المرصوف ، ويرفع الى رتبة العمل<sup>(٢)</sup> . وتتحول الالتزامات الحقوقية الى التزامات عسكرية» . «الامبراطورية» ، كما نرى ، هي في الوقت نفسه العمل والكتلة العالمين ، حيث يسود الجندي - العامل الذي تحدث عنه هيجل ، كالبد . لقد أوقف هتلر في وقت مبكر نسبياً على طريق هذه الامبراطورية . ولكن حتى لو اتبع له السير الى مدى أبعد ، لما رأينا إلا انتشاراً متزايد الإنساع حركية لا تقاوم ، وتعزيزاً متزايد العنف للبادئ الكلية التي كانت وحدها قادرة على خدمة هذه الحركية .

#### حقيقة الناشئة

ان روتشنغ تحدث عن مثل هذه الثورة فقال إنها لم تعد تمحوراً وعداءً وازدهاراً للعقل . إنها «موت الحرية وتسلط العنف وعبودية العقل» . الفاشية هي الإحتقار، في الحقيقة . وبالعكس ، كل شكل من أشكال الإحتقار إذا تدخل في السياسة فانه يهدد للفاشية أو يقسمها . يجب ان نضيف قائلين ان الفاشية لا يسعها أن تكون شيئاً آخر دون أن تُنكر ذاتها . إن يوتنر كان يستخلص من

(١) يقصد هنا العقود المبرمة بين العمال وأرباب العمل - الحرب -

(٢) العمل = السعي = الحركة .

مبادئه الخامة انه خير للره أن يكون مجرمًا من أن يكون بورجوازيًا . أما هتلر الذي كان أثقل موهبة أدبية واجكن أكثر منطقاً بهذا الخصوص ، فكان يعلم بأنه سيان للره أن يكون مجرمًا أو بورجوازيًا ، ما دام لا يؤمن إلا بالنجاح . لذلك ، أجاز لنفسه ان يكون كلا الاثنين . قال موسوليني : « الأمر الواقع هو كل شيء » . وقال هتلر : « متى تعرض العرق لخطر الإضطهاد... فإن مسألة الشرعية لا تعود تلعب سوى دور ثانوي » . على كل ، بما أن العرق يحتاج دائماً إلى أن يكون مهدداً كما يوجد ، لذلك لا وجود أبداً للشرعية . « إنني مستعد للتوقيع على كل شيء ، للرضا بكل شيء... وفيما يتعلق بي ، انني قادر » ، بكل حسن نية ، على أن أوقع معاهدات هذا اليوم وعلى أن أفسخها بكل برود غداً ، إذا كان لمستقبل الشعب الألماني علاقة بالأمر . على كل ، قبل أن يشرع الفوهرر هتلر بالحرب ، أعلن لقواده أن المنتصر لن يسأل في المستقبل هل قال الحقيقة أم لا . أما الازمة التي كانت تتكرر في دفاع غورنغ أثناء محاكمة نورمبرغ فتراجع إلى الفكرة التالية : « المنتصر سيكون دائماً القاضي ، والمغلوب دائماً المتهم » . ليس من شك في أن هذا الكلام يقبل النقاش . ولكننا حينئذ لا نفهم روزنبرغ اذ قال في محاكمة نورمبرغ إنه لم يكن ليتوقع أن تؤدي هذه الأسطورة إلى القتل . وعندما لاحظ النائب العام الإنكليزي ان « الطريق من كتاب هتلر « كفاحي » ، كانت تؤدي مباشرة إلى غُرْف الغاز في ميْدنك ، لمس العكس موضوع المحاكمة الحقيقي ، موضوع المسؤوليات التاريخية للعدمية الغربية ، الموضوع الوحيد الذي لم يناقش حقاً في نورمبرغ ، لأسباب واضحة . فلا يجوز ترؤس محاكمة بإعلان التبريم العام لحضارة بأسرها . لقد جرى الحكم بناءً على الأفعال وحدها ، هذه الأفعال التي كانت على الأقل تصرخ في وجه جميع من في الأرض .

سيد واحد ... وملايين العبيد

مها يكن من أمر ، فإن هتلر ابتدع حركة الغزو الدائمة التي لولاها ما كان

شيئاً . ولكن وجود العدو الدائم معناه وجود الإرهاب الدائم ... على مستوى الدولة هذه المرة . إن الدولة تتوحد توحداً ذاتياً مع «الجهاز» ، أي مع مجموع آليات الغزو والقمع . الغزو الموجه إلى الداخل يُسمى دعابة<sup>(١)</sup> (أول خطوة نحو الجميع ، على حد قول فرانك) ، أو قمعاً . وإذا ما توجه نحو الخارج فإنه يخلق الجيش . كل المشكلات تُنظَّم إذن تنظيمياً عسكرياً ، وتُطرح بعبارات القوة والفعالية . القائد العام يُحدد السياسة ، ويُعين على كلٍّ جميع المشكلات الإدارية الأساسية . هذا المبدأ الذي لا يُدخَل من حيث فن القيادة الحربية ، يُعَبِّم في الحياة المدنية . قائد واحد ، شعب واحد ، ... معناه سيد واحد وملايين العبيد . إن المؤسسات السياسية الوسيطة<sup>(٢)</sup> التي تشكل ضمانات الحرية في كل المجتمعات ، تختفي كي تفسح المجال لإله حقوق بطاش<sup>(٣)</sup> يسود على الجماهير الصامتة ، أو - والأمرات سيان - الهاتفة بالشعارات . فلا توضع بين القائد والشعب مؤسسة تتكفل بالتوفيق أو بالتوسط بينهما ، بل يوضع الجهاز ... أي : الحزب الذي هو فيضٌ عن القائد وأداة لإرادته المضطربة . هكذا يُؤلِّد المبدأ الأول والوحيد في هذه العبادة الوضيعة ، مبدأ الزعامة ، الذي يقوي في عالم العدمية الصنمية والمقدسات المنحلة .

هتلر الرب

إن موسوليني العالم بالحقوق اللاتينية اكتفى بداعي المصلحة العليا في الدولة ، وحوّله فقط إلى مطلق ، بكثير من البلاغة . « لا شيء خارج نطاق الدولة ، فوق الدولة ، ضد الدولة . كل شيء للدولة ، من أجل الدولة ، في الدولة » . أما ألمانيا النازية فأعطت هذا الداعي الباطل لغته الحقيقية ، لغة الدين . كتبت إحدى الصحف النازية خلال مؤتمر عقده الحزب ، فقالت : « كان قَرَضُنَا الكنسي أن نعيد كل واحد إلى الأصول ، إلى «المصادر» ، والحقيقة أن ذلك كان عبادة وخدمة للرب » .

(١) المجلس هو مثلاً مؤسسة سياسية وسيطة بين الحاكم والبيعة . لاحظ تأثر كامو بموتسكيو .  
المرب

(٢) في النص الفرنسي : ييوه (الإله الخلود) ، لايس الجزمة ، عسكري (بطاش)

الأصول هي إذن في الصرخة الأولى. فما هو هذا الإله المقصود هنا ؟ نمة تصريح رسمي صادر عن الحزب يحيطنا علماً بذلك : « نحن جميعاً في هذه الدنيا نؤمن بأدولف هتلر ، قائداً ... ونعلن بأن الاشتراكية الوطنية هي الديانة الوحيدة التي تسيّر شعبنا نحو الخلاص »

من القاتل ؟

إن أوامر القائد المنتصب بين لب الأنوار، على قمة من المنصات والأعلام ، هي بمنزلة الشريعة والفضيلة . فإذا ما صدرت الأوامر مرة واحدة فقط بالجريمة ، فحينئذ من رئيس إلى مرؤوس تهبط الجريمة حتى العبد الذي ، من جهته ، يتلقى الأوامر دون أن يأمر أحداً . إن أحد جلادي « داشو » ينتحب بعدئذ في سجنه : « لم أفعل سوى تنفيذ الأوامر . الفوهرر ورايخ الفوهرر هما اللذان جاءا بهذا كله ثم ذهبوا . إن غلاك تلقى الأوامر من كالتنبرونر ، وأخيراً ، صدرت إلي الأوامر بأن أعدم الضحية بالرصاص . لقد سلموني الحبل كله ، لأنني لم أكن سوى مأمور بسيط ، ولم يكن في وسعي أن أتنازل عن حملي لمن هو أدنى مني مرتبة . والآن ، يدعون أنني القاتل . » إن غورنغ تذرّع في المحاكمة بإخلاقه للزعيم ، وأنه « لا يزال هناك مسألة شرف في هذه الحياة الملعونة » . كان الشرف في الطاعة التي تختلط أحياناً مع الجريمة . إن القانون العسكري يعاقب العصيان بالموت ، وشرفه عبودية . وحينما يكون الجميع عسكريين ، تكون الجريمة في امتناع المرء عن القتل إذا كان النظام يتطلب ذلك .

أناشيد الحرية في معسكرات الموت

لسوء الحظ ، قلما يتطلب النظام عمل الخير . فالحركية العقائدية الخالصة لا يمكن أن تتوجه نحو الخير ، وإنما نحو الفعالية فقط . ما دام هناك أعداء فسيكون هناك إلهاب ، وسيكون هناك أعداء ما دامت الحركة ستوجد كي يوجد النظام .. « كل القوى النافذة الكفيلة بإضعاف سيادة الشعب التي يمارسها الزعيم بمساعدة الحزب ، يجب أن تُزاح » . يجب أن يُهدى الأعداء المراهطة بالموعظة أو الدعاية ، يجب أن يبادوا بالمباحث أو القساو . النتيجة هي أن

الانسان اذا كان من الحزب ، فإنه لا يعود سوى اداة في خدمة الزعيم ، سوى جزء من الجهاز ؛ وإذا كان عدواً للزعيم ، فإنه لا يعود سوى سلمة يستهلكها الحزب . إن الوثبة اللاعقلانية ، الناشئة عن التمرد ، لا تعود تستهدف سوى إخضاع هذا الذي لا يجعل من الإنسان جزءاً من آلة ، ونعني إخضاع التمرد ذاته . أخيراً ترتوي الفردانية الرومانسية للثروة الألمانية في عالم الأشياء . فالإرهاب اللاعقلاني يُشَيِّه<sup>(١)</sup> البشر ، «العُصَيَّات الجرمومية الكوكبية» على حد تعبير هتار . إنه لا يستهدف إفناء الشخص فحسب ، بل أيضاً إفناء امكانيات الشخص العامة : التفكير ، التضامن ، النزوع إلى المطلق . إن الدعاية والتعذيب هما وسائل مباشرة للتخطيم . بل أكثر ، فالحرمان المنهجي من الحقوق ، والخلط مع المجرم المتحلل من القيم ، والإشراك القسري في الإثم ، هي أيضاً من الوسائل . من يقتل او يعذب فإنه لا يعرف سوى نقیصة واحدة في انتصاره . إنه لا يستطيع أن يشعر بأنه بريء . لذلك يحتاج إلى خلق الإثم لدى الضحية بالذات ، كي لا يبور الإثم العام سوى ممارسة القوة ، وكي لا يكرس سوى النجاح ، في عالم يسير على غير هدى . وحينما تختفي فكرة البراءة لدى البريء نفسه ، تسود قيمة القوة في عالم يائس . لهذا السبب ، يمين العقاب الدنيء القاسي على هذا العالم ، حيث لا بريء إلا الحجارة . إن المدانين بكرهون على شتى بعضهم بعضاً . ويقضى حتى على صرخة الأمومة الخالصة ، كما فعل مع هذه الأم اليونانية التي أجبرها أحد الضباط الألمان على اختيار أحد أبنائها الثلاثة كي يُعدم رماً بالرصاص . هكذا نُصبح أخيراً أحراراً . إن القدرة على القتل والإذلال تنتشل النفس الذليلة من براثن العدم . وحينئذ تُرتل أناشيد الحرية الألمانية على نغم جوقة من السجناء ... في معسكرات الموت .

مأساة يديس

لا مثيل في التاريخ للجرائم المنابرية ، لان التاريخ لا يسوق اي مثال عن

(١) اشتقاق من : شه .

عقيدة دمار شاملة بتل هذه الصورة ، تمكنت في يوم من الايام من السيطرة على قياد أمة متحضرة. فوجه خاص ولأول مرة في التاريخ ، ثمة رجال رسميون استخدموا قوام الواسعة لإقامة عبادة خارج نطاق كل اخلاق . هـ - هذه المحاولة الاولى لبناء كنيسة على العدم ، 'دفع ثمنها بالعناء نفسه . ان تدهور قربة ليديس يبين بوضوح ان مظهر الحركة المتأريه المتأاجي العلمي يغطي في الحقيقة اندفاعه هوجاء ، لا يمكن ان تكون الا اندفاعه اليأس والكبرياء . فتجاه قرية افترض انها شقت عصا الطاعة ، لا يمكن ان يتصور المرء حتى الآن سوى موقفين للفاتح . إما القمع المحسوب وإعدام الضحايا بلا مبالاة ، او الانقضاة الوحشية ، والقصور بالضرورة ، يقوم بها جنود حائقون . ولكن ليديس 'دمرت بكلا الطريقتين . انها تمثل تخريبات هذا العقل في اللاعقلاني ، القيمة الوحيدة التي يمكن ان نجد لها في التاريخ . فلم 'يكتف بحرق البيوت ، وبإعدام رجـال القرية ، وبإبعاد نساها ، وبنقل اطفالها كي 'يروا على دين هتار ' ' ، بل قامت ايضاً بعض الفرق الخاصة بعمل عدة أشهر لتسوية الارض بالديناميت ، ولاخفاء الجبارة ، وغمر بحيرة القرية ، وتحويل منحنى الطريق وبحرى النهر .

بعد ذلك ، لم تعد ليديس شيئاً ، لم تعد سوى ذكرى مجردة ، بموجب منطق الحركة . وفي سبيل المزيد من الاحتراس ، أفرغت المقبرة من الموتى ، لانهم كانوا ما زالوا 'يذكرون بأنه ثمة شيء كان في هذا المكان .

وجه هتار الحقيقى

ان الثورة العدمية التي تجلت تاريخياً في الديانة المتأريه ، لم تواجد اذن سوى ولع شديد بالعدم ، وانقلبت في النهاية على ذاتها. في هذه المرة على الاقل ورغم هينل ، لم يكن الإنكار 'مبدعاً . لعل هتار يمثل الحالة الوحيدة في التاريخ عن طاغية لم 'يختلف اى شيء في رصيده . فلنفسه ، ولشعبه ، وللعالم ، لم يكن سوى انتحار وقتل . سبعة ملايين اوروبي أبعدوا عن ديارهم او 'قتلوا ، عشرة ملايين ضحية حرب لعلها ما زالت غير كافية للتاريخ ليحكم عليه ، لأنه ألف القتلة . ولكن القضاء على مبررات هتار الاخيرة ، ونعني القضاء على الأمة

الألمانية ، سيجعل بعد الآن من هذا الرجل الذي سَبَّحُ وجوده التاريخي خلال سنوات على ملايين البشر ، . . نقول : سيجعل منه ظلاً مضطرباً بانساً . ان إفادة «سبير» في محاكمة نورنبيرج دلت على ان هتلر ، في حين كان في وسعه إيقاف الحرب قبل حلول الكارثة السامة ، أراد الانتحار العام وفناء الأمة الألمانية المادي والسياسي . فالنتجاح بقي حتى النهاية القيمة الوحيدة في نظره . بما ان ألمانيا خسرت الحرب ، لذلك هي نذلة خائنة ، ويلزم لها ان تموت . « اذا كان الشعب الألماني عاجزاً عن الانتصار ، فليس جديراً بالحياة . لقد قرر هتلر اذن ان يجره الى الدمار وان يجعل من انتحاره تمجيداً وتأييلاً ، عندما كانت المدافع الروسية تدك جدران القصور البرلينية . ان هتلر ، وغورنغ الذي كان يريد ان يرى رفاقه في غابوت من مرمر ، وغوبلز ، وهملر ، ولاي ، ... انتحروا في أنفاق او في زرنانات . ولكن هذه الميتة هي من اجل لا شيء ، انها كحلُم مزعج ، كدخان يتبدد . انها غير فعالة وغير أنموذجية ، وتكرس بطلات العدمية الدامي . لقد صاح فرانك بيجنون : « كانوا يحسبون انفسهم احراراً ، ألم يكونوا يعرفون ان لا خلاص من الهتلرية ! » . ما كانوا يعرفون ذلك ، وما كانوا يعرفون ان إنكار كل شيء عبودية ، وان الحرية الحقنة خضوع داخلي لقية تواجه التاريخ ونجاحاته .

#### مقارنة

ولكن الفلسفات الفاشية ، على الرغم من انها سمعت تدريجياً الى قيادة العالم ، لم تطمح قط في الحقيقة الى امبراطورية عالمية . اكثر ما هنالك ان هتلر ، وقد اعترته الدهشة من انتصاراته الخاصة ، تحول عن اصل حركته الأقليمي نحو حلم غامض بامبراطورية ألمانية لا علاقة لها بالامبراطورية العالمية . اما الشيوعية الروسية فتطمح علناً ، بأصلها بالذات ، الى امبراطورية عالمية . هنا سر قوتها ، وعمقها البصير ، واهميتها في تاريخنا . فرغم المظاهر ، كانت الثورة الألمانية بلا مستقبل . لم تكن سوى اندفاعاً بدائية ، تخريباتها اكبر بكثير من طموحها الحقيقي .

أما الثورة الروسية فتكفلت بالطموح الماورائي الذي تصفه هذه الدراسة، وبنناء ملكوت الانسان وقد تأله في النهاية ، بعد موت الاله . ليس في وسع المغامرة الهتارية ان تطمح في لقب الثورة ، ولكن الشيوعية الروسية استحقت هذا اللقب . وعلى الرغم من انها لم تعد تستحقه في الطاهر ، فانها تدعي بأنها تستحقه ذات يوم والى الأبد . لأول مرة في التاريخ ، نرى عقيدة وحركة مستندتين الى امبراطورية مسلحة ، تضعان نصب اعينها الثورة النهائية والتوحيد النهائي للعالم . ويبقى علينا ان نفحص هذا المطمح بالتفصيل .

في ذروة جنونه ، ادعى هتلر تثبيت التاريخ لألف عام . وكان يعتقد انه يكاد يحقق ذلك . وكان الفلاسفة الواقعيون في الامم المقهورة يتهاونون للملاحظة الامر ولتبريره ، فاذا بمعركتي بريطانيا وستالينغراد تلقيان به الى الموت ، ونسيران بالتاريخ الى الامام مرة أخرى . ولكن إرادة الألوهية عند البشر ، كالتاريخ الصامد ، تعود الى الظهور ، ويزيد من الجدد والفعالية ، في صورة الدولة العقلانية ، مثلما يجري بناؤها في روسيا .



## إرهابية الدولة

و

## الإرهاب العقلائي

تمهيد

في انكلترا القرن التاسع عشر ، وسط العذاب والبؤس الرهيب الناشئين عن الانتقال من الرأسمال العقاري الى الرأسمال الصناعي ، كان ماركس يملك كثيراً من العناصر لتحليل الرأسمالية الاولى تحليلاً رائعاً . اما الاشتراكية - باستثناء الدروس التي كان في وسعه استخلاصها من الثورات الفرنسية ، والمخالفة لمبادئه على كل - فكان مضطراً الى التحدث عنها بصفة المستقبل وبصورة مجردة . فليس عجيباً اذن ان يكون قد استطاع ان يجمع في مذهب الطريقة الانتقادية الأكثر صحة وشرعية ، والآمال الخيالية الأكثر قبولاً للجدال . المصيبة ، لسوء الحظ ، ان الطريقة الانتقادية قد تتكيف ، بالتعريف ، مع الحقيقة الواقعة ؛ ولكنها ابتعدت ابتعاداً متزايداً عن الوقائع ، بمقدار ما ارادت ان تظل امينة للنسوة . وقد ساد الاعتقاد - وهذا بحكم الاشارة - ان ما قد نلسم به للحقيقة الواقعة ، 'ينتزع من الآمال . هذا التناقض لوحظ منذ عصر ماركس .

فعقيدة «البيان الشيعوي» لم تعد صحيحة صحة تامة بعد عشرين عاماً، عندما صدر «رأس المال». بها يكن من امر، فقد ظل «رأس المال» ناقصاً، لان ماركس انصرف في ختام حياته الى مجموعة جديدة وعجيبة من الوقائع الاجتماعية والاقتصادية، كان لا بدّ من تكييف المذهب ثانية معها. كانت هذه الوقائع تتعلق خاصة بروسيا التي كان قد استخف بها من قبل. غير خاف اخيراً أن معهد ماركس - انجاز في موسكو قد اوقف عام ١٩٣٢ نشر مؤلفات ماركس الكاملة، مع انه بقي اكثر من ثلاثين مجلداً للنشر.

لم يكن محتوى هذه المجلدات، ولا شك، ... «ماركسيا» بقدر كاف... على كل، منذ وفاة ماركس بقيت أقلية من التلامذة امينة لطريقته. اما الماركسيون الذين صنعوا التاريخ فتمسكوا بالنبوءة، وبما في المذهب من رؤيا، لتحقيق نبوءة ماركسية... في ظروف تكهن ماركس بعدم امكان حدوث ثورة فيها. يمكن القول عن ماركس ان معظم تكهناته اصطدمت بالوقائع، بينما كانت نبوءته موضع إيمان متزايد. وسبب ذلك بسيط: فالتكهنات كانت لأمد قصير، وأمكن التحقق منها. اما النبوءة فلأمد طويل، وتلك ما يعزز رسوخ البيانات: استحالة اقامة الدليل. فعندما كانت التكهنات تنهار، كانت النبوءة تظل الأمل الوحيد. وعن ذلك ينجم ان النبوءة هي الوحيدة التي تسود على تاريخنا.

في هذه الدراسة، لن نفحص الماركسية وورثتها إلا من زاوية النبوءة.

## ١ - النبوءة البورجوازية

ني بورجوازي ونوري

ماركس ني بورجوازي ونبي نوري في وقت واحد. ولئن كان الثاني أبعد صيتاً وأكثر شهرة من الأول، فان هذا الاخير يفسر اشياء كثيرة في مصير الثاني. ثمة آمال من اصل مسيحي وبورجوازي، تاريخية وعلمية في وقت

واحد ، أنثرت لديه على الآمال الثورية المنبثقة عن الفكر الالاماني والثورات الفرنسية .

#### الصيرورة والتاريخ

إن وحدة العالم المسيحي والعالم الماركسي تبرز للعيان ، خلافاً للعالم القديم . فالمقيدتان تشتركان في نظرة الى العالم تفصلها عن الموقف اليوناني . ويُعرف ياسبرس هذه النظرة تعريفاً جيداً : « انه لتفكير مسيحي ان نعتبر تاريخ البشر كتاريخ وحيد تماماً » . فالمسيحيون كانوا اول من اعتبر الحياة الانسانية وسلسلة الأحداث كتاريخ يجري اعتباراً من بداية نحو نهاية ، خلاله يفوز الانسان بالخلاص او يستحق العقاب . ان فلسفة التاريخ نشأت عن تصور مسيحي 'يدهش' المفكر الاغريقي . فلا يملك مفهوم 'الصيرورة' الاغريقي اية نقطة مشتركة مع تصورنا للتطور التاريخي . الاختلاف بين الاثنين هو الاختلاف بين دائرة وخط مستقيم . كان اليونانيون يتصورون سير العالم كسير دوري . وكي نطفي مثلاً معيناً ، لم يكن ارسطو ليعتقد انه لاحقاً في الزمان لحرب طروادة . وفي سبيل الانتشار في عالم البحر الابيض المتوسط ، اضطرت المسيحية الى التأثر بالهيلينية ، وبالتالي اصبحت عقيدتها اكثر مرونة . ولكن أصلاتها تكمن في انها ادخلت الى العالم القديم مفهومين لم 'يجمع' بينها قط من قبل ، ونعني مفهومَي التاريخ والعقاب . المسيحية يونانية بفكرة الوساطة ، ويهودية بمفهوم التاريخية ، وستوجد في الفكر الالاماني .

#### الموقف من الطبيعة

نلاحظ هذا الانقطاع بشكل افضل ، اذ تنوء بعداء المذاهب التاريخية للطبيعة ، المعتبرة من قبل هذه المذاهب كموضوع تحويل لا موضوع تأمل . فنظر المسيحيين كما بنظر الماركسيين يجب إخضاع الطبيعة . اما اليونانيون فيعتقدون انه خير للمرء أن يطيعها . لم يكن الحب القديم لتكون معروفاً عند المسيحيين الاولين الذين كانوا ، على كل ، ينتظرون نهاية العالم الرشيكة بفارغ

الصبر . هذا وسنقدم بعدئذ الهيكلية المشتركة مع المسيحية الإزدهار الألي<sup>(١)</sup> الرائع من جهة ، والقديس فرنسوا من جهة أخرى . ولكن الكنيسة ، بمحاکم التفتيش وتحطيم الهرطقة الأليية ، انفصلت ثانية عن العالم وعن الجمال ، وأعادت الى التاريخ أولويته على الطبيعة . وصدق أيضاً بإسبرس اذ قال : « الموقف المسيحي هو الذي أفرغ العالم شيئاً فشيئاً من جوهره ... لان الجوهر كان يستند الى مجموعة من الرموز » ؛ هذه الرموز هي رموز المأساة الإلهية التي تجري خلال الزمان . ولم تعد الطبيعة سوى إطار هذه المأساة التزييني . التوازن الحسن بين « الانساني » والطبيعة ، الرضا الانساني بالعالم ، ... هذا الامر الذي كان يحرك كل الفكر القديم ويجعله يتألق بسناه ، قد سطت المسيحية أولاً لصالح التاريخ . وسارع في هذه الحركة دخول الشعوب<sup>(٢)</sup> الشالية في هذا التاريخ ، وهي شعوب لم تكن تلك تقاليد صداقة مع العالم . ومذ أنصكرت الوهة المسيح ، ومذ .. بفضل الفكر الالماني - لم يعد المسيح يمثل سوى الانسان الاله ، اختفى مفهوم الوساطة ، وانبعث عالم يهودي . فساد إله الجيوش الحقود ثانية ، وأهين كل جمال بوصفه مصدر متع فارغة ، واستعبدت الطبيعة بالذات . من هذه الناحية ، يعتبر ماركس إرميا<sup>(٣)</sup> Jérémie الإله التاريخي ، وقديس أوغسطينوس الثورة . ولأن يُفسر هذا الامر الزواحي الرجعية في مذهبه ، فهذا ما تكفي للاشعار به مقارنة بسيطة تجريبيا مع معاصره جوزيف دي ميستر ، فيلسوف الرجعية النيه .

- ١ ) نسبة الى مدينة آلي الواقعة في جنوب فرنسا ، وقد انتشرت في منطقتها نزع دهبية منذ القرن الحادي عشر . ويعتبر اصحابها من هراطقة اللرون الوسطى . العرب .
- ٢ ) ميكولوجيا الشعوب ، تأليف آييل ميروغليو ، ترجمة نهاد رضا . سلسلة زدي علأ منشورات عويدات
- ٣ ) احد انبياء بني اسرائيل .

## جوزيف دي ميستر

هدف دي ميستر

ان دي ميستر يدحض اليقينية والكالفينية ، المذهبين اللذين يلخصان بنظره « كل ما جال في الخواطر من تفكير آثم خلال ثلاثة قرون » ، وذلك بإمام فلسفة مسيحية تاريخية .

ضد كل حركات المروق والمهرطقة ، اراد دي ميستر ان يحدد ثوب الكنيسة ، بحيث تصبح اخيراً كاثوليكية بكل معنى الكلمة . ان هدفه هو المجتمع المسيحي العالمي ، وتلاحظ ذلك وقت مغامراته الماسونية <sup>(١)</sup> . انه يحلم بآدم فابر دوليفيه <sup>(٢)</sup> ، او الانسان العالمي ، مصدر النفوس المتبانية ؛ وبآدم القبّالين <sup>(٣)</sup> ، الذي وجد قبل السقطة والذي يجب إعادة خلقه الآن . عندما ستغطي الكنيسة العالم ، فسوف تجدد آدم المذكور ، الأول والأخير . بهذا الصدد ، نجد في «أمسيات سان بطرسبرغ» <sup>(٤)</sup> صيغاً كثيرة ذات شبه ملحوظ مع صيغ هيجل وماركس النبوية . ففي اورشليم <sup>(٥)</sup> التي يتصورها دي ميستر ، اورشليم الارضية والسماوية في وقت واحد ، يكون «كل السكان متشعبين بنفس الروح ، وسيُنقذون الى سريرة بعضهم بعضاً ، وسيعكسون سعادتهم » . ان دي ميستر لا يصل الى حد انكار الذات الشخصية بعد الموت ، بل يحلم فقط بوحدة غامضة استرجعت ثانية ، وحيث لا يعود هناك هوى ولا مصلحة

(١) له يقصد الصولية الحرب

E. Dermienghen. Joseph de Maistre myatique.

(٢) أديب فرنسي (١٧٦٨ - ١٨٢٥)

(٣) في الاصل جماعة دينية يهودية .

(٤) راجع : تيارات الفكر الفلسفي ص ٢٨٢ - الحرب -

(٥) بمعنى المجتمع العاقل المتبل - الحرب -

شخصية ، بعدما فني الشر ، وحيث «سيترحد الانسان مع ذاته بعدما انطس قانوانه ، واختلط مركزاه» . (١)

دي ميستر وماركس

في مجتمع المعرفة المطلقة ، حيث تختلط عيون الروح بعينون البدن ، كان هيجل ايضاً يوفق بين التناقضات . ولكن نظرة دي ميستر تلتقي ايضاً بنظرة ماركس الذي بشر بـ « نهاية النزاع بين الجوهر والوجود ، بين الحرية والضرورة » . وما الشر في اعتقاد دي ميستر سوى انفصام الوحدة (٢) . ولكن يجب على الانسانية ان تستعيد وحدتها ثانية على الارض وفي السماء .

بأية طريقة ؟

ان دي ميستر ، الرجمي التابع للنظام القديم ، هو اقل وضوحاً من ماركس حول هذه التطة . ولكنه كان يأمل مع ذلك بثورة دينية عظي لم تكن ثورة ١٧٨٩ سوى «مقدمتها الرهيبة » . وكان يستشهد بالقدس يوحنا الذي طلب إلينا ان «نصنع» الحقيقة ، وهذا هو بالضبط برنامج الفكر الثوري الحديث . كما كان يستشهد بالقدس بولس الذي اعلن ان «الموت هو آخر عدو يجب تحطيمه» . ان الانسانية ، من خلال الجرائم والعنف والموت ، تسير نحو هذه النهاية التي ستبر كل شيء . ليست الارض في اعتقاد دي ميستر سوى مذبح واسع يجب ان يُنحر فيه كل ما هو ذو حياة ، دونما نهاية ، دونما اعتدال ، دونما انقطاع ، حتى فناء الأشياء ، حتى انقراض الشر ، حتى موت الموت .

ولكن قدرته إيجابية ، مع ذلك . «على الانسان ان يعمل كأنه قادر على كل شيء» ، وان يسلم امره لله كأنه عاجز عن اي شيء . وانا نجد نفس النوع من القدرة المبدعة لدى ماركس . ليس من شك في ان دي ميستر يبرر النظام القائم . ولكن ماركس يبرر النظام الذي كان آخذاً في القيام في زمانه . ان ابلغ ثناء على

(١) الزوج والبدن - المغرب -

(٢) الوحدة بين انجم - المغرب -

الرأسمالية صاغه أعدى أعدائها. ليس ماركس عدواً للرأسمالية الا بقدر ما هي نظام باطل. ثمة نظام آخر يجب ان يقوم، وسيتطلب بإم التاريخ اذعانية جديدة. اما الوسائل فهي بالنسبة الى ماركس ودي ميستر: الواقعية السياسية، الانضباط، القوة. وحينما يرجع دي ميستر الى فكرة بوسويه القوية والقائلة «ان المرطوقى هو ذلك الذي يملك افكاراً شخصية»، وبتعبير آخر، افكاراً لا تستند الى معتقدات تقليدية، اجتناعية او دينية، ... نقول: حينما يرجع الى هذه الفكرة، يعطي صيغة أقدم المواقف الإذعانية وأجدها.

ان نائب المدعي العام، المرتل المتشائم للجلاد، يبشر حينئذ بالنائب العام اللبق في زماننا.

الثبوة التاريخية عند كليها

بديهي ان وجود الشبه هذه لا تجعل من دي ميستر ماركسياً، ولا من ماركس مسيحياً تقليدياً. الإلحاد الماركسي مطلق. ولكنه، مع ذلك، بعيد الكائن الاسمى على مستوى الانسان. «ان انتقاد الدين يؤدي الى هذا المبدأ القائل ان الانسان هو الكائن الاسمى بالنسبة الى الانسان». من هذه الزاوية، تكون الاشتراكية اذن محاولة لتأليه الانسان، وقد اخذت بعض الصفات من الديانات التقليدية<sup>(١)</sup>. هذه المقارنة هي، على كل، مفيدة من جهة الاصل المسيحي لكل آمال تاريخية، حتى لو كانت ثورية. اما الفارق الوحيد فيكمن في تبدل القرينة. فعند دي ميستر كما عند ماركس، نرى ان ختام الزمان 'يرضي حلم الشاعر فيني: مصالحة الذئب والحمل، سير المحرم والضيعة الى نفس المذبح، اعادة افتتاح - او افتتاح - جنة ارضية'. يعتقد ماركس ان قوانين التاريخ تعكس الحقيقة الواقعة المادية، اما دي ميستر فيعتقد انها تعكس الحقيقة الواقعة الالهية. الاول يعتقد ان المادة هي الجوهر، اما الثاني فيعتقد ان جوهر الله قد تجسد في هذه الدنيا.

(١) لقد أثر سان سيمون بماركس، وتأثر هو نفسه بدي ميستر وبولاد.

ان الابدية تفصل بينها من حيث المبدأ ، ولكن التاريخية تجمع بينها اخيراً  
في نتيجة واقعية .

دي ميستر والفكر الاعريقي

كان دي ميستر يكره اليونان (التي كانت تزعم ماركس البعيد عن كل  
جمال مشرق) . وكان يقول انها افسدت اوروبا اذ نقلت اليها فكرها الهجزي .  
ولكن كان من الاصح ان يقال ان الفكر الاغريقي كان فكر الوحدة ، تماماً  
لانه لم يكن يستطيع الاستغناء عن الوسطاء ، ولأنه بالعكس كان يكره فكر  
الكلية التاريخية ، هذا الفكر الذي ابتدعه المسيحية ، والذي يهدد اليوم بالقضاء  
على اوروبا بعدما انفصل عن جذوره الدينية . هل من حكاية أو حماقة أو  
رديلة ليس لها اسم ، رمز ، قناع اغريقي ؟ ،  
فلنهل فورة المفكر المفرط في الطهر .

ان هذا الاشمئزاز الشديد يعبر في الواقع عن روح الجدة المنقطع عن كل  
العالم القديم ، والمتصل اتصالاً وثيقاً بالاشتراكية المستبددة التي ستخلع عن  
المسيحية قدسيتها لتلحقها بكنيسة غازية .

★

آمال ماركس العلمية

أما آمال ماركس العلمية فمن أصل بورجوازي .

التقدم ، مستقبل العلم ، عبادة التقنية والانتاج ، ... هي اختلافات  
بورجوازية ، اكتسبت شكل عقيدة في القرن التاسع عشر . نلاحظ أن « البيان  
الشيوعي » صدر عام صدور « مستقبل العلم » بقلم ريتان . إن هذا الإشهار الأخير  
للعقيدة يبدو مدهشاً جداً في عين القاريء المعاصر ، ولكنه يعطي مع ذلك  
أصح فكرة عن الآمال شبه الصوفية حركها في القرن التاسع عشر ازدهار  
الصناعة وتقدم العلوم المدهش ، هذا الأمل هو أمل المجتمع البورجوازي  
بالذات ، المستفيد من التقدم التقني .



## التقدم ودوره

إن مفهوم التقدم معاصر للثورة البورجوازية وعصر الانوار . ليس من شك في أننا نستطيع أن نجد له ملهين في القرن السابع عشر . ذلك ان خصومه القداس والمجددين سبق لهم انهم ادخلوا إلى الفكر الأوروبي مفهوم تقدم فني ، وهو غير معقول البتة . وبشكل أكثر جدية ، نستطيع ان نستنتج من فلسفة ديكرت مفهوم علم يتزايد في استمرار . ولكن تورغو كان أول من اعطى تعريفاً واضحاً عن العقيدة الجديدة عام ١٧٥٠ . ان مجته حول تقدم الفكر البشري يستأنف في الحقيقة تاريخ بوسويه العام . ولكن فكرة التقدم تحل محل المشيئة الربانية . وان المجموعة الكلية للجنس البشري ، بتناوب في الهدوء والاضطراب ، وفي النعم والمصائب ، تسير دائماً نحو كمال متعاطف ، وان يكن بخطى وثيدة . انه تفاؤل سيقدم لباب أفكار كوندورسيه<sup>(١)</sup> البلاغية . كان كوندورسيه المفكر الرسمي للتقدم ، وكان يربطه بتقدم الدولة؛ ثم ذهب ضحية شبه رسمية لها ، لأن دولة الأنوار اجبرته على أن يسم نفسه . وأصاب سوريل<sup>(٢)</sup> تماماً إذ قال إن فلسفة التقدم هي بالضبط الفلسفة التي تلائم مجتمعاً ولعاً بالتمتع بالبحبوحة المادية الناشئة عن التقدم التقني . فحينما نتأكد أن غداً ، في نظام العالم بالذات ، سيكون أفضل من اليوم ، يمكننا حينئذ ان نلهم في دعة . وعليه ، بحكم مفارقة عجيبة ، يمكن للتقدم ان يفيد في تبرير الموقف المحافظ . انه حوالة مسجوبة على المستقبل بلا حذر ، ويُمهد إذن لصفاء طوية السيد .

للعبد ، ولذوي الحاضر البائس والذين لا عزاء لهم في السماء ، نؤكد ان المستقبل ، على الأقل ، هو لهم ...  
المستقبل هو النوع الوحيد من الملكية يتنازل عنه السادة ، بطية خاطر ، للعبد .

(١) راجع : تيارات الفكر الفلسفي : من ٢٥٩ - ٢٧٣ - العرب .

(٢) Les Illusions du Progrès ، أوهايم التقدم .

التقدم في الفكر الثوري

إنها لأفكار راهنة ، كما نرى . ولكنها كذلك ، لأن الفكر الثوري رجع إلى فكرة التقدم المبهمة والملازمة .

صحيح انه لا يُقصد نفس النوع من التقدم . ذلك ان ماركس يسفر اياما سفرية من تفاؤل البورجوازيين العقلاني ، وإن عقله مختلف ، كما سنرى . ولكن السير الشاق نحو مستقبل منسجم يُعرّف ، مع ذلك ، فكرة ماركس . إن هيجل وماركس هدموا القيم الصورية ، هذه القيم التي كانت تدير لليقوبيين الطريق المستقيم في هذا التاريخ السعيد . ولكنها استبقيا فكرة السير إلى الأمام ، انما كانا يخطئانه مع التقدم الاجتماعي ويؤكدان بأنه محتم . فكانا بالتالي يواصلان الفكر البورجوازي في القرن التاسع عشر .

والحقيقة ان تركليل<sup>(١)</sup> ، الذي ناوبه بيكور في الحماسة (علماً بأن هذا الأخير أثر في ماركس) ، كان قد أعلن بأن «نحو المساواة التدريجي والمطرّد هو ، في وقت واحد ، ماضي ومستقبل تاريخ البشر» . وللحصول على الماركسية ، يجب ان نستبدل كلمة مساواة بمستوى الانتاج ، وأن نتصور ان تحولاً كيفياً يحصل في آخر درجة من الانتاج ، ويحقق المجتمع المنسجم<sup>(٢)</sup>

خنية التطور عند ا . كروت

أما حتمية التطور فيعطي عنها أوغست كونت أدق تعريف في قانون الأحوال الثلاثة<sup>(٣)</sup> الذي وضعه عام ١٨٢٢ . ان استنتاجات أ . كونت تشبه الاستنتاجات التي ستسلم بها الاشتراكية العلمية شياً غريباً . فالوضعية positiveism تظهر بكثير من الوضوح انعكاسات ثورة القرن التاسع الفكرية التي يُعتبر ماركس أحد ممثليها . وتكمن في أنها جعلت اللجنة والوحشي في نهاية

(١) صحافي وسياسي فرنسي (١٨٠٥ - ١٨٥٩)

(٢) الحالي من التناقض - المغرب .

(٣) راجع : تيارات الفكر الفلسفي ، ص ٣١٩ - المغرب .

التاريخ ، بينما كانت المعتقدات التقليدية تضعها في بدء العالم . إن العصر الوضعاني الذي سيتلوّه لا محالة العصر الماورائي والعصر اللاهوتي ، إن هذا العصر سيشير إلى بحىء ديانة الإنسانية . هذا ويُعرّف هنري غوهيه مشروع أ . كونت تعريفاً صائباً إذ يقول إن المقصود بالنسبة إليه هو اكتشاف السائر لا يحمل آثار الإله . كان هدف أ . كونت الأول إحلال النسي محل المطلق ، في كل مكان ، وسرعان ما تحول هذا الهدف ، بحكم طبيعة الأشياء ، إلى تأليه لهذا النسي ، وإلى تبشير بديانة عالمية وغير علوية في وقت واحد . وكان أ . كونت يعتبر عبادة اليقويين للعقل نسيقاً للوضعانية ، ويعتبر نفسه ، بحق ، الوارث الحقيقي لثوري ١٧٨٩ . وكان يواصل ويوسع هذه الثورة بحذفه استشراف المبادئ ، وبإقامة ديانة النوع بشكل منهجي . إن عبارته : «إبعاد الإله بإسم الدين» ، لم تكن لتعني شيئاً آخر . وإذ دشّن هوى غريباً كسّب له النجاح منذ ذلك ، أراد أن يكون بمثابة قديس بولس هذه الديانة الجديدة ، وأن يستبدل كثلثة روما بكثلثة باريس . ولا يخفى انه كان يأمل أن يرى في الكاتدرائيات «مقال الإنسانية المؤلّثة» على مذبح الإله القديم . وكان يحسب بدقة انه سيبشر بالوضعانية في كنيسة نوتردام قبل عام ١٨٦٠ . ولم يكن هذا الحساب مضحكاً بقدر ما يبدو .

أما نوتردام المحاصرة فبقيت تقاوم دائماً . ولكن في أواخر القرن التاسع عشر ، بُسّر فعلاً بديانة الإنسانية . وكان ماركس أحد أنبيائها ، رغم انه لم يقرأ مؤلفات أ . كونت دون شك .

ديانة أ . كونت  
وديانة البشر الآخر

لقد أدرك ماركس ان الديانة غير العلوية ، تُسمى سياسة . ولكن أ . كونت كان يعرف ذلك ، أو على الأقل كان يدرك أن ديانته هي أولاً

عبادة للمجتمع ، وأنها تفترض الروحية السياسية <sup>(١)</sup> ، وإنكار الحق الفردي ، وإقامة الإستبداد .

مجتمع علماءه كهنته ، يرى فيه ألفا مصري وتغنى ببسطون سيادتهم على أوروبا مؤلفة من ١٢٠ مليون نسمة ، وحيث تتوحد الحياة الخاصة توحداً ذاتياً مطلقاً مع الحياة العامة ، وسبب يُطاع الجبر الأعظم المهيمن على كل شيء طاعة مطلقاً « في الفعل والفكر والقلب » ... هذا النظام الخيالي بصورة أ . كونت الذي بشر بما يمكن أن يسمى بالديانات الأفقية <sup>(٢)</sup> لزماننا . لها ديانات طوباوية في الحقيقة ، لأن أ . كونت إذ آمن بسلطان العلم المنبر ، نسي أن يأخذ للأمر أهبة الكاملة ... نسي الشرطة .

ثمة آخرون ... سيكونون أكثر واقعية ، وستقام ديانة الإنسانية فعلاً ... إنما على دماء البشر وآلامهم .

العبء ماركس

إذا أضفنا إلى هذه الملاحظات أن «اركس مدني» الاقتصاديين البورجوازيين بالمفكرة الوحيدة التي يتحووها عن الانتاج الصناعي في تطور الإنسانية ، وأنه أخذ لُبَاب نظريته في القيمة عمل عن ربه - اردو ، اقتصادي الثورة البورجوازية والصناعية ، اعترف له . لا يحق التكلم عن نبوءته البورجوازية . إن هذه المقارنات لا تستهدف سوى أن تبين أن «ماركس» ، بدلاً من أن يكون البداية والنهاية <sup>(٣)</sup> - كما يود «ماركس» - يحين عسراً المشوشين ، هو بالعكس من طينة البشر : إنه وارث قبل أن يكون السابق المشر . أما عقيدته التي أراد لها أن تكون واقعية ، فقد كانت كذلك في الحقيقة ، إنما في

(١) «كل ما ينمو نمواً صورياً هو شرعي لا عالة ، خلال فترة من الزمن» .

(٢) يقصد الديانات غير الملوية ، غير الإستثنائية - الحرب

(٣) الماركسية هي ينظر إيدانوف «الفلسفة مختلفة اختلافاً نوعياً عن كل المذاهب السابقة» . الأمر الذي يمي : إما أن الماركسية مثلاً ليست لفلسفة ديكرت . وهذا ... لا يمكن أحد في إنكاره ، أو أنها جوهرها غير مدينة لفلسفة ديكرت بشيء ، وهذا غير معقول .

عصر ديانة العلم ، والتطورية الداروينية ، والآلة البخارية ، والصناعة النسيجية .  
ولكن بعد مائة عام اكتشف العلم النظرية النسبية ، والتقلب والصدفة ،  
ووجب على الاقتصاد ان يُدخل في حسابه الكهرباء والانتاج الذري ...  
ان فشل الماركسية الحاصلة في دمج هذه الاكتشافات المتتالية هو أيضاً فشل  
التمازول البورجوازي في عصر ماركس .

وبدفع إلى السخرية من طموح الماركسيين إلى إبقاء حقائق ، ترجع إلى مائة  
عام ، في حالة الجحود ، دون أن تكف عن أن تكون حقائق علمية . إن آمال  
القرن التاسع عشر ، سواء أكانت ثورية أم بورجوازية ، لم تقاوم التطورات  
المتتالية في هذا العلم وفي هذا التاريخ الذين أُلْهِتْها بدرجات مختلفة .

## ٢ - النبوة الثورية

الجدلية عند ماركس وعند هيجل

ان نبوة ماركس هي كذلك ثورية في مبدئها . بما ان كل الحقيقة الراقعة  
الانسانية ناشئة عن علاقات الانتاج ، لذلك فالصيورة التاريخية ثورية لان  
الاقتصاد ثوري . عند كل مستوى انتاجي ، يُولّد الاقتصاد تناقضات نمط  
المجتمع المقابل لها ، لصالح مستوى انتاجي اعلى . والرأسمالية هي آخر مراحل  
الانتاج هذه لانها 'توجد' الشروط التي 'يُحَلُّ' فيها كل تناقض ، ولا يعود هناك  
اقتصاد . يومئذ يصبح تاريخنا فترة ما قبل التاريخ . هذا الوصف النظري  
هو ، من زاوية اخرى ، وجف هيجل . انما تؤخذ الجدلية من زاوية الانتاج  
والعمل ، بدلاً من ان تؤخذ من زاوية الروح . ليس من شك في ان ماركس  
لم يتكلم قط شخصياً عن المادية الجدلية . بل ترك لَوَرَكِيَه مهمة تمجيد هذا  
المسخ المنطقي . ولكنه قال في الوقت نفسه ان الحقيقة الراقعة جدلية وانما  
اقتصادية .

الحقيقة الراقعة صيرورة دائمة تقطعها صدمة خصية ، هي صدمة تناقضات

تفحل كل مرة في تركيبة 'مخلصة' عليا، تولد هي بالذات نقضها، وتدفع عجلة التاريخ الى الامام ثانية. فما أكدته هيجل عن الحقيقة الواقعة السائرة نحو الروح، يؤكدته ماركس عن الاقتصاد السائر نحو مجتمع بلا طبقات. كل شيء هو هو، ونقيضه في وقت واحد. ويدفعه هذا التناقض الى ان يصبح شيئاً آخر. والرأسمالية، لانها بورجوازية، تنكشف عن الثورة وغمد الشيوعية.

مدد مادية ماركس

تكمّن أصالة ماركس في انه أكد ان التاريخ دبالكتيك واقتصاد في وقت واحد. اما هيجل فأكد ان التاريخ مادة وروح في وقت واحد. على كل، ما كان في وسع التاريخ ان يكون مادة الابدان ما هو روح، والعكس بالعكس. ان ماركس ينكر الروح كجوهر اخير، ويؤكد المادية التاريخية. ويمكننا، مع برديف، أن نظهر في الحال استحالة توفيق الجدلية والمادية. فلا يمكن ان تكون هناك جدلية سوى جدلية الفكر. ولكن المادية بالذات هي مفهوم مبهم. فلتكون هذه الكلمة فقط، يجب ان نقول سابقاً ان هناك في العالم شيئاً ما اكثر من المادة. وينطبق هذا التقيد بالأحرى على المادية التاريخية. فالتاريخ، بالضبط، يتميز عن الطبيعة في انه يحولها بوسائط الارادة والعلم والهوى. ليس ماركس اذن بالمادي البحت، وذلك للسبب البسيط التالي: المادية البحتة المطلقة لا وجود لها. بل وصلت به الحال انه اعترف بما يلي: لئن كان السلاح يحقق النصر للنظرية، فإن النظرية تستطيع ايضاً ان تدفع الى حل السلاح. وبشكل اصح، يمكن ان نسبي موقف ماركس تقيدية تاريخية. انه لا ينكر الفكر، بل يفترض انه يتحدد تحديداً مطلقاً بالحقيقة الواقعة الخارجية. واما انا فأعتقد ان حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الواقعية محوطة ومنقلة الى دماغ الانسان. ليس من معنى لهذا التعريف، الفج بوجه خاص. فكيف وبم يمكن لحركة خارجية ان 'تنقل' الى دماغ الانسان. اصف الى ذلك ان هذه الصعوبة ليست شيئاً بجانب الصعوبة التي

تكن في تعريف «انتقال» هذه الحركة ، بعدئذ . ولكن ماركس كان ذا فلسفة حاصرة مقيدة . اما مراده فيمكن ان 'يعرف' على مستويات اخرى .

نقد التبعية الاقتصادية

يعتقد ماركس ان الانسان ليس سوى تاريخ ، وخاصة ، تاريخ وسائل الانتاج . والحقيقة انه يلاحظ ان الانسان يتميز عن الحيوان في انه ينتج وسائل معاشه . فاذا لم يأكل أولاً ، واذا لم يلبس ولم يأو ، فانه لا يوجد . ان اولوية العيش هذه تشكل العامل المحدد الاول . وما يجوز في ذهنه من تفكير بسيط وقتئذ ، هو على علاقة مباشرة مع هذه الضرورات التي لا بد منها . بعدئذ ثبتت ماركس ان هذه التبعية ثابتة وعتمة . وان تاريخ الصناعة هو الكتاب الذي نطالع فيه ملكات الانسان الاساسية . ويمكن تعميم ماركس الشخصي في انه استخلص من هذا التأكيد - المقبول في الخلاصة - ان التبعية الاقتصادية وحيدة وكافية ؛ الامر الذي يحتاج الى اقامة الدليل . يمكننا ان نسلّم بأن العامل المحدد الاقتصادي<sup>(١)</sup> يقوم بدور رئيسي في تكوين الأنفال والأفكار البشرية ، دون ان نخلص مع ذلك ، مثلاً يفعل ماركس ، الى القول ان قرد الألمات على نابوليون 'يفسر' فقط بنقص السكر والقهوة .. على كل ، إن التقيدية البحتة هي أيضاً غير معقولة . لو لم تكن كذلك ، لكفى تأكيد صحيح واحد كي نصعد من نتيجة الى أخرى ونصل الى الحقيقة التامة . بما ان ذلك غير كائن ، لذلك إما أننا لم نتفوه قط بتأكيد واحد صحيح ، حتى التأكيد الذي يحمل التقيدية مبدأ ؛ وإما أننا قد نؤكد تأكيداً صحيحاً ، إما دون نتيجة ، وحينئذ تكون التقيدية باطلة . ولكن ، لكي يقوم ماركس بمثل هذا التبسيط الاعباطي ، كانت له مبرراته البعيدة عن المنطق البحت .

«الاجتماعي» وإزاحة الاستثراء

ان جعل المحدد الاقتصادي في أساس الانسان ، معناه تليخيص الانسان في

(١) النظرية العامة في الاقتصاد . تأليف ج. م. كينز ، ترجمة : نهاد رضا - العرب .

## علاقاته الاجتماعية .

الانسان المنفرد لا وجود له . هوذا الاكتشاف المؤكد الذي اهتدى اليه القرن التاسع عشر . حينئذ تم استنتاج اعتباطي يقود الى القول ان الانسان لا يشعر بأنه منفرد في المجتمع إلا لأسباب اجتماعية . والحقيقة اذا وجب تفسير الذهن المنفرد ، بشيء موجود خارج الانسان ، أصبح هذا الاخير على طريق الاستشراف . أما «الاجتماعي» فلا فاعل له سوى الانسان . فاذا أمكننا أيضاً أن نؤكد ان «الاجتماعي» هو في الوقت نفسه صانع الانسان ، اعتقدنا اننا عثرنا على التفسير التام الذي يسمح بازاحة الاستشراف . حينئذ يصبح الانسان «عامل وفاعل تاريخه الخاص» كما يريد ماركس . ان نبوءة ماركس ثورية . ذلك انه ينهي حركة الإنكار التي بدأتها فلسفة الانوار . اليقويون يهدمون استشراف الإله الشخصي، ولكنهم يستبدلونه باستشراف المبادئ . أما ماركس فيقيم الإلحاد المعاصر بتهدية أيضاً استشراف المبادئ . في عام ١٧٨٩ استبدل الدين بالعقل . ولكن هذا العقل بالذات استشرافي<sup>(١)</sup> ، في ثبوته . إن ماركس يهدم استشراف العقل بصورة أنهم بما فعل هيجل ، ويرمي به في التاريخ . لقد كان عقلاً منظماً ، فاذا به غازياً . ويذهب ماركس أبعد من هيجل فيتظاهر بأنه يعتبر هذا الاخير كفيلسوف مثالي (مع العلم بأن هيجل لم يكن كذلك ، أو على الأقل لم يكن في مثاليته أكثر من ماركس في ماديته) وذلك بمقدار ما «ترجع سيطرة الروح قسمة» ما فوق . تاريخية . إن كتاب ماركس « رأس المال» يستأنف دبالكتيك السيادة العبودية<sup>(٢)</sup> ، ولكنه يجعل الاستقلال الذاتي الاقتصادي محل الشعور بالذات ، ويستبدل سيطرة الروح المطلق النهائية بمجيء الشيوعية . «الإلحاد هو مذهب تأليه الانسانية قائماً بواسطة إلغاء الدين ، والشيوعية هي مذهب تأليه الانسانية قائماً بواسطة إلغاء الملكية الخاصة» . للانحراف<sup>(٣)</sup> الديني والانحراف الاقتصادي نفس المصدر . ولا نتخلص من الدين

(١) بحث هذه النقطة في الصلحات السابقة العرب

(٢) بقصد المي العلمي . (الاعتلال ، الصيغة) العرب



إلا بتحقيق حرية الانسان المطلقة لإزاء محدوداته المادية .  
الثورة تتوحد توحداً ذاتياً مع الاتحاد وسيطرة الانسان .

#### فضح العلم البورجوازية

لهذا السبب 'دفع' ماركس الى التركيز على العامل الاقتصادي والاجتماعي .  
وكان أجدى مساعيه إظهار الحقيقة الواقعة المخفية وراء القيم الصورية التي كانت  
تتشدد بها بورجوازية عصره . ولا تزال نظريته في التنمية مقبولة ، لأنها مقبولة  
بوجه العموم والحق يقدر ، وتنطبق أيضاً على التبعيات الثورية . فأما الحرية التي  
كان 'يجلبها السيد تيير' (١) ، فكانت حرية الامتياز الموطن بالشرطة . وأما  
الأسرة التي كانت تشيد به - الصحف المحافظة ، فكانت تستمر قائمة على حالة  
اجتماعية أصبح الرجال والنساء فيها ينزلون داخل المناجم ، نصف عراة ، مربوطين  
بنفس الحبل . وأما الاخلاق أخيراً فكانت تزدهر على البغاء العالي . فلأن تكون  
متطلبات الفضل ومستلزمات العقل قد سخرها رياء 'مجتمع فانه جشع في سيل  
غايات أنانية ، فتلك مصيبة' عميل ماركس ، المهذب الذي لا مثيل له ، على  
التشهير بهما تشهيراً قوياً لم 'يعرف قبله . وقد جر هذا التشهير الساخط الى  
تجاوزات أخرى تتطلب تشهيراً آخر . ولكن ، قبل كل شيء ، يجب ان  
نعرف وان نبين ، أين ولد هذا التشهير ، في دماء المصان الذي 'سحق عام  
١٨٣٤ ، في مدينة ليون ، وعام ١٨٧١ في قسوة اخلاقي مرساي الدينية .  
'الانسان الذي لا يمتلك شيئاً ، ليس اليوم شيئاً' . لأن يكن هذا القول باطلاً ،  
في الحقيقة ، فلقد كان صحيحاً تقريباً في مجتمع القرن التاسع عشر ، المتفائل .  
ان الانحطاط الزائد الناجم عن اقتصاد البجوحة ، أجبر ماركس على ان يجعل  
العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المقام الأول ، وعلى أن يزيد من الإساءة  
بنبوءه بسيطرة الانسان .

(١) رجل دولة وهورج فرنسي. عين رئيساً للجمهورية عام ١٨٧١ . يقصد في النص : الحرية  
البورجوازية العرب -

حينئذ نقيم بشكل افضل تحليل ماركس للتاريخ تعليلاً اقتصادياً محضاً .  
فاذا كانت المبادئ باطلة ، فان حقيقة البؤس والعمل الراقعة وحدها هي الصحيحة .  
واذا استطعنا بعدئذ ان نثبت ان هذه الحقيقة الراقعة تكفي لتفسير ماضي  
الانسان ومستقبله ، فستهدم المبادئ الى الأبد مع المجتمع المستفيد منها ،  
المعترف بها .

وهذا ما سيشرع به ماركس .

نشوء التناقضات ونهايتها

'ولد الانسان مع الانتاج ومع المجتمع . وسرعان ما أدى عدم تكافؤ  
الأراضي ، والتحصين السريع في وسائل الانتاج ، وتنازع البقاء ، نقول : سرعان  
ما أدى ذلك الى تفاوتات اجتماعية تباينت في تناقضات بين الإنتاج والتوزيع ،  
وبالتالي في صراع بين الطبقات . هذه النزاعات وهذه التناقضات هي محركات  
التاريخ . وقد كان الرق القديم والقنانة الاقطاعية مرحلتين في طريق طويل  
أفضى الى الصناعة الحرفية في العصور الكلاسيكية <sup>(١)</sup> حيث كان المنتج صاحب  
وسائل الانتاج . آنذاك ، تطلب افتتاح الطرق العالمية واكتشاف اسواق  
تصريف جديدة انتاجاً أقل اقلية <sup>(٢)</sup> . وقد بشر التناقض القائم بين اسلوب  
الانتاج وضرورات التوزيع الجديدة ، بنهاية نظام الانتاج الزراعي والصناعي  
الصغير . وان الثورة الصناعية واختراع الآلات البخارية والتنافس على اسواق  
التصريف ، نقول ان هذه الامور أدت الى نزاع الملكية عن صفار الملاكين والى  
بناء مصانع كبيرة . حينئذ تركزت وسائل الانتاج في ايدي الاشخاص الذين  
تمكنوا من شرائها . ولم يعد في حوزة الشغيلة ، المنتجين الحقيقيين ، سوى قوة  
ذراعهم التي يستطيعون بيعها لأصحاب رؤوس الأموال . فالرأسمالية تتحدت ادن  
بالفصل بين المنتج ووسائل الانتاج . وعن هذا التناقض ستصدر سلسلة من النتائج

(١) يقصد المرحلة التي تلت الفرون الوسطى .

(٢) راجع : اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط ، تأليف هوبير دبروليل ، ترجمة نهاد رنا  
سلسلة : زمني علم ، منشورات عويدات - العرب .

المحنة التي ستسمح لماركس بأن يبشر بنهاية التناقضات الاجتماعية .

لأول وهلة ، وهذا ما يجب ان نلاحظه منذ الآن ، ليس من سبب لأن نرى مبدأ صراع الطبقات الجدلي والثابت بفسوخ ، يكف فجأة عن ان يكون مبدأ صحيحاً . انه صحيح دائماً ، او انه لم يكن قط صحيحاً .

يقول ماركس ان الطبقات ستزول بعد الثورة ، مثلما زالت الارعاط بعد ١٧٨٩ ... (١)

ولكن الأرمهات اختفت ولم تختف الطبقات ... ولا شيء يبين لنا ان الطبقات لن تتحلل عن مكانها لتناقض اجتماعي آخر . مع هذا كله ، يستكن لباب النبوءة الماركسية في هذا التأكيد .

#### الصورة الوصفية الماركسية

إن الصورة الوصفية الماركسية معروفة . فَبَعْدَ آدَم سميت وريكلدو ، يُعرّف ماركس قيمة كل سلعة . بكمية العمل المنتجة لهذه السلعة . وان كمية العمل يبيعها العامل للرأسمالي ، هي بالذات سلعة تُعرّف قيمتها بقيمة السلع الاستهلاكية اللازمة لمعاشه . فاذا يشتري الرأسمالي هذه السلعة ، يلتزم اذن بدفع الأجر الكافي كي يتمكن العامل من التغذي والبقاء . ولكنه في الوقت نفسه يتلقى الحق في تشغيل العامل أطول زمن ممكن . وهو يستطيع أن يفعل ذلك مدة طويلة ، واكثر مما هو لازم لتأمين معاش العامل . فاذا اشتغل هذا الأخير اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، وكانت نصف هذه المدة كافياً لإنتاج قيمة معادلة لقيمة السلع الاستهلاكية اللازمة لمعاشه ، فان الساعات الست الباقية ساعات غير مدفوعة الأجر . انها قيمة فائضة ، وتشكل ربح الرأسمالي . فصلحة هذا الأخير تقتضي اذن إطالة ساعات العمل الى أقصى حد ، او - حيناً لا يعود قادراً على ذلك - ان يزيد مردود العامل الى أقصى حد . اما المطلب الأول فمسألة شرطة

(١) يقصد ان الطبقات ستزول بعد حدوث الثورة البروليتارية، مثلما زالت الارعاط (كقولنا رمضُ النبلاء ، رمضُ الكهنوت ) بعد الثورة البورجوازية عام ١٧٨٩ . - الحرب -

وظلم . وأما المطلب الثاني فمسألة تنظيم عمل ، ويؤدي الى تقسيم العمل أولاً ، وبعدئذ الى استعمال الآلة ، الأمر الذي يعري العامل من إنسانيته . هذا وان المنافسة على الأسواق الخارجية ، والحاجة الى توظيفات متزايدة في المعدات الجديدة 'تولد'ان ظاهرياً التمرجيز والتراكم . ذلك ان كبار الرأسماليين يستطيعون مثلاً ان يبيعوا منتجاتهم بأسعار خاسرة خلال زمن طويل ، ويتكئون بالتالي من إزاحة صفار الرأسماليين . كما ان جزءاً متعظماً من الارباح 'يوظف' في آلات جديدة ، ويتراكم بالتالي في القسم الثابت من رأس المال . هذه الحركة المزدوجة 'تسارع' أولاً في خراب الطبقات المتوسطة التي تنضم الى البروليتاريا ، وتتركز بعدئذ الثروات التي ينفرد بها بالانتاج . . . في أيدي متناقصة العدد . وعليه ، تزايد الطبقة العاملة كلها تزايد حرمانها . ولا يعود رأس المال يتركز الا في ايدي نفر من السادة يقرمون سلطانهم المتعظم على السوقة . وإذا يززع هؤلاء السادة 'تعاقب' الازمات ، ويتغلب عليهم ما في النظام من تناقضات ، يصبحون عاجزين حتى عن تأمين معاش عبيدهم الذين يصيرون معلقين بمؤسسات الإحسان العامة والخاصة .

ثم يأتي يوم ، لا محالة ، 'يصبح فيه جيش العبيد المضطهدين امام حفنة من السادة السافلين . هذا اليوم هو يوم الثورة .

وان انهيار البورجوازية وانتصار البروليتاريا محتتمان على حد سواء .

لدخل ميموين جديدين

إن هذا الوصف الشهير لا يفسر نهاية التناقضات . فبعد انتصار الطبقة العاملة ، قد يتدخل تنازع البقاء و'يولد' تناقضات جديدة . فمة مفهومان يتدخلان والحالة هذه ، احدهما اقتصادي : نمائل تطور الانتاج وتطور المجتمع ، والآخر مذهبي بحث : رسالة البروليتاريا . ويلتقي هذان المفهومان فيما يمكن تسميته : قدرية ماركس الايجابية .

## تطور الاقتصاد ودور البورجوازية

إن التطور الإقتصادي الذي يركز رأس المال في أيدي قليلة ، هو بالذات يجعل التناقض في وقت واحد أشد قسوة ووهيباً بوجه ما . وحينما يبلغ تطور القوى الانتاجية مستوى الذروة ، يبدو وكأن دفعة واحدة تصفي لتصبح الطبقة العاملة المالكة الوحيدة لوسائل الانتاج ، علماً بأن هذه الوسائل سبق لها ان اغتصبت من الملكية الخاصة وتمر كزت في كتلة واحدة ضخمة أصبحت بعد الآن مشتركة . حينما تكون الملكية الخاصة متمركزة في يد مالك واحد ، لا تكون مفصولة عن الملكية الجماعية إلا بشخص واحد . والنهاية المحزنة للرأسمالية الخاصة نوع من رأسمالية الدولة . يكفي بعدئذ أن توضع في خدمة الجماعة كي ينشأ مجتمع يختلط فيه رأس المال والعمل ، ويولد كلاهما بنفس الحركة الوفرة والعدالة .

مراجعة لهذه النهاية الميمونة ، أشاد ماركس دائماً بالدور الثوري الذي تقوم به البورجوازية بصورة لاشعورية ، في الحقيقة . لقد تكلم عن «الحق التاريخي» للرأسمالية ، ينبوع التقدم ومصدر البؤس في وقت واحد . إن مهمة رأس المال التاريخية وتبويره ، في نظر ماركس ، تهيئة شروط أسلوب انتاجي أعلى . هذا الأسلوب الانتاجي ليس ثورياً بالذات ، وإنما سيكون فقط توتيجاً للثورة . إن أسس الانتاج البورجوازي وحدها هي الثورية . وحينما يؤكد ماركس ان الإنسانية لا تطرح على نفسها إلا ألغازاً تستطيع ان تحلها ، يبين في الوقت ذاته ان حل المشكلة الثورية موجود أصلاً في النظام الرأسمالي نفسه ، لذلك يوصي بتحمل الوضع البورجوازي وبالمساعدة على بنائه ، بدلاً من العودة إلى انتاج أقل تصنياعاً . إن الطبقة العاملة «في وسعها ومن واجبها أن تقبل بالثورة البورجوازية كشرط للثورة العالية» .

لماذا دافع ماركس عن ريكاردو ؟

ماركس هو إذن نبي الانتاج . ويُسمح لنا بالاعتقاد انه عند هذه النقطة

المعينة ، لا في غيرها ، قدّم المذهب على الحقيقة الراقية . فهو لم يكن قتل عن الدفاع عن ريكاردو ، اقتصادي رأسمالية مانشستر ، ضد أولئك الذين انهموه بأنه يريد الانتاج الانتاج ( « و بحق » كما يقول ماركس ) ، ودوغا الاكتوات بالبشر . ان ماركس يجيب قائلاً بنفس خفة هيجل : « هذا بالضبط مزلة ريكاردو » . والحقيقة ما قيمة التضحية بالبشر اذا كانت هذه التضحية ستفيد في خلاص الإنسانية كلها ! ان اتقدم يشبه « هذا الإله الوثني الرهيب الذي ما كان ليريد أن يتجرع السبيل إلا في جمجمة الأعداء المقتولين » . وليس كذلك ، على الأقل ، تقدم ، ان يولد العذاب ، بعد الرؤيا الصناعية ، يوم زوال التناقض .

هيجل وسمان الصالح العام

وايكن اذا كانت الطبقة العاملة لا تستطيع أن تتجنب هذه الثورة ، ولا أن تتجنب تلك وسائل الانتاج ، فهل ستعرف على الأقل كيف تستفيد منها لصالح الجميع ؟ أين الضمان ان لن تظهر في صنفها بالذات ، أرهاط وطبقات وتناقضات ؟ الضمان عند هيجل . فالطبقة العاملة مجبرة على ان تستخدم ثروتها لصالح الكلي العام . انها ليست البروليتاريا ، وانما هي الكلي العام تقيض الجزئي الخاص ، أي : تقيض الرأسمالية . ان تناقض الرأسمال والبروليتاريا آخر مرحلة في الصراع بين الخاص والعام ، كما تحركه مأساة السيد والعبد التاريخية وفي نهاية الوصف التصوري الذي يعطيه ماركس ، تكون الطبقة العاملة قد ضمت إليها كل الطبقات ولم تترك خارجها سوى حفنة من السادة ، ممثلي الجريمة الصريحة ، الذين ستغنيهم الثورة بعدل وصواب .

زوال الهددات ، وتأكيذ الذات

أضف إلى ذلك ان الرأسمالية إذ تسير بالعمل إلى منتهى الحرمان ، تحركه تدريجياً من كل العوامل المحددة التي كان في وسعها أن تخلصه عن سائر البشر . ليس في حوزته شيء ، ... لا ملكية ، لا أخلاق ، لا وطن . انه إذن لا يتسك بأي شيء ، لا يتسك إلا بالنوع الوحيد الذي أصبح هو بعد الآن

بمنزلة المجرّد الحفود. إنه يؤكّد كل شيء والجميع، إذ يؤكّد ذاته؛ لا لان العمال آلهة ، وانما ... لأنهم تردوا إلى أبشع وضع . «إن العمال الذين حرّموا حرماناً تاماً من تأكيد شخصيتهم هم وحدهم قادرون على تحقيق تأكيد ذاتهم تأكيداً تاماً .

#### رسالة البروليتاريا

هذه هي رسالة الطبقة العاملة : تليّصير منتهى الكرامة من منتهى الحزري . إنها ، بعداها ونضالها ، المسيح الإنساني الذي يكفر عن خطيئة الانحراف الجماعية . انها حاملة الإنكار التام أولاً ، والمبشرة بالتأكيد النهائي بعدئذ . ولا يمكن ان تتحقّق الفلسفة دون زوال البروليتاريا ، ولا يمكن ان تتحرر البروليتاريا دون تحقّق الفلسفة . وأيضاً : «لا يمكن أن توجد البروليتاريا إلا على صعيد التاريخ العالمي ... ولا يمكن أن يوجد العمل الشيوعي إلا بوصفه حقيقة واقعة تاريخية عالمية». ولكن هذا المسيح هو في الوقت نفسه ذو انتقام، وينفذ بنظر ماركس - الحكم الذي قضته الملكية الخاصة على نفسها . «كل المنازل في أيامنا هذه مرسومة بصليب أحمر غامض . القاضي هو التاريخ، ومنفذ الحكم هو العامل». إن القضاء محتمّ إذن. فالأزمات ستلو الأزمات<sup>(١)</sup> وستفاقم حرمان الطبقة العاملة، وستزايد عددها حتى وقوع الأزمة العامة حيث سيخفي عالم التبادل<sup>(٢)</sup> ، وسيكفّ التاريخ بمنتهى العنف عن أن يكون عنيفاً . حينئذ سيتحقّق ملكوت الغابات .

#### منطق الموقف القدري

إننا ندرك ان يكون قد أمكن لبعض الماركسيين السير بهذه القدريّة (كما حدث للفكر الميغلي) إلى نوع من السلبية السياسية ، فاعتقد كاوتسكي مثلاً، أن العمال عاجزون عن إحداث الثورة عجزاً البورجوازيين عن منعها . حتى لينين الذي سيصطفي الوجه الإيجابي في العقيدة ، كتب عام ١٩٠٥ في أسلوب بات:

(١) تكهن ماركس بمدىهاكل عشرة اعوام ، أو أحد عشر عاما . ولكن دورية الدورات

«ستتناقص بالتدريج» .

(٢) يقصد العالم الرأسمالي .

«إن الناس خلاص الطبقة العاملة في شيء آخر غير نمو الرأسمالية الضخم ، ضرب من التفكير الرجعي» . الطبيعة الاقتصادية ، عند ماركس ، لا تتغير فزاً ، ويجب تجنبها عدم المرور في مراحل . من الخطأ تماماً أن تقول إن الاشتراكيين الإصلاحيين ظلوا أميين لماركس في هذه النقطة . فالتدريج ، بالعكس ، تريخ كل الإصلاحات بمقدار ما تاطف هذه الإصلاحات وجه التطور المفجع ، وبالتالي بمقدار ما قد تؤخر النهاية المحتمة . إن منطق مثل هذا الموقف يقتضي الموافقة على كل ما من شأنه زيادة برؤس المال .

يجب أن نحرم العامل من كل شيء ... كي يتمكن ذات يوم من الحصول على كل شيء .

دكتاتورية المال وعيها المكوت

هذا لا يمنع أن ماركس أحس بخطورة هذه السلبية . فالسلطة لا تنتظر ... وإلا فإنها 'تنتظر الى ما لا نهاية له' . ثم يوم يحل ، ويجب استلام السلطة فيه . هذا اليوم هو الذي يبقى ساجداً في وضوح مربب بالنسبة الى كل من يقرأ كتب ماركس . فهذا الاخير ما فتى يناقض نفسه حول هذه النقطة . لقد لاحظ ان المجتمع «مجهز تاريخياً على المرور بدكتاتورية المال» . اما فيما يتعلق بطابع هذه الدكتاتورية ، فتعريفاته متناقضة <sup>(١)</sup> . من المؤكد انه ذم الدولة بممارات واضحة ، قائلاً إن وجودها ووجود العبودية متلازمان . ولكنه احتج على ملاحظة - وهي ملاحظة أريبة مع ذلك - باخوين الذي رأى أن مفهوم «دكتاتورية مؤقتة» يخالف ما هو معلوم عن الطبيعة الإنسانية . والحقيقة ان ماركس اعتقد أن الحقائق الجدلية أعلى من الحقائق النفسانية . فإذا قالت الجدلية ؟ لقد قالت إن «إلغاء الدولة ليس له من معنى إلا عند الشيوعيين

(١) إن ميشيل كويليه في كتابه : «أساسة الماركسية» ، أظهر لدى ماركس ثلاثة أشكال لاستلام البروليتاريا زمام السلطة : جمهورية يقوية في البيان الشيوعي ، دكتاتورية متبدلة في كتابه : ١٨ روميد (من التلويح الثوري) ، حكومة اتحادية وديمقراطية في كتابه : الحرب الأهلية في فرنسا .



كنتيجة محزنة لزوال الطبقات التي يفضي زوالها آلياً إلى زوال الحاجة إلى سلطة منظمة تمتلكها طبقة من أجل اضطهاد «الطبقة الأخرى» . إن حكم الأشخاص ، بحسب التعبير المقرر، سيفسح المجال حينئذ لإدارة الأشياء ، فالجدلية كانت صريحة إذن ، ولم تبرز وجود الدولة البروليتارية إلا خلال الزمن اللازم لتحطيم الطبقة البورجوازية أو لدسجها . ولكن ، لسوء الحظ ، كانت النبوءة والقدرية تسمحان بتعليلات أخرى . فإذا كان مجيء الماركسوت مؤكداً ، فما قيمة السنين ؟ ليس العذاب أبداً بالموقت بالنسبة إلى ذلك الذي لا يؤمن بالمستقبل . ولكن مائة عام تكون «سريعة الزوال» ينظر ذلك الذي يؤكد مجيء المجتمع النهائي في العام الذي يلي هذه المدة . في توقع النبوءة ، لا أهمية لشيء . على كل ، ما أن تزول الطبقة البورجوازية حتى يقيم العامل سلطان الإنسان العالمي في ذروة الإنتاج ، بحكم منطقي التطور الانتاجي بالذات . فها هم ان يكون ذلك بواسطة الدكتاتورية والعنف ؟ في أورشليم<sup>(١)</sup> الصاخبة بالآلات العجيبة ، من ذا الذي سيتذكر صرخة الذبيح ؟

الأمل بالمستقبل

ولسان المشكلات

إن العصر الذهبي المرجأ إلى نهاية التاريخ والمتطابق مع الرؤيا ، يُبرّر إذن كل شيء . يجب ان نمنع النظر في طموح الماركسية المعجيب ، وان نقدر بشارتها المفرطة ، كي ندرك أن مثل هذا الأمل يجبر على نسيان مشكلات تبدو حينئذ ثانوية . « إن الشيوعية بوصفها تملكاً حقيقياً للجوهر الانساني من قبل الانسان وللانسان ، وبوصفها عودة الانسان الى ذاته بصفة انسان اجتماعي ، أي بصفة انسان إنساني ، عودة تامة ، واعية ، حافظة لكل غنى الحركة الداخلية ، ... تقول : إن هذه الشيوعية ، بما أنها طيعانية تامة ، لذلك تتطابق مع مذهب تأليه الانسانية . إنها النهاية الحقيقية للزراع بين الانسان

<sup>(١)</sup> سترنغ من هذه الكلمة في الصفحات القادمة . - الحرب -

والطبيعة ، بين الانسان والانسان ... بين الجوهر والوجود ، بين التشيؤ  
وتأكيد الذات ، بين الحرية والضرورة ، بين الفرد والنوع . إنها تحمل لغز  
التاريخ ، وتعلم أنها تحله . اللغة وحدها قد تدعيها أنها علمية . أما فيما  
يتعلق بالمضمون فما الفارق مع فورييه الذي يبشر به الصحاري الخصبة ، وما  
البحر الصالح للشرب وبطعم البنفسج ، والشباب الدائم ... ؟ أننا نبشر بشباب  
البشر الدائم في لغة منشور بابوي . الانسان بلا إله - ما عساه يروم ويأمل ،  
الهم إلا ملكوت الانسان ؟ إن هذا يفتر رعدة التلامذة . قال أحدهم :  
« في مجتمع خلي من القلق ، يسهل على المرء نسيان الموت » . مع ذلك وهذه  
هي الادانة الحقيقية لمجتمعنا - فالقلق الشديد من الموت ترفيمس العاطل اكثر  
بكثير مما يمس العامل الملتحق بعمله الخاص . ولكن كل اشتراكية نظام طوباوي ،  
وفي طبيعتها الاشتراكية العلمية . إن النظام الطوباوي يستبدل الإله بالمستقبل .  
وحيث أن يوجد توحيداً ذاتياً بين المستقبل والاخلاق ، والقيمة الوحيدة هي ما  
يخدم هذا المستقبل . لذلك كان دائماً تقريباً قاسراً ومستبداً<sup>(١)</sup> .

إن ماركس ، بوصفه مفكراً طوباوياً ، لا يختلف عن اسلافه الرهيين ،  
وان قسماً من تعاليمه يور خلقاً .

#### المطلب الاخلاقي عند ماركس

لا جرم ، 'حق للمرء ان يركز على المطلب الاخلاقي الموجود في الحلم  
الماركسي'<sup>(٢)</sup> . يجب ان نقول قبل تفحص فشل الماركسية ، ان هذا المطلب  
يشكل عظمة ماركس الحقيقية . فقد جعل العمل وحرمانه وكرامته التامة في  
صميم تأمله . ووقف ضد تحويل العمل الى سلعة ، والعامل الى غرض . وذكر  
أصحاب الامتيازات ان امتيازاتهم ليست الهية ، وان الملكية ليست حقاً خالداً .  
وافترض سوء الطوبى لدى أولئك الذين لم يكن لهم الحق في ان يحافظوا على

(١) ان هوبلي ، نابوف ، غودوين ، يصمون في الحقيقة مجتمعات حاكم تعيش .

(٢) ماكسيديليان روبيل : صفحات مختارة من أجل اخلاق اشتراكية .

الملكية في طبائنة . وشهر ، في عنى لا يجاوى ، بطبقة لا تكن جريرتها في انها نالت السلطة ، بقدر ما تكن في انها استخدمت هذه السلطة لغايات مجتمع تافه ، محروم من النبل الحقيقي . ونحن مدينون له بهذه الفكرة التي تسبب بأس عصرنا -- ولكن اليأس هنا خير من كل أمل -- والقائلة : حيناً يكون العمل حرماناً ، فليس بالحياة ، مع انه يغطي كل ايام الحياة . فعلى الرغم من مزاعم هذا المجتمع ، من ذا الذي يستطيع ان ينام فيه في سكونية ، بعد ما علم انه يستمد متعة التافه من كد ملايين النفوس الميتة ؟ فلئن طالب ماركس للعامل بالغنى الحق ، وهو غير غنى المال بل غنى التفرغ والخلق ، فلماذا طالب في الحقيقة ورغم المظاهر بصفة الانسان . وبذلك - ويمكن التشديد على هذا القول -- لم يرد الدال الاضافي الذي 'فرض على الانسان بإسمه . ثمة جملة قالها - واضحة وحاسمة للمرة الاولى - 'تكرر الى الأبد على تلامذته المنتصرين العظيمة والانسانية اللتين تميز بهما : 'المهدف الذي يحتاج الى وسائل غير صحيحة ، ليس بالمهدف الصحيح' .

#### الطوباوية وخدمة الكلية

ولكن مأساة ينتشه تكرر هنا<sup>(١)</sup> . فالطموح والنبوءة خيوان وعامان . اما العقيدة فكانت حاضرة مقيدة . وان حصر كل قيمة بالتاريخ وحده كان يسمح بأقصى النتائج . لقد اعتقد ماركس ان غايات التاريخ ، على الاقل ، ستتكشف عن الاخلاق والعقلانية . وفي هذا يكمن نظامه الطوباوي . ولكن النظام الطوباوي - وكان ماركس يعرف ذلك - مصيره خدمة الكلية التي لم يكن ماركس يريد بها . ان هذا الاخير يهدم كل استشراف ، ثم يحقق من ذاته الانتقال من الأمر الواقع الى الواجب . ولكن هذا الواجب ليس له من مبدأ الا في الامر الواقع ، ان المطالبة بالعدالة تؤدي الى الظلم اذا لم تكن هذه المطالبة قائمة اولاً على تبرير اخلاقي للعدالة ، وإلا فلن الجرعة ايضاً تصبح ذات

(١) يقصد اساءة استعمال الفكاره .

يوم واجباً . حيناً يُدمج الخير والشر ثانية في الزمان ، وبالأحداث 'مُخلطان' ، فلا شيء يعود صالحاً أو طالحاً ، بل يكون فقط حادثاً قبل أوانه أو بعده . من ذا الذي سلبت بالملاءمة اللهم الا الانتهازي ؟ يقول التلامذة : فيما بعد ستحكمون . ولكن الضحايا لن يكونوا موجودين كي يحكموا . بالنسبة الى الضحية : الحاضر هو القيبة الرجيدة ، والتمرد هو العمل الوحيد . كيف تتحقق الآمال ، يجب ان تُبنى على الضحايا . لعل ماركس لم يُرد ذلك ، ولكن تلك هي تَبِعَتُهُ التاريخية التي يجب فهمها . انه ، بإسم الثورة ، يبور المقاومة الدائمة لكل أشكال التمرد بعد الآن .

### ٣ - فشل النبوءة

حينما يجيب الأمل بالنبوءة

لقد أنهى هيجل التاريخ بعظمة في عام ١٨٠٧<sup>١١</sup> ، واعتبر السان-سيمونيون الاضطرابات الثورية التي حدثت في ١٨٣٠ و ١٨٤٨ آخر اضطرابات ، وتوفي أ. كونت عام ١٨٥٧ وهو يتأهب للصعود على المنبر ، لكي يبشر بالوضع...انية ويعط بَشْرَآ رجعوا أخيراً عن ضلالهم وادعوا عن غيهم<sup>١٢</sup> . وبدوره ، وبنفس الرومانسية العمياء ، تنبأ ماركس بالمجتمع الخ... الي من الطبقات وبجل اللغز التاريخي . ولكنه كان أكثر فطنة ، لذلك لم يحدد موعداً . لسوء الحظ ، وصفت نبوءته سير التاريخ حتى ساءة الرذ...ا ، وبشرت باتجاه الاحداث . ولكن الاحداث والوقائع لم تنتظم تحت هذه النظرة التركيبية . وإذ هذا 'يُفسر' دفعها الى الانتظام تحت هذه النظرة بالقوة . وإذ بين النبوءات ، بوجه خاص ، ما أن 'تعب' عن الأمل الخبي الذي يخسر نفوس ملايين البشر ، فلا يسعها ان تبقى بلا نهاية ، دون ان تولد بعض المخاض . ثمة وقت يجيء ، 'تحويل'

(١) و-ع ما دام حول هيجل في الصعوبة السابقة - الحرب

(٢) و-ع بهذا الصدد ، نيارات الفكر العلمي - المور...

فيه الحية' الآمال الصابرة الى اندفاعه فائز ؛ ونرى فيه نفس الغاية المؤكدة  
بضراوة عنيدة والمطلوبة بقساوة متزايدة ، 'تجبر' على البحث عن وسائل أخرى .

نسائي الرجى  
وتنظيم العقيدة

إن الحركة الثودية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ،  
عاشت كالمسيحيين الأولين ، في انتظار نهاية العالم وظهور<sup>(١)</sup> «المسيح البروليتاري» .  
ونحن نعرف استمرار هذا الشعور في كنف الطوائف المسيحية الأولية . وفي  
نهاية القرن الرابع أيضاً ، كانت احد اساقفة افريقيا الرومانية بقدر انه لم يبق  
للحياة في العالم سوى مائة سنة . وفي ختام هذه الفترة ، سيأتي ملكوت السماء ،  
وما على المرء إلا ان يبادر الى استحقاق هذا الملكوت . وقد كان هذا الشعور  
عاماً في القرن الاول من تاريخنا<sup>(٢)</sup> ، ويفسر لامبالاة المسيحيين الأولين إزاء  
المسائل اللاهوتية البحتة . فاذا كانت رجعة المسيح قرية ، وجب وقف 'كل  
شيء' للايمان المضطرب بدلاً من الأعمال والعقائد الجوهرية . حتى مجيء كليمان  
وترتوليان ، خلال أكثر من قرن ، لم يتم الانتاج المسيحي بمشكلات اللاهوت ،

(١) يستعمل أيضاً كلمة «رجعة» .

(٢) حول قرب وقوع هذا الحدث نسوق ما يلي :

في انجيل مرقس :

— وقال لهم الحق أقول لكم ان من القيام هنا نوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت  
الله قد أتى بقوة .

في انجيل متى :

— ومن طردكم في هذه المدينة فاهربوا الى الأخرى . فاني الحق أقول لكم لا تكملون  
مدن اسرائيل حتى يأتي ابن الانسان .

في انجيل لوقا :

— حقاً أقول لكم ان من القيام هنا نوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله .

— المغرب —

ولم يفرط في الاعتناء بالأفعال. ولكن ما ان تئات رجعة المسيح ، حتى  
 وجب على المرء أن يحيا بإيمانه . إذ ذاك ظهرت القوى ونشأت التعاليم . لقد  
 تئات الرجعة الانجيلية ، فجاء القديس بولس ليؤسس العقيدة الجوهرية . وقد  
 جسدت الكنيسة هذا الإيمان الذي لم يكن سوى نزوع بعض نحو المملوكات  
 المقبل . لقد وجب تنظيم كل شيء ، حتى الانشام اذ الذي ستكون الجمعيات  
 الرهبانية من شهوده الدينيين ، حتى التبشير الذي سيصبح تحت مسح محقق  
 محاكم التفتيش .

#### لنأني الرجعة الثورية

ثمّة حركة مجانسة نشأت عن فشل الرجعة الثورية<sup>(١)</sup> . إن نصوص ماركس  
 التي استشهدنا بها سابقاً تعطي فكرة صحيحة عن الأمل المضطرم الذي كان  
 آنذاك أمل الفكر الثوري. ورغم الحيات الجزئية ، لم يكف هذا الإيمان عن  
 الازدياد الى ان ألقى نفسه عام ١٩١٧ أمام احلامه وقد تحققت تقرير . أ .  
 ونحن ناضل من أجل أبواب السماء ، هكذا هتف ليكنخت . في عام ١٩١٧ ،  
 خُيل للعالم الثوري انه وصل حقاً أمام هذه الابواب . كانت ثورة روزا  
 لوكسنبرغ تتحقق . « ستهب الثورة غداً منشاعة بجيلة » وستعلن والفزع في  
 قلوبكم بكل أوقام . « كنت ولا أزال وسأكون » . لقد خُيل لحركة  
 سبارتاكوس<sup>(٢)</sup> انها بلغت الثورة النهائية ، لأن هذه الثورة في اعتقاد ماركس  
 بالذات ستمر بالثورة الروسية المصيبة بثورة نارية<sup>(٣)</sup> بعد ثورة ١٩١٧ ،  
 كان في وسع ألمانيا سرفيائية ان تفتح ابواب السماء ، في الحقيقة . ولكن  
 سبارتاكوس غلب ، وفشل الاضراب الفرنسي عام ١٩٢٠ ، و«نحرت» الحركة  
 الثورية الايطالية ، حينئذ اعترف ليكنخت ان الثورة لم تنبع . « الأزمنة لم

(١) أي : عدم ظهور المسيح البروليتاري .

(٢) بالحق الجازي .. الحرب -

(٣) مقدمة الرحمة الروسية لـ « البيان الشيوعي » .

'تُكْمَل' . ولكن أيضاً - وحينئذ ندرك كيف يمكن للانكسار ان ينبه  
الايان المدحور ، حتى درجة الرعدة الدينية - : « على ذوي الانهار الاقتصادي  
الذي يقترب دويه منذ الآن ، ستنبه جحافل العمال كما لو على بوق يوم الحشر ،  
وستهب جثث المكافحين الصرعى لتحاسب اولئك الذين بلغوا منتهى اللعنة » .  
في غضون ذلك ، ... 'قتل هو نفسه ، وُقِّلت روزا لو كسنبورغ ، وهوت المانيا  
في العبودية . اما الثورة الروسية فبقيت وحدها ، تحيا ضد مذهبها الخاص ،  
بعيدة عن ابواب السماء ، مضطرة الى تنظيم رؤيا . ان الرجعة تبتعد . اما الإيمان  
فسليم ، ولكنه يوهن تحت مجموعة ضخمة من المشكلات والاكتشافات التي لم  
تتوقعها الماركسية وها هي ذي الكنيسة الجديدة ثانية امام غاليليه<sup>(١)</sup> : انها ،  
في سبيل الحفاظ على إيمانها ، ستنكر الشمس وستنزل الموان بالانسان الحر .

بدييات ماركس  
والتطور الاقتصادي

الحقيقة ماذا قال غاليليه إذ ذاك ؟ ما هي أخطاء النبوة ، هذه الاخطاء التي  
اثبتت التاريخ بالذات ؟ غير خاف أن التطور الاقتصادي للعالم المعاصر يكذب  
أولاً عدداً من بدييات ماركس . فاذا كان على الثورة ان تحدث في نهاية  
حركتين متوازيتين : التمرکز غير المحدود في رأس المال وتكاثف البروليتاريا  
غير المحدود ، فانها لن تحدث أو ما كان عليها أن تحدث . لقد كان رأس المال  
والبروليتاريا غير أمينين لماركس على حد سواء . إن الاتجاه الذي لوحظ في  
انكاثرتا الصناعة إبان القرن التاسع عشر ، قد انقلب في بعض الحالات ، وتعمد  
في بعض الحالات الأخرى . فالأزمات الاقتصادية التي كان عليها أن تسارع ،  
قد تباعدت ، بالعكس . ذلك أن الرأسمالية تعلمت أسرار التخطيط ، وأسهمت

(١) بالمن المجازي . غاليليه ، عالم ايطالي ، رياضي ، فيزيائي ، فلكي ، دُفنت ملاحظاته الى  
الايان بنظام كوبرنيك الفاعل ان الشمس لا الارض هي مركز العالم الكوكبي . وقد  
اعتبر مذهب كوبرنيك من الهرطقة .

من جهتها في نحو الدولة . الطاغوت . هذا وإث رأس المال بدلاً من أن  
يتركز ، ولد - بفضل تأسيس الشركات المساهمة - زمرة جديدة من صغار  
الملاكين آخرين هم لهم وأيم الحق تشجيع الإنشابات . صحيح أن المشاريع  
الصغيرة قضت عليها المنافسة في كثير من الحالات كما توقع ماركس . ولكن  
تعقد الإنتاج ولد كثيراً من المصانع الصغيرة بجانب المشاريع الكبيرة . ففي  
عام ١٩٣٨ ، أمكن للصناعي فورد أن يعلن بأن ٥٢٠٠ ورشة مستقلة تعمل  
من أجله . وقد ازداد الاتجاه وضوحاً منذ ذلك التاريخ . صحيح أن فورد ،  
بحكم ضرورة الأشياء ، يُغلب مشاريعه . ولكن الشيء الأساسي هو أن هؤلاء  
الصناعيين الصغار يشكلون طبقة اجتماعية متوسطة تعقد المخطط الذي تصوره  
ماركس . أخيراً ، إن قانون التمرکز تكشفت عن قانون باطل تماماً فيما يتعلق  
بالاقتصاد الزراعي ، هذا الاقتصاد الذي عاجله ماركس بحجة . إن النقص هنا  
على جانب من الأهمية . فتاريخ الاشتراكية في عصرنا ، يمكن أن يُعتبر من  
أحد وجوه كسراع الحرية البروليتارية ضد طبقة الفلاحين . إن هذا الصراع  
يراصل على صعيد التاريخ ذاك الصراع الفجيري الذي كان موجوداً في القرن  
التاسع عشر بين الاشتراكية المستبدة والاشتراكية المتعصبة للحرية ، وذات  
الأصل الفلاحية والحرفي الواضح . كانت ماركس يملك إذن في جمعة زمانه  
اتفاقاً عاصراً تأمل حول المشكلة الفلاحية . ولكن إرادة التمهيد بسطت  
كل شيء . وقد اقتضى هذا التبسيط ثناً غالباً دونه الفلاحون الكولاك الذين  
كانوا يشكلون أكثر من خمسة ملايين حالة تاريخية استثنائية ... سرعان ما  
أعيدت إلى خط القاعدة بالقتل والنفي .

#### أعمال الطائفة القومية

نفس التبسيط صرف ماركس عن النظر إلى الثورة القومية ، في عصر القوميات  
بالدات . فقد اعتقد أن الحواجز حتمهاوى بالتجارة والتبادل والتحول إلى الحالة  
البروليتارية . ولكن الحواجز القومية هي التي هوت بالمثل الأعلى البروليتاري .



فقد تكشف صراع القوميات عن انه على الأقل يملك نفس الامة التي لصراع الطبقات في تفسير التاريخ . ولكن الأمة لا يمكن ان تقصر كلها بالاقتصاد ، لذلك اهملها المذهب .

#### الثورة والبروليتاريا

كما ان البروليتاريا ، من جهتها ، لم تنتظم في الخط ، فقد تحققت في البدء مخاوف ماركس ، وتمكن النشاط الاصلاحى والعمل النقابى من الحصول على ارتفاع في مستويات الحياة ، وعلى تحمين في اوضاع العمل . صحيح ان هذه التحسينات لا تشكل حلاً عادلاً للمشكلة الاجتماعية ، ولكن وضع عمال النسيج الانكليز البائس الذي كان سائداً في عصر ماركس لم يتعمم ولم يتفاقم كما أراد له هذا الأخير ، بل بالعكس سار نحو التلاشي . مهما يكن من أمر ، فإن ماركس ان يتشكى اليوم من ذلك ،... لأن التوازن عاد بفضل خطأ آخر ارتكبه ماركس في تكهناته . فقد أمكن لنا في الحقيقة ان نلاحظ أن أنجع عمل ثوري أو نقابي ، انما قامت به دائماً نتيجة من العمال لم يشلها الجوع . أما البؤس والاضطراب فظلا مثلما كانا عليه قبل ماركس ، ونعني عوامل عبودية لا ثورة - الأمر الذي لم يردده ماركس لها ، خلافاً لكل ما تظهره الملاحظة . ففي عام ١٩٣٣ ، كان ثلث العمال في المانيا عاطلين عن العمل . وكان المجتمع البورجوازي آنذاك مضطراً إلى إعالة عاطليه ، محققاً اذن الشرط الذي تطلبه ماركس من أجل الثورة . ولكن لا يليق بثوري المستقبل أن يضطروا إلى انتظار قوتهم من الدولة . وقد جرت هذه العادة القسرية عادات أخرى أقل قسرية ، وضعها هتلر في مذهب<sup>(١)</sup> .

#### عن الطبقة المتوسطة

أخيراً ، لم تتزايد الطبقة البروليتارية إلى ما لا نهاية له . إن شروط الانتاج الصناعى الذي كان على كل ماركسي أن يشجعه ، إن هذه الشروط بالذات قد

<sup>(١)</sup> يشير إلى عادات لم تمكن من معرفتها ، الامر الذي يترك في النص بعض الغموض .  
- العرب -

نمت الطبقة المتوسطة<sup>(١)</sup> بصورة بالغة ، بل وخلقت فئة اجتماعية جديدة هي فئة الفنانين . مهما يكن من أمر ، فإن المثل الأعلى العزيم على لينين لمجتمع يكون فيه المهندس في الوقت نفسه عاملاً عادياً ، قد اصطدم بالوقائع . الواقع الرئيسي هو ان التقنية كالعالم تعقدت لدرجة أصبح من المستحيل معها على انسان واحد ان يحيط بمجموع مبادئها وتطبيقاتها . يكاد يستحيل مثلاً على الفيزيائي في يومنا هذا أن يملك نظرة كاملة عن العلم البيولوجي في عصره . وداخل الفيزياء بالذات ، لا يسعه ان يطمح إلى الإلمام بكل أقسام هذا العلم على حد سواء . كذلك هي الحال فيما يتعلق بالتقنية . ما أت قممت الانتاجية التي يكتبرها البورجوازيون والماركسيون خيراً في حد ذاتها . بنسبة مفرطة ، حتى أصبح تقسيم العمل الذي كان ماركس يؤمن بإمكان تحجبه أمراً محتملاً . لقد دفع كل عامل إلى تنفيذ عمل جزئي دون أن يعرف الخطط العام الذي يندرج فيه عمله . أما أولئك الذين ينسقون أعمال الجميع فشككوا ، بحكم وظائفهم بالذات ، فئة ذات أهمية اجتماعية حاسمة .

عصر اللينين والاضطهاد بالوظيفة

لقد بشر بورنهام بحلول عصر اللينين . ولكن العدالة الأولية تقتضي أن نذكر بأن سيمون وايل قبل سبعة عشر عاماً قد وصفت هذا العصر<sup>(٢)</sup> وصفاً يمكن اعتباره تاماً ، ولكن دون ان تستخلص النتائج المفروضة التي وصل إليها بورنهام . فإلى شكلي الاضطهاد التقليديين اللذين عرفها البشر : الاضطهاد بالسلاح والاضطهاد بالمال ، ... إلى هذين الشكلين تضيف سيمون وايل شكلاً ثالثاً : الاضطهاد بالوظيفة . كتبت تقول : «نستطيع ان نحذف التضاد بين مشتري العمل وبائعه ، دون أن نحذف التضاد بين اللذين يتصرفون بالآلة واللذين

(١) من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠ ، في فترة انتاجية قوية ، تنامى عدد عمال التعدين في الولايات المتحدة في حين ارتفع عدد البائمين الممتلكين بهذه الصناعة نفسها إلى الضعف.

(٢) «هل نحن ماضون نحو ثورة بروتليارية؟»

تصرف بهم الآلة. إن الإرادة الماركسية الرامية إلى حذف التضاد الخزي بين العمل العقلي والعمل اليدوي قد اصطدمت بضرورات الانتاج ... الذي مجده ماركس في موضع آخر . ليس من شك في أن ماركس تكهن في كتابه : «رأس المال» بأهمية «المدير» عند أعلى مستوى في تمركز رأس المال . ولكنه لم يعتقد ان هذا التركز قد يبقى بعد إلغاء الملكية الخاصة . لقد قال : إن تقسيم العمل والملكية الخاصة تعبران مئاثلان . ولكن التاريخ اثبت العكس- إن النظام المثالي القائم على الملكية الجماعية كان يُريد ان يُعرّف بالعُدالة مضافة إليها الكهرباء . ولكنه لم يعد أخيراً سوى الكهرباء ... بلا عدالة .

القومية ، البطش ، يؤس الوضع ...  
و « رسالة البروليتاريا »

إن فكرة «رسالة البروليتاريا» ، لم يتسن لها أخيراً أن تتجسد حتى الآن في التاريخ . وهذا يلخص إخفاق التكهن الماركسي . لقد أثبت إفلاس «الأممية الثانية» أن البروليتاريا تتحدد بغير وضعها الاقتصادي، وإن لها وطناً ، خلافاً للشعار المشهور<sup>(١)</sup> . فالبروليتاريا بسوادها الأعظم رضيت بالحرب أو تقبلتها بخضوع ، وساهمت طوعاً أو كرها في الفورات القومية في هذا العصر . كان ماركس يعني أن الطبقات العاملة ، قبل أن يُعقد لها النحر ، تكون قد اكتسبت الكفاءة الشرعية والسياسية . ولكنه أخطأ إذ اعتقد أن منتهى البؤس ، ولا سيما البؤس الصناعي ، من شأنه أن يؤدي إلى النضج السياسي . من المؤكد على كل حال أن الكفاءة الثورية عند الجماهير العمالية قد حدث منها البطش بالثورة المتعزبة للحرية ، خلال حكومة «الكومون» وبعدها . مهما يكن من أمر ، فإن الماركسية سيطرت بسهولة على الحركة العمالية اعتباراً من ١٨٧٢ ، بسبب عظمتها الخاصة ولا شك ، ولكن أيضاً لأن الحركة الاشتراكية الوحيدة التي كان في وسعها مقاومة الماركسية قد أغرقت في الدماء . ذلك انه لم يكن هناك عملياً

(١) الله يقصد : يا عمال العالم اتحدوا .

ماركسيون بين ثوار ١٨٧١ . وقد استمر هذا التطوير الآلي للثورة حتى يومنا هذا بفضل الدول البوليسية. وألقت الثورة نفسها متروكة أكثر فأكثر لإداريتها الديوانيين وللفكرية المعاندين من جهة، ولجماهير تملكها الوهن والخيرة من جهة أخرى . فحينما تقطع رؤوس الصفوة الثرية، ويتترك شخص مثل فاليران حياً، فمن ذا الذي سيقاوم نابليون ؟ ولصكن إلى هذه الأسباب تنضم الضرورات الاقتصادية . يجب أن نطالع نصوص سيمون وايل حول وضع العامل في المعمل <sup>(١)</sup> لنتبين إلى أية دركة من الانهيار المعنوي واليأس الصامت يمكن أن يؤدي تطبيق الطرق العقلانية في ميدان العمل . وصدقت سيمون وايل إذ قالت إن الوضع العالمي غير إنساني لسببين : لأنه بلا مال أولاً ، وبلا كرامة ثانياً . فالعمل الذي يستأثر باهتمام المرء ، العمل المبدع ، لا يندل الحياة حتى لو كانت قليل الأجر . إن الاشتراكية الصناعية لم تقم بشيء أساسي من أجل الوضع العالمي، لأنها لم تمس مبدأ الانتاج وتنظيم العمل، بل بالعكس مجدت هذا المبدأ. لقد أمكن لما أن تقدم للعامل تبريراً تاريخياً له من القيمة ما للتبرير القائم على وعند ذلك الذي يموت وهو يكبد، بالمتع السجوية . ولكنها لم تُرد له قط بهجة المبدع . عند هذا المستوى ، لا يعود موضوع البحث الشكل السياسي للمجتمع ، بل المبادئ الأساسية الخاصة بحضارة تقنية تتعلق بها كل من الرأسمالية والاشتراكية على حد سواء .

كل فكرة لا تسير بهذه المشكلة إلى الأمام ، تكاد لا تحس الشقاء العالمي .

البروليتاريا بين السادة الدماغي والجلد

بمجرد آلية القوى الاقتصادية التي كانت محل إعجاب ماركس ، نبذت البروليتاريا الرسالة التاريخية التي ألغاهها ماركس على عاتقها . اتنا نقفر له خطأه . فتجاه هوان الطبقات الحاكمة ، يبحث الانسان المهتم بالحضارة بصورة غريزية عن صفوة استبدالية . ولكن هذا المطلب ، لو حده ، ليس مبدعاً . لقد تلمست

(١) الوضع العالمي (غالبار) .

البروجوازية الثورية زمام السلطة عام ١٧٨٩، لأنها كانت تمثلها من قبل . كان الحق آنذاك - على حد قول جول مونرو - متخلفاً عن الواقع . فقد كانت البروجوازية تصرف سابقاً بالمراكز القيادية وبالألوة الجديدة ؛ المال . ولكن الحال كانت مختلفة بالنسبة الى البروليتاريا التي لم تكن تمثل سوى رؤسها وآمالها ، والتي ابتقتها البروجوازية على هذا البؤس . لقد ساءت الطبقة البروجوازية في طريق الهران ، بسبب كلفها بالانتاج والقوة المادية . وان تنظيم هذا الكلف لم يكن في وسعه خلق صفوة<sup>(١)</sup> . اما نقد هذا التنظيم وتنمية الشعور المتمرد فكان في وسعها خلق صفوة استبدالية . والحركة النقابية الثورية وحدها ، مع بلوتيه وسوريل ، هي التي مشت في هذا الدرب ، وأرادت أن تخلق بالثورية المهنية والثقافة ، الملاكات الجديدة التي استدعاه وما زال يستدعيها عالم فاقد الشرف . ولكن ما كان في وسع ذلك ان يحصل بين عشية وضحاها ، والسادة الجدد كانوا موجودين من قبل ، منصرفين باهتمامهم الى الاستفادة من البؤس مباشرة ، في سبيل سعادة بعيدة ، ... بدلاً من ان 'يُنقَسوا' كربة ملايين البشر اكثر مما يمكن ودونما انتظار . لقد حكم الاشتراكيون الاستبداديون بأن التاريخ يسير بتباطؤ شديد ، وان الضرورة تقتضي تسليم رسالة البروليتاريا الى حفنة من العقائدين في سبيل الاسراع في حركة التاريخ . وبذلك بالذات كانوا اول من انكر هذه الرسالة . ولكنها موجودة مع ذلك ، لا بالمعنى الحصري الذي كان يعطيه لها ماركس ، بل مثلما توجد رسالة كل زمرة بشرية تعرف كيف تجعل كدها وعذابها مصدر خصب وأنفة . وفي سبيل ظهورها ، كان لا بد من المخاطرة والثقة بالحربة والعفوية العائيتين . بيد ان الاشتراكية الاستبدادية ، بالعكس ، صادرت هذه الحرية الحية لصالح حرية مثالية ستتحقق في المستقبل .

(١) كان لينين اول من لاحظ هذه الحقيقة ، ولكن دونما غم ظاهر . فاذا كانت جلته نظمية بالنسبة الى الآمال الثورية ، فانها انطقت بالنسبة الى لينين بالذات . والحقيقة لقد تجرأ على القول ان الجماهير ستكون اسهل قبولاً لمركزية البيروقراطية الديكتاتورية لأن «البروليتاريا ستكون اسهل تقبلاً للانضباط والتنظيم، وذلك بفضل مدرسة الصنع هذه».

وبهذا العمل ، شاءت ام أبنت ، عززت المشروع الاستبدادي الذي بدأت به وأعماله المعمل . وبتأثير هذين العاملين المتضافين ، وخلال مائة وخمسين عاماً ، لم تكن للبروليتاريا من رسالة تاريخية سوى ان تكون موضع خيانة .. ما عدا في باريس حكومة «الكومون» ، الملعب الأخير لثورة المتردة . لقد ناضل العمال ولاقوا حتفهم ... كي يسلموا أخيراً زمام السلطة لغير من العسكريين ، او لمتقنين أصبحوا بعدئذ عسكريين ، استبدوهم بدورهم . مع ذلك ، كان هذا النضال كرامتهم ، وقد اعترف لهم بها كل أولئك الذين اصطفوا مشاركتهم أملهم وشقاؤهم . ولكن هذه الكرامة اكتسبت ضد السادة القدامى والجدد . وهي تكبرهم ما ان يتجرأوا على استخدامها . انها ، بوجه ما ، تبشر بأفول نجمهم .

عالم ام عالمان ؟

ان تكهنات ماركس الاقتصادية قد وُضعت اذن ، على الاقل ، موضع الشك من قِبَل الحقيقة الواقعة . وما يبقى صحيحاً في نظرتة الى العالم الاقتصادي هو تشكُّل مجتمع يتعرف اكثر فأكثر بوتيرة الانتاج . ولكنه ، في اندفاع عصره ، شارك الفكر البورجوازي في هذه النظرة . ان الاوهام البورجوازية فيما يتعلق بالعلم والتقدم التقنيين ، والتي شارك فيها الاشراكيون الاستبداديون ، ... تقول : ان هذه الأوهام ولدت حضارة مُروّضي الآلة . وهي حضارة تنقسم بالمزاحمة والسيطرة الى كتل متخاصمة ، ولكنها تخضع لنفس القوانين على الصعيد الاقتصادي : تراكم رأس المال ، انتاج خاضع للتنظيم العقلاني ومتزايد في استمرار . اما الاختلاف السياسي الخاص بعظم جبروت الدولة ، فواسع ، انما 'يمكن اتقاصه بواسطة التطور الاقتصادي . واما الاختلاف في الاخلاق الفضيلة الصورية المعارضة للكلية التاريخية .. فيد وحده راسخاً . ولكن دافع الانتاج يتحكم بكل العالمين ، ولا يجعل منها على الصعيد الاقتصادي الا عالماً واحداً<sup>(١)</sup> .

(١) فلنبن ان الانتاجية لا تكون مؤذية الا حينما نعتبر حكماية .. لا كوسيلة لد تكون بحرة .

### منفعة عبادة الاتاج

على كل ، اذا كان الواقع الاقتصادي لم يعد قابلاً للانكار <sup>(١)</sup> ، فان نتائجه ليست تلك التي تصورهما ماركس . الرأسمالية ظالمة اقتصادياً ، بظاهرة التراكم . انها ظالمة بما هي ، 'تكديس لتشي ما هي ، تستمر بمقدار ذلك ، وتكديس ثانية بنفس المقدار ... لم يكن ماركس ليتصور نهاية لهذه الحلقة الجهنمية ، الا الثورة . اذ ذاك ، لا يكون التراكم ضرورياً إلا بمقدار بسيط ، لضمان الأعمال الاجتماعية .

ولكن الثورة تتصنع بدورها ، وحينئذ نلاحظ ان التراكم متعلق بالتقنية ذاتها ، لا بالرأسمالية ؛ وان الآلة أخيراً تستدعي الآلة . كل جماعة مكافحة تحتاج الى تكديس مداخلها بدلاً من ان توزعها . انها 'تكديس كي تنمو ، وتزيد قوتها . وسواء أكانت بورجوازية ام اشتراكية ، فانها ترجىء العدالة الى المستقبل ، لصالح القوة وحدها .

ولكن القوة تعارض قوى اخرى . انها تجهز وتسلح ، لأن القوى الاخرى تجهز وتسلح . ولا تكف عن التكديس ولن تكف أبداً إلا اعتباراً من اليوم الذي لعلها تستود فيه وحدها على العالم . وفي سبيل ذلك ، على كل ، ينبغي لها أن تمر بالحرب .

إلى ذلك اليوم ، يكاد العامل البروليتاري لا يتقاضى إلا ما يحتاج اليه لمعاشه . إن الثروة تجبر نفسها على بناء الوسيط الصناعي والرأسمالي الذي كان نظامها الخاص يستدعيه ، وذلك بكلفة بشرية باهظة . ويحل محل الربح Rente جهد الانسان . حينئذ تتعمم العبودية ، وتظل أبواب السماء موصدة .

(١) على الرغم من انه كان قابلاً للانكار - حتى القرن الثامن عشر - خلال الوقت الذي اعتقد فيه ماركس انه اكتشف هذا الداع .

ثمة أمثلة تاريخية لم يؤد فيها تنازع اشكال الحضارة الى تقدم على صعيد الاتاج ؛ فزود البرابرة لمدينة روما ، انخراج العرب من اسبانيا ، إعادة المراقبة اللاتين .

هذا القانون الاقتصادي لعالم يحيا على عادة الانتاج ، علماً بأن الحقيقة الواقعة هي أيضاً آدمي من القانون .

الثورة ، في المآزق الذي زجها فيه اعداؤها البورجوازيون وانصارها العدميون ، ... هي المبردية . فما لم تبدل مبادئها وطريقها ، فليس لها من مخرج سوى تمردات المييد تستحق في الدماء ، أو الامل القطيع بالانتحار الذري .

إن ارادة القوة والنضال العدمي من أجل التحكم والسيطرة ، فعلاً ما هو أفضل من تكتيس النظام الماركسي الطوباوي . فهذا النظام الاخير أصبح بدوره واقعة تاريخية سيئة لأن تستخدم كالوقائع الاخرى . لقد اعتزمت السيطرة على التاريخ ، فضل في متاهاته ... ؛ واعتزمت استخدام كل الوسائل ، فردى هو نفسه إلى وسيلة ، ووجه دونه رادع خلقي في سبيل اتفه الغايات وأدماها .

كلا ، إن تنمية الانتاج المستمرة لم تهدم النظام الرأسمالي لصالح الثورة ، بل هدمت المجتمع البورجوازي والمجتمع الثوري على حد سواء ، لصالح طاغوت كلفه بالقوة .

. . .

#### الالتباس في الطريقة الماركسية

كيف أمكن ان تصطدم بالوقائع اشتراكية كانت تزعم بأنها علمية ؟ الجواب بسيط : انها لم تكن علمية . لقد نشأ إخفاقها عن طريقة بلغت من الالتباس مبلغاً دفعها الى الادعاء بأنها في الوقت نفسه تفيدية ونبوية ، جدلية وعقيدية Dogmatique<sup>(١)</sup> . فاذا لم يكن الفكر سوى انعكاس عن الاشياء ، فلا يسهل اذن ان يسبق سيرها إلا بالفرضية Hypothèse . واذا كانت النظرية محددة بالاقتصاد ، ففي وسعها ان تصف ماضي الاقتصاد ، لا مستقبه . الذي يبقى قيد الاحتمال فقط . ان سهبة المادية التاريخية لا يجوز لها ان تكون سوى إقامة نقد المجتمع الحالي ، ولا يسهل ان تعبري على المجتمع المقبل دون أن

(١) الاولى تفترض الحركة ، والثانية الجمود - العرب -



تتقطع عن الفكر العلمي -- سوى افتراضات . على كلٍّ ، أليس لهذا السبب  
 'ممي كتاب ماركس الأسامي ' رأس المال ' ، لا ' الثورة ' (١) . ان ماركس  
 والماركسيين انقادوا مع التنبؤ بالمستقبل والاستراتيجية ، على حساب مبادئهم  
 الاولية والطريقة العلمية .

#### العقل التاريخي

ما كان في وسع هذا التكهّن ان يكون علمياً إلا بالتوقف عن التنبؤ  
 في المطلق . الماركسية ليست علمية . لأنها ، على خير وجه ممكن ، علمانية  
 Scientiste (٢) . فهي 'تظهر الانقسام العميق بين العقل العلمي ، الأداة الحسية  
 للبحث والتفكير وحتى للتدرد ، والعقل التاريخي الذي ابتدعه العقائدية الألمانية  
 في إنكارها لكل مبدأ. العقل التاريخي ليس عقلاً يحكم على العالم ، وذلك بموجب  
 وظيفته الخاصة . انه يقود العالم ويدعي الحكم عليه في الوقت نفسه . يغوص في  
 الحداث ... ويوجه في الوقت ذاته . انه تربوي وغائي في وقت واحد . وإن  
 هذه الأوصاف تعطي ، على كلٍّ ، أبسط واقع . إذا قصرنا الانسان على  
 التاريخ ، فما له من خيار سوى أن يفرق في ضييع وفورة تاريخه أخرق ،  
 أو ان يعطيه شكل العقل البشري . ليس تاريخ العدمية المعاصرة إذن سوى  
 جهد طويل في سبيل منح نظام لتاريخ لم يبق له نظام ؛ وذلك بقوى الانسان  
 وحدها ، وبالقوة ليس غير . وفي النهاية يتطابق هذا العقل الكاذب مع الحيلة  
 وفن الحطة ، ربما يبلغ ذروة ارتفاعه في 'الامبراطورية' العقائدية. فما عمل العلم  
 هنا ؟ لا شيء أقل غزواً من العقل . التاريخ لا يصنع بوساوس علمية . بل  
 اتنا نحكم على أنفسنا بأن لا نصنعه ، وذلك حالما نزعم بأننا نسير فيه بموضوعة  
 العلمين . العقل لا يوعظ ، وإذا وعظ لم يعد عقلاً . لذلك فالعقل التاريخي عقل  
 رومانسي غير عقلاني ، يُذكرنا بصياغات المهووس الفكرية أحياناً ، وبالتأكيد

(١) علم ان رأس المال يحلل المجتمع الرأسمالي - العرب -

(٢) راجع هذا العدد : تيارات الفكر الفلسفي - العرب -

الصوفي للكلمة الالهية (١) احياناً اخرى .

مركة العلم ... بالقوة ا

ان الوجه الوحيد العلمي حقاً في الماركسية يكمن في رفضها المسبق للأساطير والخرافات ، وفي اظهار أثقه المصالح . ولكن ماركس ، بموجب هذا الرأي ، ليس اقرب الى العلم من لاروشفوكو . هذا الموقف هو ، بالضبط ، الموقف الذي يتخلى عنه ما ان يدخل في النبوءة . فليس عيباً والحالة هذه انه في سبيل جعل الماركسية علمية وإبقاء هذا الروم ، وجب مسبقاً جعل العلم ماركسياً ... بواسطة الارهاب. إن تقدم العلم منذ ماركس ، كمن اجمالاً في استبدال التقيدية والمبدأ الآلي الفعج باحتمالية موقفة . وقد كتب ماركس لإنتلنز قائلاً ان نظرية داروين اساس نظريته . فكيف تبقى الماركسية معصومة ، وجب اذن انكار الاكتشافات البيولوجية منذ داروين . وبما انه اتفق ان هذه الاكتشافات منذ التحولات المفاجئة التي لاحظها دي فريس ، كنت في ادخال مفهوم الصدفة في البيولوجيا ، خلافاً للتقيدية ، ... لذلك وجب تكليف لينسكو بترويض المرمى الملوثة (٢) Chromosomes ، وبأن يثبت ثانية وجود أبسط تقيدية . ان هذا يستوجب الهزء ... ولكن فلنمط السيد هوميه (٣) M. Homaie شرطة ... فانه لا يعود يستوجب الهزء ... وهذا هوذا القرن العشرون . في سبيل ذلك ، سيضطر القرن العشرون ان ينكر ايضاً مبدأ اللاتحدّد في الفيزياء ، والنسبية المحدودة ، ونظرية الكائنات (٤) ، واخيراً الاتجاه العام للعلم المعاصر . ليست الماركسية علمية اليوم الا بشرط ان تكونها ضد هايزنبرغ وبوهر

(١) الذات الثانية في التالوث الأندس ، المتجدة في يسوع المسيح - العرب

(٢) تتج عن اقسام التواة اتجاه التكاثر الخلوي العرب

(٣) أي : النمط الشخص المحدد التكبير وسائل البطش ... لانه لا يعود يستوجب الهزء

العرب --

(٤) بنفوس هذه المشكلات راجع : المشكلات الماورائية الكبرى . ترجمة نهار رضا . (وهذه الماركسية) غالباً .

وآينشتاين واكبر علماء هذا العصر . مهما يكن من امر ، فان المبدأ الذي يكمن في ارجاع العقل العلمي الى خدمة نبوءة من النبوءات لا ينطوي على شيء مبهم . فقد سمي من قبل مبدأ المرجع الحجة <sup>(١)</sup> ، وهو الذي يوجه الكنائس حينما تريد اخضاع العقل الحقيقي للإيمان الميت ، وحرية الذهن لصيانة السلطة الدينية .

الحدث البعيد ... وثقيلات الإيمان

أخيراً ، من نبوءة ماركس التي تقف بعد الآن ضد مبادئه : الاقتصاد والعلم ، ... من هذه النبوءة لا يبقى سوى التبشير الحماسي بحدث بعيد الأجل . إن ملجأ الماركسيين الوحيد يكمن في الإدعاء بأن الآجال هي فقط أطول ، وإن علينا ان نتوقع ان تبور النهاية كل شيء ، في يوم لا يزال غير منظور . وبتمبير آخر ، نحن في المطهر *Le Purgatoire* ونتلقى الوعد بأن لن يكون هناك جحيم . المشكلة التي تطرح حينئذ هي من نوع آخر . إذا كان كفاح جيل أو جيلين خلال تطور اقتصادي ملائم ، كافياً للتمنح عن المجتمع غير الطبقي ، فان التضحية تصبح معقولة بالنسبة إلى المناضل ، لأن المستقبل يكتسب في نظره وجهاً حياً : وجه طفله الصغير مثلاً . ولكن اذا وجب علينا الآن - لأن تضحية عدة أجيال لم تكن بالكافية - ان نقارب فترة لامتناهية من النزاعات العالمية الرهيبة ، فلا بد لنا اذن من يقينيات الإيمان كي تقبل بأن غوت وبأن نميت الآخرين . ولكن هذا الإيمان الجديد ليس له من الرسوخ في العقل المجرد أكثر مما للإعتقادات القديمة .

...

مشكلة نهاية التاريخ

كيف نتصور حقاً نهاية التاريخ هذه ؟ ان ماركس لم يرجع الى عبارات هيغل . لقد قال بصورة كافية الابهام ان الشيوعية ليست سوى شكل محتمل للمستقبل البشري ، وانها ليست المستقبل كله . ولكن ... إما ان الشيوعية لا

(١) بهذا العدد راجع : باسكال ، حياته ، فلسفته - سلسلة «زبدى علماً» - منشورات عويدات

'تتهي تاريخ التناقضات والعذاب ، وحينئذ لا نرى كيف نرور هذا القدر من الجهد والتضحيات ، ... وإما أنها تنهى ، وحينئذ لا يسعنا ان نتصور بقية التاريخ إلا كسير نحو هذا المجتمع الكامل . اذ ذاك فة مفهوم رمزي يتدخل بصورة اعتباطية في وصف يزعم بأنه علمي . ان زوال الاقتصاد السياسي زوالاً نهائياً - الموضوعة المفضلة عند ماركس وانتغاز - يعني نهاية كل عذاب . فالاعتقاد في الحقيقة يتطابق مع عذاب وشقاء التاريخ ، اللذين يزولان بزواله . هانحن أولاء في جنة عدن .

#### التاريخ الآخر

إننا لا نسير بالمشكلة الى الامام باعلاننا ان موضوع الكلام ليس نهاية التاريخ ، بل القفزة الى تاريخ آخر . هذا التاريخ الآخر لا نستطيع ان نتصوره الا وفقاً لتاريخنا الخاص . لكن كلنا تاريخين في حد ذاتها ، فليسا بالنسبة الى الانسان سوى تاريخ واحد . مهما يكن من أمر ، فان هذا التاريخ الآخر يتضمن احد امرين : إما انه ليس حلاً للتناقضات ، ... وحينئذ تعذب ، نموت ، ونقتل من أجل لاشيء تقريباً . وإما انه الحل للتناقضات ، ... وحينئذ ينهي عملياً تاريخنا .

عند هذه المرحلة ، لا نبرر الماركسية إلا بالمجتمع النهائي .

ما معنى المجتمع النهائي ؟

هذا المجتمع النهائي هل له من معنى إذ ذاك ؟

إن له معنى في العالم المقدس ، ما ان نسلّم بالبدئية الدينية . لقد خلقت العالم ، ... لذلك ستكون له نهاية . لقد خرج آدم من جنة عدن ، ... لذلك على الانسانية ان تعود اليها . ولكن ليس من معنى في العالم التاريخي إذا سلتنا بالبدئية الجدلية . فاذا طبقت الجدلية تطبيقاً صحيحاً فلا يسما ولا ينبغي لها ان تقف <sup>(١)</sup> . في وسع حدود ( قضايا ) الوضع التاريخي المتناقضة ان تتحرك

(١) راجع : علم اجتماع الشيوعية ، القسم الثالث .

بعضها بعضاً ، وأن تجاوز ذاتها في تركيبة مخلصّة جديدة . ولكن ليس هناك من سبب كي تكون هذه التركيبة أعلى من سابقتها . أو بالاحرى ليس من سبب لذلك اذا فرضنا اعتبارياً نهايةً على الديالكتيك ، أي اذا ادخلنا فيه حكماً قسياً آتياً من الخارج . فاذا كان المجتمع غير الطبقي ينهي التاريخ ، فحينئذ في الحقيقة يكون المجتمع الرأسمالي أعلى من المجتمع الاقطاعي ، وذلك بقدر ما يقرب مجيء هذا المجتمع غير الطبقي . ولكن اذا سلمنا بالبدئية الجدلية ، فيجب التسليم بها كلياً . فكما ان مجتمع الارهاط ثلاث مجتمعات بلا ارهاط ولكنه طبقي ، كذلك يجب ان نقول ان المجتمع الطبقي سيتاوه مجتمع غير طبقي ، ولكن يحركه تناقض جديد لم يتحدد بعد . الحركة التي نأبى لها ان تكون ذات بداية ، حركة لا يسعها ان تكون ذات نهاية . قال أحد الكتاب الفوضيين<sup>(١)</sup> : « إذا كانت الاشتراكية صيرورة دائمة ، فوسائلها غاياتها » . وهي ، بالضبط ، ليست ذات غاية ، وليس لها سوى وسائل لا يضمنها أي شيء ، ان لم تكن مضمونة بقيمة غريبة عن الصيرورة . بهذا المعنى ، من الصحيح أن نلاحظ أن الجدلية ليست ولا يسعها ان تكون ثورية . انها فقط - بحسب رأينا - عدمية ؛ مجرد حركة تستهدف إنكار كل شيء سواها .

#### نهاية التاريخ مبدأ نصف

ليس هناك إذن في هذا العالم أي سبب لتصور نهاية التاريخ . مع ذلك ، هذه النهاية هي التبرير الوحيد للتضحيات المطلوبة من الإنسانية ، بلوم الماركسية . ولكن ليس لها من أساس معقول سوى مغالطة<sup>(٢)</sup> « تدخل في التاريخ - هذا الملكوت الذي أرادوا له ان يكون وحيداً وكافياً - قيمة غريبة عن التاريخ . وبما ان هذه القيمة هي في الوقت ذاته دخيلة على الاخلاق ، لذلك ليست ببحر المعنى قيمة يمكننا ان ننظم عليها مسلكتنا . انها عقيدة غريبة من الاساس نستطيع

(١) الاشتراكية والحرية ، تأليف ارلستان .

(٢) مغالطة قوامها افتراض ما يطلب برهانه .

ان نجعلها عقيدتنا الخاصة ، وذلك في الحركة اليائسة الصادرة عن فكرة تختق  
من العزلة أو العدمية ، أو نراها تفرض من قبَل أولئك الذين تقديم هذه  
العقيدة .

ليست نهاية التاريخ أنودجاً وكالاً ، بل مبدأ تعسف وإرهاب .

الملوكوت ... والتسمية الاجتماعية

اعترف ماركس ان كل الثورات قبل مجئه كان نصيبها الفشل . ولكنه  
زعم بأن الثورة التي يبشّر بها سيكتب لها النجاح النهائي . ولقد عاشت الحركة  
العالمية حتى الآن على هذا التأكيد الذي لم تكفّ الوقائع عن تكذيبه ، والذي  
آن الاوان للفضح بهتانه بكل هدوء . فكلما تنادى الظهور ، اصبح تأكيد  
الملوكوت النهائي عقيدة جوهرية ، بعدما وهن عقل . ان قيمة العالم الماركسي  
الوحيدة تكمن بعد الآن في عقيدة مفروضة على «امبراطورية» فكرية بأسرها .  
وان ملكوت الغايات 'يستخدم من أجل تسمية اجتماعية ، شأنه في ذلك شأن  
الاخلاق الخالدة وملكوت السموات .

تساؤل وإجابة

إن إيلي هاليفي أقر بأنه عاجز عن ان يبين هل ان الاشتراكية ستؤدي  
الى تعميم الجمهورية السويسرية ، أو الى الحكم الاوروبي المستبد . ولكننا  
أصبحنا أحسن اطلاعاً . فقد ثبتت نبوءات نيته حول هذه النقطة . وستظهر  
الماركسية بعد الآن خلافاً لذاتها وبحكم منطق محتم في الاستبدادية العقلية  
التي ينبغي لنا ان نشرح اخيراً بوصفها . إنه - ا - ، وهي المسئلة الاخيرة لصراع  
العدالة ضد العون الرباني ، تأخذ على عاتقها - عن غير قصد - صراع العدالة  
ضد الحقيقة . بأية واسطة نعيش بلا عوت ؟ هوذا التساؤل ساد في القرن  
التاسع عشر . « بالعدالة » ، أجاب أولئك الذين رفضوا قبول العدمية المطلقة .  
أما الشعوب التي تملكها اليأس من ملكوت السموات ، فوعدها بملكوت  
الانسان . وقد تسارع التبشير بـ «المدينة الانسانية» حتى نهاية القرن التاسع عشر

حيث أصبح هذا التبشير ذا خيالات وأوهام ، ووضعَ يقينيات العلم في خدمة نظام طوباوي . ولكن المكوت تنأى . وثمة حروب مذهلة فتكت بأهل أقدم القارات ، وغطت دماء التمردين جدران المدن ، ... ومع ذلك لم تدنُ العدالة التامة . إن تساؤل القرن العشرين الذي ذهب ضحيته أروابيو ١٩٠٥ ، والذي يمزق العالم المعاصر ، ان هذا التساؤل قد توضح تدريجياً : بأية واسطة نعيش بلا عون ولا عدالة ؟

إجابة العدمية  
وإرادة القوة

العدمية وحدها أجابت على هذا التساؤل ، لا التمرد . وحدها تكلمت حتى الآن راجعة الى عبارة التمردين الرومانسيين : «فورة» . الفورة التاريخية تُسمى القوة . إن ارادة القوة جاءت تنوب مناب ارادة العدالة، متظاهرة أولاً بالتطابق معها ، ثم أبعدتها الى زاوية ما في نهاية التاريخ ، ريثما تمتد يد التسلط الى كل شيء على الارض . النتيجة العقائدية تغلبت اذن على النتيجة الاقتصادية : إن تاريخ الشيوعية الروسية يكذب مبادئها . في ختام هذا الدرب الطويل ، نجد التمرد الماورائي الذي يتقدم هذه المرة وسط ضجيج السلاح وصخب الشعارات ، ولكنه نسي مبادئه الحقيقية ، دافئاً عزله في قلب جماهير شاكية السلاح ، سائرأ مواقفه الانكارية بفلسفة كلامية متصلة ، ولا يزال ملتفتاً نحو المستقبل الذي جعل منه بعد الآن إله الوحيد ، ولكنه منفصل عن هذا المستقبل بمجموعة من الأمم يجب قهرها ، وبمجموعة من القارات يجب بسط السيطرة عليها .

والعمل<sup>(١)</sup> كبدأً وحيد ، «سيطرة الانسان» كذريعة ، ... لقد سبق لهذا التمرد انه حفر المعسكر المحصن بتاريس ، في شرق أوروبا ، تجاه معسكرات محصنة أخرى ...

.....  
١) العمل = الحركة = النشاط .

## ٤ - ملكوت النقايات

### لينين والسمالية

لم يكن ماركس ليتصور مثل هذا التبعيد الرهيب . ولا لينين الذي خطا مع ذلك خطوة حاسمة نحو «الامبراطورية» العسكرية . لقد كان هذا الاخير ماهراً في فن الحطة بقدر ما كان عادياً في الفلسفة ، لذلك طرح على نفسه أولاً مشكلة استلام زمام السلطة . فلنلاحظ فوراً انه من الخطأ تماماً ان نتحدث - كما نفعل - عن يعقوبية لينين . ان فكرته عن زمرة المحرضين والثوريين وحدها هي يعقوبية . كانت اليقوبيون يؤمنون بالمبادئ والفضيلة . وقد لقوا حتفهم اذ اضطروا الى إنكارها . أما لينين فلا يؤمن إلا بالثورة وبفضيلة الفعالية . « يجب ان نكون مستعدين لكل التضحيات ، وان نستخدم كل المكاثد والحيل والطرق غير المشروعة ، وان نكون عازمين على إخفاء الحقيقة ، فقط كي نتغلغل في النقابات ... ونقوم فيها رغم كل شيء بالمهمة الشيوعية » . لقد دشّن ميغل وماركس مكافحة الاخلاق الصورية ، وهذه المكافحة موجودة عند لينين في نقد المواقف الثورية غير الفعالة .

في نهاية هذه الحركة ، كانت الامبراطورية .

### محنة استلام السلطة

إذا تناولنا كتابه<sup>(١)</sup> الذي «درا في بداية حياة» انه كمبرض وفي نهايتها ، فانتسنا ندهش إذ نرى انه لم يكن عن مكافحة الاشكال العاطفية من العمل الثوري ، دوغما هوادة . لقد أرا ان يبعد الاخلاق عن الثورة ، لأنه اعتقد ، بحق ، ان السلطة الثورية لا تتوطد باستمرار الوصايا الدينية العشر . ولما ظهر على مسرح التاريخ بعد التجارب الاولى ، وتحرر من ربكة القرن السابق الفكرية والاقتصادية ، بدا كأنه الانسان الاول في جيل جديد . استلم دقة

(١) ما العمل ١٩٠٢ ؛ الدولة والثورة ١٩١٧



القيادة غير مكترث بالقلق والحنين والأخلاق ، وبحت عن أفضل نظام للمحرك ، وقرر أن هذه القضية تلائم موجّه التاريخ وتلك الأخرى لا تلائم . وفي البدء حار في أمره قليلاً ، وتردد في معرفة السؤال التالي هل ينبغي لروسيا أن تمر أولاً بالمرحلة الرأسمالية والصناعية . ولكن ذلك يعني الشك في إمكان نشوب الثورة في روسيا . أنه روسي . ومهمته انجاز الثورة الروسية . لذلك نبذ الحتمية الاقتصادية وشرع بالعمل . ومنذ ١٩٠٢ ، أعلن بوضوح أن العمال لن يضعوا بذاتهم نظرية مستقلة . لقد انكر عقوبة الجماهير . فالعقيدة الاشتراكية تفترض وجود أساس علمي لا يستطيع ان يأتيها به إلا المثقفون . ولئن قال بوجود محور كل تمييز بين العمال والمثقفين ، فيجب تأويل ذلك أن بإمكان المرء ان لا يكون عاملاً ، وأن يدرك مع ذلك مصالح الطبقة العاملة خيراً من العمال أنفسهم . لذلك هنا «لا سال» لأنه قاد صراعاً ضارياً ضد عقوبة الجماهير . قال : «على النظرية ان تخضع لها العفوية»<sup>(١)</sup> . ومعنى ذلك ، بوضوح الكلام ، ان الثورة تحتاج إلى قادة ، وإلى قادة عقائدين .

#### الثورة وفن الحيلة

حارب لينين النزعة الإصلاحية والحركة الارهابية<sup>(٢)</sup> في وقت واحد ، لأن الأولى تمتع القوة الثورية والثانية موقف «أنموذجي غير ناجح» . الثورة عسكرية قبل ان تكون اقتصادية أو عاطفية . وإلى يوم تنفجر ، يختلط العمل الثوري مع فن الحيلة . الحكم المستبد المطلق هو العدو . وقوته الأساسية في الشرطة ، وهي هيئة محترفة من الجنود السياسيين . النتيجة بسيطة : «إن مكافحة الشرطة السياسية يتطلب مزايا خاصة ، يتطلب ثوريين محترفين» . سيكون للثورة إذن جيشها المحترف بجانب الجماهير الذين يمكن استدعاؤهم ذات يوم للخدمة . يجب

(١) قال ماركس : «ما يتصوره هذا العامل أو ذاك أو حتى البروليتارية كلها ، انه الهدف ... ، لا قيمة له !»

(٢) لم ان اخاء الذي اسطلى الارهابية ، قد شفق .

تنظيم هذه الهيئة من المخترفين قبل تنظيم الجماهير بالذات . وشبكة من العملاء ،  
هوذا تعبير لينين الذي يبشر اذت بسلطة الجمعية السرية وبسلطة رهبان الثورة  
الواقعيين . قال : «نحن فتية الثورة الأشداء ، مع شيء يسوعي»<sup>(١)</sup> بالإضافة .  
اعتباراً من هذه اللحظة ، لا يعود هناك مهمة للبروليتاريا . ليست هذه الأخيرة  
سوى وسيلة قوية ، من بين وسائل أخرى ، في أيدي نساك ثورين<sup>(٢)</sup> .

مشكلة الدولة

إن مشكلة استلام السلطة تستدعي مشكلة الدولة .

يُعتبر كتاب لينين « الدولة والثورة » (١٩١٧) ، الذي يتناول هذا  
الموضوع ، أغرب التأليف الانتقادية وأكثرها تناقضاً . إن لينين يستعمل فيه  
طريقته المفضلة ، طريقة المرجع الحجة . فبعونة ماركس وانتفاز ، يبدأ بالقيام  
على كل نزعة اصلاحية تدعي استخدام الدولة البرجوازية ، أداة تسلط طبقة  
على أخرى . إن الدولة البرجوازية ترتكز على الشرطة وعلى الجيش ، لأنها  
قبل كل شيء أداة اضطهاد . إنها ، في وقت واحد ، تعكس التناقض الطبقي  
غير القابل للتوفيق والحل المحتتم لهذا التناقض . هذه السلطة الفعلية لا تستحق إلا  
الإزدراء . «حتى قائد السلطة العسكرية في دولة متبدنة قد يعبط زعيم العشيرة  
الذي كان المجتمع الأبوي القديم يحيطه باحترام طوعي غير مفروض بالعصا» .  
على كل ، أثبت انتفاز اثباتاً راسخاً أن مفهوم الدولة ومفهوم مجتمع حر ، لا  
يقبلان التوفيق . «ستزول الطبقات لا بحالة مثالية ظهرت . وبزوالها ستختفي  
الدولة لا بحالة . إن المجتمع الذي سيعيد تنظيم الإنتاج على أساس تشارك المنتجين  
الحر المتكافئ ، سيرمي بآلة الدولة في المكان اللائق بها : في متحف الآثار  
القديمة ، بجانب دولاب المغزل والفأس المصنوعة من البرونز» .

(١) أي مع شيء من المكر والحالة - الحرب . -

(٢) لقد سمى هابنه الاشتراكيين بـ «البروليتاريين الجدد» . إن البروليتارية والثورة سيران  
سواءاً من الناحية التاريخية

## آراؤه على ضوء فن الحطة

إن هذا يفسر دون شك أن بعض القراء النفعل اعتبروا «الدولة والثورة» من اتجاهات لينين الفوضوية ، وبأكوا على الذرية القرية لعقيدة قاسية بهذا المقدار نحو الجيش والشرطة والعصا والسلطة الديوانية (البيروقراطية) . ولكن كيا 'تدرك آراء لينين ، يجب أن تفهم دوماً بعبارات فن الحطة . فلئن يدافع بئيل هذه القوة عن نظرة انتهاز حول زوال الدولة البورجوازية ، فلأنه يريد من جهة أن يضع العقبات في طريق نظرة بليخانوف وكاوتسكي الاقتصادية المحض ، وأن يثبت من جهة أخرى بأن حكومة كيرنسكي حكومة بورجوازية يجب تقويضها . وسية وضها ، على كلر ، بعد مضي شهر .

## الدولة البروليتارية وتلاشيها

وكان يجب الرد أيضاً على أولئك الذين كانوا يعترضون بأن الثورة بالذات تحتاج إلى جهاز إدارة وقمع .

هنا أيضاً استند استناداً واسعاً إلى ماركس وانتهاز كي يثبت عن طريق الحجة ، أن الدولة البروليتارية ليست دولة منظمة كاللدول الأخرى ، بل هي بالتعريف دولة لا تكف عن التلاشي . « ما أن لا يعود هناك طبقة اجتماعية تستبقى في حالة الاضطهاد ... حتى تكف الدولة عن أن تكون لازمة . إن أول عمل بواسطته تؤكد الدولة ( البروليتارية ) نفسها حقاً كمثلة للمجتمع كله - تملك وسائل الانتاج في المجتمع - هو ، في الوقت ذاته ، آخر عمل خاص بالدولة . فعمل حكم الأشخاص تحل إدارة الأشياء ... الدولة لا تلتفى إلغاء بل تتلاشى تلاشيًا . الدولة البورجوازية تلتفى أولاً من قبل البروليتاريا . بعدئذ ، وبعدئذ فقط ، تتلاشى الدولة البروليتارية . إن دكتاتورية البروليتاريا ضرورية : ١ - لاضطهاد أو لإزالة ما تبقى من الطبقة البورجوازية ؛ ٢ - لتحقيق تملك الجماعة لوسائل الانتاج . ما أن تثجز هاتان المهمتان ، حتى تبدأ دكتاتورية البروليتاريا بالتلاشي .

### تبرير استبقاء الدكتاتورية

ينطلق لينين اذن من المبدأ الواضح الراسخ ، والقائل إن الدولة تزول ما أن يتحقق تملك الجماعة لوسائل الانتاج ، لأن طبقة المستثمرين تزاح حينئذ . مع ذلك ، في نفس الكتاب ، ينتهي إلى تبرير استبقاء دكتاتورية فئة ثورية بعد تملك الجماعة لوسائل الانتاج - على باقي الشعب ، دونما أجل قابل للتوقع . إن الكتاب يرجع في استمرار إلى تجربة حكومة الكومون ، ولكنه يناقض تماماً تيار الأفكار الاتحادية والمعادية للحكم المطلق المستبد ، والذي ولد حكومة الكومون . ويعارض ، على كل ، وصف ماركس وانتقار المتفائل . سبب ذلك واضح : إن لينين لم ينس أن حكومة الكومون قد فشلت . أما وسائل مثل هذا البرهان المدهش ، فهي أكثر بساطة أيضاً . لدى كل صموبة جديدة تعترض سبيل الثورة ، 'تحوّل' الدولة التي وصلها ماركس صلاحية إضافية . وبعد عشر صفحات ، ودونما انتقال ، يؤكد لينين في الحقيقة أن السلطة ضرورية لقمع مقاومة المستثمرين ، «وايضاً لتوجيه جماهير السكان الواسعة : الفلاحين ، البورجوازية الصغيرة ، أنصاف البروليتاريين ، نحو تنظيم الاقتصاد الاشتراكي» . الإنطاف ، هنا ، لا ريب فيه . ها هي ذي دولة ماركس وانتقار الموقته ترى نفسها مكلفة بمهمة جديدة قد تطيل أمد حياتها .

### تناقض النظام مع نفسه

إننا نجد الآن تناقض النظام الستاليني الخالف للفلسفة الرسمية .

فلما أن هذا النظام حقق المجتمع الاشتراكي الخالي من الطبقات ...، وحينئذ لا يتبرر إبقاء جهاز قمع فظيع ، بعبارات ماركسية ، أو أنه لم يحقق هذا المجتمع ...، وحينئذ يقوم الدليل على أن العقيدة الماركسية تنطوي على خطأ ، وخاصة أن تملك الجماعة لوسائل الإنتاج لا يعني زوال الطبقات . فالنظام ، إزاء عقيدته الرسمية ، مضطر إلى الإصطفاء : إما أنها باطلة ...، أو أنه خانها . والواقع - مع نيتشايف وفتاتشيف - إن لاسال ، مبتدع اشتراكية الدولة ، هو الذي أنجحه لينين في روسيا ، ضد ماركس .

إعتباراً من هذا التاريخ ، يتلخص تاريخ نزاعات الحزب الداخلية ، من لينين إلى ستالين ، في النزاع بين الديمقراطية العمالية والديكتاتورية العسكرية البيروقراطية ، بين العدالة والفعالية أخيراً .

#### الانحداد واستبقاء الديكتاتورية

تسأل لحظة الآن: يجد لينين نوعاً من التوفيق والانسجام ، وذلك إذ إنراه يمتدح الإجراءات التي اتخذتها حكومة الكومون : موظفون قابلون للانتخاب والعزل وتُدفع لهم أجورهم كالعالم ، استبدال البيروقراطية الصناعية ، بالإدارة العمالية المباشرة . بل ثمة لينين اتحادي يتراءى للعيان ، يمتدح تأسيس الكومونات وتمثيلها . ولكن سرعان ما نكتين ان هذه الاتحادية لا تمتدح إلا بمقدار ما تعني إلغاء النظام البرلماني. إن لينين ، خلافاً لكل حقيقة تاريخية ، يُسمي هذه الاتحادية بالمركزية ، وصرعان ما يركز على مفهوم الديكتاتورية البروليتارية ، آخذاً على القوضيين تشدهم فيما يتعلق بالدولة . ثمة تأكيد جديد - مستند إلى إنغلز - يتدخل هنا ويبرر استبقاء ديكتاتورية البروليتاريا بعد تمكُّك الجماعة لوسائل الإنتاج وزوال الطبقة البورجوازية ، وحتى بعد تحقق إدارة الجماهير . إن حدود إبقاء السلطة ستكون الآن ، تلك التي سترسمها شروط الانتاج نفسها . مثلاً : سيتطابق ثلاثي الدولة التام مع إمكان تقديم المساكن مجاناً للجميع .

إنها المرحلة العليا للشيوعية : « لكل امرء بحسب حاجاته » . وإلى ذلك الزمان ، ستظل الدولة موجودة .

#### سرعة التطور ... وغول المعام

كم ستكون سرعة التطور نحو هذه المرحلة العليا للشيوعية ، حيث سيأخذ كل امرء بحسب حاجاته ؟

وهذا الأمر ، لا نعلمه ولا يمكننا أن نعلمه ... إننا لا نملك معطيات تسمح لنا بالبث في هذه المسائل . وفي سبيل مزيد من الوضوح ، يؤكد لنا لينين

تأكيداً اعتبارياً دوماً ، انه لم يخطر ببال أي اشتراكي أن يعدّ جميعه المرحلة العليا من الشيوعية . عند هذه النقطة ، يمكن القول إن الحرية تزول زوالاً نهائياً .

من سيطرة الجماهير ، من مفهوم الثورة البروليتارية ، تنتقل أولاً إلى فكرة ثورة يقوم بها ويدبرها عملاء محترفون . بعدئذ ، يجري التوفيق بين انتقاد الدولة القاسي ... وبين دكتاتورية البروليتاريا - الضرورية ، ولكن الموقته - بمثابة شخص قادتها . أخيراً ، يُعلن عدم امكان التكهّن بمجد هذه المرحلة الموقته ، ويُعلن أيضاً انه لم يخطر قط ببال أي شخص أن يعدّ بأن سيكون هناك حد . فنطقياً وحالة هذه أن يُحارب استقلال المجالس العمالية ، وأن يتعرض «ماخزر» للضيافة ، وأن يسحق الحزب بحجارة كرونشتاد .

#### الدولة ومفهوم الثلاثي

لا جرم انه يمكن معارضة النظام الستاليني بكثير من تأكيدات لينين المتشيم بالمعدلة ، ولا سيما بمفهوم الثلاثي . حتى لو سلمنا ان الدولة البروليتارية لا يسعها ان تزول قبل انقضاء فترة طويلة من الزمن فلا بدّ أيضاً - بموجب العقيدة - كما تتسكن هذه الدولة من الادعاء بانها بروليتارية ، ان تتجه نحو الزوال وأن يتناقض ما فيها من قسر وإكراه . من المؤكد ان لينين كان يعتقد أن هذا الاتجاه محتم ، ومن المؤكد أيضاً ان الوقائع جاوزته . فالدولة البروليتارية لم تُبدأ بعلامة وهن ، منذ اكثر من ثلاثين عاماً . بل ، بالعكس ، سنلاحظ ازدهارها المتزايد . بعد مضي عامين ، على كل ، وفي محاضرة أُلقيت في جامعة سفيردولوف ، تحت ضغط الاحداث الخارجية والوقائع الداخلية ، سيدلي لينين بتوضيح يُشعر باستبقاء الدولة البروليتارية المتفوقة إلى زمن غير محدود . « بهذه الآلة ، أو بهذه المطرقة (الدولة) ، سنمحق كل استثمار ، وحينئذ لا تبقى على الارض إمكانات استثمار ، ولا يبقى أشخاص يملكون الأراضي والمعامل ، ولا يبقى أشخاص يصابون بالبشّم امام الجوع ، ... حينئذ تصبح امثال هذه الاشياء

مستحيلة ، حينئذ فقط سنتفلى عن هذه الآلة ، حينئذ لا تبقى دولة ولا يظل استثمار . ستبقى الدولة اذن ما بقي على الارض - لا في مجتمع معين - مضطهد أو مالك . وطوال هذه المدة ، ستضطر الدولة إلى تنمية ذاتها ، كي تتقلب على المظالم تباعاً ، وعلى حكومات البقي والجور ، وعلى الأمم المبعنة في البورجوازية ، وعلى الشعوب المبعنة عن مصالحها الخاصة . وحينئذ يكون آخر عمل من أعمال الظلم قد أغرق في دماء الأبرار والأشرار على الأرض التي افتتحت أخيراً وظهرت من الحوصوم ، حينئذ سنرى الدولة وقد بلغت منتهى القوة وغدت طاغوتاً شنيعاً يغطي العالم كله ، تتلاشى بحكمة وتعتقل في مجتمع العدالة الصامت (١) .

#### توسيع العدالة ... والتسمية الثورية

تحت ضغط الحركات التوسعية المتناحرة - وهو ضغط قابل للتوقع مع ذلك . ، ولدت في الحقيقة مع لينين توسعية العدالة . ولكن التوسعية ، حتى لو كانت توسعية العدالة ، ليس لها من نهاية سوى الاندحار .. أو امبراطورية العالم . وإلى ذلك الموعد ، ليس لها من وسيلة سوى الجور والبغي . ومنذ ذاك ، تتطابق العقيدة تطابقاً نهائياً مع النبوءة . فمن أجل عدالة بعيدة ، تهر العقيدة الجور والبغي خلال كل زمان التاريخ ، وتصبح هاتيك التعمية التي كانت أبغض الاشياء في العالم إلى لينين . إنها ، بواسطة الوعد بالمعجزة ، تدفع إلى الرضا بالجور والجريمة والكذب . المزيد من الانتاج ، والمزيد من السلطان ، العمل الدائب ، العذاب المقيم ، الحرب الدائمة ، . . . وذات يوم نرى العبودية المعممة في (الامبراطورية) الشاملة ... تتحول بصورة عجيبة إلى نقيضها : التفرغ الحر في جمهورية عالمية .

(١) مجتمع العدالة = المجتمع في الطبقي = ملكوت الفايات = الملكوت الأرضي = اورشليم = المجتمع العالمي ... إلخ . هذا هو المجتمع المنسجم ، مجتمع الوحدة ، ونقيضه : الامبراطورية - الحرب -

التعمية الثورية الكاذبة أصبح لها الآن شعارها : يجب القضاء على كل حرية في سبيل افتتاح «الامبراطورية» ، و«الامبراطورية» ذات يوم ستصبح الحرية ، إن درب الوحدة يمر اذن بالشمول . (١)

## ٥ - الشمول والمفاضاة

الشمول .. والحرية

ليس الشمول ، في الحقيقة ، سوى الحلم القديم بالوحدة ، المشترك بين المؤمنين والمتردين ؛ ولكنه حلم "مرشوق" أفقياً على ارض بلا إله . ان التغلي عن كل قيمة معناه التغلي عن التمرد لقبول «الامبراطورية» والعبودية . وما كان في وسع نقد القيم الصورية ان لا يتعرض لمفهوم الحرية . فما ان اعترف بأنه يستحيل علينا ان نولد بمجرد قوى التمرد الفرد الحر الذي حلم به الرومانسيون ، حتى 'دبجت الحرية' ، هي ايضاً ، في حركة التاريخ . فأصبحت حرية "مكافئة" عليها ان تصنع نفسها كما توجد . وبما انها تطابقت مع حركة التاريخ ، لذلك لن يتسنى لها ان تتمتع بذاتها إلا حينما سيبلغ التاريخ منتهاه في «المجتمع العالمي» . وفي غضون ذلك ، سيولد كل انتصار من انتصاراتها لإنكاراً يجعلها حرية عقيمة . فالأمة الالمانية تحررت من مضطهدتها الحلفاء ، ولعكن مقابل حرية كل ألماني (٢) . لا حرية للأفراد في النظام الاستبدادي ، وإن تحرر الانسان الجماعي . وفي النهاية ، حينما 'تحرر' «الامبراطورية» الجنس كله ، ستخيم الحرية على قطمان من العبيد الذين سيكونون ، على الاقل ، أحراراً بالنسبة إلى الإله ، وبوجه عام ، بالنسبة الى كل استشراف (٣) .

(١) الوحدة = الانسجام ؛ الشمول = الكلية - الحرب -

(٢) يشير ال تسلط اللاشعورية بد جلاء الحلفاء - الحرب -

(٣) استشراف المباديء



حرية أم عبودية

إن المعجزة الجدلية ، ونعني تحول الكم الى كيف<sup>(١)</sup> ، تتوضح هنا: 'تفضل تسمية العبودية التامة ... بالحرية . على كل' ، كما في جميع الامثلة التي يضرها هيفل وماركس ، لا يوجد أبداً تحول موضوعي ، بل يوجد تبدل ذاتي في التسمية . ليس من معجزة . فاذا كان أمل العدمية الوحيد ان يتمكن ملايين العبيد ذات يوم من تشكيل انسانية محررة ، الى الابد ، فما التاريخ سوى حلم يائس . لقد حرر الفكر التاريخي الانسان من التبعية الإلهية ، ولكن هذا التحرير يتطلب منه الخضوع للصيرورة خضوعاً مطلقاً . وبالتالي يرجع المرء الى مقر الحزب ، مثلما كانت يرجع الى المذبح . لذلك فان العصر الذي يجرؤ على الادعاء بأنه العصر الأكثر قرداً ، لا يغيرنا إلا بين مواقف اذعانية .

العبودية هي الموى الحقيقي للقرن العشرين .

الحرية التامة .. والامبراطورية

بيد ان الحرية التامة ليست أبسر مثلاً من الحرية الفردية . فلتأمن سيطرة الانسان على العالم ، يجب ان يُزاح من العالم ومن الانسان كل ما يستعصي على 'الامبراطورية' ، كل ما ليس من مملكة الكم : هذا المشروع لا حد له . يجب ان يشمل المكان والزمان والاشخاص ، وهي أبعاد التاريخ الثلاثة .

« الأمبراطورية » هي في الوقت نفسه حربٌ وظلامية *Obscurantisme* وطغيان ، مؤكدةٌ تأكيداً يائساً بأنها ستكون إحياءً وحقيقةً وحريةً ، لأن منطق بديمتها يجبرها على ذلك .

ليس من شك في ان هناك في روسيا الحالية وحتى في شيوعيتها ، حقيقةٌ تُنكر العقائدية الستالينية . ولكن هذه العقائدية لها منطقها الذي يجب عزله وإلغائه إذ أردنا ان تنجو الروح النبوية من الانحطاط النهائي .

(١) يشير الى احد توافيق المادية الجدلية -المرب-

إن تدخل الجيوش الغربية الرقعة ضد الثورة السوفياتية أظهر للثوريين الروس في جملة ما أظهر أن الحرب والقومية حقيقتان واقعتان مثل الصراع الطبقي . فلعدم وجود تضامن أممي بين البروليتاريين يتدخل بصورة آلية ، ما كان في وسع أية ثورة داخلية أن تعتبر نفسها قابلة للحياة دون أن يوجد نظام أممي . منذ ذلك ، وجب التسليم بأنه لن يمكن بناء «المجتمع العالمي» إلا بأحد شرطين : إما لشوب ثورات في جميع البلدان الكبرى في وقت واحد تقريباً . وإما تصفية الأمم البورجوازية بواسطة الحرب .

الثورة الدائمة ... أو الحرب الدائمة .

الرأي الأول كاد ينجح ، كما هو معلوم . فالحركات الثورية التي حدثت في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا أشارت إلى أوج الروح الثورية . إلا أن سحق هذه الثورات وما نجم عنه من تعزيز للنظم الرأسمالية ... جعلنا من الحرب حقيقة الثورة .

إن فلسفة الانوار أدت إذن إلى ... أوروبا منزع التجول .

كاث على «المجتمع العالمي» أن يتحقق في عصيان المستضعفين المملوي . ولكن ، بموجب منطق التاريخ والعقيدة ، خيمت على هذا المجتمع «الامبراطورية» المفروضة بوسائل القوة . وسبق لإنتغاز - الذي صوّبه ماركس - أن سلم هذا الاحتمال المتوقّع . كتب رداً على كتاب باكوتين «نداء إلى السلاف» ، فقال : «إن الحرب العالمية القادمة ستزيل من سطح الأرض طبقات وسلالات ملكية رجعية . ليس ذلك فحسب ، بل ستزيل أيضاً شعوباً رجعية برمتها . وهذا أيضاً جزء من التقدم» . كاث على ذلك التقدم ، في اعتقاد أنتغاز ، أن يزيح روسيا القيصرية . أما اليوم فقد قلبت الأمة الروسية اتجاه التقدم . فالجرب ، الباردة والفاترة ، هي عبودية «الامبراطورية» العالمية .

ولكن الثورة ، إذ صارت توسعية ، أصبحت في مازق .  
فاذا لم تتخل عن مبادئها الباطلة لتعود الى ينابيع التمرد ، فانها لا تعني سوى استبقاء دكتاتورية تامة على مئات الملايين من البشر ، لأجيال عدة ، وربما تتحلل الرأسمالية تحللاً عفوياً .

واذا ارادت ان تسارع في مجيء « المجتمع الانساني » ، فانها لا تعني سوى الحرب الذرية التي لا تريد ، والتي لن يشع كل مجتمع بعدها الا على انقاض .  
نهائية .

فالثورة العالمية ، بموجب قانون هذا التاريخ الذي مجدته بطياشة ، مصيرها المحتتم بطش الشرطة .. أو دوي القنابل ، الدكتاتورية .. أو الحرب .  
وبالتالي ، تجد نفسها في تناقض إضافي .

إن التضحية بالأخلاق وبالفضيلة ، وقبول كل الوسائل التي بررتها الثورة دائماً بالغاية المتوخاة ، ... نقول : ان هذين الأمرين لا يُقبل بهما عند الزوم إلا تبعاً لنهاية . يكون احتمال حدوثها معقولاً . ولكن السلم المسلح يفترض ، باستبقاء الدكتاتورية غير المحدود ، انكار هذه النهاية انكاراً غير محدود . أضف إلى ذلك ان خطر الحرب يقرن هذه النهاية باحتمال طفيف .

إن بسط « الامبراطورية » على المدى العالمي ضرورة حتمية بالنسبة الى ثورة القرن العشرين . ولكن هذه الضرورة تضع الثورة للمرة الاخيرة أمام أحد أمرين : إما أن تبتدع لنفسها مبادئ جديدة ، وإما أن تتخلى عن العدل والسلم اللذين تريد سيادتهما النهائية .

الامبراطورية والسيطرة على الزمان

ربما تبسط سيطرتها على المكان ، ترى « الامبراطورية » نفسها مضطرة ايضاً الى بسط سلطانها على الزمان . فلي انكارها كل حقيقة ثابتة ، عليها ان تصل الى حد انكار ادنى شكل من أشكال الحقيقة ، حقيقة التاريخ . لقد نقلت الامبراطورية الثورة ( التي ما زالت مستحبة على صعيد العالم ) الى صعيد الماضي

الذي تعمل على إنكاره . وهذا بالذات هو كذلك منطقي . كل ارتباط بين الماضي أو المستقبل ، لا يكون ارتباطاً اقتصادياً بحتاً ، يفترض وجود استمرار ، بدوره ، قد يوحي بوجود طبيعة بشرية . ان الارتباط العميق الذي أبقاه ماركس - الشخص المثقف .. بين الحضارات ، كان من شأنه ان يجاوز نظريته ، وأن يُظهر وجود استمرار طبيعي أوسع من الاقتصادي . وقد اضطرت الشيوعية الروسية تدريجياً الى نفس الجسور ، والى إدخال انقطاع في الصيرورة . إن إنكار العبقريات الروائية ( وتكاد تكون جميعاً كذلك ) ، ومساهمات الحضارة والفن ( بمقدار انفلاته اللامتناهي من التاريخ ) ، والتخلي عن التقاليد الحية ، ... كل هذه الاشياء حبت الماركسية المعاصرة تدريجياً في حدود متزايدة الضيق . فلم يكفها أن 'تكرر' أو أن 'تغرس' ما ليس في وسع العقيدة ان تتمثله في تاريخ العالم ، ولم يكفها ايضاً ان تنبذ مكتسبات العلم الحديث ، بل وجب عليها ايضاً ان تعيد صنع التاريخ ، حتى أقرب عهدها وأبعده عن الالتياس ، مثلاً : تاريخ الحزب والثورة . فمن عام لعام ، ومن شهر لشهر أحياناً ، تقوم جريدة البرافدا بتصحیح نفسها ، وتنتال طبعات التاريخ الرسمي المعدلة ، وتقتد بد' الرقابة حتى الى كتب لينين ، ويُمتنع حتى عن نشر بعض مؤلفات ماركس .

حديقة ام وم

عند هذا الحد ، لا تعود المغامرة مع الظلامية الدينية صحيحة . فالكنيسة لم تصل قط الى حد أن تقرر تباعاً بأن التجلي الرباني يكون في ذاتين اثنتين ، ثم في أربع أو في ثلاث ، ثم ايضاً في اثنتين . ان التسارع الخاص بعصرنا ينتقل ايضاً الى صنع الحقيقة التي 'تصبح' بهذه الوثيرة ، مجرد وهم . فكما في الحكاية الشعبية حيث نرى أنوال المدينة كلها تنسج خيوطاً وهمية لإلباس الملك<sup>(١)</sup> ، ثمة

(١) اشارة الى حكاية الكاتب الداعري : هاتز كريستيان اهرسن السائة : «ملابس الملك» .  
- العرب -

أولف مؤلفة من البشر مهنتهم الغربية أن يصنعوا كل يوم تاريخاً باطلاً ، وأن ينسخوه في نفس الليلة... ريتا ينري أحد الاطفال ليعلم بصوته الهادي... أن الملك عاري من الثياب<sup>(١)</sup> ، إن هذا الصوت المتبرد الصغير سيقول حينئذ ما كان في وسع الجميع أن يرووه : ونعني ان ثورة 'يحكم عليها بأن' تنكير دعوتها العالمية ... كيا تستمر ، أو بأن تتغلى عن ذاتها ... كيا تكون عالمية ، هي لعبري ثورة تقوم على مبادئ باطلة .

#### الامبراطورية والسيطرة على الاشخاص

في غضون ذلك ، يستمر تطبيق هذه المبادئ على ملايين البشر . إن حلم «الامبراطورية» يروي غليله في الاشخاص ، إذ توقفه حقائق الزمان والمكان . ليس الاشخاص معادين للامبراطورية بوصفهم افراداً فقط : فحينئذ يكون الارهاب التقليدي كافياً . لأنهم يناصرونها العداء بمقدار ما لم يتسن فقط للطبيعة البشرية حتى الآن ان تحيا بالتاريخ فقط ، وأفلتت منه دائماً من جهة ما . «الامبراطورية» تفترض انكاراً وبقيناً : اليقين بطوعية الانسان اللامتناهية ، وانكار الطبيعة البشرية . ان فنون الدعاية تفيد في قياس هذه الطوعية ، ونحاول ان تطابق بين التفكير والمنعكس الشرطي *Réflexe conditionné* . فهي تبيع توقيع ميثاق مع ذلك الذي اعتبرته ، خلال سنين ، العدو المميت<sup>(٢)</sup> . أضف الى ذلك انها تسمح بقلب الأثر النفساني الحاصل على هذه الصورة ، وبإقامة شعب بأمره ، مرة ثانية ، ضد نفس العدو<sup>(٣)</sup> . التجربة لم تبلغ بعد نهايتها ، ولكن مبادئها منطقي . فإذا لم يكن هناك طبيعة بشرية ، فاث طوعية الانسان تكون في الحقيقة لامتناهية . عند هذا الحد ، ليست الواقعية السياسية سوى رومانسية جامحة ، ورومانسية الفعالية .

(١) هذا ما يحدث في الحكاية ، حيث يقول الطفل ان الملك عاري حين كانوا يتألمون .  
الملابس الوهمية بإصجاب .

(٢) يشير الى الميثاق الذي عقد مع هتربيل الحرب العالمية الثانية - الحرب -

(٣) هذا ما حصل بعدما هاجت ألمانيا الاتحاد السوفياتي - الحرب -

يُصبح واضحاً بالتالي ان الماركسية الروسية ترفض عالم « اللاعقلاني » في مجموعه ، رغم انها تعرف كيف تستفيد منه . في وسع « اللاعقلاني » أن يخدم « الامبراطورية » ... وان يدحضها ايضاً . انه يستعصي على الحساب ، ... والحساب وحده يجب ان يسود في « الامبراطورية » . ليس الانسان سوى آلية قوى يمكن التأثير فيها عقلاً . ثمة ماركسيون طائشون اعتقدوا أنهم قادرون على التوفيق بين عقيدتهم وعقيدة فرويد مثلاً . ولستين سرعان ما بُين لهم ان فرويد مفكر منشق و « بورجوازي صغير » ، لأنه اكتشف العقل الباطني <sup>(١)</sup> ، وأسند اليه على الاقل حقيقةً بقدر ما للأنا - العليا Sur-moi ، أو الأنا الاجتماعية . هذا العقل الباطن يمكنه حينئذ ان يُعرف أصالة طبيعة بشرية ، معارضة للأنا التاريخية . الانسان ، بالعكس ، يجب ان يُلغى في الأنا الاجتماعية والعقلانية ، وهي موضع حساب . لذلك وجب إخضاع حياة كل فرد . ليس ذلك فصيحاً ، بل وجب أيضاً إخضاع الحوادث الأكثر ل« عقلانية » ، والأكثر تفرداً ، والذي يراكم ترقبُ الانسان طيلة حياته <sup>(٢)</sup> .

إن « الامبراطورية » ، في مسعاها المجهوم نحو الملوكوت النهائي ، تنزع الى دمج الموت <sup>(٣)</sup> .

#### الملت بين الاشخاص والاشياء

في وسعنا ان نخضع انساناً حياً وأن نُردِّيه الى حالة شيء تاريخية . ولكن اذا مات وهو يرفض ، فانه يؤكد ثانية وجود طبيعة بشرية تطرح نظام الأشياء . لذلك لا يُعَدُّ المتهم ويُحتل أمام المأ ، إلا إذا وافق على القول ان موته سيكون صحيحاً ومطابقاً « لامبراطورية » الأشياء <sup>(٤)</sup> . يجب أن يموت في

(١) أو اللاشعور - المغرب -

(٢) يقصد الموت - المغرب -

(٣) سدين ذلك في الملتع التالي - المغرب -

(٤) الأشخاص الذين تحولوا إلى أشياء - المغرب -

العار، ... أو ان لا يعود موجوداً في الحياة ولا في الموت . وفي هذه الحالة الأخيرة ، لا يموت موتاً بل يضمحل اضمحلالاً . وكذلك المدان ، إذا حل به عقاب فان عقابه يحتاج محتجاً صامتاً ويدخل صدعاً في الكلية . ولكن المدان لا يعاقب ، بل يُعاد إلى عمله في الكلية ، ويسهم في بناء آلة «الامبراطورية» . انه يتحول إلى جزء في آلة الإنتاج ، ضروري ، على كل ، لدرجة انه مع الزمن لن يُستخدم في الإنتاج لانه مذبذب ،... بل يُعتبر مذبذباً لان الانتاج بحاجة إليه .

والحقيقة ان النظام الاعتقالي <sup>(١)</sup> الرومي قد حقق الانتقال الجدلي من حكم الاشخاص إلى إدارة الاشياء ... ولكن يخلطه بين الاشخاص والاشياء .

امبراطورية الأشخاص ... وامبراطورية الأشياء

حتى الحمم عليه ان يسهم في العمل المشترك . خارج نطاق «الامبراطورية» ، لا خلاص أبداً . هذه «الامبراطورية» هي ، أو ستكون ، امبراطورية الصداقة . ولكن هذه الصداقة هي صداقة الأشياء ، لأنه لا يجوز تفضيل الصديق على «الامبراطورية» . إن صداقة الاشخاص (وليس لها تعريف آخر) هي التضامن الحصري ، حتى الموت ، ضد كل ما ليس من مملكة الصداقة . أما صداقة الاشياء فهي الصداقة بوجه عام ، الصداقة مع الجميع . وهي تفترض الوشاية بكل فرد ، إذا كانت تريد صيانة نفسها . من يحب صديقه أو صديقه فانه يجه في الحاضر . أما الثورة فلا تريد أن تحب إلا إنساناً ما زال غير موجود . الحب ، بصورة ما ، معناه قتل الإنسان الكامل الذي سيولد بواسطة الثورة . فكي يحيا ذات يوم ، في الحقيقة ، يجب ان يُفضل منذ الآن على كل شيء . في مملكة الاشخاص ، يرتبط البشر بوشائج المحبة . أما في «امبراطورية» الاشياء فيرتبطون بالوشاية والسعاية .

(١) استعملنا أيضاً : نظام الاضطهاد .

وعليه ، فالاجتمع الذي كان يريد أن يكون أخوياً ، يُصبح خلية من البشر المنفردين .

فيزياء النفوس

وعلى صعيد آخر ، لا يمكن إلا لفورة الانسان المتوحش اللاعقلانية ان تتصور وجوب تعذيب البشر تعذيباً سادياً لانزعاج موافقتهم . فلا نكون حينئذ إلا تجاه انسان يُخضع انساناً آخر في اجتماع دنس بين الاشخاص .

أما يمثل الكلية العقلانية ... فيكتفي بأن يجعل الشيء يتغلب على الشخص في الإنسان . إن أعلى فكر يُخَفَضُ أولاً إلى درجة أدنى فكر ، بواسطة طريقة الاختلاط الذهني البوليسية . ثم تسكن خمسُ ليالي أرق ، عشر ليال ، عشرون ليلة ، ... من التغلب على اعتقاد باطل ، وتخلق نفساً ميتة جديدة . وعلى هذا الأساس فالثورة النفسانية الوحيدة عرفها عصرنا ، بعد نظرية فرويد ، هي من صنع الشرطة السياسية الروسية والشرطة السياسية بوجه عام .

هذه الطرق الجديدة ، الموجّهة بفرضية تقيدية ، والحاسبة لنقاط الضعف ولدرجة مرونة النفوس ، قد انكرت أحد حدود الإنسان . وهي تحاول ان تثبت بأنه ليس من سيكولوجيا فردية أصيلة ، وأن مقياس الطبائع المشترك ... هو الشيء .

هذه الطرق ابتدعت تماماً فيزياء النفوس .

العلاقات الاساسية

في عالم الارهاب العقلاني

اعتباراً من ذلك ، تبدلت العلاقات الانسانية التقليدية . هذه التبدلات المضطربة تميز عالم الإرهاب العقلاني، حيث تحيا أوروبا على درجات مختلفة . فعن الحوار ، وهو علاقة بين أشخاص ، استُعيض بالدعاية أو المساجلة ، وهما نوعان من الحوار الذاتي . لقد حل التجرد ، الحُصاص بعالم القوي والحساب ، محل الاهواء الحقيقية التي هي من ميدان الفريضة و «اللاعقلاني» .



البطاقة الغذائية على الحبز، الحب والصداقة أخضعاً للعقيدة ، والمصير للخطئة ، العقاب سمي كمية إنتاجية محدّدة ، الانتاج نائب مناب الابداع المحي ،... هذه الاشياء تصف جيداً أوروبا الهزيلة ، المأهولة بأشباح القوى المظفرة أو المستعبدة . ومن قبل هتف ماركس قائلاً : ديا لؤس هذا المجتمع لا يعرف وسيلة دفاعية أفضل من الجلاّد ! .

ولكن الجلاّد لم يكن بعدُ ... الجلاّد الفيلسوف ، .. ولم يكن ليطمح ، على الاقل ، إلى محبة البشر الشاملة .

#### الثورة والعقل المعاصر

إن التناقض الأخير في أعظم ثورة عرفها التاريخ لا يبلغ أبداً ، على كلر ، مبلغاً بحيث تطمح إلى العدالة ... خُكل سلسلة متصلة من أعمال الظلم والعنف . عبودية أم تعمية ، ... هذه المصيبة موجودة في كل زمان .

مأساة ' الثورة مأساة ' العدمية ، وتختلط بمأساة العقل المعاصر الذي ، في طموحه إلى الكلّي ، يكسّدس ما ينزل بالانسان من تشويحات . الكلية ليست الوحيدة . وحتى لو امتدت الاحكام العرفية إلى تخوم العالم ، فهي ليست لإحلال الانسجام . المطالبة بالمجتمع العالمي لا تبقى ، في هذه الثورة ، إلا بنبذ ثلثي البشر ، وبطرح تراث الاجيال العجيب ، وبانكار الطبيعة والجمال لصالح التاريخ ، وباجتثاث القدرة على الهوى والشك والسعادة والابداع الفردي عند الانسان ، وبكلمة واحدة : باجتثاث عظمته . المبادئ التي يتسلح بها البشر تغلب في النهاية على أنبل مقاصدهم . فمن فرط الانكار والزراع في استمرار ، ومن فرط المساجلات والحرمات والتعذيب المتبادل ، يخرج مجتمع البشر الاحرار المتآخين العالمي جنوباً تدريجياً ، ويُفسح المجال للعالم الوحيد الذي ' يمكن فيه للتاريخ والفعالية أن 'يرفعا إلى منصب القاضي الاعلى ، ونعني : عالم المقاضاة (١) .

١) أي : عالم العنف القانوني .

العودة إلى مفهوم العقاب

كل ديانة تدور حول مفهوم البراءة والإثم .  
مع ذلك ، كان بروميشيوس المتمرّد الاول 'ينكر حق إئزال العقاب . الإله  
زوس بالذات ، ولا سيما الإله زوس ، لم يكن على قدر كاف من البراءة  
بحيث يتلقى هذا الحق . فالتمرّد ، في حركته الاولى ، لا يُقر إذن بالشرعية  
للعقاب .

ولكن المتمرّد ، في تجسده الأخير ، في ختام رحلته المنهكة ، يعود إلى فكرة  
العقاب الدينية ، ويجعلها في مركز عالمه . الديان (القاضي الاعلى) لم يعد موجوداً  
في السموات ، ... لأنه التاريخ بالذات يقرر كألوهية حقودة . التاريخ ، على  
طريقته ، ليس سوى عقاب طويل ، لأن الثواب الحقيقي لن 'يحظى به إلا في  
نهاية الأزمنة (١) .

نحن بعيدون ، في الظاهر ، عن الماركسية وعن هيغل ، وأبعد أيضاً عن  
المتمردين الأوائل . بيد أن كل فكرة تاريخية تنفتح على هذه المهادي . فببقدار  
ما تنبأ ماركس بالحقق الختامي للمجتمع غير الطبقي ، وببقدار ما أثبت إذن  
'حسن نية التاريخ ، كان لا بدّ من إرجاع كل تأخر في السير المتحرر إلى سوء  
نية الإنسان . لقد ادخل ماركس الخطيئة والعقاب ثانية في العالم المسلوخ من  
المسيحية ، ... انما تجاه التاريخ .

الماركسية ، من أحد وجوها ، هي عقيدة إثم فيما يخص الإنسان ، وعقيدة  
براءة فيما يخص التاريخ . فاذا كانت بعيدة عن الحكم ، فجلت تاريخياً في العنف  
الثوري . واذا كانت على سدة الحكم ، تعرضت لان تصبح العنف الشرعي ،  
أي : الإرهاب والمقاضاة .

الأحكام في العالم الجديد

في العالم الديني ، على كلّ ، يؤجّل الحكم الحقيقي إلى ما بعد . فليس

---

(١) أي : نهاية الأزمنة الحينة لبرء المكوت الأرضي .

ضرورياً أن تُعاقب الجريمة فوراً ، وإن 'تعلن البراءة' . أما في العالم الجديد فيجب أن يصدر الحكم فوراً ، لأن الإثم يتطابق مع الإخفاق والعقاب . لقد أدان التاريخ بوخارين ، ... لأنه أعدم بوخارين . وأعلن براءة ستالين ... لأن ستالين في ذروة القوة . أما تيتو فهو رهن المقاضاة ، مثلما كان تروتسكي (١) .. الذي لم يصح لثمة واضحاً بالنسبة إلى فلاسفة الجريمة التاريخية إلا ساعة هوت عليه فأس القاتل . كذلك تيتو الذي لا نعلم - فيما يقال لنا - هل هو مذنب أم لا . لقد 'نفضح' ولكن لم 'يصرع' بعد . وحينما سيجندل ... سيصبح لثمة مؤكداً . على كل ، إن براءة تروتسكي (وتيتو) الموقته كانت ترجع (وترجع) إلى حدٍ كبير إلى العامل الجغرافي . فقد كانا بعيدين عن قبضة السلطة . لذلك يجب أن يحاكم ، دون إبطاء ، كل أولئك الذين يمكن أن تطالهم هذه القبضة . إن الحكم النهائي للتاريخ متعلقٌ بعددٍ لا متناهٍ من الاحكام تصدر في الفترة الفاصلة ، وسيؤكدها حينئذ هذا الحكم النهائي أو سيدحضها . هكذا ، يوعدها باعادة اعتبار غامضة ، يوم تقام محكمة العالم مع العالم نفسه . فهذا الذي أعلن بأنه خائن وحقيق (٢) ... سيبرأ وسيدخل مدفن العظماء . وهذا الآخر ... سيقى في الجحيم التاريخي .

عالم المقاضاة عالم دائري

ولكن من سيصدر الحكم حينئذ ؟

الإنسان بالذات ... وقد اكتمل أخيراً في ألوهيته الناشئة .

وإلى ذلك الاوان ، سيقوم أولئك الذين فهموا النبوءة ، القادرون وحدهم على أن يقرأوا في التاريخ المعنى الذي سبق لهم أنهم أودعوه فيه ، ... نقول : سيقوم هؤلاء باصدار أحكام : نهائية بالنسبة إلى المذنب ، ... وموقته بالنسبة إلى القاضي فقط .

(١) معلوم أن تروتسكي قتل وهو في المنفى ، بواسطة فأس .

(٢) إشارة إلى اعتراضات المتهمين المثنية أثناء محاكمتهم .

ولكن أولئك الذين يحكمون ، مثل « راجك » ، قد يتفق ان 'يحكم عليهم بدورهم . فهل يجب علينا ان نعتقد انه لم يعد يقرأ التاريخ بصحة ؟ الحقيقة ان انكساره وموته يثبتان ذلك ... فمن ذا الذي يضمن ان قضائه اليوم لن يصبحوا خونة في الغد ، وان يحطوا من علياء محكمتهم الى أقيّة الإسمت حيث يعاني ملمونو التاريخ سكرات الموت ؟

الضمانة هي في بصيرتهم المعصومة . ما الذي 'يثبتها ؟ نجاحهم الدائم .  
إن عالم المقاضاة عالم دائري يؤكّد فيه النجاح والبراءة بعضها بعضا ،  
وتعكس فيه جميع الرايا نفس التعمية .

الدون ... التاريخي

هناك إذن عون تاريخي لا تنفذ الى المقاصد إلا قدرته ، يُكرم أو يلقي الحرم على مواطن «الأمبراطورية» . ولتفادي نزواته ، لا يملك المواطن إلا الإيمان ، كما عرفه القديس اينياس في «التارين الروحية» : «كي لا نضل السيل ابدأ ، علينا ان نعتبر أسود ما أراه أنا أبيض ..» إذا عرفته الكنيسة على تلك الصورة . هذا الإيمان الإيجابي بمنلي الحقيقة وحده يستطيع أن يتخذ المواطن من فتكات التاريخ الغامضة . مع ذلك ، لا يتخلص من عالم المقاضاة ، لأنه مشدود الى هذا العالم بعاطفة الخوف التاريخية . ولكنه ، بدون هذا الإيمان ، معرض دائما لأن يُصبح مجرماً موضوعياً ، وذلك من حيث لا يريد ورغم حسن نيته .

البرم الموضوعي

في هذا المفهوم أخيراً يبلغ عالم المقاضاة أوجّه . وبه تصبح الحلقة مغلقة . وهكذا ، في نهاية هذا الترد الطويل بلإسم البراءة البشرية ، وبحكم تبدل جوهره ، يبرز تأكيد 'الإثم العام .

كل إنسان مجرم 'خفي' عليه حال نفسه ...

المجرم الموضوعي هو ، بالضبط ، ذلك الذي كان يعتقد انه بريء . لقد

كان يعتبر عمله ، ذاتياً ، غير مضر ، أو حتى مفيداً لمستقبل العدالة . ولكن يُثبتُ له ان عمله أضر بهذا المستقبل ... موضوعياً . هل نحن ازاء موضوعية علمية ؟ كلا . نحن ازاء موضوعية تاريخية .

التعريف الفلسفي للإرهاب

ولكن كيف نعرف ان العدالة تتأثر ، مثلاً ، بالتشهير الطائش بظلم حالي؟ الموضوعية الحقيقية تكمن في الحكم بقتضى النتائج التي يمكننا ملاحظتها علمياً على الوقائع ومنحائها . ولكن مفهوم الإثم الموضوعي يثبت لنا ان هذه الموضوعية الغريبة لا تقوم إلا على نتائج ووقائع لا يستطيع ان يبلغها إلا علمُ عام ٢٠٠٠ ، على الأقل . وفي غضون ذلك ، تتلخص هذه الموضوعية الغريبة في ذاتية لا نهاية لها ، تفرض نفسها على الآخرين كموضوعية ...  
إنه التعريف الفلسفي للإرهاب .

السلطة تعرف الموضوعية

هذه الموضوعية ليس لها معنى قابل للتعريف . ولكن السلطة تمنعها مضموناً ... فتعتبر آتماً كل ما لا توافق عليه . ستوافق على أن تقول ، أو على أن تدفع بعض الفلاسفة الذين يجيئون خارج «الأمبراطورية» على أن يقولوا ، إنها تغامر بالنسبة إلى التاريخ ، تماماً مثلما غامر المذهب الموضوعي ، ولكن من حيث لا يدري . وسيُثبت في الأمر في المستقبل ، ... بعد موت الضحية والجلاد ...

ولكن هذا العزاء ليس له من قيمة إلا بالنسبة إلى الجلاد ... الذي لا يحتاج إليه .

وفي الفترة الفاصلة ، يدعى المخلصون دورياً إلى احتفالات غريبة <sup>(١)</sup> تُقدّم فيها ، بحسب طقوس دقيقة ، ضحايا بملئة القلب بالندامة <sup>(٢)</sup> ... كقرايين إلى الإله التاريخي .

(١) إشارة إلى المحاكمات .

(٢) إشارة إلى احتفالات التوبة .

## الواطن في المجتمع الموضوعي

إن منفعة هذا المفهوم المباشرة، هي الجبولة دون اللامبالاة في حقل الإيمان .  
انه التبشير القسري .

القانون الذي يفترض ان وظيفة مطاردة المشبهين .. هو الذي يصنع هؤلاء المشبهين . واذ يضعهم يديهم في المجتمع البورجوازي مثلاً ، يعتبر كل مواطن موافقاً على القانون . أما في المجتمع الموضوعي ... فيعتبر كل مواطن غير موافق على القانون ، أو على الأقل ، سيتعم عليه ان يكون مستعداً دائماً لأن يثبت بأنه لا يستكره . فالإنم لا يعود كامناً في الواقعة ، بل في مجرد فقدان الإيمان . وهذا ما يفسر التناقض الظاهري في المذهب الموضوعي .

في النظام الرأسمالي ، يعتبر مدعي الحياذ موالياً موضوعياً للنظام . أما في نظام «الامبراطورية» فيعتبر الحياذي معادياً موضوعياً للنظام . ولا غرابة في ذلك . فاذا كان مواطن «الامبراطورية» غير مؤمن بها ، فهو ليس شيئاً من الوجهة التاريخية ، وذلك بعض اصطفااته . إنه يصطلي اذن ضد التاريخ . إنه مجدّف . الإيمان ، بطرف اللسان ، غير كاف . يجب على المرء أن يجيئه ، وان يعمل لخدمته ، وأن يكون دائماً على أهبة الاستعداد كي يوافق ، في حينه ، على تبدل المعتقدات . وبمجرد ارتكاب أبسط هفوة ، يصبح الإنم بالقوة *en Puissance* ، بدوره ، إنفاً موضوعياً (بالفعل) . فاذا تنهي الثورة تاريخها على طريقته ، لا تكتفي بالقضاء على كل تمرد . إنها تلتزم بأن تعتبر كل إنسان ، وحتى أخنع البشر ، مسؤولاً عن ان التمرد وجد وما زال موجوداً تحت الشمس .

في عالم المفاضاة ، وقد افتتح اخيراً واستكمل ، ثمة شعب من المذنبين يسعى سعيّاً مستمراً نحو براءة مستحيلة ، تحت نظرة كبار المفسرين المرمّمة . السلطة ، في القرن العشرين ، كثيفة .

هنا تنتهي رحلة بروجميتوس المدهشة . انه ، اذ يجاهر ببغضه للآلهة وبجهه للانسان، ينصرف عن الإله زوس بازدياء ويُبَيِّم وجهه شطر البشر ليقودهم المهجوم على السماء . ولكن البشر ضعفاء أو أنذال، لذلك يجب تنظيم صفوفهم انهم يحبون اللذة والسعادة المستعجلة . يجب ان نعلم كيف يرفضون لذة الحياة كي يتعاضدوا . وهكذا يُصبح بروجميتوس ، بدوره ، سيداً يعلم أولاً ويأمر بعدئذ . الصراع لا يزال مستمراً ويُصبح 'منهكاً'. إن البشر يخافون الشك في امكان الوصول إلى الملكوت الأرضي، وفي وجود هذا الملكوت . يجب انتقاذهم من انفسهم . حينئذ يقول لهم البطل إنه يعرف الملكوت ، وانه وحده الذي يعرفه . فالذين يشكون في ذلك يُرمى بهم في الصحراء، ويُسترون على صخرة، ويُقدّمون طعاماً للطيور الجارحة . أما الآخرون فسيسيرون بعد الآن في الظلمات ، وراء السيد المنفرد الغارق في التأملات . إن بروجميتوس ، بمفرده ، أصبح إلهاً ويبسط سلطانه على عزلة البشر .. ولكنه لم يأخذ عن الإله زوس إلا المزلة والقساوة . انه لم يعد بروجميتوس ، بل أصبح قيسر . أما بروجميتوس ، الحقيقي ، الخالد ، فاكذب الآن وجه احدى ضحاياه .

نفس الصرخة الصادرة من سحيق الزمن ، تدوي على مدى الأجيال في قلب صحراء «سيتيا» .

## التمرد والثورة

### ثورة القرن العشرين

إن ثورة المبادئ تقتل الله في شخص مثله <sup>(١)</sup> . أما ثورة القرن العشرين فتقتل ما تبقى من الله في المبادئ بالذات ، وتكسر العدمية التاريخية . مهما تكن بعدئذ الطرق التي تسلكها هذه العدمية ، فما أن تريد أن تخلق في العصر، خارج نطاق كل قاعدة أخلاقية،... حتى تبني هيكل «قبصر» . اصطفاء التاريخ، والتاريخ وحده، معناه اصطفاء العدمية ضد تعاليم التمرد بالذات . فاما أولئك الذين يتهافون على التاريخ بإسم «اللاعقلاني» ، هاتفين ان ليس له من معنى ، فانهم ملاقو العبودية والإرهاب وينتهون إلى عالم الاضطهاد . وأما الذين يتهافون عليه مبشرين بعقلانيته المطلقة ، فانهم ملاقو العبودية والإرهاب وينتهون إلى عالم الاضطهاد أيضاً .

### الفاشية والثورة العنابية

إن الفاشية تريد أن تهيه لجهنم «الإنسان المتفوق» النيتشوي . ومرعان ما تكتشف ان الله ، اذا كان موجودا ، فلعلمه هذا الشيء أو ذاك ، ولكنه قبل كل شيء رب الموت . فاذا أراد الإنسان أن يصبح إلهاً ، ادعى بحق الحياة أو

(١) ملك الحق الالهي .



الموت على الآخرين. فبما أنه صانع 'جثث ومسوخ' ، لذلك فهو بالذات مسخٌ لا إله ، بل خادِم دُنيء للموت . أما الثورة العقلانية فتريد تحقيق الإنسان الكلي ، إنسان ماركس . ولكن ما أن يُقبل منطقُ التاريخ قبولاً تاماً ، حتى يسير بهذه الثورة تدريجياً - خلافاً ليلها السامي - إلى تشويه الإنسان تشويهاً متزايداً ، ويجولها إلى جريمة موضوعية .

غاياتها ووسائلها

ليس صحيحاً أن نائل بين غايات الفاشية والشيوعية الروسية . فالفاشية تمثّل تمجيد الجلاد للجلاد ... أما الشيوعية الرومية فتمثّل تمجيد الضحية للجلاد ... الأولى لم تحلم قط بتحرير الإنسان كله ، بل بأن تحرّر بعض الناس فقط عن طريق إخضاع الآخرين . أما الثانية فتسعى ، في مبدئها الصميمي ، إلى تحرير البشر كافة عن طريق استعبادهم جميعاً بصورة مؤقتة . لذلك يجب أن نقرّ لها بعظم المقصد .

ولكن من الصحيح ، بالعكس ، أن نائل وسائلها مع الكلية السياسية التي استقتها من نفس المصدر : العدمية الأخلاقية . كل شيء جرى كما لو أن 'ذرية سترنر ونيثشايف استخدمت ذرية كالياف وبرودون . إن العدميين اليوم متربعون على العروش . أما الفلسفات التي تدعي بأنها توجه عالمنا بإسم الثورة ، فقد أصبحت حقاً فلسفات إذعان ، لا فلسفات تمرد . لهذا السبب 'يعتبر عصرنا عصر تقنيات الإفناء الخاصة والعامة .

الإرهاب والثوق إلى قبة

الحقيقة إن الثورة انقلبت على أصلها المتمرد ، إذ امتثلت للعدمية . فالإنسان الذي كان يسكره الموت وإله الموت وكان يملكه اليأس من البقاء الشخصي ، لشد الخلاص في خلود النوع .

بيد أنه لا بدّ أيضاً من الموت ، ما دامت الجماعة لا تحكم العالم ، وما دام النوع لا يسود فيه . إن الوقت يستوجب التعجيل حينئذ . وبما أن الإقناع

يتطلب متسعاً من الزمان ، والصدقة تتطلب بناءً مستمراً .. لذلك يظل الإرهاب أقصر درب إلى الخلود .

على أن هذه المفاصد المفرطة تتم ، في الوقت نفسه ، عن الشوق إلى القبية التبردية الأولى . إن الثورة المعاصرة التي تدعي انكار كل قيمة ، هي في حد ذاتها حكمٌ قيمي . والإنسان يريد أن يسود بواسطتها .

ولكن لماذا يسود إذا لم يكن هناك معنى لشيء ؟ ولم الخلود إذا كان وجه الحياة بشعاً ؟ ليس من فكرة عدمية تماماً ، اللهم إلا في الانتحار ، منلما ليس هناك مادية مطلقة <sup>(١)</sup> . إن إفناء الإنسان يؤكد أيضاً الإنسان . وما الإرهاب وممسكرات الاعتقال إلا الوسائل الأخيرة يستعملها الانسان للخلاص من العزلة ... على التعطش إلى الوحدة أن يتعقق حتى في حفرة القبر المشتركة . فلئن يقتل الناس الناس ، فلائهم يرفضون الوضع الثاني ويريدون الخلود للجميع ، وحينئذ يقتل بعضهم بعضاً ، بصورة ما . ولكنهم يثبتون في الوقت ذاته أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الانسان . إنهم يروون ظلام الرهيب الى الأُخوة . ولا بدّ للمخلوق من فرحة ، وحينئذ لا تنسرح له لا بدّ له من مخلوق ، <sup>(٢)</sup> . الذين يرفضون عذاب الكينونة والموت ، يريدون حينئذ أن يتكلموا . قال المركيز ساد : «العزلة هي السلطة» . السلطة اليوم بالنسبة إلى أنوف المنفردين ، بما أنها تعني عذاب الآخر .. تم عن الحاجة الى الآخر .

الإرهاب آية من آيات التبجيل 'يقدمها أخيراً نفرٌ من المنفردين الخلودين للأخوة البشرية .

الدور ... الأفع الدور

ولكن العدمية إن لم تكن موجودة فإنها تحاول ان توجد ، وهذا كاف للهروب من العالم . هذا الميل المفرط اكسب عصرنا وجهه الكريه . إن أرض

(١) أشير إلى هذه النقطة في الصفحات السابقة .

(٢) ... ليارس عليه تحكمه - الحرب -

المذهب الانساني اصبحت هذه القارة الأوروبية ، الأرض الظالمة . واصبح هذا العصر عصفاً ، وكيف ننكره ؟ اذا كان تاريخنا جحيماً فلا يسعنا ان نعرض عنه بوجهنا . هذا المول لا يمكن تجنبه . ولكن في دسع البعض ان يأخذوه على عاتقهم كي يتجاوزوه . ونعني أولئك الذين عاشوه في الصحو ، لا الذين أهدوهم ثم اعتقدوا ان لهم حق اصدار الحكم . مثل هذه النبئة لم يتسن لها ان تظهر حقاً إلا على توبة كثيفة من الآثام المتراكمة . ففي نهاية صراع مميت يخلط فيه جنون العصر البشر بلامتيز ، يظل العدو .. الأخر العدو . وحتى لو شُهر به في أخطائه ، لا يجوز ان يُزدرى ولا أن يُغض . فالاشقاء اليوم هو المواطن المشترك ، الملكوت الأرضي الوحيد الذي لبي العهد واستجاب للوعد .

رفض الاستكانة

التزوع الى السلم والراحة ، هو نفسه يجب ان يزاح ، لأنه يتطابق مع قبول الجور . الذين يتباكون على المجتمعات السعيدة التي يصادفونها في التاريخ ، يقرون بما يتنون: صحت البؤس ، لا التخفيف منه . ولكن فليبدح هذا الزمان حيث بصرخ<sup>(١)</sup> فيه البؤس ويؤرق جفن الشيعين ! ومن قبل تحدث دي . بستر عن «الوعظ الرهيب الذي كانت الثورة تلقية على الملوكة» . انها تبشّر به اليوم ، وبإصلاح أشد ، لنخبة هذا العصر الملوثة بالعار . يجب سماع هذا الوعظ . في كل كلمة ، وفي كل فعل ، حتى لو كان آمناً ، يحثم الوعد بقيمة من واجبتا تلمسها وإظهارها .. المستقبل غير قابل للتوقع ، والنهضة لعلها مستحيلة . ومع ان منطق التاريخ باطل أو مجرم ، ففي وسع العالم ان يتحقق في الجريمة ، بحسب فكرة باطلة . على ان هذا النوع من الاستكانة مرفوض هنا . وواجبتا ان نراهن على النهضة .

لحظة متبني التناقض

ما لنا ، على كل ، إلا ان نبعث أو نموت . فاذا كنا في هذه اللحظة التي

(١) لعل مرح يتضمن من الانتهام والاحتجاج .

يبلغ فيها التمرد منتهى تناقضه إذ 'ينحصر ذاته' ، فانه يضطر الى الفناء مع العالم الذي صنع ، أو ان يجد حقيقةً ووثبةً جديدة . قبل ان نسير 'قدماً' ، لا بد لنا على الأقل من توضيح هذا التناقض .

انه لا يتعرف جيداً حيناً نقول كفلاسفتنا الوجوديين<sup>(١)</sup> مثلاً ( الخاضعين هم أنفسهم حالياً للنظرة التاريخية ولتناقضاتها ) ان هناك تقدماً من التمرد الى الثورة ، وان المتمرد ليس بشيء إن لم يكن ثورياً . التناقض هو ، في الحقيقة ، أشد . فالثوري هو في الوقت نفسه متسرد ، وإلا فانه ليس حينئذ ثورياً ، بل شرطياً وموظفاً ينقلب على التمرد ولكن اذا كان متمرداً فانه ينقلب في النهاية على الثورة ، بحيث انه لا يوجد تقدم من موقف الى آخر ، بل حدوث في وقت واحد وتناقض متزايد في استمرار . كل ثوري يصبح في نهاية الامر طاغيةً أو منشقاً . والتمرد والثورة في العالم التاريخي الصرف الذي اختاراه ، يصبحان أمام أحد أمرين : الشرطة أو الجنون .

#### الفكرة والتاريخ

عند هذا المستوى ، التاريخ وحده لا يقدم اذن أي عطاء . انه ليس ينبوع قيمة ، بل ينبوع عدمية أيضاً . هل يمكننا على الأقل ان نخلق القيمة ضد التاريخ ، على مجرد صعيد التأمل الخالد ؟ هذا يعني المصادقة على الجور التاريخي وعلى بؤس البشر . ان التبني على هذا العالم يقود الى العدمية التي عرفها نيتشه . فالفكرة التي تتكون مع التاريخ وحده ، كالفكرة التي تنقلب على كل تاريخ ، كتساها تتزعان من الانسان وسيلة العيش أو سببه . الأولى تهوي به الى دركة : « لم العيش » والثانية الى : « كيف العيش » . فالتاريخ - اللازم ، غير الكافي - ليس اذن سوى علة موجبة طارئة . انه ليس انعدام

(١) الوجودية المعدلة تريد ، على الأقل ، ان توجد أخلاقاً . يجب انتظار هذه الاخلاق . ولكن الصموبة الحقيقية ستكون في إيجاد هذه الاخلاق دون إعادة ادخال قيمة غريبة عن التاريخ في الوجود التاريخي .

القيمة ، ولا القيمة بالذات ، حتى ولا مادة القيمة . انه السانحة الطارئة ، من مجموعة من السوانع الاخرى ، يمكن فيها للانسان ان يستعر بوجود قيمة - وهو وجود ما زال مبهماً - تُقيده في الحكم على التاريخ . وان التمرد بالذات يعدنا بها .

#### التاريخ ومرد الانسان

الحقيقة ان الثورة المطلقة كانت تفترض الطوعية المطلقة في الطبيعة البشرية ، وإمكان تحويلها الى حالة قوة تاريخية . ولكن التمرد لدى الانسان هو الرفض في ان يعامل معاملة الشيء ، وان 'يجول الى مجرد التاريخ . انه تأكيد وجود طبيعة مشتركة بين الناس جميعاً ، تستعصي على عالم القوة . لا ريب في ان التاريخ احد حدود الانسان ؛ وبهذا المعنى ، 'يعتبر الثوري' محقاً . ولكن الانسان ، في تمرده ، يضع بدوره حداً للتاريخ . عند هذا المستوى ، يولدُ الوعد بقيمة . وولادة هذه القيمة هي التي تحاربها اليوم الثورة 'المستبدة عاربة حقودة ، لأنها تمثل خذلانها الحقيقي ، ووجوب تخليها عن مبادئها . في عام ١٩٥٠<sup>(١)</sup> ، وبصورة موقته ، لا يتقرر مصير العالم ، كما يبدو ، في الصراع بين الاتاج البورجوازي والاتاج الثوري ، لأن غاياتهما ستكون نفس الغايات ؛ بل يتقرر في الصراع الدائر بين قوى التمرد وقوى الثورة المستبدة . على الثورة المظفرة ان تثبت ، بواسطة شرطتها ومحاكماتها وحرماناتها ، ان ليس هناك من طبيعة بشرية . وعلى التمرد المهان ، بتناقضاته وآلامه وانكساراته المتكررة وكبريائه الصامدة ، ان يمنح هذه الطبيعة محتوى الالم والأمل .

#### التمرد والثورة التاريخية

« أنا أتمرد ، إذن نحن موجودون » ، هكذا كان يقول العبد ، ثم أضاف التمرد الماورائي قائلاً : نحن موجودون وحدنا ، وهو الشعار الذي ما زلنا نحيا به اليوم . ولكن اذا كنا وحيدين تحت السماء الخاوية ، واذا كان لزاماً

(١) الانسان المتمرد لشرعام ١٩٥١ .

علينا اذن ان غوت الى الابد ، فكيف يمكننا ان نوجد حقاً ؟ لقد حاول التمرد الماورائي ان يصنع الكينونة بواسطة « الظاهر » . بعد ذلك ، جاءت الفلسفات التاريخية الصرفة تقول بان الكينونة هي « العمل » <sup>(١)</sup> . لم نكون موجودين ، ولكن علينا أن نوجد بكل الوسائل . ان ثورتنا محاولة لاكتساب كينونة جديدة ، بواسطة العمل ، وخارج نطاق كل قاعدة اخلاقية . لذلك تحكم هذه الثورة على نفسها بأن لا تبني إلا في « بيل التاريخ » ، وفي الارهاب . وفي اعتقادهم ان الانسان ليس شيئاً اذا لم يحل في التاريخ على الموافقة الاجتماعية ، طوعاً أو كرهاً . عند هذه النقطة الممينة ، يجري تخطي الحد ، ويخاف التمرد أولاً ، ويُعبر منطقياً بعدئذ ، لأن التمرد لم يؤكّد في أخلص حركة من حركاته سوى وجود حد ، وكينونتنا المتقسمة . فهو ليس في الاصل انكاراً تاماً لكل كينونة . انه ، بالعكس ، يقول : « نعم » و « لا » في وقت واحد . انه رفض ' قسم ' من الوجود ، بإسم قسم آخر يمجده التمرد . كلما عمق هذا التمييز ، ازداد هذا الرفض عناداً . وحينما ينتعل التمرد ، في الدوار والفوران ، الى شمار « كل شيء أو لا شيء » ، الى انكار كل كينونة وكل طبيعة بشرية ، فانه عند هذه النقطة ينكسر ذاته . وحده الانكار التام يبرر مشروع غزو الكالية . أما تأكيد وجود حد ، وجود كرامة وجمال مشتركين بين البشر ، فلا ينجم عنه سوى ضرورة توسيع هذه القيمة بحيث تشمل الجميع وكل شيء ، وضرورة السير نحو الوحدة دون انكار الاصل . بهذا المعنى ، لا يبرر التمرد ، في صحته الأولى ، أية نظرة تاريخية صرفة . إن مطلب التمرد ... الوحدة ، ومطلب الثورة التاريخية ... الكالية . التمرد ينطلق من الرفض المستند الى قبول ، والثورة التاريخية تنطلق من الانكار المطلق وتحكم على نفسها بكل العبوديات لتضع « نعم » ، مؤجلة الى نهاية الأزمنة . التمرد ' مبدع ' والثورة التاريخية عدمية . الأول منذور لأن يخلق في سبيل المزيد من الكينونة ،

والثانية مجبرة على ان 'تنتج' كما تمن في الانكار . انها تلزم نفسها بأن تعمل دائماً ، مجدوها الامل بأن توجد ذات يوم - وهو أمل 'يُجيب' في استمرار . حتى الموافقة بالاجماع لن تكفي لخلق الكينونة . «أطيعوا» ، ... هكذا كان يقول فردريك الأكبر لرعيته . ولكنه في ساعة الموت قال : « سئمت من بسط السيادة على عبيد » . الثورة محكوم عليها وسيُحكم عليها ، للخلاص من هذا المصير العبي، بالتخلي عن مبادئها الخاصة ، عن العدمية وعن القيمة التاريخية المحض ، كي تجد ينبوع التمرد الخلاق . كما تكون الثورة مبدعة ، لا يسعها الاستثناء عن قاعدة ، أخلاقية أو ماورائية ، تعدل المذهب التاريخي . ليس من شك في انها لا تشع إلا بازدياد صحيح للأخلاق الصورية المخادعة التي تجدها في المجتمع البورجوازي . ولكن جنوبها يكمن في انها وسعت هذا الازدياد بحيث شمل كل مطلب اخلاقي . في أصلها بالذات ، وفي توثباتها الصيفية ، ثمة قاعدة ليست صورية ، وفي وسعها مع ذلك ان تقوم بدور المرشد . والحقيقة ان التمرد يجب وسيجب بها ان لا بد لها من محاولة العمل ، لا لتشرع بالوجود ذات يوم ، تحت انظار عالم تردى الى الخنوع ، ولكن تبعاً لهذه الكينونة الغامضة التي سبق لها الكشف في حركة العصيان . هذه القاعدة ليست صورية ولا خاضعة للتاريخ . وهذا ما سيكفينا ان نوضحه باكتشافنا اياها في الحالة المجردة ، في الابداع الفني . ولكن فلنلاحظ منذ الآن أن التمرد المتصارع مع التاريخ ، يضيف الى شعار « أنا أقرد » ، إذن نحن موجودين ، ، والى شعار « نحن موجودون وحدها » ، ... نقول : إن هذا التمرد يضيف قائلاً : إن علينا ان نحيا ونُحيي كي نخلق كينونتنا ، بدلاً من ان نُقتل ونُغت لتوليد كينونة غير كينونتنا .

## الفصل الرابع

### التمرد والفن

#### ١ تمهيد

الفنان والمجتمع

الفن أيضاً هو هذه الحركة التي 'تتجدد' وتكرر في وقت واحد . قال نيتشه :  
'ما من فنان يتحمل الواقع' . هذا صحيح . ولكن مسا من فنان يستطيع  
الاستغناء عن الواقع . الابداع نشدان 'وحدة ورفض' العالم . ولكنه يرفض العالم  
بسبب ما يتقص هذا العالم ، وأحياناً بلسم ما هو . التمرد 'يلاحظ' هنا في تعقيده  
الاولي ، خارج نطاق التاريخ ، وفي الحالة المجرّدة . فعلى الفن اذن ان يعطينا  
نظرة أخيرة على محتوى التمرد .

المصلحون الأوروبيون ومبادئ الفن

مع ذلك ، نلاحظ العداء للفن ، هذا العداء الذي أظهره كل المصلحين  
الثوريين .

إن أفلاطون معتدل . فهو لا يضع موضع التساؤل سوى وظيفة الكلام  
الكاذبة ، ولا 'يبعد عن جمهوريته إلا الشعراء . وفيما يتعلق بالباقي ، انزل الجمال  
منزلة فوق العالم .



ولكن الحركة الثورية في الازمنة الحديثة تلتقي مع مقاضاة الفن لم تنته بعد  
 إن حركة لوثير وكالفان اصطلت الاخلاق وأبعدت الجلال. وأنهم جان جاك  
 روسو الفن بأنه مفسدة" يضلها المجتمع إلى الطبيعة . وحمل سان جوست على  
 المسرح بشدة ، وفي البرنامج الرائع الذي وضعه من أجل « عيد العقل » أراد  
 ان يمثل العقل ' بشخص « فاضل » لا بشخص « جميل » . ولم 'تجيب الثورة  
 الفرنسية أي فنان ، بل أنجبت صحفياً كبيراً واحداً : ديولان ، وكاتباً  
 متخفياً : المركيز ساد . أما الشاعر الوحيد في زمانها فأعدمته بالمقصلة <sup>(١)</sup> .  
 واما الناثر الكبير الوحيد فهاجر من بلاده الى لندن ودافع عن المسيحية  
 والشرعية <sup>(٢)</sup> . وبعد ذلك بقليل ، طالب السان سيونيون بفن « مفيد اجتماعياً » .  
 إن « الفن للتقدم » <sup>(٣)</sup> ، نظرة " ترددت في العصر كله ، وتبناها هوغو دون ان  
 يتمكن من جعلها مقنعة. والوحيد الذي أدخل على لجنة الفن لهجة دعاءٍ ينبتها ،  
 هو الكاتب جول فاليس .

#### الدميون الروس والفن

هذه الالهة هي أيضاً لهجة الدميون الروس . فقد أعلن يزاريف تدهور  
 القيم الجمالية لصالح القيم العملية . « أفضل أن أكون حذاءً روسياً على ان  
 أكون رافايل روسياً » . في اعتقاده ان زوج أحذية انفع من شكشير . هذا ،  
 وأكد المدمي نكراسوف ، الشاعر الكبير المحزن ، إنه 'يفضل قطعة جبن على  
 كل بوشكين . أخيراً ، نحن نعلم ان تولستوي ألقى الحرم على الفن .

أما غاثيرل فينوس وآبولون التي ما زالت مذهبةً بشمس إيطاليا ، والتي  
 استخدمها بطرس الأكبر ليضعها في حديقته الصيفية في بطرسبرغ ، ... نقول :

- (١) يقصد أندريه شينيه . راجع : الادب الثوري ، تأليف نهاد رضا .
- (١) يقصد شاتوبريان ، مؤلف : عبقرية المسيحية . ويقصد بكلمة الشرعية الدفاع عن الشرعية  
 في الملكية ، لان شاتوبريان كان من الملكيين .
- (٣) الفن للتقدم ، أو للمجتمع ، ويقابل ذلك : الفن للفن - الحرب -

أما هذه التائيل المرمية فقد أهملتها في النهاية روسيا الثورية .  
إن البؤس يشيع بوجهه أحياناً عن صور الهناء المؤلمة .

#### الفكر الألماني والدن

ليس الفكر الألماني بأقل قساوة في اتهاماته . فبحسب شراح الفينومينولوجيا الثوريين<sup>(١)</sup> ، إن يكون هناك فن في المجتمع المنسجم . سيعاش الجمال عيشاً ، ولن يُتصورُ تصوراً . الواقع العقلائي<sup>(٢)</sup> ، تماماً ، سيروي وحده كل ظلماً . إن نقد الشعور الصوري والقيسم المروية يمتد طبعاً الى الفن . فالفن ليس منفصلاً عن الزمان ، بل يتعدد بعصره ويُعتبر ، فيما يقول ماركس ، عن القيم المفضلة الخاصة بالطبقة المهيمنة . لا يوجد إذن إلا فن ثوري واحد هو ، بالضبط ، الفن الموضوع في خدمة الثورة .

لكن بما أن الفن يخلق الجمال خارج نطاق التاريخ ، لذلك يمارض الجهد الوحيد الذي يُعتبر عقلانياً ، ونعني تحويل التأريخ بالذات الى جمال مطلق . ما أن يعي الحذاء الروسي دوره الثوري ، حتى يصبح الخالق الحقيقي للجمال النهائي . أما رافايل ... فلم يخلق إلا جمالاً عابراً لن يفقه الانسان الجديد .

ينساهد ماركس ، والحق يُقال ، كيف يتسنى بعدُ للجمال الإغريقي ان يكون جميلاً بنظرتنا . ويجب قائلًا إن هذا الجمال يُعتبر عن طفولة العالم الساذجة ، ونحن ، في غمرة نزاعاتنا كأشخاص بالغين ، نشعر بالشرق الى هذه الطفولة . ولكن كيف يتسنى بعدُ لروائع عصر النهضة الايطالية والفنان رامبراندت والفن الصيني ، ان تكون جميلة بنظرتنا ؟ ما لنا والأمر !

#### التجني على الفن

إن مقاضاة الفن قد 'فتح' بابها نهائياً ، وهي اليوم تستمر بمشاركة في الإثم متلبكة ، صادرة عن فنانين ومتقنين منصرفين الى التجني على فهم وعقلهم .

(١) يقصد كتاب هيل : فينومينولوجيا الذهن .

(٢) أو : الوجود المنطقي .

وفي هذا الصراع بين شكسيير والحذاء ، يلاحظُ في الحقيقة ان الذي يلعب شكسيير أو الجمال ليس الحذاء ، ... بل ذلك الذي يتابع مطالعة كتب شكسيير ولا يضع الأحذية ... ، علماً بأنه لن يتمكن أبداً من صنعها . إن فناني عصرنا يشبهون أولئك النبلاء الروس الثانيين في القرن التاسع عشر ، وعذرم في شعورهم الفاسد . ولكن آخر شيء يمكن للفنان أن يشعر به أمام فنه هو الندامة . إن ادعاء تأجيل الجمال ايضاً الى نهاية الأزمنة معناه تجاوز التواضع البسيط اللازم ، ومن الآن الى ذلك الاوان حرمان كل الناس ... بما فيهم الحذاء ... من هذا الغذاء الاضافي الذي استغنوا عنه نحن-بالذات-.

#### المجازات والعالم الدليل

على أن لهذا الجنون التنسكي أسبابه التي تهمناها هي على الأقل . انها ، على الصعيد الجمالي تبصر عن الصراع بين الثورة والتمرد ، والذي سبق وصفه في كل تمرد يتكشف تطلُّب الوحدة الماورائي ، واستحالة الوصول اليها ، وبناء عالم بديل . من هذه الوجهة ، يكون التمرد صانع عالم . وهذا يعرف الفن ايضاً . ان تطلُّب التمرد ، والحق يقال ، هو جزئياً تطلُّبٌ جمالي . وقد رأينا ان كل الفلسفات التمردية تتجلى في تعابير مجازية أو عالم مغلق . « الأسوار » عند لوكريس ، « الأديرة والقصور المغلقة » عند المركيز ساد ، « الجزيرة والضفيرة » عند لوتريامون ، « الحواجز » عند رانبر ، « القصور الرهية تولدُ ثانية » وتهب عليها عاصفة من زهور « عند السرياليين ، « السجن » ، « الأمة المتحصنة بتاريس » ، « معسكر الاعتقال » ، « امبراطورية العبيد الأحرار » ، ... كل هذه المجازات تُعبر على طريقته عن نفس الحاجة الى التلاحم والوحدة .

على هذه الموائم المغلقة يمكن للانسان أن يسود وأن يعرف اخيراً .

#### الفنان والعالم

هذه الحركة هي أيضاً حركة الفنون جميعها . والفنان يعيد صنع العالم ،

على حسابه . إن سائقونيات الطبيعة لا تعرف نقطة الوقف . العالم لا يصب  
أبداً ، وصمته بالذات يُكرر أبداً نفس الانتقام ، بحسب اهتزازات لا ندرَكها .  
أما الاهتزازات المدركة فتعطينا أصواتاً ، وتوافقات صوتية في النادر ، ولا  
تعطينا أبداً لحناً . مع ذلك فالموسيقى موجودة ، حيث السائقونيات تنتهي ،  
والتوافق الصوتي يُعطي شكلاً لأصواتٍ لا نملك شكلاً في حدّ ذاتها ، وحيث  
يتسنى لوضع الانتقام في ترتيب مفضل أن يستخرج من البابلة الطبيعية وحدة  
يرضى عنها اللب والقلب .

### الثان والاسلبة (١)

كتب فان غوغ : «أزداد اعتقاداً يوماً بعد يوم أن من واجبنا أن لا نحكم  
على الإله الحثان بناءً على هذا العالم الارضي . فهو لعمري مخطط دراسي غير  
ناجح » . كل فنان يحاول أن يعيد عمل هذا المخطط الدراسي ، وأن يمنحه  
الاسلوب الذي إليه يفتقر .

### الاسلبة في النحت

إن أعظم الفنون وأكثرها طموحاً ، ونعني النحت ، يعمل بعناد على تثبيت  
الابعاد الثلاثة لهيئة الانسان العابرة ، وعلى إرجاع فرضي الحركات إلى وحدة  
الاسلوب العظيم . النحت لا ينبذ المائلة ، بل يحتاج إليها . ولكنه لا يتوخاها  
أولاً . إن ما يتوخى في عصوره الكبرى ، هو الحركة أو السياء أو النظرة  
الفارغة ، التي تلخص كل الحركات وكل النظرات الانسانية . انه لا يستهدف  
التقليد ، بل أن يضع في أسلوب ، وأن يحبس فوران الاجسام العابر أو دوران  
المراقب اللامتناهي ، في تمثيل ذي دلالة . حينئذ فقط يقيم على واجهات المدن  
الصاخبة ، الأغودج ، الجمال الساكن الذي يُلطف لحظة حمى البشر الدائمة .  
ويتسنى للذهب المحروم أن يدور أخيراً حول تائيل الآلهة كوريه ، الاغريقية  
ليلتقط ما ينجر من التالف والغناء ، في يحيا وجسم حواء .

(١) اشتقاق من كلمة : اسلوب .

### الاسلـة في الرسم

ومبدأ الرسم هو أيضاً في الإصطفاء . كتب ديلاكروا : «المعقبة بالذات ، في تأملها فنّها ، ليست سوى موهبة التعميم والإصطفاء» . فالرسم يعزل موضوعه ، وهذه هي أول طريقة لتوحيده . إن المناظر تزل ، وتختفي من الذاكرة ، أو أنها تمحو بعضها بعضاً . لهذا السبب فإن رسام المناظر أو رسام الطبيعة الصامتة يعزل في المكان وفي الزمان ما يتقلب عادياً مع النور ، ويتبدد في 'مطلق' المنظور ، أو يختفي بتأثير قيم أخرى . وأول عمل يقوم به رسام المناظر هو تأطير لوحته . انه يزيح بقدر ما ينتقي . كذلك رسم الموضوع يعزل في الزمان كما في المكان الفعل الذي يختلط عادياً في فعل آخر . ويقوم الرسام حينئذ بعملية تثبيت . ان كبار المبدعين هم أولئك الذين ، مثل بيرو ديلا فرانسكا ، 'يشعرون بأن التثبيت حدث منذ هنية' ، بأن جهاز العرض توقف على الفور . كل الشخص يوحون حينئذ انهم ، بمعجزة الفن ، ما زالوا أحياء لم تعد تهددهم مع ذلك يد الفناء . إن فيلسوف «راينولدت» مثلاً ، بعد موته بزمان طويل ، يتأمل على مدى الأجيال ، بين النور والظلال ، في نفس السؤال .

### فرض الحفرة على الصبورة

«إن الرسم الذي يعجبنا بنشابه الأشياء التي لا يسمها أت تعجبنا ، هو لعبري لغو» .

إن ديلاكروا الذي يستشهد بكلمة باسكال الشهيرة وضع بحق كلمة «غريب» بدلاً من «لغو» . فهذه الأشياء لا يسمها ان تعجبنا... لأننا لا نراها . ذلك ان الصبورة الدائمة تدفنها وتتكبرها . من ذا الذي كان ينظر إلى يدي الجلاء اثناء الجلده ، وإلى أشجار الزيتون على درب الصليب ؟ ولكن هاهي ذي بمنشلة ، منشلة من حركة آلام يسوع ؛ وإن آلام المسيح التي 'حُبست في صور العنف والجمال هذه ، تتردد صرختها كل يوم في قاعات المتاحف الباردة . ان

أسلوب الرسام في هذا الجمع بين الطبيعة والتاريخ ، في هذه الحضرة المفروضة على ما هو في حالة صيرورة دائمة . فالن يحقق ، دونما جهد ظاهري ، التوفيق بين الجزئي والكلي والذي كان يحلم به هيجل . لعل هذا هو السبب الذي من أجله نرى المصور الكلفة بالوحدة ، كما هو حال عصرنا ، قلقت نحو الفنون البدائية التي يكون فيها الأسلوب في منتهى الحدة ، والوحدة في منتهى الإثارة . إن أقوى «أسلجة» توجد دائماً في بداية المصور الفنية وفي نهايتها . وهي تفسر قوة الانكار والتبدل التي نهضت بكل الرسم الحديث في وثبة مضطربة نحو الكينونة بالوحدة .

إن شكوى فان غوغ الرائعة هي صرخة جميع الفنانين المتكبرة اليانسة : «أستطيع دائماً أن أستغني عن الإله الختان في الحياة وفي الرسم . ولكنني لا أستطيع ، وأنا المعبذب الموجه ، أن أستغني عن شيء أعظم مني وبمناوبة حياتي ، وأعني قوة الابداع» .

#### الفنان والإبداع

ولكن تمرد الفنان على الواقع ويصعب حينئذ ترداً مشبهاً بنظر الثورة المستبدة . يتضمن نفس التأكيد الذي يتضمنه التمرد المعقوي المصادر عن المضطهد . إن الروح الثورية الناشئة عن الانكار التام ، انحست إحساساً غريزياً بأن هناك في الفن أيضاً قبولاً ، بالإضافة إلى الرفض ؛ وأن التأمل من شأنه تعديل الفعل والجمال والجور ؛ وأن الجمال هو في حد ذاته جور فطمي ، في بعض الحالات .

ما من فن يحيا على الرفض التام . فكما أن كل فكرة ، وفي الطليعة فكرة اللامعنى ، هي ذات معنى ؛ كذلك لا وجود لفن اللامعنى . يجوز للإنسان أن يفضح الجور التام في العالم ، وأن يطالب حينئذ بعدالة تامة ينفرد بخلقها . ولكن لا يجوز له أن يؤكد دمامة العالم التامة . فكي يخلق الجمال ، عليه في الوقت نفسه أن يرفض الواقع وأن يعبد بعض وجوهه . فالن ينكر الواقع ،

ولكن لا يتهرب منه .

كان في وسع نيتشه ان يرفض كل استشراف ، أخلاقي أو دوافي ، قائلاً إن هذا الاستشراف يدفع إلى التبعي على هذا العالم وعلى هذه الحياة . ولكن لعل هناك استشرافاً حياً ، يعدُّ به الجمال ، وفي وسعه أن يدفع إلى حب هذا العالم القاني المحدود وإلى إثارة على كل عالم آخر . فالفن بعيداً إذن إلى أصل الترد ، بمقدار ما يسمى إلى تجسيد قيمة تتلاشى في الصيرورة الدائمة ، ولكن الفنان يستشفا ويريد ان ينتزعها من التاريخ . وستقتنع بذلك بشكل أفضل حينما نعلم النظر في الفن الذي يستهدف الدخول في الصيرورة لينحها الاسلوب الذي إليه تقتصر ، ونعمي فن الرواية .

## ٢ - الرواية والتمرد

أديان

يمكننا ان نميز بين «أدب الإذعان» الذي يلتقي في الزمن ، اجمالاً ، مع القرون القديمة والعصور الكلاسيكية ، وبين «أدب المخالفة» الذي يبدأ مع الأزمنة الحديثة . حينئذ نلاحظ ندرة الرواية في الأدب الاول . وإذا ما وجدت - ما خلا بعض الحالات الاستثنائية - فلا علاقة لها بالتاريخ ، وانما بالتخيل والتصور (تياجين وشاريكليه ، أو آستريه) <sup>(١)</sup> . لأنها حكايات خيالية ، لا روايات . أما مع الأدب الثاني فنا حقاً النوع الروائي الذي ما فتى يزدهر ويتوسع حتى عصرنا الحالي ، مع الحركة الانتقادية والثورية .

إن الرواية تنشأ مع روح التمرد ، وتعبّر عن نفس المطمع ، على الصعيد الجمالي .

(١) الاول قصة اغريقية ، والثانية قصة رومانية من القرن السادس عشر (المغرب) .

## الفن ومنافسة الله

قال ليطريه<sup>(١)</sup> عن الرواية: «قصة ملفقة ، مؤلفة نثراً». هل هي ذلك فقط ؟  
ثم ناقد كاثوليكي<sup>(٢)</sup> كتب مع ذلك قائلاً : «الفن مهما يكن هدفه فإنه يناهض  
الله دائماً منافسة آئمة» . والحقيقة ان التحدث عن منافسة الله ، بصدد الرواية ،  
أصح<sup>(٣)</sup> من التحدث عن منافسة للأحوال الشخصية<sup>(٤)</sup> . وقد عبر ثيودور عن  
فكرة مماثلة عندما قال بصدد بلزاك : «الكوميديا البشرية»<sup>(٥)</sup> هي «الافتداء»<sup>(٦)</sup>  
بالإله الآب . يبدو أن الأدب العظيم يسمي إلى خلق عوالم مغلقة أو نماذج  
ممثلة . ان الغرب لا يكتفي في أعماله الإبداعية الصكبري بوصف حياته  
اليومية ، وإنما يضع نصب عينيه على الدوام صوراً عظيمة تلهبه ، فيندفع  
وراءها .

## العالم الروائي والمروية

مهما يكن من أمر ، فإن كتابة أو مطالعة رواية هي أعمال غير عادية .  
وإن تأليف قصة بترتيب جديد لبعض الوقائع الصحيحة ، لا يتغوي على شيء  
محتم أو ضروري . حتى لو كان التعليل العامي ، بتعة المبدع والتعاري ، تعليلًا  
صحيحاً ، لوجب حينئذ أن تتساءل بحكم أية ضرورة يتلذذ أغلب الناس ويحبون  
بقصص مختلفة . إن النقد الثوري يستنكر الرواية المجرّدة ، بوصفها مروية خيالية  
عاطلة . أما اللغة المألوفة فتسمي رواية الحديث الكاذب الصادر عن صحفي آخرق .  
ولبضع سنوات خلت ، كان العُرف يقتضي أيضاً أن تكون اللقيات «خياليات»<sup>(٧)</sup> ،

(١) فيلسوف ومؤلف ناموس معروف باسمه .

(٢) Stanislas Fumet

(٣) سبيل النفوس .

(٤) العنوان العام لمؤلفات بلزاك - الحرب -

(٥) الكتاب الأصلي هو : كتاب الافتداء بالمسيح L'imitation (الحرب) .

(٦) في الفرنسية : رواية = خيالية .



وذلك خلافا لظاهر الحق. وكان يُعنى بذلك ان هذه المخلوقات الحائلة لا تكترث بوقائع الحياة . وبصورة عامة ، اعتُبر دائماً ان «ما هو روائي» منفصلٌ عن الحياة ، وانه يجتليها بقدر ما يتعد عنها . إن أبسط طريقة وأشيعها في مواجهة التعبير الروائي تكمن اذن في ان نعتبره قمريناً هروبياً . وهكذا يلتقي المعقول العام بالانتقاد الثوري .

من تحليل إل آشر

ولكن مم نهرب بواسطة الرواية ؟ أمينٌ واقعٌ نعتبره مرهقاً جداً ؟ ولكن السعداء يطالعون الروايات أيضاً ، ومن المؤكد ان العذاب الشديد يزيح حب المطالعة . هذا وإن العالم الروائي أقلُّ تغلاً من هذا العالم الآخر الذي تطوقنا فيه المخلوقات الحية في استمرار . ولكن بحكم أي لغز يتراءى لنا «آدولف»<sup>(١)</sup> اقرب إلينا بكثير من «بنجامان كونستان» ، و «الكونت موسكا» اقرب إلينا من مؤلفينا الأخلاقيين المحترفين ؟ ذات يوم اختتم بلزك محادثة طويلة حول السياسة ومصير العالم ، قائلاً : «والآن فلنعد إلى الأمور الجدية» ، ويعني رواياته . إن حب الهروب لا يكفي في الحقيقة لتعليل أهمية العالم الروائي المؤكدة ، ولتعليل اصرارنا على أن نحسب من المهمات هذه الاساطير الكثيرة التي تعرضها علينا العبقرية الروائية منذ قرنين .

بما لا ريب فيه ان النشاط الروائي يفتوز نوعاً من رفض الواقع . ولكن هذا الرفض ليس مجرد هروب . فهل علينا أن نعتبره حركة ازواء تقوم بها النفس النبيلة التي ، بحسب هيجل ، تخلق لنفسها في خيبتها عالماً مصطنعاً لا سيادة فيه الا للأخلاق . مع ذلك ، تظل الرواية القدوة بعيدة بعداً كافياً عن الادب الكبير ؛ وإن افضل الروايات الوردية ، بول وفيرجيني – وهي كتاب حزن – ، لا تقدم شيئاً ما للسوى .

(١) اسم البطل في قصة تحمل هذا الاسم أيضاً ، وهي لبنجامان كونستان .

## الشوق الى معرفة المصـب

التناقض هو ما يلي : ان الانسان يرفض العالم كما هو ...، دون ان يرضى بالتخلي عنه . والواقع ان البشر يتسكنون بالعالم ، ولا يريدون مفارقتة في اكثريةهم الساحقة . انهم لا يرغبون في نسيانه ، ويؤلمهم عدم غلـكهم اباه غـلكاً كافياً . فيألمهم من هـواطين في هذا العالم غـرباء في موطنهم الخاص اكل واقع ناقص بنظرهم ، الا في لحظات الكمال العابرة . ان أفعالهم تقلت منهم الى افعال أخرى ، ثم تعود لتعكم عليهم تحت هـيئات غير متوقعة ، وتغضي مثل مياه «تنتال»<sup>(١)</sup> نحو مصب لا يزال مجهولاً . معرفة المصب ، ضبط مجرى النهر ، ادراك الحياة أخيراً كمصير ... هوذا شوقهم الحقيقي في قلب موطنهم . ولكن هذه الرقبة التي توقفهم أخيراً مع ذاتهم ، في المعرفة على الأقل ، لا يسمعون أن تظهر ... ان ظهرت .. الا في هذه اللحظة العابرة ، لحظة الموت : فكل شيء يتم فيها .

كي يوجد المرء مرة واحدة في العالم ، ... لا بد له من أن يفقد وجوده الى الأبد<sup>(٢)</sup> .

## النيرة من حياة الآخرين

هنا تنشأ هذه الغيرة المشؤومة 'يكنشها كثير' من الناس نحو حياة الآخرين . انهم اذ يشاهدون هذه النفوس من الظاهر ، يمزون اليها تلاحماً ووحدة لا يسع هذه النفوس امتلاكها ، ولكنها يبدوان للراصد كأشياء بديية . فهو لا يرى الا الخلوط الكبرى في هذه النفوس ، وتغيب عنه التفاصيل التي تضفي وتنشر عودها ... اذ ذاك نصوغ حول هذه النفوس فناً . وبصورة ابتدائية ، ننسجها كرواية .

كل فرد ، بهذا المعنى ؛ يسمى لأن يجعل من حياته مملاً فنياً . نحن نتمنى

(١) ملك ليدبا . حكم عليه حوتير بالعلماً الدائم .

(٢) اي انه لا يحقق مصيره الا بالموت . الموت ...

للحب الدوام ، ونعلم ان لا دوام له . وحتى لو كانت له ان يستمر مدى حياة كاملة ، بحكم معجزة ، لكان أيضاً ناقصاً .

#### العذاب والحاجة إلى البقاء

في هذه الحاجة النهمة الى البقاء ، ربما كنا نقهر العذاب الأرضي فهماً أفضل ، لو كنا نعلم انه خالد . فالنفوس العظيمة تبدو كأنها تخشى العذاب أحياناً أقل من خشيتها عدم البقاء . ولعل العذاب المديد على الأقل يشكل مصيراً في بعض الاحيان ، لعدم وجود سعادة دائمة . ولكن ، كلا .

فحتى أسوء ما يحل بنا من نكال ، هو يوماً الى زوال . وذات صباح ، بعد كل هذا اليأس ، ثمة رغبة عارمة في البقاء ستخبرنا بأن كل شيء مضي وانقضى ، وأن العذاب ليس أكثر معنى من السعادة .

#### حب التملك ، والرغبة في البقاء

إن حب التملك ليس إلا شكلاً آخر من أشكال الرغبة في البقاء ، وهو الذي يولد هذيان الحبة العاجز . ما من كائن هو في حوزتنا ، حتى أحب محبوب ، حتى ذلك الذي يقابلنا حباً بحب على أفضل وجه . فعلى الأرض الظلمة التي يموت فيها الأحباء أحياناً منفصلين ، ويولدون دائماً منقسمين ،... على هذه الأرض يكون التملك التام للكائن والوصال الروحي المطلق مدى الحياة مطلباً مستحيلاً . إن حب التملك نهمٌ لدرجة ان في وسعه ان يبقى بعد الحب . فالحب إذن معناه تعقيم المحبوب . إن الحب الذي أصبح بعد الآن منفرداً ، لا يشعر بالعذاب الحزني لانه لم يعد محبوباً ، بقدر ما يشعر به لأنه يعلم ان الآخر يستطيع وينبغي له ان يحب أيضاً . وفي النهاية ، كل انسان تتمثل في نفسه الرغبة الشديدة في البقاء والتملك ، يتبنى العقم او الموت للضواقات التي أحب . هوذا التبرد الحق. الذين لم يتطلبوا ، في يوم على الاقل ، الطهر المطلق في الكائنات

والعالم ، ولم يرتجفوا شوقاً وعجزاً أمام استعاليته ، ... أولئك لا يسمعون فهم حقيقة التمرد وفورته التخريبية . ولكن الكائنات تستعصي على بعضها بعضاً دائماً ، وتستعصي عليها أيضاً . انها بلا معالم ثابتة . الحياة ، من هذه الجهة ، هي بلا اسلوب . انها ليست إلا حركة تسعى وراء شكلها دون أن تجده ابداً . والانسان الممزق على هذه الصورة يبحث دون جدوى عن هذا الشكل الذي يكسبه الحدود التي يصبح ضمنها إلهاً .

ألا فليكن الشيء واحدٍ حيٍّ شكله في هذا العالم ، فاذ ذاك يقوم في العالم الصلح ويسوده الانسجام .

الخلق الروائي  
وتحقق المصير في الحياة

ما من كائن أخيراً ، اعتباراً من مستوى شعوري ابتدائي ، لا يبذل قصارى جهده للتفتيش عن الصبح أو المواقف التي تُكسب وجوده الوحدة التي إليها يفترس . « التظاهر » أو « العمل » ، الداندي أو الثوري <sup>(١)</sup> ، كلاهما يتطلبان الوحدة في سبيل الكينونة ، وفي سبيل الكينونة في هذا العالم . كما في هذه العلاقات المؤثرة البائسة التي تدوم أحياناً مدة طويلة لأن أحد الشركاء يأمل أن يجد الكلمة أو الحركة أو الوضع ، ... يأمل أن يجد الشيء الذي يجعل مغامرته قصةً منتبهة ومؤداة بالثبرة الصحيحة ، ... كل واحد يخلق لنفسه أو يستهدف الكلمة الأخيرة . ليس بكافٍ أن يعيش المرء ، بل هو يحتاج إلى مصير ، ودون انتظار الموت <sup>(٢)</sup> ، فصحيح إذن أن تقول أن الانسان يملك فكرة عن عالم أفضل من هذا العالم . ولكن « أفضل » لا تعني حينئذٍ « مختلفاً » ، بل

(١) الداندي من أهل التظاهر ، والثوري من أهل العمل .

(٢) رأينا تحقق المصير بواسطة الموت ، تحت عنوان : الشوق إلى مرة الحب من ٣٣٠

- الحرب -

(٣) البداية هي الحركة التي تدفع إلى عبادة الله ، والجريئة هي الحوسنة التي تدفع إلى إناء الانسان - الحرب -

«موحدًا». هذه الحمى التي ترتفع بالقلب الى ما فوق عالم موزع ، ولا يسعه مع ذلك ان ينفصل عنه ، - هذه الحمى هي الوحدة . انها لا تصب في هروية عادية ، وانما في أعند مطالبة . ديانة أم جريمة (٣) ، ... كل مسمى بشري يمثل أخيراً لهذه الرغبة الرعناء ويعتزم ان 'يكسب الحياة الشكل الذي اليه تفكر .

نفس الحركة التي تدفع الى عبادة الله ، او الى إثناء الانسان ، تقود الى الخلق الروائي الذي يتلقى منها حينئذ جديته .

عالم الرواية وعالمنا

ما الرواية في الحقيقة ، ان لم تكن هذا العالم يجد فيه الفعل 'شكله' ، وتلفظ فيه الكلمة النهائية ، وتتواصل الكائنات بالكائنات ، وتكتب سبائك المصير كل حياة (١) . ليس العالم الروائي سوى تصحيح لهذا العالم ، وفق رغبة الانسان الضيحية . فالقصود هو نفس العالم ، العذاب نفس العذاب ، وكذلك الكذب والحب . للأبطال لغتنا ، ونقاط ضعفنا وقوتنا . عالمهم ليس أجمل ولا أوجب للمعركة من عالمنا . ولكنهم على الأقل يمشون الى نهاية مصيرهم ، وليس من ابطال أنفذ الى القلب من أولئك الذين يمشون الى نهاية هوامم : كيريلوف ، ستافروغين ، مدام غراسلان ، جوليان سوريل ، او امير كليف .

هنا نفقد ما لهم من قدرة ، لأنهم 'ينبون ما لا يتم أبداً' .

مثالان من عالم الرواية

ان مدام لافاييت انتقلت أميرة كليف من اشد التجارب . ليس من شك في أنها ... مدام دي كليف ، ومع ذلك فهي ليست أبداً مدام دي كليف . ما وجه الاختلاف ؟ الاختلاف هو أن مدام لافاييت لم تدخل الدبر ، وأن ما من أحد حولها مات يأساً . بما لا ريب فيه انها عرفت على الأقل لحظات

(١) حتى أن لم تهر الرواية إلا من الشوق واليأس والنقصان فانها توجد الشكل والحلا من ان نسبة اليأس تهي تجاوزه . هؤلاء الادب اليأس بشكل تناقضاً في الانطواء .

هذا الحب الفريد المحزن . ولكن لم يكن لديها نهاية ، بل بقيت هي بعده ، ومددته متوقفة عن عيشه . أخيراً ، لم يستن لأحد ، حتى ولا لها بالذات ، ان يعرف رسمه ، لم لم تعطه الحدوا الواضح للغة لا عيب فيها .

ليس هناك ايضاً من قصة «شعر شعيرة» وجمالاً من قصة صوفيا نونسكا و«كازيمير في «البياد» ا «غوبينو» . ان صوفيا ، المرأة الحساسة الجميلة ، التي نجعلنا نفهم اعتراف ستاندال القائل : «وجدت النساء ذات العزيمة القوية بجانب السعادة الى قاي» ، . ان هذه المرأة تضمن «كازيمير الى ان يعترف له باحبه . لقد ألفت ان تكون محبوبة ، لذلك عيل صبرها امام هذا الذي كان يراها كل يوم ، ومع ذلك لم يتخل قط عن هدوئه المسخط . الحقيقة ان كازيمير اعترف لها بحبه ، ولكن باهجة يان حقيقي . لقد درسها وعرفها بقدر ما يعرف نفسه . وتيقن ان هذا الحب بلا مستقبل ، علماً بأنه لا يستطيع ان يعيش بدون هذا الحب . انذاك قد العزم على أن يدارحها بهذا الحب ويغفلها في وقت واحد ، وأن يبنيها نوره . لما بأنها غنية وهذه البادرة لا تعود عليه بالضعف بشرط ان تدفع له راتباً زهيداً يسمح له بأن يقيم في ضاحية مدنية تصطفى عرضاً واتفاقاً ( ستكون مدينة فلان ) ، وأن يتوقب الموت وهو في الفقر . على ان «كازيمير» يقر بأن فكرة تلقيه من صوفيا ما سيرم لتأمين عيشه ، تنازل أمام الضعف البشري ، التنازل الوحيد يجيزه نفسه ، مع إرسال ورقة بيضاء ، من حين لآخر ، في ظرف يكتب عليه اسم صوفيا .

بعدما يظهر من تصرفها انها غاضبة ، ثم مضطربة ، ثم مائه الى الحزن ، ستقبل صوفيا . . . وسيجري كل شيء كما توقع «كازيمير» ، وسيروت في مدينة «فلان» من هواه الحزين . «ما هو روائي» ، له إذن منطقته . ولا غنى للقصة الجميلة عن هذا الاستمرار المسادم الذي لا وجود له ابدأ في المواقف المعاشة ، ولكننا نجد في انسياب الاحلام انطلاقاً من الواقع . لم ان المؤلف غوبينو سافر الى مدينة «فلان» ، لسم الحياة فيها ولعاد منها ، أو اورد فيها رايحه . ولكن «كازيمير» لا يعرف رغبات التبدل وغدوات الشتاء . انه ينسى الموت ، ثم اية

الشوط ، مثل هينكليف<sup>(١)</sup> ، الذي يتنى ان يجاوز الموت ايضاً ليبلغ الجحيم .

صنع المصير ... على القياس

هوذا إذن عالمٌ تصوري ، ولكنه مبتدعٌ بتصحيح هذا العالم . عالمٌ يستطيع فيه العذاب - إذا شاء - ان يبقى حتى الموت ، لا تذهل فيه الأهواء أبداً ، وتسلم فيه الكائنات للفكرة الثابتة ، وتكون ماثلة أحدها بالنسبة الى الآخر . ان الانسان 'يكسب فيه ذاته أخيراً الشكل والحد' المهديء الذي ينشده في وضعه دون جدوى . الرواية تصنع مصيراً ... على القياس . بهذه الصورة ، 'تنافس الخلق وتغلب مؤقتاً على الموت' .

الرواية والتصحيح

إن التحليل المفصل لأشهر الروايات 'يظهر ، من زوايا مختلفة كل مرة ، ان جوهر الرواية في هذا التصحيح الدائم ، الموجّه دائماً في نفس المنحى ، يجريه الفنان على تجربته . هذا التصحيح ليس اخلاقياً أو صورياً بحتاً ، بل يهدف أولاً الى الوحدة ، وبذلك 'يعبر عن حاجة ماورائية . الرواية ، عند هذا المستوى ، هي أولاً تمرين عقلي في خدمة حساسية نزوعية أو متمردة .

نستطيع ان ندرس هذا السعي لنيل الوحدة، في الرواية التحليلية الفرنسية، وعند ميلفيل ، بلزاك<sup>(٢)</sup> ، دوستوفسكي ، أو تولستوي . ولكن مقارنة قصيرة تجريبها بين محاولتين تقعان في قطبي العالم الروائي المتقابلين ، الخلق البروسني<sup>(٣)</sup> ، والرواية الاميركية ، سنكتفي مقصدنا .

الوحدة في الرواية الاميركية

فأما الرواية الاميركية<sup>(٤)</sup> فتدعي انها تجدد وحدتها ، بإرجاعها الانسان إما

(١) بطل قصة «مركعات ويذرينغ» ، وقد أشير اليه في مقدمة هذا الكتاب .

(٢) اقرأه : الاب غوريو - منشورات عويدات -

(٣) لسبة الى بروسنت .

(٤) يقصد طبعاً روايات الطندين الرابع والخامس من القرون العشرين ، لا الازدهار الروائي الرائع في القرن التاسع عشر .

إلى العنصر الابتدائي، أو إلى ردود فعله الخارجية وإلى سلوكه. إنها لا تصطفي عاطفة أو هوى تطعي عنه صورة مميزة، كما في الروايات الفرنسية الكلاسيكية. إنها ترفض التحليل والبحث عن محرك نفسي أسامي يفسر ويلخص مسلك شخص ما. لذلك، ليست وحدة هذه الرواية إلا وحدة الآلة. وتقوم طريقتها على وصف الناس من الخارج، في أقل حركاتهم أهمية، وفي عرض الأحداث دون تعليق. في عرضها حتى في تكرارها<sup>(١)</sup>، والممل أخيراً كما لو كان الناس يتصرفون تماماً بحركاتهم الآلية اليومية. عند هذا المستوى الآلي، في الحقيقة، يتشابه البشر. هكذا نفهم هذا العالم الغريب الذي تبدو فيه الشخصيات وكأنها قابلة للتبديل بعضها ببعض؛ حتى في خواصها الجسدية. هذه الطريقة لا تسمى واقعية إلا بسبب سوء فهم. وبالإضافة إلى أن الواقعية في الفن هي، كما سنرى، مفهوم مستقل، من الواضح تماماً أن هذا العالم الروائي لا يهدف إلى نقل الواقع على علته، بل إلى «أسلته» أسلوباً اعتباطية. إنه ينشأ عن تشويه، وعن تشويه طوعي، يجري على الواقع. أن الوحدة الحاصلة بهذه الصورة وحدة متروية، تساوي بين الكائنات والعالم. ويبدو كأن الحياة الذاتية، بنظر هؤلاء الروائيين، هي التي تحرم الأفعال البشرية من الوحدة، وهي التي تنتزع الكائنات عن بعضها بعضاً.

#### مسألة الحياة الذاتية

هذه الرؤية مشروعة جزئياً. ولكن التمرد الموجود في أصل الفن لا يبلغ مراده إلا بصنع الوحدة اعتباراً من هذا الواقع الذاتي، لا في إنكاره. فأنكار هذا الواقع الذاتي معناه الرجوع إلى إنسان وهمي. إذا اقتضت حياة الأجسام على نفسها، فإنها تولد بحكم مفارقة عجيبة عالماً مجرداً وباطلاً، ينكره الواقع إنكاراً تاماً. هذه الرواية المعرأة من الحياة الذاتية، والتي يبدو فيها الناس

(١) حتى لدى فلوستتر، لا يعرض الحوار الذاتي إلا غشاء الفكرة.



وكانهم مرصودون من خلف زجاج... هذه الرواية تقدم الانسان المرضي في نهاية الامر ، وذلك اذ تتخذ كوضوع وحيد الانسان بافتراض انه انسان متوسط . وهكذا ندرك لماذا يُستخدم عدد كبير من «الابراء» في هذا العالم . فالبريء هو الموضوع المثالي لمحاولة كهذه ، لانه لا يتعرف في كليتة الا ببلوكة . إنه رمز لهذا العالم المقنط ، الذي نحيا فيه كائنات «آلية تعيسة في «تلاحم» اصطناعي ، والذي رفقه الروائيون الاميركيون في وجه العالم الحديث كاحتجاج مؤثر ولكنه عقيم .

#### عالم بروس

وأما بروس فسمى لان يخلق ، اعتباراً من الواقع المتأمل بعناد ، عالماً مغلقاً ، لا يُستبدل ، لا يخص إلا ذاته ، ويشير الى انتصاره على زوال الاشياء ، وعلى الموت . ولكن وسائله معاكسة . انها تكمن قبل كل شيء في اصطفاء مدبر ، في مجموعة دقيقة من اللحظات المميزة يصطفها الروائي في حنايا ماضيه . وهكذا تطرح من الحياة فترات واسعة ممتدة ، لانها لم تُختلف شيئاً في الذاكرة . فلئن كان عالم الرواية الاميركية عالم بشري فاقد الذاكرة ، فعالم بروس ليس الا ذاكرة ولكن لا يقصد الا الذاكرة الاكثر تشدداً وتطلباً ، الذاكرة التي ترفض تشتت العالم كما هو ، وتستخلص من عبق «عائذ مير» عالم جديد وقديم . إن بروس يصطفي الحياة الذاتية ، وفي هذه الحياة الذاتية يصطفي ما هو أكثر ذاتية منها ،... ضد ما ينسى في الواقع ، أي ضد ما هو آلي ، ضد العالم الاممي . ولكنه لا يستخلص من رفض الواقع إنكار الواقع . انه لا يرتكب خطأ للقائه ما هو آلي ، الخطأ المقابل لخطأ الرواية الاميركية ، بل يجمع في وحدة عليا ، الذكري الضائعة والاحساس الحالي ، العاسة الراهنة والسعادة فيما سلف من الايام .

الماضي موجود في حاضر لا يمتد

العودة إلى أماكن السعادة ومراتع الصبا صعبة . فالصبا يضحكن ويثرثرن

بصوت عال أمام البحر على الدوام<sup>(١)</sup> ، ولكن الذي يتألمين يفقد شيئاً فشيئاً الحق في أن يحبين ، مثلما تفقد اللواتي أحبين القدرة على أن يكن محبوبات . هذه السويداء هي سويداء بروس . وقد كانت من القوة عنده ، بحيث تفجر رفضاً لكل كينونة .

بيد أن حب الوجوه والنور كان يشده في الوقت نفسه الى هذا العالم . فلم يرض بأن تضع العطلات السعيدة الى الابد . بل أخذ على عاتقه ان يخلفها ثانية ، وأن يبين ، ضد الموت ، أن الماضي موجود في آخر الزمن في حاضره لا يفنى ، أصح وأغنى أيضاً مما كان في الاصل . فليس التحليل النفساني «لزمات الضائع» سوى وسيلة قوية . إن عظمة بروس الحقيقية تكمن في انه كتب «الزمن العائد» الذي 'يألم' عالماً مشتتاً ، ويكسبه معنى عند مستوى التمزق . أما انتصاره الصعب في عشية الموت فيجسمن في انه استطاع ان يستخلص من زوال الاشكال المستمر ، ويطلق الذات وذهنه والمقل ، الرموز المرتجفة للوحدة البشرية . إن آسند يتحدث بتفليح أثر 'كهذا ان يوجهه الى الخلق ، هو ان يظهر ككل ، كعالم مغلق موحد . وهذا يعرف الآثار الفنية بلا رداً<sup>(٢)</sup> .

انوار على عالم بروس

لقد أمكن القول إن عالم بروس عالم بلا إله . فإذا صح ذلك ، فليس لأن الحديث لا يدور فيه أبداً عن الإله ، بل لأن هذا العالم يطامح إلى أن يكون نهائياً مغلقاً ، وأن يكسب الخلاود سواء الإنسان . والزمان العائد ، في طلبه على الأقل ، هو الخلاود بلا إله . ومن هذه الحشية ، يتراءى إنتاج بروس على انه المحاولة الأكثر إفراطاً ودلالة ، يقوم بها الإنسان ضد وذمه الفاني . لقد أثبت بروس ان الفن الروائي يعيد 'صنع الخلق'<sup>(٣)</sup> بالذات ، كما هو

(١) صورة العطلات السعيدة - العرب

(٢) الثمور بالذات مر بنا تحت عنوان : الجي على الفن ص ٣٢٢

(٣) هنا : العالم .

مفروض علينا وكما هو مفروض . من أحد وجوهه على الأقل ، يكمن هذا الفن في إثبات المخلوق على الخالق . ولكنه ، بشكل أعمق أيضاً ، يتحالف مع جمال العالم أو الكائنات ضد قوى الموت والنسيان . بهذه الصورة يكون تمرده مبدعاً .

### ٣ - التمرد والأسلوب

تحليل على الصعيد الجمالي

يؤكد الفنان قوة رفضه بما يفرض على الواقع من معاملة . ولكن ما يستتبع من الواقع في عالمه المبتدع ، يكشف عن رضاه على الأقل بقسم من الواقع ينشله الفنان من ظلام الصيرورة ليحمله إلى ضياء الخلق . وفي النهاية ، إذا كان الرفض كلياً فإن الواقع يُزاح بنمائه ، ونحصل على آثار <sup>(١)</sup> شكلية محص . أما إذا اصطفى الفنان تمجيد الواقع الخام ، لأسباب غالباً ما تكون غريبة عن الفن ، فإننا نحصل على الواقعية .

فأما في الحالة الأولى ، فإن حركة الخلق الأصلية التي يرتبط فيها التمرد والرضا ، التأكيد والإنكار ، ارتباطاً وثيقاً ، ... 'تشوّه' لصالح الرفض . إذ ذلك نحصل على المروية الشكلية التي قدم عنها عصرنا أمثلة كثيرة ، والتي ينبغي لنا أصلها العدمي . وأما في الحالة الثانية ، فإن الفنان يدعي بأنه 'يكسب العالم وحدته ، منتزعاً منه كل نظرة مميزة . وبهذا المعنى ، يعترف بمحاكمته إلى الوحدة ، حتى لو كانت متروية . ولكنه يتخطى أيضاً عن المطلب الأولي للخلق الفني . انه يؤكد كلية العالم الذاتية كي 'ينكر ما يتتبع به الشعور المبدع من حرية نسبية . إن الفعل المبدع ينكر ذاته في هذين النوعين من الآثار . في الأصل ، كان لا يرفض إلا وجهاً من الواقع ، ويؤكد في الوقت نفسه وجهاً آخر . فلئن انتهى

<sup>(١)</sup> آثار = أعمال = تأليف .

إلى طرح الواقع كله أو إلى تأكيده وحده فقط ، فانه 'ينكر ذاته كل مرة في الإنكار المطلق أو في التأكيد المطلق .

إن هذا التحليل على الصعيد الجمالي ، يلتقي ، كما سنرى ، بالتحليل الذي رسمناه على الصعيد التاريخي .

#### أوار على الشبهة والرابعة

ولكن كما أنه لا وجود لمدمية لا تنتهي إلى افتراض قيمة ، ولا لمادية لا تنتهي إلى مناقضة ذاتها ، إذ 'تفكر في نفسها' (١) ، كذلك فان الفن الشكلي والفن الواقعي مفهومان غير معقولين . ما من فن يستطيع ان يرفض الواقع رفضاً مطلقاً . ليس من شك في أن «الفرغوني» (٢) «مخلوق» وهمي محض ، ولكن وجهه والأفاعي المتوجة لرأسه أشياء موجودة في الطبيعة . في وسع الشكلية ان تفرغ من المضمون الواقعي تفرغاً متزايداً ، ولكن ثمة حد ينتظرها دائماً . حتى الهندسة الجالصة التي ينتهي إليها أحياناً الرسم التجريدي ، تأخذ لونها وعلاقتها المنظورية من العالم الخارجي . الشكلية الحقة صمت . كذلك ليس في وسع الواقعية ان تستغني عن حد أدنى من التأويل والإعباط . إن أفضل صورة فوتوغرافية تخون الواقع . فهي تنشأ عن اصطفاء ، وتحديد ما ليس بذئ حد . إن الفنان الواقعي والفنان الشكلي يبعثان عن الوحدة حيث لا توجد : في الواقع بالحالة الخام ، أو في الخلق التصوري الذي يجبل إليه أنه يزيح كل واقع . الوحدة في الفن ، بالمعكس ، تظهر في نهاية التبديل الذي يفرضه الفنان على الواقع . وهي لا تستطيع أن تستغني عن كلا الأمرين . هذا التصحيح الذي يجريه الفنان بواسطة لفته وبواسطة توزيع جديد للعناصر المستمدة من الواقع ، . هذا التصحيح يُسمى بالأسلوب ، ويُكسب هذا العالم الجديد وحدته وحدوده .

(١) إشارة إلى تحليل الفكر في النظرية المادية .

(٢) «الفرغوني» : كما جاء في الأسطورة ، عبارة عن وجه غامط بألواني .

إنه يهدف عند كل متنرد - ويتوصل عند بعض العباقرة - إلى إعطاء العالم ناموسه . وقد قال الشاعر شيلي : «الشعراء مشرعو العالم غير المعترف بهم» .

### الفن الروائي والواقعي

إن الفن الروائي ، بأصله ، سيظهر هذه الأهلية لا محالة . فلا يسهو أن يوافق على الواقع موافقة تامة ، ولا أن يبتعد عنه ابتعاداً تاماً . التصويري البحث لا وجود له . حتى لو وجد في رواية مثالية مجردة تمام التجريد ، لما كان له مدلول فني ، لأن المطلب الأول للفكر الباحث عن الوحدة ، هو أن تكون هذه الوحدة قابلة للانتقال والمشاركة . هذا وإن وحدة الحكاية الذهنية الصرفية ، هي وحدة " مزيفة " لأنها لا تستند إلى الواقع . إن الرواية الوردية (أو الرواية السوداء) والرواية الموجبة للمبرة ، تتباعد عن الفن بمقدار ما تعصى على هذا القدانون . إن الخلق الروائي الحقيقي ، بالمعكس ، يستخدم الواقع ، ولا يستخدم سواه ، بدفته وفورته ، بأهوائه أو نداءاته ، ولكنه يضيف إليه ما 'يبدله' .

### الرواية الواقعية والاصطفاء

كذلك ، ما يسمى اعتيادياً بالرواية الواقعية يود أن يكون استنساخاً للواقع بما فيه من حادث . إن استنساخ عناصر الطبيعة دونما اصطفاء ، معناه - إن أمكن تصور هذه الحالة - تكرار الخلق تكراراً عقيماً . ما على الواقعية أن تكون إلا وسيلة التعبير عن العبقرية الدينية - وهذا ما يظهره الفن الأسباني ببراعة - أو أن تكون فن القروء التي تكفي بما هو موجود وتقلده . والحقيقة أن الفن ليس أبداً واقعياً ، ولكنه يميل أحياناً إلى أن يكون كذلك . كي يكون وصف " ما واقعياً حقاً ، فإنه يلزم نفسه بأن يكون بلا نهاية . مثلاً حيث يصف ستاندال<sup>(١)</sup> بحيلة واحدة دخول لوسيان لوبين الصالون ، يحتاج

(١) أفرا له : الأحمر والأسود - منشورات عويدات

الفنان الواقعي ، منطقياً ، إلى استعمال عدة مجلدات ليصف الشخص والديكور دون أن يتمكن مع ذلك من استكمال التفاصيل . الواقعية هي التعداد المطلق . بذلك تكشف ان منطقها الحقيقي الفوز بآية العالم الواقعي لا بالوحدة . وإذا ذاك نقم أن تكون الجمالية الرسمية لثورة الكلاكية <sup>(١)</sup> . ولكن هذه الجمالية سبق لها أن أثبتت استحالتها . إن الروايات الواقعية تصطفي على الرغم منها في مجالات الواقع ، لأن الاصطفاء ونجواز الواقع هما شرط التفكير والتعبير . الكتابة معناها الاصطفاء . هناك إذن اعتبار واقع مثلما هناك اعتبار تصور ، وهو الذي يجعل من الرواية الواقعية رواية هادئة ، خنثيا . إن 'قدر وحدة' الم الروائي على مجموع الواقع ، لا يحدث إلا بواسطة حكم سابق للتجربة يزيغ من الواقع مما لا يلائم العقيدة . فالواقعية المهادة بالواقعية الاشتراكية مقيمة مصيرها إذن ، بموجب منطق عدميتها ، ان تجمع بحسن الرواية الموجبة للمبرة وأدب الدعاية .

#### الردى في الفن الحديث

فراء استعبدت الحادثة الخلق ، أم ادعى الخلق انكار الحادثة كلها ، فان الخلق يتردى إذن إلى أشكال الفن العدمي المنحلة . الحال مع الخلق كالحال مع الحضارة . فهو يفترض توتراً دائماً بين الشكل والمادة <sup>(٢)</sup> ، بين الصيرورة والفكر ، بين التاريخ والقيم . فإذا 'فقد التوازن فنية' كتابورية أو فوضى ، دعابة أو هذيان شكلي . وفي كلتا الحالتين فان الخلق الذي يتطابق مع حرية قياسية ، يكون مستحيلاً . سواء انشاق الفن الحديث مع دوار التجريد والفوضى الشكلي ، أم استبعد بسوط الواقعية الفجة البسيطة ، فهو في مجموعه تقريباً فن طفاة وعيب لا فن مبدعين .

(١) الكلاكية . الشبول . أي : الثورة الروسية  
(٢) الموضوع .

لا عبقرية في الإنكار المحض

الأثر الذي يتغلب فيه المحتوى على الشكل ، أو يطغى فيه الشكل على المحتوى ، لا يتحدث إلا عن وحدة نحوية 'نحوية'. في هذا الميدان ، كما في الميادين الأخرى ، كل وحدة ليست وحدة أسلوب فهي تشويه . مهما يكن المنظور يصطفيه الفنان ، فثمة مبدأ يظل مشتركاً بين كل المبدعين : «الأسلوبة» التي تفتقر في الوقت نفسه الواقع والفكر الذي 'يكسب الواقع شكله' . بواسطتها 'يعيد الجهد' المبدع 'صنع العالم' ، ودائماً بانحراف طفيف هو علامة الفن والاحتجاج . وسواء أكننا لآراء تضخم بروسست المجري للتجربة الانسانية ، أم لآراء الدقة غير المعقولة 'تضيفها الرواية الاميركية على شخوصها' ، فان الواقع يكون بوجه ما مصطنعاً . الخلق وعطاء التمرد هما في هذا الانحراف الذي 'يمثل أسلوب ولهجة أثر ما' . الفن 'نشدان مستحيل' . وحيناً تهتدي احد 'صرخة إلى أرسنغ عبارة' ، 'يرضي التمرد تطالبه' الحقيقي ، ويستخلص من هذه الأمانة لذاته قوة خلق . ان أعظم أسلوب في الفن هو التعبير عن أمسى تمرد ، وإن صدم هذا أحكام العصر الاعتبارية . وكما أن الكلاسيكية الحقة ليست إلا رومانسية مروضة ، كذلك فان العبقرية تمرد أوجد حدة المعايير الخاص .

لهذا السبب لا عبقرية في الإنكار واليأس المحض ، وذلك خلافاً للتعاليم الحالية .

#### الاسلوب العظيم

معنى ذلك في الوقت نفسه ان الأسلوب العظيم ليس مجرد فنية شكلية . انه كذلك ، حيناً 'يلتص لذاته على حساب الواقع' ، وإذ ذاك لا يكون الأسلوب العظيم . إنه لا يعود خلاقاً بل مقلداً ، مثل كل نظرة التزامية تقليدية ، في حين ان الخلق هو .. على طريقته - ثوري . فلن وجب السير بعيداً جداً بالأسلوبة ، لأنها 'تخلص تدخل الانسان وإرادة التصحيح التي 'يدخلها الفنان على استنساخ الواقع' ، فيجدر بالأسلوبة مع ذلك أن تبقى غير منظورة ، كما 'يعبر

عن المطالبة المولدة للفن ، في أقصى توترها ١ . الأسلوب العظيم هو الأسابة غير المنظورة ، أي : المجسدة . قال فلوير<sup>(١)</sup> : « في الفن ، يجب ان لا نخشى المبالغة ، ولكنه يُضيف قائلاً ان على المبالغة ان تكون « متواصلة ومناسبة مع ذاتها » . حينئذ تكون الأسلبة ملفطة ومنظورة ، « يصبح الاثر نزوعاً عضواً ، لان الوعدة التي نحاول الاستلبة الفوز بها تكون غريبة عن الواقع ، ونالعكس حيناً يقدم الواقع بالحالة الخام ، وتكون الاسلبة تافهة ، يقدم الواقع دونها وحده .  
الفن العظيم ، الأسلوب ، الوجه الحقيقي للتمرد ... هذه الاشياء علمها بين هاتين البذعتين<sup>(٢)</sup> » . ١

## ٤ الخلق والثورة

### تومصيح

في الفن ، يستكمل التمرد ويدوم في الخلق الحقيقي ، لا في القصد أو التعليق . والثورة ، من جهة ، لا تؤكد ذاتها إلا في حضارة ، لا في الإرهاب أو الطغيان . ان السؤالين التاليين اللذين يلزمهما عصرنا بعد الآن على مجتمع واقع في ورطة : هل الخلق ممكن ، هل الثورة ممكنة ، ... نقول : ان هذين السؤالين لا يؤلفان إلا سؤالاً واحداً يختص بنهضة حضارة ما .

### تومصيح الاثناعشر

ان ثورة قرن العشرين يخضعان لنفس المدمية ، وبعبارة في نفس الشاقص . انها ينكران ما يؤكدان مع ذلك في حرارتها بالذات ، ويحلمان عن محرر مستحيل لخلل الإرهاب . "نجيل للثورة المعاصرة انما تدين عالماً حديداً ، مع انها ليست سوى نتيجة العالم القديم المتناقضة . أخيراً ، لا يشكل المجتمع الرأسمالي والمجتمع الثوري سوى عالم واحد ، وذلك عقداً ما يخضعان

(١) انظر له : مدام بوفاري - مشوارات عويدات .

(٢) النصيحة يتلف بأحلاف المواصيح .



لنفس الوسيلة : الإنتاج الصناعي ، ولنفس الوعد . ولكن أحدهما بعد باسم مبادئ صورية يعجز عن تجسيدها ، وتكررها الوسائل التي يستعمل . والآخر يبرر نبوءته باسم الواقع فقط ، ونشوء الواقع في نهاية الامر .  
مجتمع الإنتاج مجتمع منتج فقط ، لا مبدع .

نخط ابن المعاصر

والفن المعاصر ، بما هو عديدي ، يتخطى أيضاً بين الشكلية والواقعية ، فأما الواقعية فهي بوجوه ذاتية (وإذا ذاك تكون سرداوية) ، مثلها هي اشتراكية (وإذا ذاك تصبح موجهة للعيرة) . وأما الشكلية فتتخصص بمجتمع الماضي حينما تكون تجريداً بلا مسبب ، مثلما تختص المجتمع الذي يدعي انه من المستقبل ، وإذا ذاك تعرف الدعابة .

إذا ما تخطت اللغة الإنكسار اللاعقلافي ، تلاشت في الهذيان اللغوي . وإذا ما تخلصت للفكر التقديري ، تخلصت في الشعارات .  
بين هاتين الحالتين يقع الفن .

واح المتمرّد والمناو

فلئن وجب على المتمرّد ان يرفض فورة العدم وقبول الكلية في وقت واحد ، فعلى الفنان ان يتخلص في الوقت نفسه من الفورة الشكلية ومن جمالية الواقع المطلقة . العالم الحالي عالم واحد ، ولكن وعدته وحده العدمية . ليست الحصار عمكة إلا إذا امتدّى هذا العالم إلى درب تركيبة مبدعة . بنفس الصورة ، في الفن ، يختصر زمان السليبي الدائم والتحقيق (الصعبي) ، ويتيسر إذن زمان المبدعين .

الحلق والخطارة

ولكن الفن والمجتمع ، الحلق والثورة ، عليهما في سبيل ذلك أن يجدا ينبوع التمرّد ، تحت يتوازى الرض والقول ، الجزئي والكلّي ، الفرد والتاريخ ، في أشد توتر . ليس الثمرة في حد ذاته عاملاً حضارة ، ولكنه

متقدم على كل حضارة . وحده ، في غمرة ورطنتها ، بسمع بترجتي المستقبل الذي حلم به نيتشه ، «المبدع ... بدلاً من القاصي والفاجع» . وهي عبارة لا تجيز التخيل المضحك ، تخيل مجتمع يواجه فنانون . إنها فقط تثير مأساة عصرنا الذي لم يعد فيه العمل مبدعاً ، بعد ما خضع تماماً للانتاج . ان يفتح المجتمع الصناعي دروب حضارة ، إلا بإعادة كرامة المبدع إلى العامل ، أي بصرف اهتمامه وفكره إلى العمل بالذات بقدر صرفه لنتاجه . الحضارة اللازمة بعد الآن ان يجوز لها أن تفصل العامل والمبدع ، في الطبقات كما في الأفراد ، مثلاً لا يفكر الخلق الفني ان يفصل الشكل والمحتوى ، الفكر والتاريخ . بهذه الصورة ستفر للجميع بالكرامة التي أكدها التمرد . إنه تحالف للصواب ، وخيالي على كل ، ان يدبر شكسيير مجتمع الحداثين . ولكن من المصيبة أيضاً ان يدعي مجتمع الحداثين الاستغناء عن شكسيير . فشكسيير بلا حذاء ، يتخذ ذريعة للظفيان . والحذاء بلا شكسيير ، يبتلعه الطفيان ، هذا إذا لم يسهم في توسيعه . كل خلق يُنكر ، في حد ذاته ، عالم السيد والعبد . إن مجتمع الطفافة والسيد الفطيع الذي ما زلنا نعيش فيه ، لن يزول ولن يحول إلا عند مستوى الخلق .

#### الخلق في السر الخال

فلأن يكون الخلق لازماً فهذا لا يستتبع إمكانه . إن عصر مبدعاً في الفن يتميز بنظام أسلوب يطبق على فوضى عصر . إنه يصوغ ويصور أهواء الماصرين . فلا يكفي اذن ، بالنسبة إلى مبدع ما ، أن يُكرر قول مدام لا فاييت في عصر لم يبق فيه لامراتنا المستوحشين متنع من الوقت للحب . والبرم إذ تقدمت الأهواء الجماعية على الأهواء الفردية ، من الممكن دائماً أن نتحكم بقوة الحب ، بواسطة الفن . ولكن المشكلة التي لا مفر منها هي أيضاً التحكم بالأهواء الجماعية والنضال التاريخي . إن موضوع الفن ، رغم حصرات المقلدين ، امتد من السيكولوجيا إلى وضع الانسان . حينما يُشارك هوى العصر العالم كله ، يريد الخلق ان يتحكم بالمعير كله . ولكنه في الوقت نفسه يستبقي

تأكيد الوحدة أمام الكلية . وحينئذ يتعرض الخلق للهدار ، بسببه بالذات أولاً وبسبب روح الكلية بعدئذ .

الخلق اليوم ، معناه الخلق مع ركوب مركب الخطر .

الفنان والاهواء الجماعية

للتحكم بالاهواء الجماعية ، على المرء في الحقيقة ان يجهاها ويشعر بها على الأقل نسبياً . والفنان إذ يشعر بها ، يصبح طعنة لما . ينجم عن ذلك ان عصرنا هو بالاحرى عصر التحديق (الصهفي) بدلاً من أن يكون عصر الاثر الفني . انه بحاجة الى احتمال صحيح الوقت . أخيراً ، إن ممارسة هذه الاهواء تستتبع احتمالات موت أكثر مما في عصر الحب أو الطموح ، لان الوسيلة الوحيدة لكي يعيش المرء الموى الجماعي بصورة صحيحة هي قبول الموت من أجله وبه .

المبدعون في عصر الدمار

إن أكبر احتمال من الصحة ، هو اليوم أكبر احتمال فشل بالنسبة الى الفن . فاذا كان الخلق مستحيلاً في غمرة الحروب والثورات ، فلن نحصل على مبدعين ، لأن الحرب قسمتنا والثورة نصبتنا . إن أسطورة الانتاج غير المحدود تحمل في طياتها الحرب ، مثلما تحمل السحابة ' المدمجة ' العاصفة . وإذا ذلك تدمر الحروب بلاد الغرب وتقتل شارل بيني<sup>(١)</sup> . وما ان تخرج الآلة البورجوازية من الحراب حتى ترى الآلة الثورية مقبلة للملاقاة<sup>(٢)</sup> . بل إن بيني لم يعد يتاح له الوقت لأن يبعث ثانية ، لأن الحرب المهددة ستقتل كل أولئك الذين يُحتمل ان يكونوا مثل بيني .

ولكن اذا تبين ان الكلاسيكية المبدعة ممكنة ، فيجب أن نقر بأنها

(١) قتل شارل بيني في بداية معركة المارن عام ١٩١٤ .  
راجع: تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين (من ص ٧٩ الى ص ٨٣) - منشورات هويدات .

(٢) يقصد ظهور الثورة الاشتراكية في نهاية الحرب العالمية الاولى تقريباً .

- تكون أثره ، حتى ارتفعت في اسم واحد وهو ، إن احتمالات الفشل في حذر الدمار ، لا يمكن أن 'معدل' إلا بالاحتمالات العدد ، أي ما يحتمل أن يبقى فرد واحد على الأقل من عشرة فنانين حقيقيين ، يتجه إلى بأورال أخوته ، وينسكن من أن يند في حياته ما معاً من الوقت لاهي ، الخافي معاً ، والفنان ، ش ، أم أبي ، لم بعد في وجهه أن يكون مفرداً ، اللهم إلا في المفرد السرداوي الذي يدمن به الجميع أقرانه .

ان الفن المتعدد أيضاً يتكثف ، في نهاية الامر عن شعار بعض موجوده ان '... ويتكشف معه عن درب شخوص نفور .

#### العاثون والعاث

وفي غضون ذلك ، 'تهدد الثورة' الغازية ، في دلال عدميتها ، أولئك الذين يزعمون حماها بأنهم يستبقون الوحدة في الحياة . ان احد معاني الانسج الحالي ، وفارسيخ القند بشغل أكثر ، هو الدراما بين الفئتين والقرعة المذمومة ، بين شهود الثورة المبدعة وذات الثورة العدمية . حول نتيجة هذا الدراما ، لم يعود لنا ان نمي النفس إلا بأوهام محذولة . على الأقل نعرف بعد الآن ان لا بد من خوضه . ان الغزاة الجذبيين قادرون على القتل ، ولا شيء ، ولا غير قادرون على الخلق . أما الفنانون فيعمرون الابداع ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلوا حقاً . بين الفنانين ، لا يجد قتلته إلا بصورة استثنائية . ومع سر الزمن ، سيخاطر الفن في المجتمعات الثورة الماثلة إذن . وان الثورة ستكون إذ ذاك قد عاثت . وكلما قلت الثورة' الفنان الضامن في الانسان ، انكسرت نفسها بعض الشيء . أخيراً ، لو تمكنت القراءة من إخضاع العالم لقانونهم ، لما أثبتوا ان الجحيم هو الأمر النهائي ، بل لأثبتوا ان هذا العالم المسمم . وفي هذا الجحيم بالذات ، لا تشقى الفن ابغضاً مع التمرد المفقور ، ... أمل أنى ومارع ، في خواء الايام الموجبة للباس .

( ١ ) إشارة الى فكرة المشاركة .

تفرد في قلب الجحيم

في كتابه « مذكريات سييرا » تحدث ارنست دوينغر عن هذا الصايط الالمانى الذي بقي عدة سنوات مسجوناً في معسكر يسوده القهر والجوع . وبين نفسه بيانو صامتاً ، بلائس خشبية . وهناك في زجاجة البؤس ، رسط جميع رث الثياب ، كان يؤلف موسيقى غريبة بفرد يساعدها . وهكذا في قلب الجحيم بالذات ، ثمة ألحان غامضة وصور قاسية من صور الجحيم الدفين ، تنقل اليك دائماً ، وسط الجريمة والجنون ، صدى هذا التمرد المسجى الذي يشهد على مدى الزمان بعظمة الانسان .

الثورات والجمال

ولكن الجحيم موقت ، ودات يوم تستأنف الحياة ثانية . لعل للتاريخ نهاية . مع ذلك ، ليست مهمتنا ان ننهيه ، بل ان نحلقه على غرار ما نعلم بمد الآن انه حق . الفن ، على الاقل ، يعلمنا ان الانسان لا يتلخص في التاريخ فقط ، بل يجد ايضاً علة وجود في نظام الطبيعة . ان الإله « ها » لم يمت بالنسبة اليه . وان تمرد الغريزي يؤكد القصة والكرامة المشتركة بين الجميع ، ويطالب في الوقت نفسه مطالبة عنيدة بقط كامل من الواقع اسمه الجمال ، ليروي ظله الى الوحدة . في وسعنا ان نرفض التاريخ كله ، وان نتألف مع ذلك وعالم الكواكب والبحر . ان المتمردين الذين يريدون تجاهل الطبيعة والجمال ، يلزمون أنفسهم بأن يزججوا كرامة العمل والكنية من التاريخ الذي يتفنون صنعه . كل كبار المصلحين يحاولون ان يبنوا في التاريخ ، ما عرف ان يخلقه شكبير وسرفانتيس ومولير وتولستوي : عالم متأهب دائماً لإرواء الظلم الى الحرية والكرامة الموجود في قلب كل انسان . ليس من شك في ان الجمال لا يصنع الثورات . ولكن ثمة يوم تحتاج فيه الثورات الى الجمال . ان قاعدته التي تتكرر الواقع وتكسبه في الوقت نفسه وحدته ، هي ايضاً قاعدة

(١) إله الطغمان ، يضل الطبيعة الكلية المشحمة .

التمرد . فهل نستطيع ان نرفض الجور دون ان نحكف عن الترحيب بطبيعة الانسان وجمال العالم ؟ جوابنا نعم . مهما يكن من أمر ، فان هذه الاخلاق المتمردة والأمانة في الوقت نفسه ، هي الاخلاق الوحيدة التي تثير درب نورة واقعية حقاً . فلذا نستقي الجمال ، نهد ليوم النهضة الذي ستجعل فيه الحضارة في مركز تفكيرها ، بعيداً عن المبادئ الصورية وقيم التاريخ المتردية ، هذه الفضيلة الحية التي تبني كرامة العالم والانسان المشتركة ، والتي يتوجب علينا الآن ان نعرفها لئلا عالم يلحق بها الاهانة .

## الفصل الخامس

### فكرة الضحى

## التمرد والقتل

١ - تمهيد

المسيح... الربوبية

على كل حال ، بعيداً عن يدوع الحياة هذا ، تبلى أوروبا ، تقف الثورة في اضطراب ملحوظ . ففي القرن الماضي ، أسقطت الأساس الثوابت الدينية . ولكن ما أن تمزق ، حتى ابتدع لنفسه ذوابط أخرى ، لا تطاق . لقد ماتت الفضيلة ... ولكنها 'بعثت حية' وهي أشد عنفاً أيضاً . لم انتهت لكل غادر ماحسانٍ صاحب ، وبمجة المستقبل البعيد... التي تجعل المدهم - الانساني المعاصر بحطة السخرية . عند نقطة الاستقرار هذه ، لا يسعها ان تولد إلى الفساد . ودات يوم تأخذها سورة الغضب ، فادابها تصبح بوليصة ، ... ومن أجل سلاص الانسان ، 'تنصب' المحارق الزميمة .. وهكذا ، في هذا المأثرة المعاصرة ، تتألف والجريمة .

كأن يبايع الحياة والحق قد ذهب . فالجرف 'يجمد' أوروبا المائنة بالأشباح والمكتظة بالآلات . وبين محزرتين<sup>(١)</sup> ، ارت الشانق 'تتسبب' في أمم سابق السرايب . وثمة خلادون .. إيسايون .. بقيحون فيها شعائر دينهم الجديد تحت صمغ الصمت .

(١) يقصد الجزء من المائتين الأولى والثانية ( الممر ) .



## أية صرخة ستفهم ؟

الشعراء أنفسهم ، إزاء مقتل أخيرهم ، يصيحون في تشامخ بأن ايديهم نطيقة . جميع الناس من ثم ينصرفون بلا اكترات عن هذه الجريمة .

لقد فقدت الضحايا حظوتها إلى أقصى حد ، لأنها صارت تولد الإضراب . في الازمنة الحالية ، كانت دماء القتلى تحدث على الأقل رعشة مقدسة ، وكانت بالتالي تدور عن الحياة . أما هذا العصر فيوحى بأنه ليس دامياً ... وهذا ما يدينه حق الإدانة . فالدماء لم تعد مريئة ، ولا تلتطخ وجه فريستينا المرائين تالطخها فاحشاً . هذه هي العدمية القسوى : فالقتل المنهور الأهرج أصبح واحدة غتة ، والمجرم الأحمق يبدو وكأنه "مروّح للقلب" ... إزاء شفاختنا الاذكياء .

### التنرد بين التضحية والقتل

بعد ما اعتقد الفكر الاوروي طويلاً انه يستطيع مع البشر جميعاً أن يحارب الاله ، ادرك ادن ان لا بد له من مكافئة البشر ايضاً إذا كان لا يريد الموت . إن المتوردين الذين ثاروا على الموت ، وأرادوا أن يبنوا على النوع (البشري) خلوداً نقورا ، دعروا من اضطرابهم إلى القتل بدورهم . ولكن إن تراجعوا هم ان يرحلوا بالموت ، وإن تقدموا فعليهم أن يرضوا بالقتل .

وفي حاد التنرد عن أصله ، وتكررت معالنه بيقظة ، فانه عند كل المستويات يتأرجح بين الذخية والقتل .

كان يأمل بأن يعطي عدالته كل ذي حق حقه ، فإذا بها تصبح خاطفة الاجراءات . لقد غلب ملحدوت العون الزباني ، ولكن ملكوت العدالة نداعى أيضاً .

وكان تمردّه يدافع عن البراءة البشرية ، وها هو ذا يصير على إتهام الخاص . ولم يتقدم إلى التكاليف ، حتى قال أوحش عزلة . وكان يريد المشاركة ، ولم

يَعُدُّ له من أمل سوى أن يجمع واحداً فواحداً ، على مدى السنين ، المنزولين  
السائرين نحو الوحدة .

نساؤل

هل علينا إذن أن نتخلى عن كل قرود ... إما لأننا نقبل مع مطالبه بجمع  
لا يزال قيد البقاء ، أو لأننا نعتزم بقعة ان نخدم مسيرة التاريخ الموجه ،  
ضد ابن حواء ؟

مهما يكن من أمر ، فلو كان على محاكتنا الفكرية ان تخلص الى إذعائية  
وضيعة ، لوجب أن نقبل بها مثلما تقبل بعض الأسر أحياناً بغضائهم لا مقر منها .  
ولو كان عليها أيضاً ان تبرر كل أنواع التعديبات على البشر ، وحتى إبادة  
منظمة ، لوجب ان نوافق على هذا الانتحار . ولوجد الجسد بالعادة أخيراً  
منفعته في ذلك ، ونعني زوال عالم قيوامه التجار والشرطة .

القتل ... والمشاركة

ولكن أما زلنا في عالم متبرد ؟ ترى ألم يصبح التمرد ذريعة نقرر من  
الطغاة الجدد ؟ إن شعار « نحن موجودون » ، القائم في حركة التمرد ، هل  
يسعه ... دوناً حيلة ... ان يتأذى مع القتل ؟

عندما عين التمرد للاضطهاد حداً فيما بعده تبدأ الكرامة المشتركة بين البشر  
جميعاً ، .. نقول : عندما عين التمرد هذا الحد عرّف قيمة أولى . وودع في  
مقدمة مستنداته مشاركة شفاقة بين البشر ، حلقة مشتركة ، رابطاً كترابط  
حلقات السلسلة ، صلة روحية من كائن الى آخر تجعل البشر متساوين متعالمين .  
وهكذا خطا الخطوة أولى بالفكر المتناحر مع عالم عبثي . وبهذا التقدم زاد  
أيضاً من حدة المشكلة التي عليه الآن أن يحلها تجاه القتل .

القتل ، على مستوى التمرد

والحقيقة ، على مستوى العبث ، لم يكن القتل ليولد سوى تناقضات

منطقية<sup>(١)</sup> . أما على مستوى التمرد ، فهو تمزق ، لان المسألة هي ان نقرر هل يمكن ان تقتل هذا الذي اعترفنا أخيراً بشأهته وكرسنا بمائلته لنا . ما أن نتخطى العزلة ، فهل علينا إذن أن نلتقي بها القاءً نهائياً بتبوير الفعل الذي يُلقى في العزلة التامة ؟ لأن 'نكره' على العزلة هذا الذي عرف منذ هنيهة انه ليس وحده ، ألا يعني ارتكاب الجريمة النهائية ضد الانسان ؟

### القتل والعزلة

منطقياً ، علينا ان نجيب قائلين إن القتل والتمرد على طرفي نقيض . والحقيقة ، فليقتل سيد واحد فقط ، وبصورة ما ، لا يعود التمرد غزواً بالمناداة بالمشاركة الانسانية التي كان مع ذلك يستمد تبريره منها . إذا كان هذا العالم بلا مدلول علوي ، وإذا لم يكن للانسان سوى الانسان ضامناً وكفيلاً ، فيكفي أن يزيح الانسان كائناً واحداً من مجتمع الاحياء حتى 'يبعد نفسه من هذا المجتمع . حينئذ يقتل قابيل أخاه هابيل ، يهرب إلى الصحاري . وإذا كان القتل جمعاً غفيراً ، فان الجمع الغفير يعيشون في القفر ، وفي هذه العزلة الاخرى المسماة بالاختلاط .

### شطر العالم

ما أن يقتل المتمرد ، حتى يشطر العالم الى قسمين . فقد كاث بنور باسم بمائسة الانسان للإنسان ، وها هو ذا 'يضحي بالمائة إذ 'يكرس المباشرة ، في الدماء . في غمرة البؤس والاضطهاد ، كانت كينونته الوحيدة في هذه المائة . نفس الحركة التي كانت تسعى الى تأكيده ، 'تفقد ذن الكينونة . في وسعه ان يقول ان البعض ، او حتى الجميع تقريباً ، هم معه . ولكن ، فليُفقد كائن واحد من عالم الإخاء ، فإذا به كالصحراء . إذا كنا غير موجودين ، فأنا أيضاً غير موجود . وهكذا يتوضع أسى كاليبيف وصمت سان جوست .

(١) راجع مقدمة الكتاب .

إن المتبردين المصبيين على قبول العنف والقتل ، استبدلوا شعار « نحن موجودون » بشعار « سوف نوجد » ، ليحتفلوا بأمل الكينونة ، ... ولكن دونما جدوى . بعد زوال الاستثناء ، تصبح القاعدة هيمنة ثانية . القتل ، على مستوى التاريخ كما في الحياة الفردية ، هو إذن استثناء يائس ، أو أنه ليس شيئاً . وما يدخل من تحطيم على نظام الأشياء ، هو بلا غد . أنه غير اعتيادي ، فلا يمكن استجماله إذن . وليس بالنهايي منلما يتبعي الموقف التاريخي البحث . أنه الحد الذي لا يسعنا بلوغه إلا مرة واحدة ... وبعدئذ لا بد من الموت . ليس للمتمرد إلا طريقة واحدة للصلاح . مع فعله الآثم ، إذا ابتاع معه ، وهي أن يقبل موته الخاص وبالتضحية . أنه يقبل ويموت كي يصبح مفهوماً أن القتل مستحيل . واذك بينين أنه بغض في الواقع شعار « نحن موجودون » على شعار « سوف نوجد » . وتوضح أيضاً طعناً في كالييف في سجنه وسكينة سان جوسب في سيرة نجر المقتلة .

ما وراء هذا الحد الأخير يبدأ التناقض وتسرع العدمية .

## ٢٠. القتل العدمي

### لحياة الحد

الجرمة اللاعقلانية والجرمة العقلانية ، في الحقيقة ، مخوفان على حد سواء ، القسمة التي أظهرتها حركة التمرد : وأولاً الجرمة اللاعقلانية . فالذي ينسكب كل شيء ويبيع نفسه للقتل : المركيز ساد ، الداندي القاتل ، «الأوحد» القاسي ، كلرامازوف ، «السريلي» الذي يطلق النار على الجماهير ، ... كل هؤلاء في حائل الكلام يطالبون بالجرمة النامة ، ويبسط العطرسه البشرية دونما حدود .

إن المدمية غامط في نفس الغيط الخلق والمخاوف . أنها إذ تنغمي كل مراد

أجل ، تبذ كل حد؟ وفي مخطئ الأهمى الذي لا يتخوذ غير حتى - طلبة ١٩٨٨  
تحكم في النهاية بأن قتل من مضيئة الموت أنز لا أهمية له .

التمرد والاضلاقي

واكن سببته ونعني : الاعتبار المتبادل بمصير مشترك والتواصل الروحي  
بين البشر . ما زال قائمين . لقد نادى التمرد بها وقد كفل يخدمتها . وبالتالي  
حدد ضد العدمية قائمة سلوك لا تحتاج الى ترقب نهاية التاريخ كي تنجز العمل ،  
وليت مع ذلك القاعدة المبررة . بخلاف الأخلاق المعقوية ، أصبح الحال لما  
هو شاذ عن القاعدة والقانون ، وشيء دروب أخلاقي لا تخضع لمبادئ تجريدية ،  
بل تكشفها في حرارة العصف . ان ، في حركة الإنسان الدائمة ، لا شيء يسمح  
بالقول ان هذه المبادئ قد وجدت منذ الازل ، ولا فائدة من ان نعلن بأننا  
سنوجد ، فهي موجودة في نفس زمان وجودنا . إنما تبكر ، نعمنا ، وعلى يدى  
التاريخ ، العبودية والكذب والإرهاب

العبودية ، الكذب ، الارهاب .

والحقبة لا وجود لأية تمرد مشتركة بين السيد والعبد ، فلا يتعنا التجديد  
والتواصل مع ذاته . السيد والعبودية تتلصق مطع ، حيث لا بد أن يكون هناك  
انوار الضميمة التي بواسطته نترف بمثلتنا ونفكرش طيرتنا . فلتن كان  
الظلم مؤذنا للتمرد ، و ذلك لأنه يناقض فكرة خلافة عن العدالة ، لا تعرف  
أين مؤذنا ؟ ، بل لأنه يقي النزاع العائت الذي فقتل المضطربة عن المظلمة .  
ان ، قتل بها المقدار البسيط من العبيثونة الذي ينشأ عن المشاركة الاستمعة :  
كذلك ، بما ان الذي يكذب يتعلق عن سائر البشر ، لذلك ' بلغى الكذب ،  
وي درجة أخدوس ، القتل والعنف ، الذان يرضان الصمت النهائي . فلا يمكن  
ان تعاش المذاكرة والعدة الروحية اللتين أظهرهما التمرد ، إلا في أطوار : بكل  
الناس ، قتل . . . تفاهم ، بولد الموت . أما اللغة الواضحة ، الكلمة البسيطة ،

١٩ سيد كر هداث المبادئ في المدمع التالي .

فوحدها تستطيع أن 'تتخذ من هذا الموت' (١). إن قمة المآسي كلها تكمن في صمم الأبطال . لقد أساب أفلاطون كيد الحقيقة ضد موسى ونبشته . فالحوار على مستوى البشر أخف عاقبة من التجميل الديانات المطلقة 'يردّد' ويعلل من أعالي جبل متنزل . على المسرح كما في الواقع تسبق المناجاة الذاتية الموت . كل متنرد ، بمجرد الحركة التي تحمله يشور على المضطهد ، بدافع اذن عن الحياة ، ويتكفل بمكافحة العبودية والكذب والارهاب ، ويؤكد في ومضة خاطفة ان هذه الآفات الثلاث تقتل الصمت بين البشر ، وتسدل حجاباً كثيفاً فيما بينهم ، وتغتهم من الالتقاء على صعيد القيمة الوحيدة القادرة على انقاذهم من يران العبودية : المشاركة النورية بين البشر المتنازعين مع معيهم .

#### التمرد والحرية المطلقة

في ومضة خاطفة ... ولكن هذا يكفي موقفاً كي نقول ان الحرية القصوى ، حرية القتل ، لا تتلشى مع اسباب التمرد . ليس التمرد ابداً مطالبة بالحرية التامة . فهو ، بالعكس ، يقاضي الحرية التامة ، ويُنكر السلطة المطلقة التي تتيح للقوانين انتهاك الحدود المحرمة . المتمرد لا يطالب باستقلال عام ، بل يود ان يُلهم بأن للحرية حدودها حيثما وجد كائن انساني ، لأن الحد هو بالضبط قدوة هذا الكائن على التمرد . هنا يكمن السبب العميق لقسوة المتمرد . فكلما تبين للتمرد انه يطالب بمجد اذل ، ازداد صلابته . ليس من شك في أن المتمرد يطالب بحرية معينة لشخصه ، ولكنه لا يطالب في أية حال من الاحوال بحق تحطيم كينونة الآخرين و-روبتهم ، اذا كان منطقياً . ان لا يُذل أعداء . والحرية التي يلتصق ، يطالب بها من اجل 'الجديح' . والحرية التي يرفض ، يمنحها عن الجميع . فهو ليس فقط يداً ضد سيد ، بل هو ايضاً انساناً ضد عالم السيد والعبد . بفضل التمرد ، هناك اذن في 'تاريخ' ما هو اكثر من علاقة القيادة بالعبودية . ليست القوة المطلقة 'الشرعية' الرائدة فيه . فبإمام قيمة اخرى ،

(١) يلاحظ ان اللغة الخاصة بالسائد المنهدة هي ذاك امة مدرسية أو ادارية .

يؤكد المتبرّد استعالة الحرية التامة ويطالب لنفسه ، في الوقت ذاته ، بالحرية النسبية اللازمة للاعتراف بهذه الاستعالة . كل حرية انسانية هي إذن نسبية ، في اعماق جذورها . الحرية المطلقة ، حرية القتل ، هي الوحيدة التي مع مطالبتها بنفسها ، لا تطالب بما يجدها ويعطيها . فتقطع بالتالي عن جذورها ، ونهجم على غير هدى ، طيفاً تجريدياً مؤذياً ، ريثما نجعل اليها أنها تجد في العقيدة بدنناً تنقص فيه .

#### منطق التمرد

يمكن القول إذن ان التمرد يصبح غير منطقي حينما يصب في التدمير . إنه يطالب بوحدة الوضع البشري ، لذلك فهو قوة حياة لا بمات . ليس منطق الصبي منطوق التدمير ، بل منطق الخلق . وكما تظل حركته صحيحة ، ما عليها ان تهمل اي حد من حدود التناقض الذي يدعمها . يجب ان تكون أمانة للقول الذي تتطوي عليه ، وفي الوقت نفسه لهذا الرفض الذي تعزله التفسيرات العدمية في التمرد . ان منطق المتبرّد هو الرغبة في خدمة العدالة كي لا يزيد في 'ظلم الوضع ، والسعي الى الكلام الواضح كي لا 'يكتشف الكذب العام ، وتأكيّد السعادة لإزاء عذاب البشر . بما أن الهوى العدمي يزيد في الظلم والكذب ، لذلك يحطم في سورة غضبه تطلبه القديم ، وينتزع من نفسه بالتالي أوضح أسباب تمرد . انه يقتل ، وقد جنّ جنونه لإحساسه بأن هذا العالم مصيره الموت . أما نتيجة التمرد فالامتناع عن تبرير القتل ، لأن التمرد هو أصلاً احتجاجاً على الموت .

#### التمرد بين الخير والشر

ولكن لو كان الانسان قادراً على ان 'يحيل' بمفرده الوحدة في العالم ، ولو أمكنه ان يقيم فيه بمجرد أمره الصدق والبراءة والعدالة ، إذن لكأن الإله بالذات ، واحار التمرد بعد الآن بلا أسباب . لأن كان هناك تمرد ، فلأن الكذب والظلم والعنف تشكل ، جزئياً ، وضع المتبرّد . فلا يسهل إذن ان

يطمح الى عدم القتل او الكذب طموحاً مطلقاً ، دون ان يتخلى عن تمرد ، وان يقبل بالقتل والشر قبولاً قطعياً . ولكنه لا يستطیع أيضاً أن يقبل بالقتل والكذب ، لأن الحركة المماكسة التي 'تسوّغ' القتل والعنف تحطم أيضاً أسباب عصيانه . فلا يسع التمرد إذئذ ان يجد السكينة . انه يعرف الخير ، ويفعل الشر رغمًا عن نفسه . ان القيمة التي تنهض به لا تُعطى له ابدأ بصورة قطعية ، بل عليه ان يصونها في استمرار . امر السكينة التي يحصل اليها فتنهار إذا لم يدعمها التمرد ثانية . مها يكن من أمر ، فاذا لم يكن في وسعه دائم . عدم القتل ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ففي وسعه أن يدل قصارى جهده وحميته كي يخفض احتمالات القتل من حوله . إن فضله الوحيد ، وهو الغارق في الظلمات ، ان لا يستسلم لدوارها الخالك ، . . . والمشدود الى الشر ، أن يدب نحو الخير باصرار وعناد . أخيراً ، اذا قُتل هو بالذات ، فيرضى بالممات . فالتمرد الامين لأصله 'يدل' في التضحية على أن الحرية الحقة ليست إزاء القتل ، بل إزاء موته الخاص . انه يكتشف في الوقت نفسه العرة الماورائية . واذا ذلك يقف كاليافيف تحت المشتقة ويدين بجلاؤه لجميع اخوته الحد الصحيح حيث تبدأ عزة البشر وتنتهي .

### ٣ - القتل التاويحي

#### التمرد والتاريخ

ينتشر التمرد أيضاً في التاريخ الذي يتطلب اصطفاةات أنودجيبة . ليس ذلك فحسب ، بل يتطلب أيضاً - أ مواقف فعالة ، الامر اني قد يبرر القتل العقلاني . واذا ذلك ينعكس التناقض التمرد في معارضاة لا حل لها في الظاهر ، وانودجها في السياسة : تضاد العنف واللاعنف من جهة ، وتضاد المدانة والحرية من جهة أخرى .

فلنحاول أن نحدد هيا في تناقضهما .



### تضاد العنف واللاعنف

إن الغلبة الإيجابية التي تطوي عليها حركة التمرد الأولى تقتضي التغلبي عن العنف كبداً . وتؤدي بالتالي الى استجالة توطيد ثورة ما .

هذا التناقض يواكب التمرد في استمراره ، وسيشتد ايضاً على صعيد التاريخ . فإذا تخليت عن فرض احترام المائدة الانسانية ، فاني أتنازل أمام المخطيء ، وأنجلي عن التمرد ، وارتد الى موافقة عدمية . اذ ذاك تصبح العدمية محاطة . وإذا طالبت بأن يُسلّم بهذه المائدة في سبيل المحيونة ، فاني اتورط في عمل يقتضي كي ينهج قحة العنف ، ويُنكر هذه المائدة والتمرد بالذات .

وبتوسيع التناقض... ، اذا كانت وحدة العالم لا يمكن ان تأتي من عل ، فعلى الانسان ان ينيها على مستواه ، في التاريخ . والتاريخ ، من غير قيمة 'بدله' ، يخضع لقانون الفعالية .

المادية التاريخية ، التقيدية ، العنف ، انكار كل حرية لا تدبر في محي الفعالية ، ، عالم الشجاعة والصمت ،... هي أصح النتائج لفلسفة تاريخية محضة . في عالم اليوم ، وحدها فلسفة الأبدية تستطيع ان تبرر اللاعنف .

فعلى التاريخية L'historicité المطاعة ... ، ستعترض بخلق التاريخ . ومن الوضع التاريخي ... ستطالب أصله . أخيراً ، إذ 'تكرّس الظلم ، ستوكل أمر العدالة الى الله . اذ لك فردودها ، بدورها ، ستطلب الايمان . وسيعترض عليها بوجود الشر ، وبالمفارقة التالية : مفارقة إله قدير... شرير ، أو محسن... عاجز . وسيدق باب الاعطاف مفتوحاً بين العون الرباني والتاريخ ، بين الله والسيف .

التمرد امام احد امرين

ما عساه يتكون حينئذ موقف المتمرد ؟ انه لا يستطيع أن ينصرف عن العالم والتاريخ .. من غير ان 'ينكر مبدأ تمرده بالذات ، ولا ان يختار الحياة الأبدية... من غير ان يردى بالشر ، بوجه ما . فإذا لم يكن مسيحياً ، مثلاً ،

وجب عليه المذبي حتى نهاية الشرط . ولكن المذبي حتى نهاية الشرط يعني اصطفاؤه التاريخ على الإطلاق ، ومعه إعطاء قتل الإنسان ، إذا كان هذا القتل لازماً للتاريخ ؛ ان قبول تبرير القتل هو أيضاً إنكار الأصل . وإذا لم يصطب المتمرّد ، فإنه يصطفي الصمت وعبودية الآخرين . وإذا صرح ، في حرّية بأس ، أنه يصطفي في وقت واحد ضد الله والتاريخ ، فيكون شاهد الحرية إلى الأبد ، أي : شاهد لا شيء .

في رحلتنا الحالية ، إزاء استعالة تأكيد سبب علوي لا يوجد شيء في الشر ، يرى المتمرّد نفسه في الظاهر أمم . أم أحد أمرين : الصمت أو الفس ، وفي كلتا الحالتين : أمام استعفاء .

اصداد العدالة والحرية

كذلك أيضاً فيما يتعلق بالعدالة والحرية .

إن هذين التطلعين هما في مبدأ حركة التمرّد ، ومجدّهما في الوثبة الثورية . بيد أن تاريخ الثورات يبين أنها يتنازعان دائماً تقريباً ، كما لو كانت تطلّبتها المتبادلة غير قابلة للتوفيق . الحرية المطلقة هي حق الأقوى في أن يتهم . إنها تستبقي إذن النزاعات التي تقيد الظلم . والعدالة المطلقة هي إلغاء كل تناقض : فهي تحطم الحرية<sup>(١)</sup> . والثورة من أجل العدالة ، بواسطة الحرية ، تقسم أحدهما ضد الأخرى في النهاية . هناك إذن في كل ثورة ، ما أن تصفّى الطبقة التي كانت متحكّمة حتى الآن ، مرحلة تولّد فيها هي بالذات حركة فرد تعين حدودها وتنتهي عن احتمالات فشائها . إن الثورة تستهدف أول ما تستهدف إرضاء روح التمرّد الذي ولّدها ، وتلتزم بعدئذ بانكاره حتى تؤكد ذاتها بشكل أفضل . فكان هناك تضاداً ثابتاً بين حركة التمرّد ومكتسبات الثورة .

(١) في : «عوارات حول حسن استعمال الحرية» ، من جان هرينيه «مهاناً يمان للخدمة كما يلي : الحرية المطلقة هي تهديم كل قيمة ، والقيمة المطلقة للتي كل حرية . كذلك قال بالانت : «إننا نملك هناك حيلة واحدة وشاملة ، ألا مبرر لوجود الحرية .

## دور القيمة الوسيطة

ولكن هذه المتناقضات لا توجد لها إلا في المطلق. فهي تقتضي عالماً وفكرة بلا وساطات. لا يوجد في الحقيقة توفيق يمكن بين إلا بفصل تمام الانفصال عن التاريخ، وتاريخ خالي من كل استشراف. إن مبادئها على الأرض هي فعلياً اليوجي والمفوض<sup>١</sup>. ولكن الاختلاف بين هذين العارزين من البشر ليس، كما يقدّر، أن ماؤن للاف من المطابقة غير الجدبة والفعالية. فالأول يصطفي 'عقم' الامتناع، والثاني 'سهم' التذبذب. وبما أن كليهما يبدآن القيمة الوسيطة التي يكشفها التمرد، بالمعنى، لذلك، لا يقدها اننا، وهما البعدان عن الواقع على حد سواء، إلا نوعين من العجز: عجز الخير وعجز الشر.

## توضيح حول التاريخ

والحقيقة، التي كان لا تكار التاريخ يعني إنكار الواقع، فإن اعتبار التاريخ ككلى يكفي نفسه بـ... هو أيضاً ما ابتعد عن الواقع. فنجعل إلى ثورة القرن العشرين انه: تنجب العدمية. ونخلص لتمرّد الحقيقي، إذ تستبدل الله بالتاريخ. والحقيقة انها تميز العدمية، وتحتوي لتمرّد الحقيقي. فالتاريخ، في هر كنه الخاصة، لا يقدم في حد ذاته أية قيمة. يجب إذن أن نحيا بموجب الفعالية القوية، وأولاً ندمت أو نكذب. العنف المنهجي، أو الصمت المفروض، الحسبان أو البهتان المذمور... يصبحان قواعد لا هفر منها. إن الفكرة التاريخية الخفية هي إذن فكرة عدمية: فهي تقبل قبولاً كلياً بشر التاريخ، وفي ذلك تعارض التمرد. وعيشاً تؤكّد بالمقابل عقلانية التاريخ المطلقة، فهذا العقل التاريخي إن 'يتم'، وإن يكون ذا معنى كامل، ولن يصبح عقلاً مطلقاً بحق، وقيمة، إلا في نهاية التاريخ. وفي غضون ذلك، يجب أن نتصرف، وأولاً نتصرف من غير قاعدة أخلاقية، كي تولد القاعدة النهائية الكلية، لموقف سياسي، ليست منطقية إلا تبعاً لفكرة مطلقة، أي: العدمية

(١) هذا هو أيضاً عنوان رواية لأرثور أوستر.

المطلقة من جهة ، والمعلقة المطلقة من جهة أخرى <sup>(١)</sup> .  
أما فيما يتعلق بالتأنيج فليس من فرق بين الموقنين . فما أن يقبل بها .. حتى  
تصبح الأرض مقفرة .

مؤلف باسبرس

والحقيقة ان المطلق التاريخي البحت لا يمكن حتى تصوره . إن خلاصه ونكرة  
باسبرس <sup>(٢)</sup> ، مثلاً ، قوله بعجز الانسان عن إدراك الكلية ، لأنه هو نفسه موجود  
ضمن هذه الكلية . التاريخ ، كذلك ، لا يسمه ان يوجد إلا بنظر واحد موجود  
خارج نطاق التاريخ والعالم . وفي النهاية ، لا وجود للتاريخ إلا بالنسبة إلى الله .  
من المستحيل إذن أن نتصرف وفق محططات تنتمي على مجموع التاريخ الشامل .  
كل مشروع تاريخي ليس من شأنه أن يكون ، والحالة هذه ، إلا مغامرة  
متفاوتة في الرشد والصحة . انه قبل كل شيء مخاطرة . ولأنه مخاطرة ، فلا يسمه  
ان يبور أي شطوط . أي موقف مقم ومعلق .

التم . د امام التاريخ

لو أمكن التمرد ان يعني فلسفة ، ان كانت فلسفة حدود ، فلسفة الجبل المدبّر  
المحسوب والمخاطرة . من يعجز عن معرفة كل شيء ، يعجز عن قتل كل شيء .  
والتمرد لا يجعل من التاريخ شيئاً مطاقاً ، بل يرفضه وينكره بإسهم فتكر  
يتمثلها عن طبيعته الخاصة . انه يرفض وضعه ، علماً بأن وضعه إلى حد كبير  
هو تاريخي . فدس الظلم وسرعة الزوال والموت أشياء تتجلى في التاريخ . فحينما  
نرفضها ، نرفض التاريخ بالذات . صحيح ان التمرد لا ينكر التاريخ المحيط  
به ، بل فيه يحاول أن يؤكد ذاته . ولكنه أمام التاريخ كالفتان امام الواقع ،  
يرفضه عن غير ان يهرب منه . إنه لا يجعل منه شيئاً مطلقاً في أية لحظة من  
اللحظات . فاذا أمكنه ان يسهم ، بحكم ضرورة الاشياء ، في جريمة التاريخ ،

(١) رى ايضاً ان العنصرية المطلقة ليست العنصرية . فالاختلاف بينها ، للاختلاف بين الدينية  
والواقعية . إن الأول تدفع الثانية خارج الحدود التي اكسبها من وعرجية . انها أشد قسوة ، وفي  
النهاية أقل مبالاة . انه العنف إزاء القوة .

(٢) انظر الى : التنبؤ الذرية ومصير الانسان المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات .

فلا يسمعه إذن أن يبررها . لا يجوز قبول الجريمة العقلانية في مستوى التمرد . ليس ذلك فحسب ، بل هي أيضاً تعني موت التمرد . وزيادة في توضيح هذه البديهة ، نقول إن أول ضحايا الجريمة العقلانية هم التمردون الذين يُنكر عيانياتهم تاريخياً أصبح بعد الآن مؤلماً .

#### عالم النسيب وعالم التمرد

إن التسمية الخاصة بالفكر الذي يدعي الثورة تستألف اليوم وتنمي التسمية البرجوازية . إنها تمرد الظلم الدائم والتسوية غير المحدودة والقباحة ... تحت ستار الوعد بعدالة مطلقة . أما التمرد فلا يسمى إلا إلى النسيب ، ولا يسمعه أن بعد إلا بكرامة ، مؤكدة مقرونة بعدالة نسيب . إنه يتحزب لحده تستقر عنده وحدة البشر . عالمه عالم النسيب . وبدلاً من أن يقول مع هغل وماركس إن كل شيء محتم ، يردد قائلاً فقط إن كل شيء ممكن ، وإن الممكن أيضاً أهل للتضحية عند حد معين . بين الله والنازيخ ، البوحي والمفوض ، يشق درجاً صعباً يمكن فيه للتناقضات أن تعاش وأن تُجاوز .

فلنخصص إذن التناقضين المقدمين كمثال .

#### الموافقة على ما هو نسي

يتحتم على العمل الثوري الذي يدعي الانسجام مع أصله ، أن يتلخص في موافقة إيجابية على النسيب . إنه سيكون أميناً للوضع البشري . ولأن تشدد بصدده وسائله ، فإنه سيقبل بالتقريب فيما يتعلق بغياته ؛ وكما يعرف التقريب في تحسين متواصل ، سيطلق هذا العمل العنسان للكلام . وهكذا يصون الكينونة المشتركة التي تبرز عصيانه ، ويستبقى للحق خاصة إمكانية التعبير الدائمة . إن هذا يُعرف مسلكاً تجاه العدالة والحرية .

لا وجود لعدالة في المجتمع من غير حق طبيعي أو مدني يسندها . ولا وجود لحق من غير تعبير عن هذا الحق . فإذا هب الحق إلى الكلام فتنة أحمال في إن العدالة التي يسندها متؤكد عاجلاً أم آجلاً . كي نفوز بالكينونة ، علينا

ان نطلق من المبدأ البسيط من الكينونة نكتشفه في ذاتنا ، لا ان نشكره أولاً .  
لأن إخراجنا من الحق ربما تتولد العدالة معناه أسكات الحق إلى الأبد ، لأنه لن  
يجد سبباً للكلام اذا سادت العدالة الى الأبد .  
وبالتالي نفوض ثانية "أمر العدالة الى أولئك الذين وحدهم 'يفصح لهم باللام' :  
الاقوياء .

#### العدالة والحرية

منذ قرون والعدالة والكينونة اللتان بينهما الاقوياء تسيان ان بالإرادة  
المطلقة .

إن قتل الحرية لإقامة العدالة معناه إعادة الاعتبار للعون... ولكن من غير  
الوساطة الربانية ، ومعناه... يحكم ردة فعل مسببة للدوار إرجاع الميتة  
الصوفية... ولكن في أحط الاشكال .

حتى حينما لا تكون العدالة محققة ، تصون الحرية القدرة على الاحتيم بالج ،  
وتتخذ التواصل الروحي .

العدالة في عالم صامت ، العدالة المستعبدة الخرساء ، تحطم المشروعية ولا  
يعود في وسعها أخيراً ان تكون العدالة .

ان ثورة القرن العشرين فصلت فصلاً تعسفياً ، ولغيات توسعية مفرطة ،  
بين مفهومين لا يجوز فصلهما . والحرية المطلقة تنزأ بالعدالة . والعدالة المطلقة  
'تشكر الحرية' . حتى يعطي هذان المفهومان أحسنهما ، ينبغي لهما ان يجدا  
حدسهما الواحد في الآخر .

ما من انسان يعتبر وضعه سراً اذا لم يكن هذا الوضع عادلاً في الوقت  
نفسه ، ولا عادلاً اذا لم يكن حراً . الحرية بعينها لا يمكن تصورها من غير  
القدرة على توضيح العادل وغير العادل ، من غير القدرة على المطالبة بالكينونة  
التامة باسم جزء من الكينونة يأبى الموت . فعدالة أخيراً . ولأن تكون  
مختلفة تماماً في إحياء الحرية ، القيمة الوحيدة في التاريخ لا يتطرق اليها الفناء .

لم يمت البشر قط مئةً سالحة إلا من أجل الحرية ... فاذا ذاك لا يعتقدون  
ان الموت يطالهم تماماً .

النف والحدود

بفس المائلة تصدق على العنف .

فالملاعن المطلق بدعم سلباً العبودية واعمالها القاسرة . والعنف المنهجي  
يهدم ايجاباً الجملة الحية وما تتلقى عنها من كينونة .

حتى يعطي هذان المفردان أكلهما ، ينبغي لها ان يجدا حدودهما .

في التاريخ كالمطلق ، يصبح العنف مبرراً ... وكخطايرة نسبية ، يصبح  
العنف قطعاً للتواصل الروحي ، لذلك ، بالنسبة الى المتورد ، يجب أن يحتفظ  
العنف بطابعه النمطي الوقت ، وان يرتبط دائماً اذا لم يتيسر تفادية -  
مسؤولية شخصية وبخطايرة فورية .

والعنف المهاجي يتدرج في نظام . انه مريح ، بوجه ما . ومبدأ  
الزعامة ... أم « العقل التاريخي » ... ، مها يكن التنام الذي بدعم  
العنف . فان هذا الاخير يسود على عالم أشياء ، لا عالم أشخاص .

فكما ان المتورد يعتبر القتل بمثابة الحد الذي يتعم على المتورد ان يكرسه  
بموته اذا انهج نحوه ، كذلك لا يجوز أن يكون العنف إلا حداً أقصى يجابه  
عنفاً آخر : مثلاً في حالة العصيان .

المتورد الصحيح

إذا استحال تفادي العصيان بسبب الافراط في الظلم ، فالتمتد يرفض  
سالمًا العنف في خدمة عقيدة او بدافع المصلحة العليا . كل ازمة تاريخية ، مثلاً ،  
تم في سن ونظم . فاذا لم تتمكن من الازمة بالذات ، وهي الخطايرة المحضة ،  
فاننا تتمكن من النظم لأننا نستطيع ان نعرفها ، وان نختار تلك التي تناضل  
من أجلها ، وأن نوجه كفاحنا في مناهها . ان العمل المتورد الصحيح لا يقبل  
بالسليح إلا من اجل نظم تحد العنف ، لا من اجل نظم تُشرعه . فلا تستحق

الثورة ' ان غوت في سبيلها إلا اذا أمتت إلغاء عقوبة الموت دون تأخر ، ولا تستحق ان نعاني السجن من أجلها إلا اذا رفضت سلفاً تطبيق عقوبات غير ذات أجل قابل للتوقيع . إذا انتشر العنف الثوري في اتجاه هذه النظم ، معلناً عنها أغلب ما يمكن ، فهذه هي الطريقة الوحيدة بالنسبة اليه كي يكون موقفاً حتمياً .

حينما تكون الغاية مطلقة ، أي ، من الوجهة المنطقية ، حينما نعتقد انها مؤكدة ، يجوز لنا ان نصل إلى حد التضحية بالآخرين . وحينما لا نه يكون كذلك ، لا يجوز لنا أن نضحي إلا بذاتنا ، في مدار صراع من أجل الكرامة المشتركة .

الغاية تبرر الوسيلة ؟ هذا ممكن . ولكن ما الذي سيبرر الغاية ؟ على هذا السؤال الذي يتوكله الفكر التاريخي مطلقاً ، يجيب التمرد : الوسيلة ستبرر الغاية .

#### الثورة بين الوسيلة والغاية

ما معنى مثل هذا الموقف في السياسة ؟ وأولاً هل هو فعال ؟ علينا ان نجيب من غير تردد انه الموقف الوحيد للعمال اليوم . هناك نوعان من الفعالية : فعالية الإعصار وفعالية النسخ . ليست الاستبدادية (نزع المطلق) التاريخية ذات فعالية ، وانما هي ذات فعالية ، فقد استولت على السلطة واحتفظت بها . وما أن تتدرب بالسلطة ، حتى تهدم الحقيقة الوحيدة المبدعة . أما العمل المتشدد المحدود ، النابع من التمرد ، فيصون هذه الحقيقة ويحاول فقط أن يوسعها توسيعاً متزايداً .

نحن لا نقول إن هذا العمل لا يسهل ان ينتصر ، بل نقول إنه معرض لعدم الانتصار والموت . ولكن إما أن هذه الثورة ستغامر هذه المغامرة ، أو أنها ستعترف بأنها ليست إلا مشروع سادة جدد ، يستعقون نفس الإزدراء . إن ثورة 'فجر' عن العزة تحون لعمري أصلها المستمد من العزة . مهما يكن من أمر



فان تخييرها يقتصر على الفعالية المادية .... والعدم ، أو المخاطرة ... والخلق .  
لقد كان الثوريون القدماء يركبون مركب العجالة ، وكان تفاؤلهم تاماً .  
ولكن الفكر الثوري اليوم تعاضم وعياً وبصيرة ، فواءه مائة وخمسون عاماً  
من التجارب يستطيع أن ينظر فيها . أخف الى ذلك ان الثورة فقدت فتنتها  
الإحتفالية . إنها ، بمفردها ، حسابٌ عجيب يشل العالم . انها تعلم - حتى لو  
لم تدر بذلك دائماً - انها ستكون عالمية ، ... او انها لن تكون . ولكن  
حظوظها توازن مخاطرات حربٍ عالمية لن تقدم لها - حتى في حالة الانتصار -  
سوى «امبراطورية» الدمار . في وسعها حينئذ ان تظل أمينة لعدمتها ، وان  
'تجسد' في ركام الجثث العقلَ النهائي للتاريخ . واذ ذلك يجب التخلي عن كل  
شيء ، ... الا عن الموسيقى الصامتة<sup>(١)</sup> التي ستبدل أيضاً الجحيم الارضي . ولكن  
الفكر الثوري في أوروبا في وسعه أيضاً ، لأول وآخر مرة ، أن ينظر في مبادئه ،  
وأن يتساءل ما هو الانحراف الذي يضل خطاه ويرمي به في الحرب والارهاب ،  
وأن يجد امانة 'مقرده' وما له من أسباب .

(١) إشارة إلى الغابض الالمانى الذي تحدث عنه ارنست دوينجر . راجع القسم المعلق بالتمرد  
والدن . (المرب)

## ملازمة الحد ومجاوزته

### ١ - تمهيد

تعليل الضلال الثوري

إن الضلال الثوري 'يعمل' أولاً بجهل الحد أو بإنكاره إنكاراً منهجياً .  
ونعني هذا الحد الذي يبدو وكأنه غير منفصل عن الطبيعة البشرية والذي يكشفه  
التمرد بما أن الفلسفات العدمية تهمل هذا الحد ، لذلك توقعي في نهاية الامر في  
حركة ذات تسارع متظم . فلا يعود يوقفها في نتائجها 'أثيرة' ، وإذ ذاك تهرور  
التدمير الكلي أو الغزو المطلق .

نعلم الآن في ختام هذا التحقيق الطويل حول التردد والعدمية ، ان الثورة  
بلا حدود سوى الفعالية التاريخية ، معناها العبودية بلا حدود . للخلاص من هذا  
المصير ، يتحتم على الفكر الثوري اذن ، اذا أراد ان يظل حياً ، ان يتنشط في  
منابع التردد ، وأن يستلهم اذن الفكرة الوحيدة الأمانة لهذا الأصل ، ونعني  
فكرة الحدود .

وجود حد ممياري

فاذا كان الحد الذي يكشفه التردد 'يبدل كل شيء' ، واذا كان كل 'مفهوم' ،

كل عمل ، يتخطى نقطة معينة انما ينكر ذاته ، فهناك في الحقيقة حد معياري للأشياء والانسان . في التاريخ كما في السيكولوجيا ، التمرد نواس "مختل" يجري بسبعاته القصوى لأنه يلتبس وثيرته العميقة . ولكن هذا الاختلال ليس تاماً . انه يجري حول مدار . ففي الوقت الذي يوحي فيه التمرد بوجود طبيعة مشتركة بين البشر ، 'يظهر الاعتدال' والحد القائمين في مبدأ هذه الطبيعة .

كل تفكير اليوم ، عديمًا كان أم إيجابيًا ، وعلى غير علم منه أحياناً ، ... 'بولد' هذا الحد المعياري للأشياء ، هذا الحد الذي يؤكد العلم نفسه . فالكائنات والنسبية حتى الوقت الحالي ، وعلاقات عدم اليقين <sup>(١)</sup> 'تعرّف' عالماً ما ليس له من حقيقة قابلة للتعريف إلا على صعيد الأبعاد الوسطى ، على صعيد أبعادنا . إن الفلسفات التي توجه عالمنا ، 'ولدت في عصر الأبعاد العلمية المطلقة . اما معارفنا الفعلية فلا تجيز سوى فكرة أبعاد نسبية . قال لعاذر بيكل : 'والدكاء هو قدرتنا على ان لا نسير الى نهاية الشوط في تفكيرنا ، كي نظل مؤمنين بالحقيقة الراقعة' .

وحدها الفكرة التقريبية تولد الواقع <sup>(٢)</sup> .

موقف من الآلية

حتى القوى المادية ، في سيرها الاعمى ، تظهر حدها المعياري الخاص . لذلك غير 'مجدد' ان نبتغي قلب الكنيك . لقد انتهى عصر دولايب المغزل ، وان الحلم بمحضارة حرة 'فئة' حلم 'عقيم' . الآلة ليست خبيثة إلا في وسيلة استعمالها الحالي . علينا أن نرضى بمصنعاتنا حتى لو رفضنا مضارها . ان الشاحنة التي يقودها السائق

(١) راجع هذا الصدد : المشكلات الماورائية الكبرى ، ترجمة : نهاد رضا .

(٢) إن علم اليوم ينفون اسسه وينكر مكتسباته الخاصة إذ يسمح بأن يوصف في خدمة إرهابية الدولة ، وأكبر القوة . أما حزاؤه واعبائهم فيها انه لا يشع إذ ذاك ، في عالم تحريدي ، سوى وسائل تهديم أو استبعاد . ولكن عندما يبلغ الحد ، لمن العلم سيفيد التمرد الفردي . إن هذه الضرورة الزهية ستشير الى الاعتلاف الحاسم .

ليل نهار ، لا تشين هذا الاخير الذي يعرفها بناتها ، ويستغدها بحب وفعالية .  
والشطط الحقيقي وغير الانساني يمكن في تقسيم العمل . ولا يحسن من فرط  
الشطط ، سيأتي يوم ستقوم فيه آلات ذات مائة عملية ، يقودها انسان واحد ،  
... ستقوم بصنع غرض واحد . فيكون هذا الانسان قد وجد جزئياً ،  
وعلى مرتبة مختلفة ، قوة الخلق التي كان يملكها على صعيد الصناعة الحرفية .  
وإذ ذاك يقترب المنتج الغفل من الخالق . طبعا ليس مؤجداً أن الشطط<sup>(١)</sup>  
الصناعي سيسير في هذا الدرب . ولكنه يدل منذ الآن ، بسيره ، على ضرورة  
الاعتدال ، ويولد التفكير القادر على تنظيم هذا الاعتدال . فلما ان قبة الحد  
هذه ستراعى ، أو أن الشطط المعاصر ان يجد قاعدته وسكينة إلا في التدوير  
الكلي .

#### الاعتدال ومتناسبات الفكر المتورد

إن قانون الاعتدال هذا يسري أيضاً على كل متناقضات الفكر غير المتورد .  
فلا الواقع عقلائي غامض . ولا العقلاني واقعي مآ<sup>(٢)</sup> ، وقد رأينا ذلك بعدد  
السرديات ، الرغبة في الوحدة لا تتطلب فقط أن يكون كل شيء عقلائياً ،  
بل تتطلب أيضاً أن لا يضحى بالعقلاني . لا يجوز لنا ان نقول ان ما من  
شيء ذو معنى ، لأننا نؤكد بذلك قيمة مقررته بحدس ... ، ولا ان كل شيء  
ذو معنى ، لأن كلمة "كل" ليس لها مدلول بالقيمة الميتافيزيقية العقلاني ،  
وهذا بدوره يمنع الأول حدثه المعياري . أخيراً لغة شيء ذو معنى ، ولما ان  
نحصل عليه من الالة معنى .

كذلك ، لا يجوز لنا ان نقول ان الكينونة هي فقط في مستوى الجوهر  
أين نلقب الجوهر لأن لم يكن في مستوى الوجود والضرورة لا معنى له  
يجوز لنا ان نقول ان الكينونة ليست سوى وجود . فهو متداول على الدوام ،

(١) الشطط : اوزة الحد .

(٢) أي : اسأله ما هو وجوده ، ولا بأس ما هو ، من ذو هو .

لا يسعه أن يكون<sup>(١)</sup> ، إذ لا بدء من بداية . لا يمكن الشعور بالكينونة إلا في الصيرورة ، وهذه ليست شيئاً بلا الكينونة . العالم ليس في استقرار بحت ، ولكنه ليس حركة فقط . أنه حركة واستقرار . فالجدلية التاريخية مثلاً لا تناسب انسياً مطلقاً نحو قيمة مجهولة . لأنها تدور حول الحد ، القبة الأولى . مع ذلك ، كانت هيراقليطس ، مبتدع التاريخ ، يعطي حداً لهذا الانسياح الدائم . وكان يرمز الى هذا الحد بـ «نيزيس» ، ربة الاعتدال ، وهي شؤم على المفرطين . انت تأملاً يعتزم أخذ تناقضات التمرد المعاصرة بعين الاعتبار ، عليه ان يستنزل إلهامه من هذه الربة .

#### توضيح التناقضات الاخلاقية

والتناقضات الأخلاقية تشرع هي ايضاً بالتوضيح على ضوء هذه القبة الوسيطة . فلا يمكن فصل القضية عن الواقع من غير أن نصبح مصدر شر . ولا يمكنها ايضاً أن تتوحد مع الواقع توحداً ذاتياً مطلقاً من غير أن تتكرر ذاتها . القضية الاخلاقية التي أظهرها التمرد ليست فوق الحياة والتاريخ ، مثلما ليس التاريخ والحياة فوق هذه القبة . والحقيقة انها لا تتجسد في التاريخ إلا عندما 'يضحني' انسان ما بحياته من أجلها . ان الحضارة العنقوية والبورجوازية تقترض أن القبة فوق التاريخ ، واذ ذاك تبني فضيلتها الصورية تعبة كريمة . أما ثورة القرن العشرين فتقرر بأن القيم بمنزلة بمحركة التاريخ ، وببرر عقلها التاريخي تسمية جديدة .

#### الواقعية والاحلاق

إن الاعتدال<sup>(٢)</sup> إزاء هذا الاختلال يبين لنا أن لا بدء من قسط من الواقعية لكن احلاق : فالقضية الخالصة تماماً قتالة ، ... وان لا بدء من قسط من الاحلاق لكل واقعية : فالكلية قتالة ايضاً .

(١) اللهم هذه الكلمة ، علينا ان نلاحظ ان دأو بير يبين الوجود والكينونة .

(٢) ملازمة الحد - الاعتدال - الحد المياري .

لذلك فالهذر الانساني ليس اكثر صحة من الاستفزاز الكلابي . اخيراً ليس الانسان مذنباً قاصداً : فهو لم يبدأ التاريخ ، ... ولا هو يريه قاصداً : لأنه يواصل التاريخ . الذين يتغفون هذا الحد ويؤكّدون براءة الانسان التامة ، ينتهون إلى سورة الإنم النهائي .

التنرد ، بالعكس ، يضعنا على دوبر إثم محسوب . وأمله الوحيد - ولكنه أمل لا يقهر - يتجسد أخيراً في القتل الأمراء .

#### فردانية جديدة

على هذا الحد ، وبمفهم مفارقة عجيبة ، 'يعرف' شعار ' نحن موجودون ' فردانية جديدة . ' نحن موجودون ' أمام التاريخ ، وعلى التاريخ ان يحسب حساب هذا الشعار ... الذي يتحم عليه بدوره أن يتوسط في التساريخ . إنني بحاجة إلى الآخرين ، وهؤلاء يحتاجون إليّ وإلى كل فرد . كل من جماعي ، كل مجتمع ، يقتضي قاعدة سلوك . وما الفرد ، بدون هذه القاعدة ، سوى غريب يروح تحت عبء جماعة مناوئة . ولكن المجتمع واللة واحدة بضلان اذا أنكرا شعار ' نحن موجودون ' . أنا وحدي ، بوجه مني ، أذعر الكرامة المشتركة التي لا يجوز لي ان أحط من قدرها في شخصي ، ولا في الآخرين .

ليست هذه الفردانية قسماً ، وانما هي كفاف دائم ، ومرحة لا مثيل لها أحياناً ، في ذروة الرأفة الأنومة .

#### ٢ - فكرة الفضي

##### الحركة الناعية والثورة المنبئة

أما ما يخص معرفة هل أن مثل هذا الموقف يجد تعبيره السياسي في العالم المعاصر ، فمن السهل ان نذكر وهذا ليس سوى مثال ما يسمى تقليدياً

(١) لفكرة الظهيرة . فكرة الفضي . فكرة الحدود ...

بالحركة النقابية الثورية . هذه الحركة النقابية بالذات أليست غير ناجحة ؟ الجواب بسيط : لأنها هي التي حسنت الوضع العمالي تحسباً عجبياً ، في مدى قرن . وخففت ساعات العمل من ست عشرة ساعة في اليوم الى أربعين ساعة في الاسبوع . أما « الامبراطورية » العقائدية فسارت بالاشتراكية القهرى ، وهدمت معظم مكاسب الحركة النقابية . ذلك ان الحركة النقابية كانت تنطلق من الأساس المحسوس ، من المهنة ، التي هي على الصعيد الاقتصادي بمثابة « الناحية » على الصعيد السياسي : الخلية الحية التي عليها يُبنى الجهاز العضوي ، بينما تنطلق الثورة المستبدة من العقيدة وتحشر فيها الواقع عنوةً وكرهاً . الحركة النقابية ، كالناحية ، هي إنكار المركزية الديوانية التجريدية ، لصالح الواقع<sup>١١</sup> . أما ثورة القرن العشرين فتدعي الاعتماد على الاقتصاد ، ولكنها قبل كل شيء سياسة وعقيدة . فلا يسعها ، وظيفياً ، ان تتفادى الارهاب والعنف الممارسين على الواقع . انها ، رغم زاعمها ، تنطلق من المطلق كي 'تكتيف' الواقع . أما التمرّد فيستند الى الواقع كي يسير في كفاح دائم نحو الحقيقة . إن ثورة القرن العشرين تحاول ان تتمّ من أعلى الى أسفل ، والتمرّد من أسفل الى أعلى . ليس التمرّد رومانسية ، وانما هو تحزّب للواقعية الحقة . فثان كان يريد ثورة ، فلانما يريد لها لصالح الحياة لا ضدها . لذلك يعتمد أولاً على اكثر الرقاع محسوسة ، كاللهة والقوى ، حيث تشف الكينونة ، ويشف قلب الأشياء والبشر النابض . وعلى السياسة ، في اعتقاده ، ان تخضع لهذه الحقائق . أخيراً ، حينما يسير قدماً بالتاريخ ويخفف العذاب عن البشر ، يفعل ذلك من غير عنف ، وفي شتى الاوضاع السياسية<sup>١٢</sup> .

(١) جيمس تولاب ، لا تمرّد ، الكائنات البشرية إلا في نصف الرمز الطبيعية ٥ .

(٢) ان المجتمع ، المبادئ الحالية بين ما في المعارضات السياسية المس من هضمت وخطر . فأبدى دوراً ، بناءً ، تمّ في هذه المجتمعات من الخمسة الدستورية وعحق الامتياز من تمتع عادل . ان أولاً ، له دوره الاثارة المقلوبة ، ذات القنناء على الخلية الحية واسعة لال المديرات الدليل .

## الدهار المشرق

ولكن هذا المثال أبعد مطلقاً مما يبدو . في يوم غابت الثورة المستبعدة الفكر الثقافي المتحرر ، وقد الفكر الثوري في ذاته معدلاً لا يسعه العلم مان منه دون أن ينحط ويتردى . هذا المعدل ، هذا المعدل ، هذا الفكر الذي ينظم ، هو نفسه الذي يحرك السُّنة الطويلة لما يجوز تسميته بالفكر المشرق ، وحيث مند عهد الاغريق جرى دائماً التوفيق بين الطبيعة والحيروة . ان تاريخ «الألمنة الأولى» حيث كافحت الاشتراكية الألمانية فكر الفرنسيين والاسبانيين والبطالين المتحررين... هو تاريخ التنازعات بين العقائدية الألمانية والفكر المتوسطي<sup>(١)</sup> .

«الناحية»<sup>(٢)</sup> ضد الدولة ، المجتمع المحسوس ضد المجتمع المطلق ، الحربة المرونة ضد الطغيان المطلق ، الف تانية العبرية ، Individualism German... أخيراً ضد استعمار الج... اهير... هي اذن التناقضات التي تميز ، مرة أخرى أيضاً ، عن المعارضة الطويلة القائمة بين الاتدال والشلط ، والتي تترك تاريخ الغرب منذ العالم القديم . امل الصراع العميق في هذا القرن لاية... بين المسفات التاريخية الألمانية والسياسة المسيحية المشاركتين في الإنم بوجه ما... بقدر ما يقوم بين الاحلام الألمانية... والسنة المتوحشة ، بين فورات الترافقة القائمة... وبأس الرجولة ، بين الشوق الذي يتفاد بالمعرفة والمطامعة... والشجاعة التي يزيد بها سباق الحياة صلابة وبصيرة ، بين التاريخ أخيراً... والطبيعة . ولكن العقائدية الألمانية هي في هذا وارثة . وفيها يتم عشرون قرناً من الصراع العقيم ضد الطبيعة باسم إله تاريخي أولاً ، ونامس التاريخ المؤله بعدد .

المسيحية بين التاريخ والطبيعة

ليس من شك في ان المسيحية لم تتمكن من الفوز بكثلكتها إلا بعد ما

- (١) فكر البلدان الواقعة على ضفاف البحر المتوسط .
- راجع رسالة ماركس إلى انغر ( ٢٠ فبر ١٨٧٠ ) ، «تمتبا انتصار روسيا على فرنسا . «إن تفوق البروليتاريا الألمانية على البروليتاريا الفرنسية سيحدثون في الوقت نفسه تفوق بطريرنا على نظرية برودون» .
- (٢) من التفاسير الادارية .



تمثلت ما تستطيع مثله من الفكر الإغريقي . ولكن عندما بددت الكنيسة تراثها المتوسطي ، ركزت على التاريخ... على حساب الطبيعة ، وغلبت الفن الغوطي على الفن المستوحى من الرومان . كما طالبت بالسلطة الدنيوية والحركة التاريخية ، مطالبة متزايدة ، محطمة بذلك حداً قائماً في ذاتها . حيناً لا تعود الطبيعة موضع تأمل وإعجاب ، لا يعود في وسعها ان تكون بعدئذ سوى موضع عمل يسمى الى تحويلها .

إن هذه الاتجاهات . لا مفاهيم الوساطة التي كان في وسعها ان تكون القوة الحقيقية للسبعية - ... تقول : إن هذه الاتجاهات هي التي 'يكتب لها الظفر في الأزمنة الحديثة ، ضد المسيحية بالذات ، وذلك بحكم ارتداد صحيح في الأشياء .

والحقبة فليطرد الله من هذا العالم التاريخي ، واذ ذاك تولد العقائدية الألمانية حيث لا يعود العمل كالأوقاتنا ، بل غزواً محضاً ، أي : طغياناً .

انتصار السديم الموت

ولكن الاستبدادية التاريخية ، رغم ما حققت من انتصارات ، ما فترت قط<sup>١</sup> عن الاصطدام بمطلب الطبيعة البشرية لا 'يقهر ، يحتفظ بسره الحوض' المتوسط حيث العبقرية صِنة المعرفة الشاقة . إن النظرات المتمردة ، نظرات 'الكومون' ، أو الحركة النقابية الثورية ، لم تفر عن المناداة بهذا المطلب في وجه العدمية البروجوازية كما في وجه الاشتراكية المستبدة . والنظرة المستبدة ، بفضل ثلاث حروب وبفضل البطش بصفوة من المتمردين ، قد أغرقت هذه السنة المتمردة . ولكن هذا الانتصار الحقير موقت ، وما زالت المعركة مستمرة .

ما وجدت أوروبا قط<sup>٢</sup> الا في هذا الصراع بين النور والديجور . وما جردت إلا بتخليها عن هذا النضال ، كسفة النهار بالليل . إن تحطيم هذا التوازن يأتي اليوم بأحسن ثمارة<sup>٣</sup> . فبعد ما حررنا من وساطاتنا وبعد ما 'عزلنا عن الجبال

(١) للنلاحظ السخرية الكاذبة في هذه الجملة (المرب) .

الطبيعي، ها نحن أولاء قد أصبحنا ثانية في عالم العهد القديم، Ancien Testament  
محصورين بين فراغة قسا وإله حقود .

الطبعة أمام التاريخ ثانية

في غمرة البؤس المشترك ، نبحث المطلب القديم حينئذ ، وتنتصب  
الطبيعة ثانية أمام التاريخ . طبعاً ليس المقصود ازدهار أي شيء ، ولا الإشادة  
بمحاضرة ضد أخرى، بل أن نقول فقط انه ثمة فكرة لم يعد في وسع العالم اليوم  
أن يستغني عنها أكثر مما فعل .

صحيح ان لدى الشعب الروسي ما يلزم لإعطاء قوة تضحية لأوروبا ، وان  
لدى اميركا قوة بناء لا بد منها . ولكن شباب العالم موجود دائماً حول نفس  
الضفاف . لقد رمي بنا في أوروبا سافلة، يموت فيها أكثر الشعوب صافاً، محروماً  
من الجمال والصدقة ،... ولكننا لا تزال نحن معاشر الاوروبيين نتهل من نفس  
المعرفة ونعترف من نفس المعين .

إن الفكرة النيرة ، المحاضرة ذات الوجع ، زقت انبلاج فجرها في صميم  
الليل الاوروبي . ولكننا منذ الآن تنير دروب السيادة الحقة .

ماذا على مسرح ثقافتنا ،

تقوم السيادة الحقة على الانصاف من أحكام العذر الاعتراف ، وأولاً من  
أشدّها وأسرّ . وهو الذي يدعي ان الانسان المتجر من الشغل 'مزم' ،  
بالصرف بموجب حكمه غفيرة . صحيح ان في لوحة الحد قد ذبحوا قداسة  
حينما تقنع بجنون نيشه . واجمعين النمل النفسي الذي يعرض نفسه على مسرح  
ثقافتنا ، أما رال دوار الشغل ، - روح المستحيل لا يبارح حرقته أبداً ذلك  
الذي أصطلى به مرة واحدة على الأقل! هل كان لروميئوس في يوم من الايام  
وجهه جيد أو وجهه نائب عام؟ كلا. ان جنارتنا تدوم في مجاعة نفوس غريبة  
أو حادة ، أمية شيم ، باهقين .. ديب فيهم الموم . لقد ذبح إبليس أيضاً مع  
الله ، ومن ربهنا ربح "يدوان حقير لم يعد يرى حق، أبى يسر .

## الشطط والاعتدال في ١٩٥٠

الشطط في عام ١٩٥٠ راحة دائماً ، ومهنة أحياناً . أما الاعتدال فتوتره محض . ليس من شك في أنه يبسم ، فيستخف به المحتلجون<sup>(١)</sup> المنصرفون إلى الرؤى المضنية . ولكن هذه الابتسامة تتألق في قمة جهدٍ لا نهاية له : إنها قوة إضافية . فإذا لم يعد لهؤلاء الأوروبيين الوضعيين الذين يُبدون لنا وجهاً شجاعاً ،... نقول : إذا لم يعد لهؤلاء القدرة على الابتسام ، فلماذا يطمحون إلى تقديم اختلاجاتهم اليائسة على أنها أنفوذج تفوق ؟

## التمرد والاعتدال

تفنى حماقة الشطط الحقيقية ... أو توجد حدّها المعاياري الخاص . إنها لا 'تميت' الآخرين لتعقلق لنفسها حجة . بل في غمرة التمزق الأقصى تجدها الذي عنده تضحي بذاتها عند اللزوم ، مثل كالياف . ليس الاعتدال نقيض التمرد . فالتمرد هو الاعتدال ، وهو الذي يأمر به (ينظمه ؟) ويدافع عنه ويبعثه ثانية<sup>٢</sup> خلال التاريخ وبلبلاته . إن أصل هذه القيمة نفسه يؤكد لنا أنها لا يمكن أن تكون إلا همزة . لا يمكن أن يعاش الاعتدال الناقص عن التمرد إلا بالتمرد . إنه نزاع دائم ، يولده العقل ويضبطه على الدوام . وهو لا يتغلب على المستحيل ولا على المطلق ، بل يتوازن معها . مهما نفعل فسيحتفظ الشطط دائماً بمكانه أزاء العزلة . إننا جميعاً نحمل في ذاتنا سجوننا وجرائمنا وفسادنا . ولكن ليست مهمتنا أن نطلق لها العنان خلال العالم ، بل أن نحاربها في ذاتنا وفي الآخرين . إن التمرد ، إن إرادة عدم إتاحة العنق التي تحدث عنها مورييس باريس<sup>(٣)</sup> ، ما زالت اليوم في أساس هذا الكفاح ، أنه ، وهو مصدر الصور وينبوع حياة حقّة ، يدعينا في حركة التاريخ الفائرة غير المتبلورة .

١) المحتلجون هم طائفة دينية متعصبة وجدت في القرن الثامن عشر (الحرب) .

٢) راجع : تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين : ص ( ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،

٣٣ ) . منشورات هويدات - المغرب .

## ما وراء العدمية<sup>(١)</sup>

### المطلق ومثوى الانسان

هناك إذن عمل وفكر ممكنين للإنسان عند المستوى المتوسط ، عند مستواه<sup>(٢)</sup>. كل مشروع أكثر طموحاً يتكشف عن التناقض ، لا يُبلغ المطلق ، وخاصة لا يُصنع تحليل التاريخ . السياسة ليست الدين ، وإلا فاتها مباحث<sup>(٣)</sup>. كيف يُعرف المجتمع المطلق ؟ لعل كل فرد يسمى وراء هذا المطلق ، من أجل الجميع . ولكن المجتمع والسياسة لا يقع على عاتقهما إلا تنظيم أمور الجميع ، كي يتنهي لكل واحد فراغ وحرية هذا السمي المشترك . وإذ ذلك لا يجوز عبادة التاريخ . فهو ليس سوى مناسبة علينا أن نجعلها مثمرة بفضل تمرده يقظ .

### زمان التاريخ وزمان الحصاد

كتب الشاعر رنيه شار على وجه رائع فقال : « وسواس الحصاد واللامبالاة إزاء التاريخ ... هما طرفا قوسي » . فإذا لم يكن زمان التاريخ

(١) راجع : « تاريخ الأدب الفرنسي في القرن العشرين » ، تحت عنوان : « أليز لافو ، من العدمية إلى الانسانية » ، ص ٣٧١ - ٣٧٤

(٢) للتذكير بأسكال وسواطره .

(٣) محاكم التفتيش في حالة الدين . أي إن السياسة إذا أصبحت ذات نظرة مطلقة كالدين لأنها تعتمد على اللع والمباحث - المغرب -

من زمان الحصاد ، فليس التاريخ في الحقيقة سوى طيف عابر قاسٍ لا نصب فيه للانسان . من يَهَبُ نفسه لهذا التاريخ ، لا يهب نفسه لشيء ، وبدوره ليس شيئاً . أما من يهب نفسه لأيام حياته ، للبيت الذي عنه يدافع ، لكرامة الاحياء ، فانه يهب نفسه للأرض ويتلقى منها الحصاد الذي يُزرع ويغذي ثأية. أخيراً ، يسير 'قدماء' بالتاريخ ، .. أولئك الذين يعرفون ان يتمددوا أيضاً ضده في اللحظة المطلوبة . ان ذلك يستازم توتراً لا نهاية له ، ويقتضي السكينة الجذوة التي يتحدث عنها نفس' الشاعر . ولكن الحياة الحقة قائمة في صميم هذا التمزق . انهـ . ا هذا التمزق بالذات ، الفكر' المحوّم فوق براكين النور ، الكتلف' بالإنصاف ، تشدّد الاعتدال المنهك .

إن ما ينهاه صده الى سمعنا عند تخوم هذه المغامرة الطويلة المتردة ، ليست عبارات التفاضل التي نحن في غنى عنها في منتهى شقاؤنا ، وانما اقول " جريئة وبصيرة هي نفس الحاصل لآء ما هو صعب المثال .

الضعيف النسي للشقاء

ما من حكمة نستطيع اليوم ان نطمح الى منح المزيد. ان التردد يصطدم بالشر على الدوام ، واعتباراً منه ليس له إلا أن يشب وثبة جديدة . في وسع الانسان ان يضبط في ذاته كل ما ينبغي له ان يُضبط . وعليه ان يُصلح كل ما يمكن اصلاحه في الخلق . ولكن بعدئذ سيظل الاطفال يموتون بلا مبرر ، وحتى في المجتمع الكامل . لا يستطيع الانسان ، حتى لو بذل قصارى جهده ، سوى ان يسعى الى تخفيف شقاء العالم تخفيفاً حسابياً نسبياً . ولكن الظلم والعذاب سيديان . ومهما كانا محدودين فسيظلان فضيحة . وسيتبقى 'لماذا؟' (١) ديتري كارامازوف تتردد أصداؤها في كل مكان . ولن يموت الفن والتمرد إلا مع آخر انسان .

ثمة شر آخر

ثمة شر ، ولا شك ، يكدسه البشر في غمرة تعطشهم المسعور الى الوحدة .

(١) أي سيقى الاحتجاج .

ولكن ثمة شر آخر هو في اساس هذه الحركة الختلفة . إزاء هذا الشر ، إزاء الموت ، يطالب الانسان في أعماق ذاته بالمعالة .

المسيحية التاريخية لم ترد على هذا الاحتجاج ضد الشر إلا بالتبشير بالمكوت ، ثم بالخلود الذي يتطلب الايمان . ولكن العذاب يستنفذ الأمل ويوهن الايمان . وإذ ذاك يظل وحيداً ، من غير تفسير . ان الجماهير اللاحقة التوبة من العذاب والموت ، جماهير " من غير إله . ومكانا التالي الى جانبها ، بعيداً عن الاستنارة القداس والجدد . ان المسيحية التاريخية تربى الشخص من الشر والقتل الى ما بعد التاريخ ، مع أنها يُكابدان في التاريخ .

والمادية المعاصرة تعتمد ايضاً ان " ترة على جميع الأسئلة . ولكنها وهي خادمة التاريخ ، توسع ميدان القتل التاريخي ، وتتركه في الوقت نفسه من غير تبرير ، اللهم إلا في المستقبل الذي يتطلب أيضاً الايمان .

في كلتا الحالتين ، لا بد من الانتظار ؛ وخلال هذا الوقت يظل الموت ينزل بالبريء . منذ حشرين قرناً ومجموع الشر لم ينخفض في العالم ، ولم يتحقق أي ظهور ، الهبـ...اً كان أم ثورياً . ثمة ظلم يظل ملتصقاً بكل عذاب ، حتى بأحق عذاب ، في نخر البشر . بان صمت بروميتيوس الطويل امام الغوى التي تنقل كاهله ، ما زال يصرخ احتجاجاً . وان بروميتيوس ، في غضون ذلك رأى البشر ينقلبون عليه أيضاً ويسخرون منه . لعله وهو المحصور بين الشر البشري والمصير ، بين الارهاب والتعسف ، سوى قوة تمرده التي ينقذ من القتل هذا الذي ما زال انقاذه ممكناً ، من غير ان يستسلم لكهوية التعديف .

#### أريمية التمرد المبنية

إذ ذاك ندرك ان التمرد لا يستلجم الاستغناء عن حبٍ غريب . فالذين لا يجدون طمأنينتهم لا في الله ولا في التاريخ ، يلزمون أنفسهم بالعيش من أجل أولئك الذين ، مثاهم ، لا يقدرون على العيش ، ونعني المستهينين . حينئذ "تتوج" اصفى حردكة تمرد بصرخة كارامازوف الممزقة للقلب : إذا لم يُنقذ

الجميع فما جدوى خلاص واحد فقط .

على هذا الاساس ثمة محكومون كاثوليكيون في سجون اسبانيا يرفضون اليوم تناول القربان لأث كهنه النظام (الفرنكوي) جعلوه اجبارياً في بعض السجون. أولئك أيضاً، الشهود الوحيدون على البراءة المذبحة، يرفضون الخلاص إذا كان ثمة الظلم والاضطهاد .

هذه الاريجية المجنونة هي أريجية التمرد الذي يمنح طاقة حبه دون إبطاء ، ويرفض الجور دون إرجاء . ان عزته في ألا يحسب شيئاً ، وأن يوزع كل شيء في الحياة الدنيا ولاخوته الأحياء. بهذه الصورة 'يفيض على الأجيال الآتية. الاريجية الحقة نحو المستقبل هي في منح كل شيء في الحاضر .

تمرد جديد عثم

'يثبت التمرد بذلك انه حركة الحياة بالذات ، وان لا سبيل لنا إلى نسيانه دون التخلي عن الحياة. إن أصغر صرخة من صرخاته تطالنا كل مرة بكينونة. إنه اذت حب وعطاء ، أو ليس شيئاً من الأشياء . الثورة بلا عزة ، ثورة الحسبان التي في تفضيلها انساناً تجريبياً على الانسان الحقيقي تنكسر الكينونة مرات ومرات ،.... تقول ان هذه الثورة 'تحل حقاً الغل' محل الحب . ما ان ينسى التمرد أصله ويستسلم لعدوى الغل ، حتى ينكر الحياة ، ويجزي الى التدمير ، ويطالنا بهؤلاء المتمردين الوضيعين الساخرين ، ذرية من العبيد ، الذين يعرضون أنفسهم أخيراً اليوم لاية عبودية كانت ، في جميع اسواق اوروبا . انه لا يعود تمرداً ولا ثورة ، بل حقداً وطغياناً . واذ ذاك ، حينما تصبح الثورة هذه الآلية القائلة المفرطة باسم القوة والتاريخ ،... ثمة تمرد جديد يصبح مقدساً باسم الاعتدال والحياة . اتنا في هذا الحد الاخير . ففي نهاية هذه الظلمات ، ثمة نور يحتم مع ذلك ، نستشفه منذ الآن . وما علينا الا أن نكافح كما يوجد .

فيا وراء العدمية ، نحن جميعاً بين الاطلال نعد نهضة . ولكن لا تعرف ذلك إلا قلة .

### البيان التأملون

والحقيقة ان التبرد منذ الآن، دون ان يطسح الى حل كل شيء ، في وسعه  
المجاهة على الأقل . اعتباراً من هذه اللحظة ينساب الضمى على حركة التاريخ  
ذاتها . وحول هذا السعير الملتهم تراقص أطراف متلاطمة ثم تختفي ، فينتف  
بعض العميان لامسين جفونهم بأصابعهم : هو ذا التاريخ . انت الاوروبيين  
المنصرفين الى الاطراف ، قد أهملوا النقطة الثابتة الساطعة . انهم يذنون الحاضر  
في سبيل المستقبل ، وغذاء الانسان في سبيل سراب السلطان ، وبؤس الضراحي  
من أجل مدينة فاضلة ، والعدالة اليرمية من أجل أرض موعودة وهمية .  
ويأسون من حرية الاشخاص .. ويحلمون بحرية النوع ( البشري ) الغريبة .  
ويأبون الموت المنفرد .. ويسمون خلوداً احتضاراً جماعياً عجيباً . انهم لم يمدوا  
يؤمنون بما هو موجود ، وبالعالم ، وبالانسان الحي .

إن صرّ أوروبا يكمن في انها لم تعد تحب الحياة . فقد اعتقد هيمنان أن حب  
يوم واحد في الحياة ، معناه تبرير قرون الاضطهاد . لذلك أرادوا طمس الفرح  
في لوحة العالم ، وارجاءه الى ما بعد . ان عدم تحملهم الحدود ، ورفضهم  
كينونتهم المزدوجة ، ويأسهم من كونهم بشراً .. كل هذه الاشياء رمت بهم  
أخيراً في شطط غير انساني . واذا أنكروا سمو الحياة الحقيقية ، نحتهم عليهم  
تأكيد سموهم الخاص . ولعدم وجود ما هو أفضل ، آلهوا انفسهم .. فابتدا  
شقائهم : ان هذه الآلهة قد هيمت أبصارها .

اما كاليانيف واخوته في العالم أجمع ، فيرفضون تأليه انفسهم ، لأنهم يذنون  
القدرة اللامتناهية ، القدرة على إماتة الآخرين . انهم يعطفون ، ويقدمون لنا  
كأنموذج ، القاعدة الوحيدة التي تحمل مسحة الاصاله اليوم : تعلم الحياة والموت ،  
ورفضهم ان يكونوا آلهة .. ليكونوا بشراً .

### اوروا الجديدة

وههكذا في ضمى الفكر ، يرفض التبرد الالوهية كي يسهم في النضال



والمصير المشتركين . سنغتر ايطاليا<sup>(١)</sup> ، الارض الوفية ، والفكرة الجريئة  
الفتوة ، والعمل الواعي ، وأريحية العارف . في النور ، يظل العالم حبنا الاول  
والاخير . فنحن واخوتنا نعيش تحت سماء واحدة ، والعدالة حية . اذ ذاك  
يولد الفرح الغريب الذي يساعدنا على الحياة والموت ، الفرح الذي نرفض بعد  
اليوم تأجيله . فهو على أرض الألم ، الزؤان الدائم ، القوت المر ، الريح العاتية  
الهابة من جهة البحار ، الفجر القديم والجديد . بواسطته وخلال المعارك، سنجد  
روح هذا العصر ، وسنعيد بناء أوروبا لا تستبعد شيئاً :

لا هذا الشبح ، نبتته الذي ، خلال اثني عشر عاماً بعد انهاره ، زحف  
الغرب ليزوره وكأنه الصورة المصقوفة لأسمى درجات وجدانه، ولعدميته...  
ولا بني العدالة الصارم الذي يرقد خطأً في ركن الملحدن في مقبرة  
هاينيت ،...<sup>(٢)</sup>

ولا مومياء الرجل الثوري المؤهلة في تابوتها الزجاجي ،...<sup>(٣)</sup>  
ولا أي شيء مما قدمته عبقرية أوروبا وحيويتها ، في استمرار ، لكبراء  
عصر بانس .

يستطيع الجميع في الحقيقة ان يحيرا ثانية" بجانب ضحايا ١٩٠٥ . ولكن  
شرط أن يفهم انهم يصححون بعضهم بعضاً ، وان ثمة حداً على الارض يوقف  
الجميع . كل واحد يقول للآخر : لست إلماً . وهنا تنتهي الرومانسية<sup>(٤)</sup> .  
في هذه الساعة التي يجب فيها على كل منا أن يشد القوس ليظهر شجاعته

- .....
- ١) إحدى الجزر اليونانية ، مملكة عوليس في القصائد الهوميديية . ومجازاً : الارض  
الأمولة . (الحرب) .
  - ٢) يقصد ماركس المداون في مقبرة هاينيت في لندن . (الحرب)
  - ٣) يقصد لينين .
  - ٤) أي هنا لتتبي الادلاء المتحررة من الحدود .

ثانية ، وليفوز في التاريخ وضده بما يمتلك الآن ، بحصاد حقوله الخليل ، وبجيب هذه الارض العابر ،...

في هذه الساعة التي يولد فيها أخيراً انسان ، يجب ان نترك المعصر وفرواته المراهقة .

هاهي ذي القوس تتقوي ، ويأثر العود أذا . وعند ما يباغ التورز منتباه ، ستندفع انطلاقة ' سهم سوي ، انطلاقة ' نبل هو أملب النبال وأكثرها حرية .

# الفهرست

صفحة	
٧	المقدمة : للبعث والقتل
١٧	الفصل الأول : الانسان المتشرد
٣١	الفصل الثاني : التشرد الماورائي
٣٦	ابناء قابيل
٤٨	الانكار المطلق
٤٩	١ - الاديب ساد
٦٣	٢ - تمرد أهل التظاهر
٧٢	رفض الخلاص
٨١	التأكيد المطلق
٨١	١ - الأوحاد أو الأنا الفردية
٨٥	٢ - نيتشه والعدمية
١٠٥	الشعر المتشرد
١٠٦	١ - لوتريامون والتفاهة
١١٤	٢ - السريالية والثورة
١١٨	أندريه بریتون
١٢٨	العدمية والتاريخ
٣٨١	

مخط

١٣٤

### الفصل الثالث : التمرد التاريخي

١٣٥

التمرد والثورة

١٣٩

تمرد سبارتاكوس

١٤٣

قتل الملوك

١٤٦

١ - الانجيل الجديد

١٥١

٢ - إعدام الملك

١٥٤

٣ - دين الفضيلة

١٥٩

الارهاب

١٦٩

قتل الآلهة

١٧٤

فيثومينولوجيا الذهن

١٨٨

الارهاب الفردي

١٩٠

١ - التخلي عن الفضيلة

١٩٤

٢ - ثلاثة سموسين

١٩٤

بيزاريف

١٩٧

باكونين

٢٠٢

نيتشاپف

٢٠٧

٣ - القتل الرداء

٢١٨

٤ - الشيغالية

٢٢٣

ارهابية الدولة والارهاب اللاعقلاني

٢٣٥

ارهابية الدولة والارهاب العقلاني

٢٣٦

١ - النبوة البورجوازية

٢٣٩

جوزف دي ميستر

٢٤٧	٢ - النبوة الثورية
٢٦٢	٣ - فشل النبوة
٢٨٢	٤ - ملكوت الغايات
٢٩٠	٥ - الشبول والمقاضاة
٣٠٦	التمرد والثورة
٣١٤	الفصل الرابع : التمرد والفن
٣١٤	١ - تمهيد
٣٢١	٢ - الرواية والتمرد
٣٣٣	٣ - التمرد والاسلوب
٣٣٨	٤ - الخلق والثورة
٣٤٥	الفصل الخامس : ضحى الفكر
٣٤٦	التمرد والقتل
٣٥٠	١ - القتل العدمي
٣٥٤	٢ - القتل التاريخي
٣٦٤	ملازمة الحد ومجاوزته
٣٦٤	١ - تمهيد
٣٦٨	٢ - فكرة الضحى
٣٧٤	ما وراء العدمية

ALBERT CAMUS

# L'HOMME RÉVOLTE

Texte traduit en arabe par  
Nouhad Rida

ÉDITIONS OULIDAT  
Beirut - Paris



ما الإنسان المتمرد ؟ انه إنسان يقول : لا . ولئن  
رفض ، فإنه لا يتغلى . فهو أيضاً إنسان يقول : نعم ،  
منذ أول بادرة تصدر عنه . ان العبد الذي أليف تلقي  
الأوامر طيلة حياته يرى فجأة ان الأمر الجديد الصادر  
إليه غير مقبول . فما هو فعوى هذه « اللا » ؟

انها تعني مثلاً « ان الامور استمرت أكثر مما يجب »  
و « انك غاليت في تصرفك » وتعني ايضاً ان « هناك  
حداً يجب ان لا تتخطاه » ...

و « انها مقبولة حتى هذا الحد » ومرفوضة فيما بعده »

فحركة التمرد تستند إذن إلى رفض قاء

يطاق ، وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح

اصح ، إلى اعتقاد المتمرد ان « له الحق كي ا

( الانسان التمر

